العمدة في شرح البردة

تأليف

الإمام العلامة الفقيه المحدّث شيخ الإسلام
أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي
(٩٠٩ - ٩٧٣)

تحقيق وتعليق

راجي عفو مولاه الودود
بسام محمد بارود
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

تقديم

الداعية الإسلامي الحبيب
علي زين العابدين الجفري

تقريظ

الدكتور محمد سليمان فرج

دار الفتح
عمان - الأردن

دار الفقيه للنشر والتوزيع ذ.م.م
الإمارات العربية المتحدة

الناشر

دار الفقيه للنشر والتوزيع ذ.م.م

الإمارات العربية المتحدة
دبي، ص.ب ٨١٤٤١
هاتف : ٢٧٣٧٧٧٩ (٤ ٠٠٩٧١)
فاكس : ٢٧٢٧٧٢٠ (٤ ٠٠٩٧١)
البريد الإلكتروني : sales@alfaqih.com
الموقع على شبكة الإنترنت : www.alfaqih.com

دار الفتح للدراسات والنشر

عمّان ، العبدلي ، عمارة جوهرة القدس ، ط B2
ص.ب ١٨٣٤٧٩ ، عمّان ١١١١٨ ، الأردن
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٩٩ (٦ ٠٠٩٦٢)
البريد الإلكتروني : info@alfathonline.com
الموقع على شبكة الإنترنت : http://www.alfathonline.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي سابق من الناشر .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم الداعية الإسلامي الحبيب علي زين العابدين الجفري

الأستاذ المحاضر في دار المصطفى بتريم الغناء

زاد الله به نفع البلاد والعباد

الحمد لله الولي الحميد المبدئ المعيد الكريم الرشيد والصلاة والسلام على خلاصة خاصة الحق من خلقه وسراج فلك الكمال وأُفقه، سيدنا محمد نور الظلم، الذي في حبه جرت الدموع كالديم وهاجت الأرواح بذكر ذي سَلَمِ، وعلى آله وصحبه وتابعيهم على القدم.

وبعد . . . . فإنَّ الله لما أحبَّ سيِّدَنا محمداً - ﷺ وآله - حُبّاً لم ينل مثله محبوب ولم يرق إلى مخدعه مقرب، جعل سعادة الخلق التي أصلها محبته تعالى لهم ومحبتهم له منوطة بمحبة هذا الحبيب ولهذا لا يكمل الإيمان إلا بكمالها. روى الإمام البخاري في باب حب الرسول ﷺ وآله، من كتاب الإيمان من صحيحه بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وآله، قال:

«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»[1].

وروى بسنده إلى أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[2].

وحديث عمر رضي الله عنه شاهد على هذا وهو ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه بسنده إلى عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلا مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «الآنَ يَا عُمَرُ».

فعمر رضي الله عنه جاهد وهاجر وصبر وقام الليل وصام النهار لكن إيمانه لم يكمل « لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». . إلا بعد اكتمال حبه للنبي ﷺ وآله، «الآنَ يَا عُمَرُ». وهنا تتضح صلة المحبة بالاتِّباع وهي أن الاتباع لا تثمر شجرته إلا إذا غرست على أرض المحبة، والمحبة حال في القلب يستميل كليات

---

(١) : صحيح البخاري: الجزء الأول ٢ - كتاب الإيمان ٧ - حب الرسول ﷺ من الإيمان. الحديث رقم: ١٤.

(٢) : صحيح البخاري: الجزء الأول ٢ - كتاب الإيمان ٧ - حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان. الحديث رقم: ١٥.

الإنسان إلى المحبوب تباعاً كلما ازدادت، ومن كمال عبودية سيدنا محمد ﷺ لربه أن المحب كلما ازداد معرفة بهذه الذات الشريفة كلما ازداد حباً لها، وكلما ازداد حباً لها ازداد معرفة بها، ومع ازدياد المحبة والمعرفة تقوى الرابطة ويحصل الاتباع الأكمل الذي يملأ كليات المتَّبِع فينال حب الله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

من هنا يبرز فضل الصحب الكرام رضوان الله عليهم فهم أكثر من عرفه من الناس وهم بالتالي أكثر من ارتبط به ﷺ: «ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ﷺ»[(١)].

ولهذا جعل الله منْزلتهم مربوطة بمحبتهم له لا بمجرد الاتباع: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي». النسبة إليه بالصحبة. «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ»[(٢)]. فالنسبة إليه بالصحبة: معرفة ومحبة. والاتباع

---

(١): ذكر ابن هشام في سيرته قصة زيد بن الدثنة (وقصة استشهاده قال: وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له، يقال له نسطاس إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه. واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب؛ فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ﷺ؛ ثم قتله نسطاس. انظر: السيرة النبوية لابن هشام: المجلد الرابع. ذكر يوم الرجيع في سنة ثلاث. من قوة إيمان ابن الدثنة.

(٢): رواه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

الذي لا يقوم على المعرفة والمحبة لا يوصل صاحبه إلى مرتبة من كان دونه في الاتباع ولكن اتباعه قام على أصل المعرفة، المحبة «مَا بَلَغَ مُدّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ».

جبل من الاتباع ممن هو أدنى في الحب والمعرفة لا يوازي كفين أو كفاً من الاتباع ممن هو أعلى في الحب والمعرفة.

ومن المعلوم لدى أهل السنة أن عامة الصحابة أفضل ممن هم أكثر عملاً واتباعاً ممن يليهم ولم ينل رتبة الصحبة.

والمعرفة ثمرة تفكر العقل وذوق القلب، والمحبة أثر ذلك على الروح، فتفكر العقل في سيرة الحبيب وشمائله وخصائصه صلى الله عليه وآله وسلم إذا صاحَبه تذوُّقُ القلب لما فيها أثمر للروح ميلاً إلى هذا الحبيب وشوقاً إليه ﷺ. وإذا كان ذلك قراءةً لنظمٍ البديع ارتبط بجمال العبارة وأدبها هزَّ الوجدان والشعور وأضرم نار الشوق في القلب، وإذا كان استماعاً بصوت شجي ونغمة رائقة هيج سواكن الفؤاد، وارتقى المحب في معارج الوداد، ولهذا كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يحب أن يستنشد رواة الشعر من أصحابه حتى إنه ﷺ استنشد مائة بيت لأمية ابن أبي الصلت(١). ودعا لحسان رضي الله عنه بأن يؤيده الله بروح القدس. وكان حسان

(١) : روى الطبراني في الكبير بسنده عن عمرو بن الشريد عن أبيه رضي الله عنه قال: أردفني النبي ﷺ خلفه فقال: "أما تروي لأمية بن أبي الصلت شيئاً؟". قلت: بلى. قال: "هيه". فأنشدته مائة بيت أو قافية كلما أتيت على بيت أو قافية قال ﷺ: "هيه". انظر: معجم الطبراني الكبير: باب الشين. الشريد بن سويد الثقفي. ما روى عمرو بن الشريد عن أبيه.

ينشد الشعر في المسجد بعد رسول الله ﷺ وآله، في عصر أبي بكر و عمر [1]. وأثر الشعر ووقعه على القلوب والنفوس شديد؛ خيراً وشراً، واستجابة المشاعر له في الناس أمر عميق في الإنسان مع تفاوت الناس وأذواقهم في ذلك. ولهذا أثنى النبي ﷺ على الشعر الحسن فقال: «إن من الشعر لحكمة» [2]. و«إن من البيان

(١): روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عَنْ سَعِيد بْنِ الْمُسَيَّبِ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ عُمَرُ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه وَهُوَ يُنْشِدُ فِي الْمَسْجِدِ فَلَحَظَ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ أَنْشَدْتُ وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ: أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "أَجِبْ عَنِّي اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ؟" قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ. انظر: سنن النسائي: المجلد الثاني. كتاب المساجد. الرخصة في انشاد الشعر الحسن في المسجد.

(٢): قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في أذكاره: [فصل]: أما الشعر فقد روينا في مسند أبي يعلى الموصلي (مسند أبي يعلى الموصلي، وهو حديث حسن بشواهده. انظر فتح الباري ١٠/ ٥٤٠)، بإسناد حسن، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سُئل رسولُ الله ﷺ عن الشعر فقال: "هُوَ كَلامٌ حَسَنُهُ حَسَنٌ، وَقَبِيحُهُ قَبِيحٌ" قال العلماء: معناه: أنَّ الشعرَ كالنثر، لكن التجرّدَ له والاقتصارَ عليه مذمومٌ. وقد ثبتَت الأحاديثُ الصحيحةُ بأن رسول الله ﷺ سمع الشعرَ، وأمرَ حسان بن ثابت بهجاء الكفّار. وثبتَ أنه ﷺ قال: "إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً" رواه البخاري، وأبو داود، ولفظه فيهما "إن من الشعر حكمة"، وثبت أنه ﷺ قال: "لأنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَمْتَلِىءَ شِعْراً" رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه وكل ذلك على حسب ما ذكرناه. انظر: الأذكارُ للإمام النَّوَوي: كتاب حفظ اللّسان. ٣٣١- بابٌ في ألفاظٍ يُكرهُ استعمالُها.

لسحراً»[1] . وحذر من قبيحه فقال ﷺ: «لأنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَمْتَلِىءَ شِعْراً» .

لهذا كان للمدائح ورواية السيرة ونشر الشمائل شعراً الأثر الكبير في تحريك الهمم للمتابعة لأنه يخاطب عمق الأرواح ويمس شغاف القلوب ، وكان له الأثر الكبير في شحذ الهمم في الجهاد

نحن الذين بايعوا محمداً　　على الجهاد ما بقينا أبدا

و إنهاض العزائم للعبادة من باب الرجاء :

قم بالخضوع وناد ربك يا هو　　إن الكريم يجيب من ناداه

وفي فطم النفوس عن حب الدنيا وتزهيدها فيها :

ليس الغريب غريب الشام واليمن　　إن الغريب غريب اللحد والكفن

وفي فتح باب الرجاء والرجوع إلى الله :

---

(١) : قوله ﷺ : "إن من البيان سحراً" : يعني : أن في بعض البيان سحراً لأن صاحبه يوضح المشكل ويكشف بحسن بيانه عن حقيقته فيستميل القلوب كما يستمال بالسحر فلما كان في البيان من صنوف التركيب وغرائب التأليف ما يجذب السامع إلى حد يكاد يشغله عن غيره شبه بالسحر الحقيقي قال صعصعة : صدق رسول الله ﷺ فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بحجته من صاحبه فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق . والحديث رواه الإمام مالك ، والإمام أحمد في مسنده ، والبخاري في صحيحه ، وأبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما .

أنا مذنب أنا مخطئ أنا عاصي هو غافر هو راحم هو كافي

قابلتهن ثلاثة بثلاثة وستغلبن أوصافه أوصافي

وفي تهذيب النفس ولومها:

يا نفس هذا الذي تأتينه عجب علم وعقل ولا نسك ولا أدب!

وهذا أمر عرفته الأمم من قبل الإسلام، وبرع فيه العرب في الجاهلية. ولقوة أثر الشعر كم حقن بيت من الشعر دماءً وكم أراقها.

ولما جاء الحبيب ﷺ أحيا في القلوب هذا الذوق، وحرك المشاعر، ووجه الخلق إلى الخالق، فتوجهت هممهم إليه، وبذلوا نعمه في طلب مرضاته. فبرز شعر الدعوة والجهاد والدفاع عن الدين، والرد على الأعداء ومدح المصطفى ﷺ من ذلك، حتى أن الإمام ابن سيّد الناس صنف كتاباً في الصحابة الذين مدحوا النبي ﷺ أسماه: «منح المدح»[1] ذكر فيه (١١٩) من الصحابة الذين امتدحوا المصطفى ﷺ واستشهد ببعض أشعارهم، ومنها شعر العباس الذي مدح النبي ﷺ بقصيدته المعروفة التي نظم فيها مولد النبي ﷺ في أبيات رواها الطبراني بسند حسن، والتي

---

(١): "منح المدح": لابن سيد الناس، فتح الدين: محمد بن محمد الأندلسي. المتوفى: سنة ٧٣٤، أربع وثلاثين وسبعمائة. جمع فيه المدائح التي مدح بها الأصحاب رضي الله عنهم، والتابعون لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والمدائح التي له المسماة ببشرى اللبيب. ذكره حاجي خليفة في "كشف الظنون" ٢/ ١٨٦٠.

دعا فيها النبي ﷺ لعمه بقوله: «لا يفضض الله فاك» فلم تسقط من أسنانه سنة إلى آخر عمره (١) . وفيها يقول العباس:

وأنت لما ولدت أشرقت ... الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في الضياء وفي النور ... وسبل الرشاد نخترق

وقصيدة كعب ابن زهير المعروفة بالبردة والتي قدمها بالغزل العفيف الذي يثري قريحة العربي في شعره و مطلعها:

«بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول»

إلى أن قال: «إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الهند مسلول»

---

(١) : روى الطبراني في الكبير عن خريم بن أوس بن حارثة بن لام قال: كنا عند النبي ﷺ فقال له العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه : يا رسول الله إني أريد أن أمدحك. فقال له النبي ﷺ : «هات لا يفضض الله فاك». فأنشأ العباس يقول:

قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حيث يخصف الورق

ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق

بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرا وأهله الغرق

تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق

وردت نار الخليل مكتتماً ... في صلبه أنت كيف يحترق؟

حتى احتوى بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق

وأنت لما ولدت أشرقت ... الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في الضياء وفي النور ... وسبل الرشاد نخترق

انظر: معجم الطبراني الكبير: باب الخاء. خريم بن أوس بن حارثة بن لام الطائي.

فقال النبي ﷺ بل: «من سيوف الله»، فأعاد البيت:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

فخلع النبي ﷺ عليه بردته، فسميت القصيدة بالبردة. وجاء التابعون وترنموا بالمديح وحركوا القلوب وتبعهم القرن الذي يليهم وهكذا.

ولما برز الإمام محمد شرف الدين البوصيري شاعراً قوياً في المعنى والمبنى وذاع صيته ساقته العناية الإلهية إلى ميدان مدح الحبيب المصطفى ﷺ فنظم ما حرك القلوب والأرواح، وألقى الله على نظمه القبول، وكان من أعظم ما اشتهر وذاع من نظمه وتلقته الأمة من شرق الأرض إلى غربها قصيدته المعروفة بالبردة وقصة تسميتها معروفة تعرض لها المحقق الموفق المحب الذائق الشيخ بسام بارود، ووقفت عليها في مخطوط كتب في عصر الناظم موجود الآن في متحف « تشيستر بيتي» في دبلن بإيرلندا.

وامتازت هذه القصيدة مع علو كعبها في صناعة الشعر بالمعاني الراقية والأذواق الرائقة التي مهما كررت تجد عاديات العقول ميدانها لا ينقطع، وهيِّم القلوب معينها لا ينضب، ومحلقات الأرواح معراجها لا ينقطع، وكلما سمعتها أجد قلبي يتحرك لها ووجدت ذلك عند الكثير. فكم أُنشدت في شتى البقاع بمختلف الأصوات والأنغام، وخُمِّسَت، وسُبِّعَت وشُطِّرت، وذُيِّلَت، وعُورضت، وهي مع ذلك مستعصية على الاستهلاك لا تزداد إلا إشراقا وسطوعاً. ومما تميزت به أنها اشتملت على المقاصد الحسنة للشعر وأوجه الأثر الطيب فيه والتي ارتضاها النبي ﷺ ليكون في وجود أحدها تزكية للشعر إن خلا عن النقيض والتي مر ذكر بعضها في ما سبق. ففي مجال شحذ الهمم للجهاد أفرد فصلاً في الحث عليه، وتراه قمة في البلاغة

والاستنهاض عند وصف أحوال الصحابة في قوله:

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا   من شِدة العزم لا من شَدة الحزم

وتأمل الجناس الكامل الرائق: "شِدة العزم"، بالكسر. وقوله "شَدة الحزم" بالفتح للشين. وفي قوله:

والكاتبين بسمر الخط ما تركت   أقلامهم حرف جسم غير منعجم

وفي إيضاح مقاصد الجهاد وثماره التي تدل على بعضها بقوله:

أحل أمته في حرز ملته   كالليث حل مع الأشبال في أجم

وقوله في الصحابة ﷺ:

حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم   من بعد غربتها موصولة الرحم

مكفولة أبدا منهم بخير أب   وخير بعل فلم تيتم ولم تئم

وفي مجال مخاطبة النفس تراه يقول فاتحاً باب الرجاء للرجوع والتوبة:

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت   إن الكبائر في الغفران كاللَّمَمِ

لعلّ رحمة ربي حين يقسمها   تأتي على حسب العصيان في القسم

وفي مجال فطم النفوس من حب الدنيا تراه يقول:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الرضاع و إن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه   إن الهوى ما تولّى يُصْمِ أو يَصِمِ

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

ويقول في الزهد في الفصل التاسع الذي مطلعه:

خدمته بمديح أستقيل به ذنوب عمر مضى في الشعر والخِدَم
ولم أُرد زهرة الدنيا التي اقتطفت يدا زهير بما أثنى على هرم

وفي مجال لوم النفس و معاتبتها تراه يقول:

فيا خسارة نفس في تجارتها لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم

ويقول:

أستغفر الله من قول بلا عملٍ لقد نسبت به نسلاً لذي عُقُم
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقمت فما قولي لك استقم

وهذا يبرز الحكمة من تعلق كمال الإيمان بحب المصطفى ﷺ لأن محبته تجمع المحاسن، وهذه القصيدة لما كانت من معين كمال محبته فقد جمعت محاسن مقاصد الشعر. وهي مع القبول الذي وضع في الأرض لها وتحريكها للهمم نحو الاتباع على متن المحبة والمعرفة لم تأخذ حقها من التأمل في عقول كثير من منشديها ومستمعيها من غير المتخصصين من أهل العلم والأدب وهم كثر. لهذا كانت الحاجة ماسة إلى خدمة شرح لها يتضاعف الانتفاع بها من بسطه، ويجد القارئ والمستمع بالفهم اتساعاً في ميدان الانتفاع بهذا العطاء الذي أفاضه الله على قلب ناظمها، وتلقته الأمة على لسانه. كما أنَّ الشرح يزيل لبساً طرأ على بعض من قرأ أو استمع إما بعدم فهم

لمعاني أبيات منها لقصور في اللغة أو العلم، أو لعدم تفهّم بسبب خلفية في ذهن القارئ والمستمع ونفسه أدى إلى حمل الكلام على غير محمله كسوء الفهم الذي وقع من البعض لقول الناظم:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

واعتقاده أن هذا لا يليق والأدب مع الله، أو يمس التوحيد والعياذ بالله. ولو تأمل المعترض معنى الحادث العمم لعلم أنه يوم القيامة. والبيت يشير إلى الشفاعة العظمى التي ورد حديثها في البخاري وغيره من الصحاح، والذي يلوذ فيه الناس بالأنبياء فيعتذرون واحداً تلو الآخر، حتى إذا وصلوا إلى نبينا محمد ﷺ قال: "أنا لها". فلا ملاذ في الحادث العمم للشفاعة العظمى سواه ﷺ، وهذا مثال لبعض الأبيات التي أشكلت وهي قليلة يجد القارئ في الشرح حلا لمعضلاتها.

فجزى الله الإمام الفقيه المتبحر المتفنن ابن حجر خيراً على ما خدم به هذه القصيدة العظيمة، وجزى الله أخانا المحب الموفق الشيخ بسام بارود خيراً على خدمة الكتاب، وجزى الله أخانا الحاج - شمشير خيراً على حرصه الذي برز منه في خدمة طباعة هذا الكتاب، و بارك في دار الفقيه وفي همة القائمين عليها حيث حرصوا على طباعة الكتاب، وأسأل الله عظيم النفع للجميع، وأن يحيي في الأمة من محبة الحبيب واتباعه ما مات، وأن يرد عليها من ذلك ما فات، آمين.

وكتبه على عجل وخجل على متن الطائرة مسافراً وللمسافر رخصة إن قصر:

الأقل: علي زين العابدين بن عبد الرحمن الجفري

في خاتمة ربيع الآخر عام ١٤٢٤هـ

تقریظ

تقريـــظ صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور محمد سليمان فرج

من علماء الأزهر الشريف ورئيس قسم الدراسات والبحوث
بوزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
بدولة الإمارات العربية المتحدة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق، وحبيب الحق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أفضل القربات وأسمى الطاعات وقد أخطأ من يقول: إن الإكثار من مدحه صلى الله عليه وآله وسلم يؤدي إلى الإطراء الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم» إذ فهموا منه النهي عن مدحه صلوات الله وسلامه عليه واعتبار ذلك من الإطراء والغلو المذموم المؤدي إلى الشرك وإن كل من مدحه صلوات الله وسلامه عليه وآله وسلم ووصفه بما يميِّزه عن غيره فقد ابتدع في الدين.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى أن يُطرى كما أطرت النصارى ابن مريم إذ قالوا: «ابن الله سبحانه وتعالى».

ومعنى ذلك أنّ من أطراه صلوات الله وسلامه عليه وآله ووصفه بما وصف به النصارى ابنَ مريم فقد صار مثلهم.

أما من مدحه ووصفه بما لا يخرجه عن حقيقة البشرية معتقداً أنه أكمل وأفضل عبدٍ لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو من أكمل الناس توحيداً. قال السيد محمد بن علوي المالكي (بتصرف):

(والمعنى أن إطراءه والثناء عليه بما سوى ذلك هو محمود، ولو كان معناه غير ذلك لكان المراد هو النهي عن إطرائه ومدحه أصلاً، ومعلوم أن هذا لا يقوله أجهل جاهل في المسلمين، فإن الله تعالى عظّم النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله في القرآن العظيم بأعلى أنواع التعظيم فيجب علينا ان نعظّم ما عظّمه الله تعالى وأمر بتعظيمه، نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية أو خصائص الألوهية.

فهذا البوصيري قائد رابطة المادحين وأستاذ الشعراء المتخصصين في مدح سيّد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وآله يبين في بردته العظيمة المشهورة عقيدته الصحيحة في النبي صلوات الله وسلامه عليه وآله وبذلك يدفع في صدر كل مُفْتَن سيء الظن ويكذب كل مفتر على الله ورسوله وأوليائه يقول البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

ويقول البوصيري أيضاً:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر   وأنه خير الخلق كلهم

أي أنه يقول: إننا مهما مدحناه وقلنا في حقه ما قلنا فإن غاية ذلك ونهايته لا يخرجه عن كونه صلوات الله وسلامه عليه وآله وسلم بشراً وليس بمَلَك ولا إله، وإن

الخصائص والمزايا التي يتصف بها والتي يتميّز بها عن سائر الناس هي لتأكيد فضيلته وتحقيق نبوته صلوات ربي وسلامه عليه وآله.

هذا وإن النبي صلوات الله وسلامه عليه وآله غني عن مدح المادحين على الإطلاق بما مدحه الله في كتابه الكريم.

فقد بلغ من حبٍّ الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن كرّمه الله تكريماً لم ينله أحد من الخلق ففضله على العالمين، وكرم ذاته الشريفة وعقله وقلبه وفؤاده وصوته ونطقه ويديه وعينيه وسمعه وبصره ووجهه وصدره وظهره ورؤياه ودثاره ونَسَبَه وآلَ بيته ونساءه وأصحابه وبلده وحجراته وعصرَه ولغته وأمته وأسماءه وكل ما يتصل به صلوات الله وسلامه عليه، فأي مدح بعد هذا التكريم العظيم، وأي محبة بعد هذه المحبة الإلهية وإليك بعض هذه الآيات القرآنية التي تشير إلى ذلك:

لقد كرّم الله تعالى ذاته الشريفة ففضله على العالمين بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام بعد أن ذكر ثمانية عشر رسولاً وذكر إمامهم صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنعام آية : ٨٦].

فهؤلاء الأنبياء والمرسلين فُضِّلوا على العالمين وحبيبنا صلى الله عليه وآله وسلم سيد ولد آدم لقوله صلى الله عليه وآله وسلم «أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر». رواه البخاري ومسلم.

وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام أفضل العالمين على الإطلاق.

ومدح الله تعالى عقله صلى الله عليه وآله وسلم وحفظه من الضلال والزيغ قال الله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [سور النجم آية : ٢].

ومدح قلبه الشريف بقوله سبحانه وتعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [سورة الشعراء، آية: ١٩٣-١٩٤].

وطهر فؤاده صلى الله عليه وسلم وكرمه تكريماً عظيماً قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾. [سورة النجم آية: ١١].

وثبت بصره صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى آله من الزيغ والطغيان فهو بصر مطهر محفوظ بالعناية الإلهية قال الله تعالى:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [سور النجم١٧].

وشرف صوته حتى جعل رفع الصوت في حضرته صلوات الله وسلامه عليه محبطاً للأعمال قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات :آية ٢].

وحفظ نطقه الشريف وطهّره بقوله تعالى:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم، آية : ٣-٤].

ومدح لسانه الشريف وطهره بقوله تعالى:

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾[سورة مريم، آية ٩٧].

وكرّم يده صلى الله عليه واله وسلم نيابة عن يد الحق تبارك الله قال سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[الفتح، ١٠].

وكرم وجهه صلى الله عليه وسلم فاستجاب لتقلبه في السماء قال تعالى :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾[البقرة : ١٤٤].

وشرح صدره صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وملأه نوراً وحكمة ويقيناً وتشريفاً لمقامه العظيم قال الله تعالى﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : ١].

وسجّل رؤياه الصادقه بدخول المسجد الحرام في القرآن العظيم قال تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [سورة الفتح : ٢٧].

بل لقد ذكر دثاره صلى الله عليه وآله وسلم وما يتنزل به عند نزول الوحي تأنيساً لحاله وملاطفة له وسمى سورتين في القرآن المجيد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[المزمل : آية : ١-٢].

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[المدثر آية١-٢].

وما ذلك إلا لمنتهى التكريم والمحبة له صلى الله عليه وآله وسلم إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم.

والشعر منه ما هو حِكَم نافعة: فقد أخرج أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه وآله وسلم فجعل يتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ من البيان سحراً، وإن من الشعر حكمة».

هذا وقد اشتهر بالمدح كثير من أئمة هذا الشأن كالإمام البوصيري والإمام عبد الرحيم البرعي اليمني والإمام يحيى الصرصري البغدادي، ومن جاء بعدهم كالشهاب محمد الحلبي وجمال الدين بن نباتة وبرهان الدين القيراطي وشمس الدين النواجي والصفي الحلبي وابن مليك الحموي والشيخ عبد العزيز الزمزي والإمام لسان الدين بن الخطيب وغيرهم.

قال الزرقاني في المواهب اللدنية: وأما شعراؤه عليه الصلاة والسلام الذين كانوا يذبُّون عن الإسلام فكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت، وقد دعا له عليه الصلاة والسلام فقال: اللهم أيِّده بروح القُدُس فيقال أعانه جبريل بسبعين بيتاً، وفي الحديث: «إن جبريل مع حسان ما نافح عني»، أي دافع هجاء المشركين بمجاوبتهم على أشعارهم قال: وكان أشد شعرائه عليه الصلاة والسلام على الكفار حسان وكعب رضي الله عنهما.

وكذلك العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله فقد قال: يا رسول الله أريد أن امتدحك فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله

«قل لا يفضض الله فاك» فأنشد يقول :

من قـــبلهـــا طبت في الظلال مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البـــلاد لا بشـــر أنت ولا مــضـغـــة ولا علق
بل نطفـــة تركب السـفين وقـــد ألجم نســـراً أهله الغـــرق
تنقل من أصـــلاب إلى رحم إذ مـــضى عـــالم بدا طبق
وردت نار الخليل مكتـــتـــمـــاً في صلبـه أنت كيف يحـتـرق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتـهـا النطق
وأنت لما ولدت أشـــرقت الأر ض وضـــاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضـــيـــاء وفي النور وسبل الرشاد نختـرق

وجاء في أُسُد الغابة : وصفت عائشة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: كان والله كما قال فيه حسّان رضي الله عنه :

متى يبد في الداجي البهيم جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد نظام لحـــق أو نكال لملـــحد

وروي عن الشعبي أنه قال: لما بلغ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله أن كعب بن زهير بن أبي سلمى هجاه ونال منه أهدر دمه فكتب إليه أخوه بجير بن زهير - وكان قد أسلم وحسن إسلامه- يعلمه أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وآله قد

قتل بالمدينة كعب بن الأشرف فلما بلغه كتاب أخيه ضاقت به الأرض ولم يدر فيم النجاة، فأتى أبا بكر رضي الله عنه فاستجار فقال: أكره أن أجير على رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وآله وقد أهدر دمك، فأتى عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، فأتى علياً رضي الله عنه فقال: أدلك على أمر تنجو به؟ قال: وما هو؟ قال: تصلي مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله فإذا انصرف فقم خلفه وقل: يدك يا رسول الله أبايعك فإنه سيناولك يده من خلفه فخذ يده فاستجره فإني أرجو أن يرحمك ففعل، فلما ناوله رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يده استجاره وانشد قصيدته (بانت سعاد) إلى أن قال فيها:

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فعفا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمّا ارتكبه في شأنه من الإجرام وألقى عليه بردته الشريفة عليه الصلاة والسلام، وقد عرضت عليه مبالغ وافرة فلم تسمح نفسه ببيعها، ثم اشتراها معاوية رضي الله عنه من ورثته بمبلغ عظيم وصارت عند الخلفاء والملوك يتوارثونها، واقتدى به صلوات الله وسلامه عليه وآله الكرماء في إجازة الشعراء.

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: لو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه من أعظم الوسائل عند رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لكفى.

وإنّ شارح البردة هو العلامة الحافظ ابن حجر قال عنه شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي: كان علامة الدهر خصوصاً في الحجاز فإذا نشرت حلل

الفضل فهو الطراز ، فكم حجت وفود الفضلاء لكعبته وتوجهت وجوه الطلب إلى قبلته إن حدّث عن الفقه والحديث لم تتقرط الأذان بمثل أخباره في القديم والحديث فهو العلياء والسند . . . إلخ .

وقال أيضاً : العلامة ابن العماد الحنبلي : فقد كان الهيتمي شيخ الإسلام خاتمة العلماء الأعلام بحراً لا تكدره الدِلا ، إمام الحرمين كما أجمع عليه الملا ، كوكباً سيّاراً في منهاج الساري واحد العصر وثاني القطر وثالث الشمس والبدر .

وإن محقق هذا الكتاب السيد المفضال الأخ في الله تعالى بسام محمد بارود الذي منحه الله تعالى أعظم نفحة بتوفيق من الله تعالى في تحقيق هذا الكتاب المبارك الذي ينبغي لكل مسلم محب لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُقبل عليه بشغف شديد ويحفظ هذه القصيدة عن ظهر قلب إن استطاع لما تحويه من معاني سامية في يومنا هذا قراءة وإنشاداً وتبركاً وقد ترجمت لعدة لغات فجزى الله تعالى أخانا المبارك النوراني الذي وهبه الله تعالى قلماً تمده العناية الإلهية والإلهامات العرفانية مع الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة من الكتاب والسنة فشكر الله له وبارك فيه ونفع بهذا الكتاب جميع المسلمين إنه سميع مجيب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين .

خادم العلم الشريف
الفقير إلى الله تعالى
الدكتور. محمد سليمان فرج

العمدة
في شرح البردة

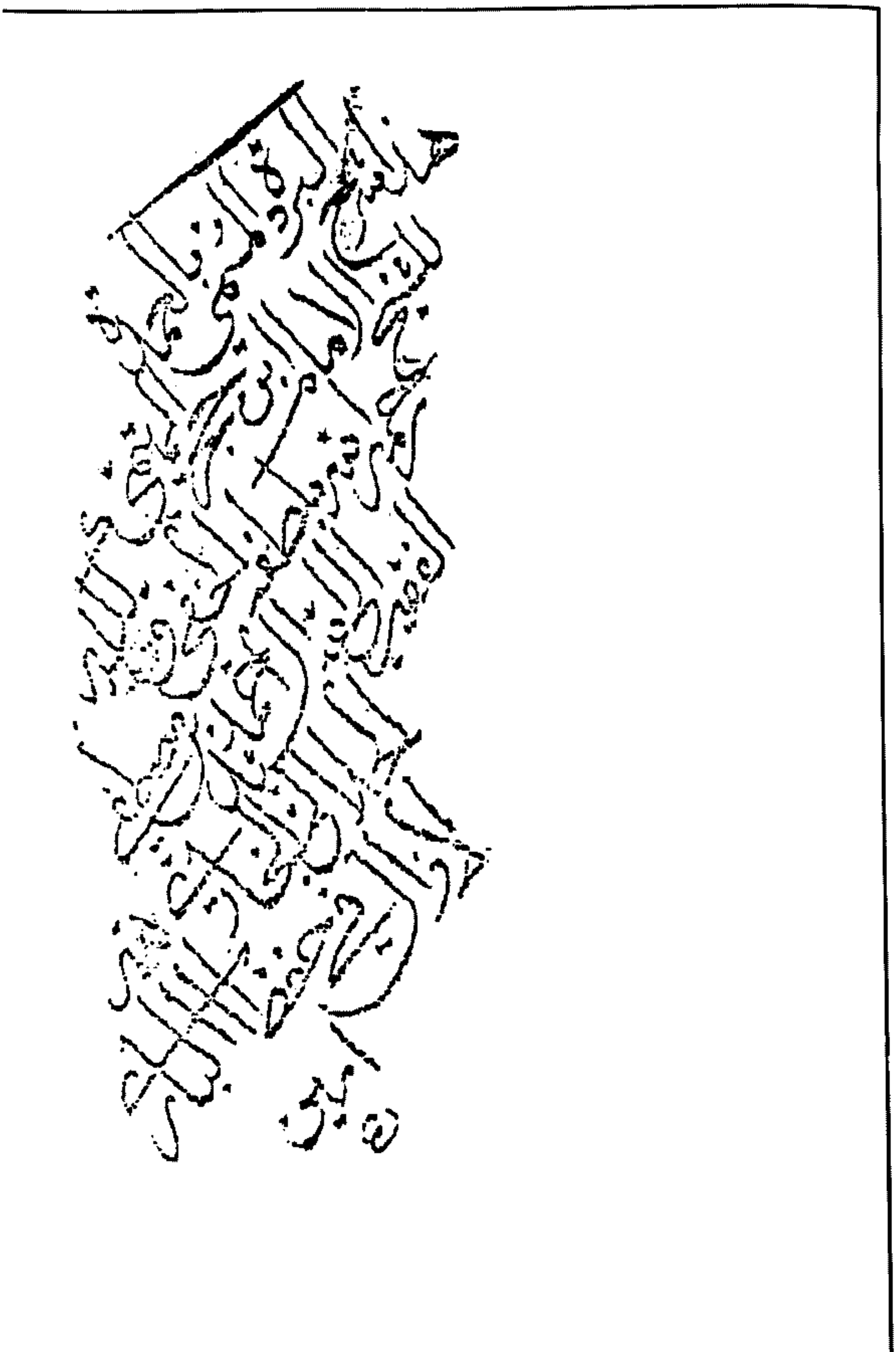

الصفحة ١ /أ من المخطوط

العمدة في شرح البردة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي وفقنا لقوام المدح نبيه الكريم وجازاهم على ذلك بتبوّؤ
جنة النعيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالمعجزات والحلم
القديم صاحب الاسراء والمعراج والجهاد والدين القويم وعلى آله الحائزين
نهاية التكريم والتعظيم وأصحابه الذين لا يحصي فضائلهم كل عادٍّ وتبعهم
ما توجه سائل الى الحق الكريم وفاز منه بكل مطلب جسيم وبعد فهذا شرح
لطيف منير على بردة البشير النذير المنظومة على بحر البسيط في الاسلوب
الوسيط الذي انشأها اعلم الشعراء واشعر العلماء الامام ابو — واشعرنا
عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد البوصيري افاض الله تعالى عليه
شآبيب الغفران واسكنه اعلى فراديس الجنان وسميته بالعمدة في شرح البردة
والله اسأل ان ينفع به الطالبين وان يوجه اليه رغبة الراغبين قال
رحمه الله تعالى بعد ان تيمن بالبسملة والحمدلة وقد عجز من نسج خاطبها — تيمنا
على عادة الشعراء ... وهذا استقل منها ... امن تذكر جيران
للكرام مستدركين والحرف متعلق بمزجت الآتي والهمزة للتقرير والتذكير
مصدر ذكر اضيف للمفعول من الذكر بالكسر وهو ما يكون باللسان
او من الذكر بالضم وهو ما يكون بالقلب والثاني هنا انسب والجيران
جمع جار واصله جوران قلبت الواو ياء واراد بهم محمدا صلى الله عليه وسلم

[illegible]

الصفحة ١ /ب من المخطوط

حتى انما نقطع المسافة الطويلة في المدة القصيرة على انواع من التوسل
وعلى توبيخ النفس والوعظ ومدحه صلى الله عليه وسلم وذكر
بعض صفاته ومعجزاته على اختلاف انواعها ومدح القران ومدح
الصحابة وذم الكفار وتوبيخ النفس ايضا والاقرار بالذنب وذكر
مقصوده في الخلاص من الاثام ويختم بالدعاء ثم بالصلاة على النبي
صلى الله عليه وسلم محمد سيد الانام عليه من الله افضل الصلوة وا
وازكى التسليم فنسال الله لنا ولاحبابنا بالحسنى واحلنا من دار السلام
المحل الاسنى وقد تم كتابنا هذا املا مرتبا ومحررا معدا با
خدمة الاشرف الاواخر والاوائل تبعه من اشرف الاروميات
واكرم القبائل رجاءه ان يجيرنا عليه بما يليق بكمال قدره وعلو
فخره من دخول الجنة بشفاعته مع السابقين من غير سبق
عذاب ولا تقدم عتاب هذا استفدته من شرح لطيف
منه على بردة البشير النذير المنظومة على بحر البسيط ذا
والاسلوب الوسيط التي انشادها اعلم الشعراء ط
واشعر العلماء الامام ابو عبد الله شرف الدين محمد بن
سعيد بن حماد البوصيري افاض الله تعالى عليه شابيب الغفر
الغفران واسكنه اعلى فراديس الجنان وغفر الله لنا ولوالدينا

الصفحة ما قبل الأخيرة من المخطوط

ولكاتب هذا الكتاب وقاريها وناظرها وسامعها ولوالدها

وادخلنا الجنة ببركة سيدنا ومولانا وهادينا ومرشدنا

محمد سيد الاولين والاخرين وصلى الله عليه وعلى آله واصحابه

والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

تمت الكتاب بعون الله الملك

الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى اللهُ على سَيدنا محمد وآله وسلَّم وشرَّف وكرَّم

ومجَّد وعظَّم ووالى عليه وأنعم

مقدَّمة التَحقيق

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فلك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

اللَّهُمَّ صلِّ على من منه انشقَّت الأسرار وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلَّت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منَّا سابقٌ ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت من فيض أنواره متدفِّقة، ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، صلاةً تليق بك منك إليه كَما هو أهله. اللَّهُمَّ إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم بين يديك. اللَّهُمَّ ألحقني بنسبه وحقِّقني بحسبه وعرِّفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملاً محفوفاً بنصرتك، واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزُجَّ بي في بحار الأحدية،

وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع، ولا أجد، ولا أحسَّ إلا بها، واجعل اللَّهُمَّ الحجاب الأعظم حياة روحي، وروحه سرَّ حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحقِّ الأول ياأول يا آخر يا ظاهر يا باطن اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا عليه السلام وانصرني بك لك، وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك، وحل بيني وبين غيرك، الله الله الله، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا. . . آمين آمين، آمين.

وبعد. . . أخي المسلم الحبيب المحب لجناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإني أقسم لك قسماً غير حانث - إن شاء الله - أني ما وجدت في حياتي المهنية والعلمية أصعب من موقفي الذي بين يدي اليوم وأنا أريد أن أقدم لهذا الكتاب العظيم الذي جمع فيه الإمام البوصيري كل ما اعتلج في قلبه من حب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قصيدة طار صيتها في الآفاق، وتناولتها القلوب باتفاق، وتداولتها الألسن في كل زمان ومكان من أرض الإسلام، حتى صارت قصيدته العصماء حديث كل محب لهذا الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، تدور كؤوسها في مجالس شرب الحب، ويتداوى بها كل مكلوم وصبٍّ، ويلهج بذكرها كل عاشق، وينهج نهجها كل شاعر.

وكيف لا أتهيب من تقديم كل هذا في صفحات مختصرة؟، وهل يختصر الحب بكل معانيه، وهل يرضى المحب أن يختصر، وهل يقنع المحب بإيجاز الكلام عن الحبيب . . . لكل هذا ألجمت عن القول، ووقف عقلي عن التفكير والتعبير، فانطلق قلبي ليقول كل ما عنَّ له من مشاعر ولواعج، ولا ضير أن جاءت تلك المشاعر غير مرتبة، وتلك اللواعج غير منسقة، فليس في الحب نظم ولا ترتيب، ولا في العشق تنسيق، ولا في الصبابة تبويب.

دعني أيها المحب أسرد ما يشاؤه قلبي لا ما يرتبه عقلي، فإنَّ العقل لا عمل له في الحب . . - وما مجنون "ليلى" بأفضل من مجنون "سعاد" ولا "سلمى"؛ فأقول مستعيناً بالله :-

١- الله وحده يعلم كم بقي مخطوط هذا الكتاب بين يدي وأمامي على مكتبي من أيام بل شهور، ينتظر مني الخدمة، وأنا أقدم يداً وأؤخر أخرى هيبة من الولوج في خضم بحره الزاخر، وذلك لأمر بسيط أنني لست بسابح ماهر لأسبح في أمواجه المتلاطمة، ونوره الفياض، وأمواجه الزاخرة بكلِّ معاني الحبِّ والشوق والصبابة والهيام والعشق لحضرة الحبيب الأعظم سيد الكائنات عليه من الله أفضل الصلوات وأزكي التحيات . . . وبقي المخطوط أمام ناظري على المكتب شهوراً وربما زادت أيامه على السنة، وكنت كلَّما عزمت خوض غماره أهاب أمواجه المتلاطمة بالأنوار،

والفياضة بالأسرار، فأقول في نفسي لم يحن الوقت لهذا، وما عساي أن أقدم على هذا العمل وليس عندي من رأس المالِ إلا شبهة محبة لسيد الكائنات وحبيب رب البريات صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، أما غير هذا من الأدوات فأنا خال اليد منها، وهل رأيت صانعاً بلا أدوات؟ . . .

٢- وكنت مع هذا كله أدعو الله تعالى أن يهيئ قلبي لهذه التجربة، ويوفقني ويبارك في وقتي ويلهمني الصَّواب والسَّداد في هذه المهمة الصعبة، وخشيت أن يحين الأجل ولم أقدم على هذا العمل، فازداد دعائي بلسان الحال والمقال، وصرت ألتمسه من أحبابي وأصحابي وإخواني الذين توسمت فيهم الصلاح والفلاح، واعتقدت فيهم صدق محبة حبيبي وقرة عيني سيد الخلائق صلى الله عليه وآله وسلم. . . .

٣- إلى أن أذن الله تعالى وجاء بالفتح من عنده . . . وكان ذلك في جلسة صفاء بين يدي الشيخ الجليل العارف بالله تعالى والمحب الصادق لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، الشيخ أسامة - ابن سيدي العارف بالله تعالى والداعي إليه بإخلاص شيخ الشام الشيخ عبد الكريم الرفاعي رضي الله عنه وأرضاه، وعنَّا به - وكان شيخنا الجليل أسامة قد تشرف بمجاورة خير خلق الله صلى الله عليه وآله وسلم سنوات عديدة نهل فيها من فيض أنوار وبركات وإمدادات الحبيب الأعظم ما شاء الله له أن ينهل .

وكانت تلك الجلسة في منزله في الشام، كنت فيها بمعية الحبيب العلامة الدكتور محمد عنتر نزيل المدينة المنورة، والمجاور لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي ما زال يكرع من منهله العذب المورود، ويتسربل بنوره الممدود، زاده الله نوراً على نور، وكان الحديث كلُّه عن محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا والله ما عرفت مجلس شيخي الجليل أسامة الرفاعي إلا مجلس حبٍّ لله ورسوله، وكان من جملة ما تطرق الحديث إليه الكلام عن قصيدة البردة الشريفة هذه، وتذكرت شرحها المخطوط الذي فوق مكتبي وهو ينتظر من الله المدد والفتح والتوفيق... فاغتنمت تلك الفرصة الذهبية وعرضت الفكرة على الشيخ الجليل أسامة الرفاعي حفظه الله فوجدت منه كلَّ ترحيب وتشجيع - على عادته في تشجيع طلبة العلم -، وسمعت منه كلاماً طيباً كان رافعاً للهمة، ودافعاً للإقدام على تلك المهمة، فشفعت الكلام بطلب الدعاء منه حفظه الله وقراءة الفاتحة لحضرة النبي ﷺ وعلى هذه النية، وأن يوفِّقنا الله لطباعة الكتاب وتوزيعه في محبة سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى نفقة محبي هذا الجناب الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ثم استودعته الله وسافرت إلى أبوظبي وكلِّي أملٌ وشوقٌ لخدمة هذا الكتاب المبارك وإخراجِه إلى النور.

٤- أما النسخة المخطوطة لهذا الكتاب فقد قدمت إلي من بلاد الهند على يد أحد

المحبين المخلصين جزاه الله عني كل خير، وذلك أنه لما سمع مني أنني أبحث عن شرح لقصيدة البردة لابن حجر الهيتمي، بعد أن فرغت من تحقيق المنح المكية في شرح الهمزية - أعني همزية إمامنا البوصيري رضي الله تعالى عنه - وتمت طباعة شرح الهمزية بفضل الله تعالى، فتعلقت آمالي في البحث عن شرحٍ للبردة، إلى أن وفق الله أخانا الشيخ محمد الفرطوي - الهندي - فأتاني بها من بلده الهند مشكوراً، وكان هذا وذاك من الإشارات والبشارات التي هي من علامات الإذن بالخدمة، فتيسير الأسباب من علامة الإذن، فاستخرت الله تعالى وبدأت العمل مستعيناً به سبحانه، ومتوسلاً بجناب حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم أن يوفقني ويلهمني الصواب ويؤيدني لما فيه التقرب من هذا الجناب العزيز عسى أن أنال منه صلى الله عليه وآله وسلم نظرة أو لمحة أو عطفة تكون زيادة لي في القرب الحسي والمعنوي من هذا الحبيب، ومقدمة لنيل شفاعته يوم الحساب، والله يعلم أني ما أردت من وراء هذا العمل إلا ما ذكرت، فأسأله سبحانه أن يصلح القلوب والنيات ويبارك في الأعمال الصالحات.

٥- أما الكلام عن البردة فلا انفصال بينه وبين الكلام في العشق أو الحب لجناب الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي مفتاح من مفاتيح الوصول إليه والمثول بين يديه؛ إذ هي آية من آيات الفن، وكوكب من كواكب سماء الأدب، وغرة في جبين الدهر، كيف لا وهي تسمى: " الكواكب الدرية في مدح خير البرية " صلى

الله عليه وآله وسلم.

وهذه القصيدة الزهراء، والمديحة الغراء، بركاتها كثيرة، ولا يزال الناس يتبركون بها، في أقطار الأرض فكم ظهر لها من أثر في إبراء المرضى من الذين اعتقدوا شرفها، وقدروها قدرها، فكانت سبباً في شفائهم، ونيل الخيرات والبركات في قراءتها، وكم عطَّرت من مجالس هبَّت فيها نسمات الأنس واللُّطف، وتروحنت بروائح الجنة ببركة هذه القصيدة الطيبة، وهذا من أثر صدق ناظمها وإخلاصه، وصدق محبته وعشقه للجناب المصطفوي صلى الله عليه وآله وسلم، ونرجو من الله تعالى أن ننال من بركتها ونلمسها ونشاهدها كما شاهدها الصالحون من أحباب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل نرجو من الله الكريم فوق ذلك من مظاهر تجلياته سبحانه، وأن تكون سبباً في عطف قلب نبينا صلى الله عليه وآله وسلم علينا لننال خير الدنيا والآخرة.

٦- روي أن الإمام البوصيري رضي الله عنه أنشأها حين أصابه فالج؛ فاستشفع بها إلى الله سبحانه وتعالى؛ ولما نام رأى النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - في منامه، فمسح بيده المباركة، فعوفي. وخرج من بيته أول النهار، فلقيه بعض الفقراء، فقال له: يا سيدي أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: أيُ قصيدة تريد؟. فقال: التي أولها:

أمن تذكر جيران... الخ.

فأعطاها له؛ وجرى ذكرها في الناس.

ولما بلغت الصاحب بهاء الدين، وزير الملك الظاهر استنسخها، ونذر أن لا يسمعها إلا حافياً، واقفاً، مكشوفَ الرأس، وكان يتبرك بها هو وأهل بيته. ورأوا من بركاتها أموراً عظيمة في دينهم ودنياهم.

وروي أيضاً من أسباب شهرتها وتسميتها بـ: "البردة": أنه أصاب سعد الدين الفارقي رمدٌ عظيم، أشرف منه على العمى، فرأى في منامه قائلا يقول: امضِ إلى الصاحب: بهاء الدين، وخذ منه "البردة"، واجعلها على عينيك تفق إن شاء الله تعالى؛ فنهض من ساعته وجاء إليه، وقال ما رأى في نومه. فقال الصاحب: ما عندي شيء يقال له: "البردة"، وإنما عندي مديح النبي - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - أنشأها البوصيري، فنحن نستشفي بها؛ فأخرجها، ووضعها سعد الدين على عينيه، فعوفي من الرمد.

وقد يروى في إنشائها، وسبب اشتهارها بالبردة وجوه شتى، والأقرب إلى القبول ما ذكر ها هنا. لكن قال المولى مصنفك، في شرحه بعد نقل منامه، ورؤيته النبي -

عليه الصلاة والسلام -: فألقى - عليه الصلاة والسلام - برداً على عاتقيه، ومسح بيده؛ فلما استيقظ وجد بدنه صحيحاً كله، ووجد ذلك البرد على عاتقيه، ففرح به، فخرج، . . . فذكر إلى آخر القصة. ثم قال: أو أنه روي عن بعض الكبراء، أنه أصابه مرض، فطلب القصيدة، فجاء صاحبها إليه، وقرأها، فشفاه الله - سبحانه وتعالى - من ساعته، فأعطاه بردا. فسميت: "بالبردة" تيمنا. انتهى. والله -سبحانه وتعالى - أعلم.

٧- ولقد أثرَّت البردة تأثيراً كبيراً في الناس منذ أن أنشأها الناظم رضي الله عنه، فهذَّبت الطباع وشنَّفت الأسماع، وأنارت القلوب، وقربت من الحبيب المحبوب صلى الله عليه وآله وسلم، وقد اعتنى بها سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين لما رأوا من بركتها، فكانوا يقدرونها حق التقدير، لما وجدوا فيها من النفحات والبركات التي لا تنتهي، فحفظها العامة والخاصة، من طلبة العلم والعلماء، والعبَّاد والزهَّاد، والعارفون والأولياء، بل رجال الأدب والشعراء، لأنها أشرف ما قيل في مدح سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، فكم من أفراح تقام ومدار الإنشاد فيها قصيدة البردة، وكم من مجالس تنشد فيها البردة ليلة كل جمعة في أصقاع كثيرة من العالم الإسلامي إلى أيامنا هذه، فلا تخلو ليلة من ليالي الدهر إلا وينشد فيها البردة في مكان ما من العالم ينصت لها الناس بشغف تغمرهم بروحانية عطرة تشرح الصدور،

وتؤنس النفوس، وتنور القلوب، وتطيب المجالس، وقد طبعت البردة في جميع الأقطار الإسلامية دون استثناء، وتداولتها القلوب قبل الأيدي، حتى أنك لا تجد مكتبة خاصة أوعامة إلا وفيها نسخ متعددة من هذه القصيدة العصماء. وتزينت بها الدور والأسقف والجدران سواء في المساجد الكبيرة ومنها مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو البيوت العامرة، فهي مشكاة النور، وباب من أبواب التقرب إلى الله تعالى رب العالمين ومجيب السائلين، وكما قال ابن حجر: " كيف وقد زادت شهرتها إلى أن صار الناس يتدارسونها في البيوت والمساجد كالقرآن، وأقبل الشعراء عليها يعارضونها ويشطرونها إلخ" .

٨- يقول أحمد زكي باشا رحمه الله تعالى: " طالما عارض الناس بردة البوصيري في القديم وفي الحديث بمئات ومئات من المنظومات، لكنَّ الصِّيتَ بقي لهذه البردة وحدها، حتى شوقي لم يستطع أن يزحزحها، وإن نالت قصيدته شرفاً واسماً" .

٩- ولقد عادى بعض الناس - في أيامنا النحسات هذه - الإمام البوصيري رضي الله عنه، ووصل ببعضهم أن كفَّروه وأخرجوه عن الملة والعياذ بالله . . فضَّ الله أفواههم، ودرد أسنانهم، وقبحهم على افترائهم هذا؛ وهل يعادى البدر المشرق والركن الركين؛ وما علم هؤلاء أنهم لم ينالوا من رفعة الإمام ولا قصيدته شيئاً، بل نالوا من أنفسهم، وسقطت هيبتهم، وبقيت هيبة الإمام البوصيري رضي الله عنه تشع

النور كالشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها، ألا ساء هؤلاء ما يتوهمون، فلا زالت البردة تحفظ في مختلف البلدان وترتل في مجالس الذكر ترتيلاً، ويتبتل بها العارفون إلى الله تبتيلا، تيمناً بمكارم الممدوح بها صلوات الله وسلامه عليه، وترديداً لصفاته الباهرة، فهي كانت ولا زالت وستبقى سلوان الشجي، وأنس الخلي.

أهمية البردة في التربية والتزكية، وقيمتها العلمية والأدبية:

١٠- إنَّ الإمام البوصيري رضي الله عنه صاحب مدرسة في المديح النبوي بشعر روحاني الطبع والمصدر، وما يصدر عن القلب يستهوي القلوب فينطبع في الأذهان عفواً، وتسيل به الألسنة عفواً، إذا قال شعراً أصبح الدهر منشداً، فهو والحالة هذه أشد عامل في تقويم الأخلاق، وحسبك أنه أدى للسيرة المصطفوية على صاحبها الصلاة والسلام ما لم يؤده أكبر مؤلفيها، ومن لطف الله تعالى بها وفيها وعلى منشئها وتاليها وحافظها وقارئها أنها خفيفة التلاوة لذيذة الحلاوة، وهذا شيء لا ينكره إلا حمارٌ حقيقي أو مجازي، وبعض الشيء قريب من بعض.

ومما لا شك فيه أنه لم يأت بعد عصر النبوة المبارك من أحسن في مدائحه النبوية واستكثر منها إلا الإمام البوصيري، فقد نزل في ذلك منزلة أوشك بها أن تلحقه

بالصفوة السابقين وتجعله بعدهم منقطع القرين، ثم جرى الناس بعده على آثاره، واستضاؤوا بمناره. وبالجملة فإنَّ العربية لاقت من رجالها الغابرين وأفذاذها العدد الكثير والحظ الغزير، والبوصيري - ولا كفران - هو من أولئك الرجال الذين يجب أن تستثار بهم الهمم.

وإذا استثنينا شعراء المديح في العصر النبوي المنافحين عن الدعوة الإسلامية في أول نشأتها كسيدنا حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين - فإننا نجد إمام المادحين على الإطلاق، ومقدَّم كتائبهم، وحامل لوائهم بلا منازع مولانا وسيدنا الإمام البوصيري رضي الله عنه، فقد فاق جميع من تقدمه ومن تأخر عنه إلى عصرنا هذا في استحكام ملكة الشعر وفي سعة الخيال، وفي الاقتدار على الوصف، وفي العلم بدقائق السيرة، وبالآداب التي تلزم لهذا الصنف من الشعراء، وأصل ذلك كلِّه صدقُه في محبة حضرة سيد الوجود صلى الله عليه وآله وسلم، وتعلقه بجنابه المطهر، فتجده مع كل المحبة لهذا الجناب المكرم متقيداً بآداب دقيقة لا يجوز للشاعر تعديها في صعود ولا في نزول، لأنَّ كليهما مزلقة، ولكن سيدنا الإمام رضي الله عنه مع طول نفَسه في المديح ومع أنه شاعر معه من الغلو والسبح في الخيال ما مع الشعراء الفحول فإنك لا تكاد تعثر له على سقطة في المديح النبوي، ولا على إسفاف ولا مبالغة يخرج بها عن الآداب المقررة في شريعة

ممدوحِه العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، فكل شعره ينطبق عليه قوله في همزيته:

تتحلى به المسامع والأفو ... اهُ فهو الحلى والحلواءُ

ويكاد شعراء المديح يتواردون على شيء يجعلونه عمودَ شعرهم وهو المعجزات، وأكثرها يعتمد على أخبار الآحاد، وبعضها يعتمد على رواة وجدوا قبل البعثة كالخوارق التي رافقت ميلاده صلى الله عليه وآله وسلم، ورضاعه، وتربيته، وصباه، وحداثته إلى البعثة، ولكن سيدنا الإمام البوصيري ينوه بتلك الخوارق بقوالب شعرية رائعة يكسوها من وشي الألفاظ ما يجعلك كأنك تشاهدها رأي العين وتعيشها حساً ووجداناً. . . كل ذلك جعل القصيدة تطير كل مطار، وتشتهر أيما اشتهار، وتسير مسار الشمس في العالم الإسلامي من عهد الشاعر إلى يوم الناس هذا، واشتغل بها الناس إلى درجة الافتتان، فكتبوا أبيات معينة منها للاستشفاء من أمراض بعينها، وهذا حق وهو من المجربات، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولم ترزق قصيدة من قصائد الشعراء الممتازة بخصوصية ما رزقت قصيدة البردة هذه من اعتناء العلماء والصلحاء بها في جميع العصور، فشرحوها شروحاً متعددة، وخصَّصوا بالشرح ما فيها من فنون الشعر البديع، وعارضها كبار الشعراء وخمَّسوها وشطَّروها، وحسبك أن سابق شعراء هذا العصر الشاعر المجيد محمود سامي البارودي - رحمه الله تعالى

- عارضها بقصيدة على بحرها ورويها، وأن أمير الشعراء أحمد شوقي - رحمه الله تعالى - عارضها بقصيدته المشهورة التي سماها "نهج البردة".

وستبقى قصيدة البردة حديث الناس إلى يوم الدين، حديث المحبين والعاشقين، والعارفين، والأولياء والصالحين، وكل من سار على درب محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو أراد أن يتعلم كيف يكون الحب الحقيقي دون إفراط ولا تفريط.

وإذا أردت أن تتعلم الحب فحاول يا أخي الحبيب أن تحضر مجلساً من مجالس البردة ,وتسمع القصيدة من طائفة من الصالحين، والمحبين العاشقين لحضرة المصطفى الأمين صلى الله عليه وآله وسلم فإنك لن تستطيع أن تكفكف دموعك المنهمرة، ولا أن تملك قلبك الخفاق، ولا مشاعرك الجياشة، نفعنا الله بها في الدارين.

وأخيرا وليس آخراً: فتكاد هذه القصيدة المباركة أن تكون الوحيدة من بين قصائد الشعر العربي - على امتداد ساحله - التي ترجمت لرجل واحد وأي رجل ذاك؟ فداه نفسي وأبي وأمي والناس أجمعين - ولا عهد للشعراء العرب بكتابة التراجم إلا في بعض أراجيز ركيكة أو قصائد مشوشة يبدأ بآخرها حيث يجب البدء من أولها. . . .

أما سيدنا الإمام فنراه يفصل حياة حضرة سيدنا الرسول الأعظم والحبيب الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالترتيب الطبيعي: مولده، ثم نشأته، فسقوط الإيوان

وخمود النار، فالغمامة المظللة، فالوحي، فالإسراء، فالمغازي. . . لكل هذا جاءت قصيدته آية من آيات الحب والعلم والفن والإبداع، وأعجوبة لا يسمح الدهر بمثلها، تفوّق فيها سيدنا الإمام على نفسه وأبناء جنسه، فحاول فحول الشعراء في كل عصر تقليدها فلم يفلحوا، فحاموا حولها مشطرين ومخمسين، ولكن هيهات. . . هيهات. . . فهي تمتاز كما قلت بروحانية تملك القلب وتأسر الوجدان، وفرق كبير بين كلام تمليه الأرواح والقلوب، وصناعة تمليها العقول والألسنة وقواعد البلاغة.

جزى الله سيدنا الإمام البوصيري خير الجزاء، ونفعنا به وببركاته، وأمدنا بإمداداته، ورزقنا حسنَ الظن والاعتقاد في أئمة الدين وعلماء الأمة سلفاً وخلفاً، وسلكنا في سلك الصالحين والأولياء العارفين والمحبين والمحبوبين حتى نلقى ربنا بمعية نبينا سيد العرب والعجم وسيد الخلق أجمعين قرة العين وإمام المتقين سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم وشرّف وكرّم ومجّد وعظّم ووالى عليه وأنعم.

وأستغفر الله تعالى من كل علم وعمل واعتقاد يخالف شريعته، وأتوب إليه مما شطّ به القلم أو الخاطر أو اللسان، وأبرأ إليه سبحانه من كل ما يخالف شرعه الحكيم وسنة نبيه الكريم، كما أسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وسبباً

موصلاً إلى جنات النعيم بشفاعة سيد المرسلين مع أحبابنا وأشياخنا من العلماء والأولياء والعارفين، وكل من أحبنا وأحببناه في الله ورسوله صفيه ومجتباه.

اللَّهُمَّ إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك مما لا نعلمه.

وصلى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه كلَّما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قاله بفمه وكتبه بيده الفانية

بسام محمد بارود

عفا الله عنه بمنِّه وكرمه

أبوظبي

الاثنين ٢٧ رمضان ١٤٢٣ هـ

الموافق ٢ / ١٢ / ٢٠٠٢م

شروح البردة

شروح البردة

قال العلامة حاجي خليفة في "كشف الظنون" . باب القاف : -

قصيدة البردة، الموسومة : (بالكواكب الدرية، في مدح خير البرية) . الشهيرة : (بالبردة الميمية) للشيخ، شرف الدين أبي عبد الله : محمد بن سعيد الدلاصي ثم البوصيري . المتوفى : سنة ٦٩٤هجرية . لما أراد براعة المطلع، جرد من نفسه شخصاً، مزج دمعه بدمه، فسأله عن علة ذلك، فقال مخاطباً له :

أمن تذكر جيران بذي سلم   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وهي : مائة واثنان وستون بيتاً : -

منها : اثنا عشر في المطلع .

وستة عشر : في ذكر النفس، وهواها .

وثلاثون : في مدائح الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

وتسعة عشر : في مولده .

وعشرة : في يمن دعائه (في من عابه) .

وسبعة عشر : في مدح القرآن .

وثلاثة عشر : في ذكر معراجه .

واثنان وعشرون : في جهاده .

وأربعة عشر : في الاستغفار .

وتسعة : في المناجاة .

وعليها شروح كثيرة، منها :

(شرح) : للشيخ : علي بن محمد البسطامي الشاهرودي المعروف : بمصنفك، المتوفى : سنة ٨٧٥ هجرية . خمس وسبعين وثمانمائة . أوله : (الحمد لله الذي جعل مقادير العلماء . . . الخ) . قال في آخره : تم بقصبة بسطام، لثماني عشرة مضين من رمضان، سنة ٨٣٦، ست وثلاثين وثمانمائة . وكان الافتتاح فيه : بجامع هراة، في جمادى الأولى، سنة ٨٣٥، خمس وثلاثين وثمانمائة .

وشرحها : الشيخ، بدر الدين : محمد بن محمد الغزي . وسماه : (الزبدة) . وتوفي : سنة ٩٨٤، أربع وثمانين وتسعمائة .

والشيخ محيي الدين : محمد بن مصطفى، المعروف : بشيخ زاده . المتوفى : سنة ٩٥١ . أوله : (الحمد لله المحتجب عن درك العيون بكمال فردانيته . . . الخ) .

وشرحها : الشيخ، القاضي : بحر بن رئيس بن الهاروني المالكي . شرحاً

أوله: (الحمد لله كاشف الكروب والآلام. . . الخ). وسماه: (ارتشاف الشهدة، في شرح قصيدة البردة). قال مؤلفه: إنني قدمت في الأبيات، وأخَّرت لأجل الشرح، ولم يكن أحد تقدَّمني بمثل هذا الشرح، إلا من احتوى على كتب كثيرة، وعلوم جمة غزيرة.

وشرحها **المولي**: عبيد الله (محمد) بن يعقوب الفناري (صاري). المتوفى: سنة ٩٣٦هجرية، ست وثلاثين وتسعمائة، معزولاً عن قضاء حلب. قال صاحب (الشقائق): وهو من أحسن شروحها.

وشرف الدين: **علي اليزدي**: المتوفى: سنة ٨٢٨، ثمان وعشرين وثمانمائة.

وشمس الدين، **أبو عبد الله**: محمد بن عبد الرحمن الزمردي، الشهير: بابن الصائغ. المتوفى: سنة ٧٧٦هجرية. أوله: (أما بعد، حمداً لله الذي من حمده مدح أنبيائه. . . الخ).

وكمال الدين: **حسين الخوارزمي**. المتوفى: في حدود سنة ٨٤٠هجرية.

وجمال الدين: **عبد الله بن يوسف**، المعروف بابن هشام النحوي. المتوفى: سنة ٧٦١.

والشيخ زين الدين: خالد بن عبد الله الأزهري. فرغ من تأليفها: في رجب، سنة ٩٠٣هجرية. شرحها أولا: شرحا مفصلا. سماه: (الزبدة، في شرح قصيدة

البردة). أوله: (أما بعد، حمداً لله مستحق التحميد. . . الخ). ثم اختصره.

وجلال الدين: محمد بن أحمد المحلي، الشافعي. المتوفى: سنة ٨٦٤هجرية. وهو: شرح مختصر، أيضاً.

وشرحها: أحمد بن محمد بن أبي بكر. لعله: المرعشي. اقتصر على: حل ألفاظها. وأتمه في: المحرم، سنة ٧٩٧، سبع وتسعين وسبعمائة. ثم شرحها: شرحاً مبسوطا. في: شعبان، سنة ٨٠٩، تسع وثمانمائة. وسماه: (نزهة الطالبين، وتحفة الراغبين).

وشرحها: خير الدين: خضر بن عمر العطوفي. المتوفى: سنة ٩٤٨هـ، ثمان وأربعين وتسعمائة.

وزين الدين، أبو العز (أبو المظفر) طاهر بن حسن، المعروف: بابن حبيب الحلبي. المتوفى: سنة ٨٠٨هجرية. وسماه: (وشي البردة). وخمَّسها.

وشرحها: أبو عبد الله: محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني. وهو: شرح عظيم. سماه: (بالاستيعاب، لما فيها من البيان والإعراب). وله: (شرح آخر). سماه: (إظهار صدق المودة، في شرح قصيدة البردة). أوله: (الحمد لله الذي خلع على حبيبه محمد بردة عنايته السابقة الكبرى. . . الخ). وهو: شرح عظيم. وتوفي: سنة ٧٨١هجرية.

وشرحها: أحمد بن مصطفى، الشهير: بلالي. شرحا بالعربي. ثم شرحها: بالتركي ثانيا. وأتمه في: سنة ١٠٠١ من الهجرة. وأول الشرح التركي: (الحمد لمن جعل النظم لحسن الكلام... الخ).

وخمَّسها أيضا جماعة، منهم: سليمان بن علي القراماني. المتوفى: سنة ٩٢٤هجرية وعارضها: بأخرى.

ومحمد نبادكاني بن صافي. المتوفى: في حدود سنة ٩٠٠هجرية.

وأبو الفضل: أحمد بن أبي بكر المرعشي. المتوفى: سنة ٨٧٢هجرية.

وعبد الله بن محمود، المعروف: بكجوك محمود زاده. المتوفى: سنة ١٠٤٢هجرية.

ويوسف بن موسى الجذامي. المتوفى: سنة ٧٦٧هجرية.

وأسعد بن سعد الدين المفتي، من آل حسن جان، المشهورالمتوفى: سنة ١٠٣٤هجرية.

ويحيى بن زكريا المفتي.

ومن شروحها: (صدق المودة).

وخمَّسها: الشيخ، شمس الدين: محمد بن خليل المقري، الحلبي، المعروف:

بابن القباقبي. المتوفى: سنة ٨٤٩هجرية. سماه: (الكواكب الدرية، في مدح خير البرية). وشرحه: مصطفى بن بالي. والمولى: معروف، حال كونه قاضيا بمصر. وهو مختصر. تركي.

وشرحها: المولى: محمد، الشهير: بابن بدر الدين المنشي، الرومي، الأقحصاري، الحنفي، شيخ الحرم المحمدي. المتوفى: سنة ١٠٠١هجرية وسماه: (طراز البردة). وتاريخه: تم شرحي. أوله (أفصح ما أفصح عنه بلابل البلاغة...) وفرغ عن كتابته: سنة ٩٥٨ هجرية. قال:

ولما تم ما أملأت بالشام   أتى تاريخ رشحي: تم شرحي

سنة ٩٥٨هجرية.

والشيخ، رضي الدين: يوسف بن أبي اللطف القدسي، الشافعي. المتوفى: بعد الألف، في مجلد. أطال فيه، وأطنب.

أوله: (الحمد لله الذي أرسل محمدا رحمة... الخ).

وبدر الدين: محمد بن بهادر الزركشي. المتوفى: سنة ٧٩٤هجرية.

وعبيد الله بن محمد بن يعقوب. وسماه: (إغاثة اللهفان).

وشرحها: شمس الدين، أبو عبد الله: محمد بن حسن القدسي، البرموني.

أوله: (الحمد لله الذي أظهر من مكنون سره. . . الخ). ذكر فيه: أنه شرحه بمدينة قسطنطينية، بالزاوية البايزيدية. جمعه: من الشروح. سماه: (النبذة في طي العدة، لنشر معاني البردة). سنة: ٩٩٠هجرية.

ومن شروحها: شرح الشيخ: جلال الدين الخجندي، نزيل الحرم. المتوفى: سنة ٨٠٣هجرية. أوله: (الحمد لله الذي أكرمنا بدين الإسلام. . . الخ). وهو: شرح مختصر. جمعه: بعض تلامذته، من إملائه في الحرم النبوي.

وشرحها: العلامة، أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل القدسي، الشافعي، المقري، النحوي، المؤرخ. المتوفى: سنة ٦٦٥هجرية. أوله: (سبحان من أخفى سبحات وجهه، بحجاب عجائب الأنوار. . . الخ).

ومن شروحها: شرح أبي العباس: أحمد الأزدي، المعروف: بالقصار.

وحسن بن حسين التالشي. أوله: (الحمد لله المحمود الذي خلق نور محمد. . . الخ). ذكر فيه: أنه أنشأه بالقاهرة، للوزير: علي باشا.

وخمسها الشيخ، الأديب، ناصر الدين بن عبد الصمد، معيد المدرسة المالكية، بفيوم.

وشعبان بن محمد القرشي. وسماه: (آثار المعشوق) (آثار العشرة). أوله: -

يا قلب قد فاض دمع العين كالديم

وخمسها: الإمام، شهاب الدين: أحمد بن محمد الحجازي. المتوفى: سنة ٨٧٥هـ.

وشرحها: الفاضل: مسعود بن محمود بن يحيى الحسيني. أوله: (الحمد لله نحمده ونستعينه... الخ). ذكر فيه: بحر القصيدة، وعروضها. وسماه: (نزهة الطالبين، وتحفة الراغبين).

ومن شروحها: (نتايج الأفكار). ليحيى بن منصور بن يحيى الحسني. أوله: (أحمد الله ذا العظمة والسلطان... الخ).

وشرحها: الإمام، فخر الدين: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد الشيرازي. شرحا بسيطا. أوله: (الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكل عليه... الخ). ذكر فيه: أنه رواها عن شيوخه، منهم: صاحب: (القاموس). ثم شرحها، مع أبحاث كثيرة. في: شعبان، سنة ٨٠٩ هـ. بعد أن شرحها أولا، مقتصرا على حل ألفاظها. وشرح معانيها: في محرم، سنة ٧٩٧هـ. مبنيا على: خمسة قواعد: مباد، ومقاصد، وتراجم، وتقطيعات، وإعرابات. وسماه: (نزهة الطالبين، وتحفة الراغبين).

ومن شروحها: شرح: منسوب للفاضل: الحسن بن محمد بن الحسن الحنفي، النخعي. أوله: (إن أول ما ألويت إليه أعنة الأقلام في ديوان التحميد... الخ). ذكر

فيه: لغاتها، وإعرابها، ومعناها، مبسوطا. قال حاجي خليفة: "ورأيت: نسخة منه، منسوخة: عام ١٠٤٦هـ.

وشرحها: محمد بن منلا: أبي بكر بن محمد بن منلا: سليمان الكردي، السهراني، الحنفي، في: رمضان، سنة ١٠٤٨هـ، بالجامع الأزهر. أوله: (الحمد لله الذي أوجد الموجودات من كتم العدم... الخ). وسماه: (بالدرة المضية، في شرح الكواكب الدرية).

ومن شروحها الفارسية: شرح ممزوج. أوله: (بدانك ناظم أين قصيدة... الخ). شرحه: سنة ٩٢٠هـ. وأول شرحه: (موزون ترين كلامي كه أركان بيت المعمور قصيدة... الخ). لغضنفر بن جعفر الحسيني.

وشرحها: عبيد الله بن محمد بن يعقوب. وسماه: (إغاثة اللهفان). وكان حيا: سنة ٩٣٢هجرية.

وشرحها: جلال بن قوام بن الحكم. أوله: (الحمد لله الذي علم بالقلم... الخ). قال: قد اطلعت على القصيدة الموسومة: (بالكواكب البدرية، في مناقب أشرف البرية). وتعرف: (بالبردة النبوية). التي نظمها: البوصيري، في: فضائل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وترشيح شيء من معجزاته الباهرة، وآثاره المرضية، يُتبرك ويُستشفى بها، أكثر مما يتبرك بها بسائر مدائحه ومعجزاته، لكرامة ظهرت على ناظمها منها. وأتمه في: جمادى الآخرة، سنة ٧٩٢هـ.

ومن أحسن شروحها: شرح: نور الدين: علي القاري، المتوفى: سنة ١٠١٤هـ.

ومن شروحها بالتركي: شرح مختصر. للشيخ: سعد الله الخلوتي.

ومن شروحها: شرح أوله: (حامدا لله العلي العظيم... الخ). وفرغ منه: سنة ٨٨٢، اثنتين وثمانين وثمانمائة.

وشرح: الشيخ، شهاب الدين: أحمد بن محمد القسطلاني، شارح: (البخاري). المتوفى: سنة ٩٢٣هـ. أوله: (الحمد لله الذي شرح بمدح نبينا محمد - ﷺ - قلوب أوليائه... الخ). وسماه: (مشارق الأنوار المضية، في شرح الكواكب الدرية).

ومن شروحها: شرح. أوله: (لك الحمد والشكر يا ذا النعم... الخ). ألفه صاحبه، للوزير: محمود باشا.

ومن شروحها بالتركية: شرح مبسوط. ليحيى بن عبد الله الدفتري، المصري. أورد فيه: تخميسا تركيا، وعربيا، وترجمة للأبيات. ألفه: في عصر السلطان: أحمد خان. وذكر أنه: شرح (المنفرجة) أيضا، بالتركية.

وتسبيعها: لجمال الدين: محمد بن الوفاء. أوله:

الله يعلم ما بالقلب من ألم... الخ

وشرحها بعض المدنيين. بعد القراءة على الشيخ، عفيف الدين: عبد الله بن محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى السعدي، المطري. في: محرم، سنة ٧٦٠هـ، في الروضة. وأشار هو إليه: بتعليق حواش، كالشرح له.

وشرحها: القاضي: زكريا بن محمد الأنصاري. المتوفى: سنة ٩٢٦هـ. وهو: شرح ممزوج. مختصر. أوله: (الحمد لله الملك، الوهاب... الخ). سماه: (الزبدة الرائقة، في شرح البردة الفائقة). وفرغ في: صفر، سنة ٩٢٨هجرية.

وشرحها: عصام الدين إبراهيم بن عربشاه الأسفرايني المتوفى: ٩٤٤هـ. بالفارسية.

وممن خمسها: الشيخ، نجم الدين: محمد بن أحمد بن عبد الله القلقشندي، الشافعي. المتوفى: سنة ٨٧٦هـ.

ومن شروحها: (طيب الحبيب، هدية إلى كل محب لبيب). لجلال الدين: أحمد بن محمد بن محمد الخجندي. ولد: سنة ,٧١٩ وذكر: الحسين الواعظ، في (تحفة الصلوات)شرحاً لها. للإمام المدني.

ترجمة الإمام البوصيري رضي الله عنه

هو إمام الشعراء، وشاعر الأئمة العلماء بل هو الفرقد الوضاء الذي أنار الطريق إلى المدائح النبوية: شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي البوصيري" .

أصول البوصيري ونشأته: ولد الإمام البوصيري - رضي الله عنه - بقرية "دلاص" إحدى قرى بني سويف من صعيد مصر، يوم الثلاثاء أول شوال ٦٠٨هـ، التي كان منها أحد أبويه، والآخر من بوصير بضم الباء، " وكلتاهما بمديرية بني سويف وتُعْرف ببوصير" لأسرة ترجع جذورها إلى قبيلة "صنهاجة" إحدى قبائل البربر، التي استوطنت الصحراء جنوبي المغرب الأقصى، ونشأ بقرية "بوصير" القريبة من مسقط رأسه.

نشأته ووفاته: ثم انتقل الإمام رضي الله عنه بعد ذلك إلى القاهرة حيث تلقى علوم العربية والأدب. منذ نعومة أظفاره؛ فحفظ القرآن في طفولته، وتتلمذ على عدد من أعلام عصره، كما تتلمذ عليه نخبة طيبة وعدد كبير من العلماء المعروفين، منهم: أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي، وفتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد العمري الأندلسي الإشبيلي المصري، المعروف بابن سيد

الناس . . . والعز بن جماعة وغيرهم كثير رحمهم الله تعالى . وكان رضي الله عنه يحمل قلباً لا يضطرب ، وعقلاً مستنيراً ، ولساناً صيرفياً ، وقصائده في حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزكي عظيم ما كان يتمتع به من وجدان الشاعر المخلص مع صفاء السريرة .

نظم الإمام البوصيري الشعر منذ حداثة سنه ، وله قصائد كثيرة ، ويمتاز شعره بالرصانة والجزالة ، وجمال التعبير ، والحسّ المرهف ، وقوة العاطفة ، وأكثر ما اشتهر بمدائحه النبوية التي أجاد استعمال البديع فيها ، كما برع في استخدام البيان ، ولكن غلبت عليه المحسنات البديعية في غير تكلف ؛ وهو ما أكسب شعره ومدائحه قوة ورصانة وشاعرية متميزة لم تتوفر لكثير ممن خاضوا غمار المدائح النبوية والشعر الصوفي . ثم أكرم الله إمامنا أن يجتمع بقطب العارفين وقدوة السالكين القطب الغوث سيدي الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه وأرضاه وعنا به ، وهو الذي تلقى علوم الأستاذ الجليل القطب الواصل سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، فانتفع الإمام البوصيري بصحبته كثيراً ، ثم تنسك وتصوف ، وأخذ عنه كثير من الرجال ، وتربوا على يديه الكريمتين .

آثاره : له رضي الله عنه من القصائد العصماء ما لا يشبهها إلا القليل في مديح سيد الوجود صلى الله عليه وآله وسلم ومن أشهرها بعد بردة المديح المباركة - موضوع هذا

الكتاب - قصيدة "الهمزية في مدح خير البرية" ومطلعها: -

كيف ترقى رُقيَّك الأنبيـــــاءُ ... يا سماء ما طاولتها سماءُ؟

لم يساووك في عُلاك وقد حال ... سنى منك دونهم وسناءُ

وله قصيدة أخرى على وزن "بانت سعاد"، ومطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغولُ ... وأنت عن كل ما قدمتَ مسئولُ؟!

واشتهر الإمام البوصيري رضي الله عنه بأنه كان يجيد الخط، وقد أخذ أصول هذا الفن وتعلم قواعده على يد "إبراهيم بن أبي عبد الله المصري"، وقد تلقى عنه هذا العلم عدد كبير من الدارسين، بلغوا أكثر من ألف طالب أسبوعيًا.

وقد تقلب الإمام البوصيري في العديد من المناصب في القاهرة والأقاليم؛ فعمل في شبابه في صناعة الكتابة، كما تولى إدارة مديرية الشرقية مدة، وقد اصطدم بالمستخدمين المحيطين به، وضاق صدره بهم وبأخلاقهم بعد أن تكشفت له مساوئهم، وظهرت له عيوبهم؛ فنظم فيهم عددًا من القصائد يهجوهم فيها، ويذكر عيوبهم ويفضح مساوئهم، ومنها قصيدته النونية التي مطلعها:

نقدتُ طوائفَ المستخدمينا ... فلم أرَ فيهم رجلا أمينًا

وفيها يصب جام غضبه ونقمته على الجميع، ويهجو كل الناس على اختلاف

مشاربهم وعقائدهم؛ فلم ينجُ من هجائه أحد، ويصور على نحو ساخر النزاع والتعارض الذي يمزق أبناء مصر ويشتت وحدتهم. مما أثار ذلك عليه نقمة المستخدمين وعداوتهم، فسعوا ضده بالدسائس والفتن والوشايات، حتى سئم الوظائف والموظفين، واستقال من الوظائف الحكومية.

عُني الإمام البوصيري رضي الله عنه بقراءة السيرة النبوية، ومعرفة دقائق أخبار سيدنا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وجوامع سيرته العطرة، وأفرغ طاقته وأوقف شعره وفنه على مدح النبي - ﷺ -، وكان من ثمار مدائحه النبوية (بائياته الثلاث)، التي بدأ إحداها بلمحات تفيض عذوبة ورقة استهلها:

وافاك بالذنب العظيم المذنبُ خجلاً يعنف نفسه ويؤنِّبُ

ويستهل الثانية بقوله: -

بمدح المصطفى تحيا القلوب وتغتفر الخطايا والذنوبُ

أما الثالثة، وهي أجودها جميعًا، فيبدؤها بقوله: -

أزمعوا البين وشدوا الركابا فاطلب الصبر وخلِّ العتابا

وله - أيضاً - عدد آخر من المدائح النبوية الجيدة، من أروعها قصيدته "الحائية"، التي يقول فيها مناجياً ربه عز وجل:

يا من خزائن ملكه مملـــــوءة كرمًا وبابُ عطائه مفتـــوح

ندعوك عن فقر إليك وحــاجة ومجال فضلك للعباد فسيح

فاصفحْ عن العبد المسيء تكرُّمًا إن الكريم عن المسيء صفوح

وقصيدته "الدالية" التي يبدؤها بقوله :

إلهي على كل الأمور لك الحمد فليس لما أوليتَ من نعمٍ حـــدُّ

لك الأمر من قبل الزمان وبعده وما لك قبل كالزمان ولا بعـــدُ

وحكمُك ماضٍ في الخلائق نافذ إذا شئتَ أمرًا ليس من كونه بُدُّ

آثار الإمام البوصيري الشعرية والنثرية المطبوعة :

ترك الإمام البوصيري عددًا كبيرًا من القصائد والأشعار ضمّها ديوانه الشعري الذي حققه محمد سيد كيلاني، وطُبع بالقاهرة سنة ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥م، وقصيدته الشهيرة البردة "الكواكب الدرية في مدح خير البرية"، والقصيدة "المضرية في مدح خير البرية"، والقصيدة "الخمرية"، وقصيدة "ذخر المعاد"، ولامية في الرد على اليهود والنصارى بعنوان: "المخرج والمردود على النصارى واليهود" نشرها الشيخ "أحمد فهمي محمد" بالقاهرة سنة (١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م)، وله أيضا "تهذيب

الألفاظ العامية" ، وقد طبع كذلك بالقاهرة . ومن العجب العجاب أن شعره في أغلبه لا يمتاز بجودة ولا بلاغة ولا بروعة كبيرة ، ولكن مدائحه النبوية وحدها هي التي نالت من البيان والبلاغة أعلى نصيب! واستحوذت على قصب السبق في كل رهان . فتراه في هذه القصيدة العصماء - أعني البردة - قد استولت عليه النشوة وموهبة البيان من كل جانب ، فأنطقته بهذه الحكمة الرائعة ، وجعلت قوله رصيناً جزلاً ، ولا بدع فتناوله للمدائح النبوية هو الذي أهّله لهذه البلاغة ، ولذلك السمو في المعاني ، ولتلك الروعة والسحر من القول ، وكان ذلك بمثابة العون والرعاية والمكافأة وشد الأزر من حضرة سيدنا الحبيب ﷺ له على حسن نيته وصدق عقيدته ، وعمق إيمانه ، وذلك شبيه بسيدنا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه شاعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ كان شعره في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن المسلمين ، هو أجود ما نظم وأبلغ ما قال ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له : " قل وروح القدس معك " .

توفى الإمام رضي الله عنه سنة (٦٩٥ هجرية - ١٢٩٥م) عن عمر بلغ ٨٧ عامًا . ودفن قريباً من ضريح شيخه سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه بالاسكندرية . وكتب على قبره الأبيات التالية : -

محمد بن سعيد" حاز منزلة ... في صادق الشعر أعيت كل نحرير
والناسجون على منوال بردته ... باؤوا بعجزٍ وأبدوا كل تقصير

أبياتها كالرقى أضحت مكررة ... فيشتفي كل منفوس ومصدور

تتلى بكل بقاع الأرض ينشدها ... فم الزمان بإجلال وتوقير

وفي سماء الهدى الهمزيةاشتهرت ... كأنها رقمت في اللوح بالنور

ميلاده بدلاص ثم غادرها ... باليمن والأمن تنفيذاً لمقدور

وقد ترعرع في بوصير بلدته ... ومنهما جاء تركيب الدلاصيري

تحية الله لا تنفك هامية ... عليه حتى يحين النفخ في الصور

هواتف الحق نادته مؤرخة ... وحي القبول على لحد الأباصيري

رضي الله عن الإمام البوصيري وروح روحه، وأفسح ضريحه، وقدس سره، وأنار رمسه، وأدخله الجنة في عليين مع الأنبياء والشهداء والصالحين، وجمعنا به مع سيدنا النبي ﷺ تحت ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ينظر ترجمته في:

١ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للإمام السيوطي ١/ ٥٧٠.

٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي٧/ ٧٥٣ - ٧٥٤ .

٣ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٣/ ٣٦٢ - ٣٦٩ .

٤ - الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥-١١٣ .

٥ - البدر السافر ٩٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بشيخ مشايخ الإسلام ابن حجر

هو شيخ الإسلام أبو العباس شهاب الدُّنيا والدِّين أحمد بن محمد بدر الدِّين بن محمد شمس الدِّين، بن علي نور الدين، بن حجر الهيتمي المكِّي السَّعدي، الأنصاري، العالم، العلاَّمة، الرَّحَّال، الأزهري، الأشعري عقيدة، الجنيدي طريقة، الشافعي مذهباً، المحدِّث، الفقيه، الصوفي، الباحث، المحقق، المدقِّق، المصري الشهير.

ولد رضي الله عنه في أواخر سنة (٩٠٩ هجرية) تسع وتسعمائة من هجرة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، في محلة أبي الهيتم - بالمثناة الفوقية كما في خلاصة الأثر - قرية من إقليم الغربية بمصر، بالقرب من المحلة الكبرى، وإليها ينسب.

وسمي بابن حجر - على ما قيل - إن جده كان ملازماً للصمت في جميع أحواله، لا ينطق إلا لضرورة، ومن هنا شُبِّه بالحجر.

ويخطىء من ينطق الهيثمي - بالمثلثة - وصوابه: الهيتمي - بالمثناة الفوقية - لأنه شوهد بخطه هو: ابن حجر بالمثناة الفوقية - في مخطوطاته العديدة.

نشأته:

لم يمهل القدر والده فوافاه الأجلُ في حياة جَدِّه، وما زال ابن حجر طفلاً صغيراً؛ فكفله شَيخَا أبيه العارفان الكاملان علماً وعملاً، ومعرفةً: شمس الدين محمد السروي المشهور بابن أبي الحمائل، المتوفى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة من الهجرة، بمصر. وتلميذه - أي: تلميذ ابن أبي الحمائل - شمس الدين أحمد الشناوي، وهو من أعظم تلامذة شيخ الإسلام الشرف المناوي، ظاهراً وباطناً، ولذا كان شيخ الإسلام قاضي القضاة الشيخ زكريا الأنصاري يبالغ في تعظيمه ويقول: أخي وسيدي.

ثم إن الشيخ الشمس أحمد الشناوي نقله من محلة أبي الهيتم إلى طنطا ليطلب العلم، فقرأ هناك على عالمين كانا بها من مبادىء العلوم، وحفظ القرآن العظيم، ثم نقله أول سنة تسعمائة وأربع وعشربن من الهجرة إلى كعبة العلم والعلماء الجامع الأزهر، ثم سلَّمه لرجل صالح من تلاميذه ليكون تحت نظره، فرعاه أحسن رعاية، وحفظه حفظاً بليغاً، وأقرأه "المنهاج" وغيره، وجمعه مع علماء مصر مع صغر سنه.

وبالتنقيب في كتب التراجم والأعلام نجده رضي الله عنه تتلمذ وروى عن جلة من الأعلام من تلامذة شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وأجلّهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الذي انتهت إليه الرياسة بمصر، حتى قيل إنه لم يبق في آخر عمره إلا طلبته، أو تلاميذهم، كان يدرس، وآثر ابن حجر الهيتمي الأخذ عنه أكثر من بقية

تلامذة ابن حجر العسقلاني، وحدثه بالمسلسل بالأولية، وأجاز به، وسائر مروياته، كما أخذ الفقه عنه وأجازه به.

قال ابن حجر الهيتمي: " وما اجتمعت به - أي: بالقاضي زكريا - قط إلا قال: " أسأل الله أن يفقهك في الدين ".

وتلقى الفقه عن أئمة عصره : كـ: ناصر الدين الطبلاوي، وتاج العارفين العلامة أبي الحسن البكري، وغيرهما رضي الله عنهم، حتى أجازوه أواخر سنة تسع وعشرين وتسعمائة في الإفتاء والتدريس، والتأليف، وعمره دون العشرين، من غير سؤال منه لذلك.

وخلال تلك المدة قرأ **النحو** على: الشمس البدري، والشمس الحصابي، والشمس اللقاني، والشمس الديروطي، وغيرهم.

والتصريف للعزي على الشيخ الطبلاوي، والجاربردي على الحطَّابي، وكان يقول في إقرائه لهذا الدرس بحضرة جمع جمٍّ من الفضلاء: " لي زمان ما تطلعت لقارىء في هذا العلم إلا لهذا الدرس ". **وعلم الأصلين**: على الشمس الدلجي، والشيخ ناصر الدين الطحان، والطبلاوي، والبكري، والشهاب ابن عبد الحق، والشمس العبادي وغيرهم.

والمنطق: على النور الطهواي، والمحقق الشيخ عبيد الشنشوري، والدلجي، وغيرهم.

والفرائض والحساب: على إمام وقته فيهما الشمس بن عبد القادر الفرضي وغيره.

وحضر الطب: عند إمام وقته فيه شهاب الدين أحمد بن الصَّايغ المصري، الحنفي، العلاّمة في العلوم العقلية والنقلية.

والتصوف: على العبادي، وابن الطحان، والبكري، وغيرهم.

ولازم إمام المحققين في زمانه الإمام ناصر الدين اللَّقاني في عدة علوم مدة مديدة، كـ"المنطق للغزي"، و"الأصلين"، و"شرح العقائد"، و"شرح المواقف"، و"شرح جمع الجوامع" للمحلي، و"المعاني والبيان" و"المختصر" فـ"المطول"، والنحو: التوضيح، والصَّرف: شرح سعد التفتازاني والجاربردي. وفي سنة اثنين وثلاثين ألزمه شيخه الشناوي بالتزوج، فقال الهيتمي: لا أملك شيئاً!!. فقال الشيخ: هي بنت أختي، والمهر عندي، فزوجه بها وهي بنت ابن عمه شقيق أبيه. وكان هؤلاء العلماء الأفاضل من تلاميذ الإمام المحقق في العلوم الآلية والشرعية، شيخ المشايخ الشمس الجوجري رحمه الله تعالى، شارح الإرشاد، وشارح الهمزية أيضاً.

ثم قرأ ابن حجر وروى الحديث عن جماعة من الأعلام، كالمعمَّر الزين عبد الحق

من الكتب الستة في جمع كثيرين، وأجازوا له بباقيها وبغيرها.

وقرأ وروى أيضاً عن الأمين الغمري، تلميذ ابن حجر العسقلاني، والشهاب أحمد الرملي، والبلقيني.

ولابن حجر: معجم وسط، ومعجم صغير، وقد جمع فيهما أعلام مشايخه، وما لهم من إجازات، وكذا الكتب التي رواها عنهم.

من بين هذه الشموس، ومن مدرسة هؤلاء الأعلام الفحول نضج وتخرج شيخنا العلامة ابن حجر الهيتمي، وبرع في العلوم العقلية والنقلية، كالتفسير والحديث، والكلام، والفقه، والأصول، والفرائض والحساب، والنحو، والصرف، والمعاني، والمنطق، والبيان، والتصوف، وقد ساعده على التحصيل والاتقان موهبته في الحفظ، فإنه كان رضي الله عنه مشهوراً بقوة الحفظ.

وكان من محفوظاته: "المنهاج الفرعي"، لنبوغه المبكر، ومن هنا أذن له شيوخه في الإفتاء والتدريس وسنه دون العشرين. ومقروءاته لا يمكن حصرها.

وكان رضي الله عنه زميلاً للشيخ العلامة جمال الدين الصابي، وهو من أجَلِّ تلامذة شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وأصبح ابن حجر الهيتمي - بفضل سعة أفقه ووفرة مروياته، وكثرة تصانيفه - الإمامَ الأعلم، والمقتدى الأفخم، إمام الوقت في

الحديث، وحائز قصب السبق والفضل في القديم والحديث، شيخ الإسلام والمسلمين، وبركة العلماء العاملين، كما وصفه تلاميذه.

والحقُّ أن الإمام رضي الله عنه لم ينل تلك المكانة المرموقة إلا بفضل مواهبه العقلية وجده واجتهاده، وذكائه ومصاحبته لأعلام عصره. وصدق إمامنا الشافعي رضي الله عنه حينما قال موصياً في طلب العلم:

أخي لن تنال العلم إلا بستة   سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة   وصحبة أستاذ، وطول زمان

وكان من الصفات التي اتَّصف بها شيخنا الهيتمي، وجعلته في مصافِّ الأعلام الأخيار تقلّله من الدنيا، وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، شأن السلف الصالح الذين وفوا بعهدهم مع الله، واتخذوا من رسول الله ﷺ أسوة طيبة، وقدوة حسنة. وفي آخر عام ثلاث وثلاثين وتسعمائة من الهجرة النبوية، قدم إلى بلد الله الحرام مكة حاجاً مع شيخه البكري، وهنا طاب له الجوار حتى إنه في عام أربع وثلاثين جاورا، وفي هذه الأثناء خطر له فيها أن يؤلف في الفقه، فتوقف إلى أن رأى في المنام الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه، وهو يأمره بالتأليف، فاستبشر وألّف.

وحينما رجع من مكة اختصر متن الروضة، وشرحه شرحاً مستوعباً لما في "شرح الروض"، و"الجواهر"، وكثير من شروح "المنهاج"، و"الأنوار".

ثم في آخر سنة سبع وثلاثين نراه يخرج مرة أخرى للحج في صحبة شيخه المذكور ومعه أولاده، ومعه أيضاً "شرح المختصر" المذكور، فجاور سنة ثمان وثلاثين، وألحق في هذا الشرح من كتب اليمن وغيرها شيئاً كثيراً، فرآه بعض علماء الأعاجم فأعطى مبلغاً كبيراً لكتابته إذا وصلوا إلى مصر، ولما وصلوا أريد استنساخه له فحسده بعض حاسديه فتصدى له إلى أن أخرج الكتاب ليكشف منه، ثم اشتغل، ثم التفت إليه فلم يره، فصبر واحتسب، فعوضه الله خيراً من ذلك.

وذلك أنه لما حج بعياله هو وشيخه سنة أربعين، ثم جاورا سنة إحدى وأربعين، ثم عزم شيخه العودة لبلده؛ وأقام هو بمكة من ذلك الزمن يؤلِّف، ويفتي، ويدرِّس، فشرح أيضاً: "إيضاح النووي"، ثم شرح "الإرشاد"، شرحين، ثم شرح "العباب"، جمع فيه المذهب جمعاً لم يسبق إليه مع غاية من التحرير والتدقيق، والتنقيح، مستوعباً لما في كتب المذهب، مع بيان المراجع، والجواب على المشاكل، مما تقر به العيون، ثم شرح "المنهاج"، وله في خلال ذلك تآليف نحو الخمسين مؤلفاً.

مجاهداته وما لاقاه من الشدائد والأذى في طلب العلم:

يحدثنا الإمام رضي الله عنه عن بعض ما لاقاه فيقول: "قاسيت في الجامع الأزهر ما لا تحتمله الجبلّة البشرية، لولا معونة الله وتوفيقه، بحيث أني جلست فيه نحو أربع سنين ما ذقت اللحم إلا في ليلة دعينا لأكل؛ فإذا هو لحم يوقد عليه؛ فانتظرناه إلى إبهار الليل، ثم جيء به، فإذا هو يابس!! كما هو نيء، فلم أستطع منه لقمة!!!.

وقاسيت أيضاً من الإيذاء من بعض أهل الدروس التي كنا نحضرها ما هو أشد من ذلك الجوع، إلى أن رأيت شيخنا ابن أبي الحمائل قائماً بين يدي سيدي أحمد البدوي؛ فجيء باثنين كانا أكثر إيذاء لي، فضربهما بين يديه ضرباً شديداً.

وكذلك أوذي بمكة كثيراً فصبر، فكفاه الله شر المؤذين. " كما ذكر ذلك الإمام الشوكاني في البدر الطالع ١/ ١٠٩ ".

وذكر الشوكاني أيضاً سبب انتقاله إلى مكة فقال: إنه كان رضي الله عنه قد اختصر "الروض" للمقري، وشرع في شرحه، فأخذه بعض الحسَّاد، وفتَّته وأعدمه، فعظم عليه الأمر، واشتد حزنه، فانتقل بسبب ذلك إلى مكة، وصنَّف بها الكتب المفيدة. ومؤلفاته في مصر ومكة كثيرة نافعة، محررة وافية بموضوعاتها، وقد سارت هذه المؤلفات في الأمصار سير الشمس في المدار، وهي تدور على كتب الفقه والحديث وغيرهما.

وقال الشوكاني: " إن الهيتمي برع في جميع العلوم خصوصاً فقه الإمام الشافعي".

ثم يقول أحد تلاميذه: " أكثر مؤلفاته في مسائل يقع بينه وبين معاصريه فيها تخالف فتكون في حكم الفتاوى، وهذه المؤلفات تربو على الثمانية والثمانين، وسنذكر أغلبها مما عثرنا عليه إن شاء الله .

وكان رضي الله عنه كعبة العلماء، يقصدونه للاغتراف من بحره الزخار الصافي، والاقتطاف من روضه الناضر، وأصبح بحراً في الفقه، وقدوة الأئمة في زمانه، وقد أخذ عنه ما لا يحصى كثرة منهم: وجيه الدين الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ عمر ابن الشيخ أحمد بن عثمان بن محمد العمودي، وملك المحدثين جمال الدين الهندي، والإمام العلامة أبو السعادات. وهكذا نرى ازدحام الناس على مجلسه، والأخذ عنه، وافتخروا بالانتساب إليه، وكان ممن أخذ عنه مشافهة شيخ المشايخ البرهان بن الأحدب.

ثم يقول الشوكاني: "إن الهيتمي كان زاهداً متقللاً على طريقة السَّلف، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، واستمر على ذلك حتى مات".

ونتيجة لذلك أصبح الهيتمي في نظر معاصريه وتلامذته: شيخ الإسلام، خاتمة العلماء الأعلام، بحراً لا تكدِّره الدلا، إمام الحرمين كما أجمع عليه الملا، كوكباً سياراً في "منهاج سماء الساري"، يهتدي به المهتدون، تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ ذكر الخفاجي أن الهيتمي له ابنٌ اسمه: محمد، وكنيته: أبو الخير.

توفي الإمام ابن حجر الهيتمي رضي الله عنه - على الصحيح - في ضحوة يوم الاثنين، الثالث والعشرين من شهر رجب سنة أربع وسبعين وتسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام والتحية.

وممن رثاه الشيخ عبد القادر الفاكهي بمرثيتين: صغرى، وكبرى، فمن الكبرى قوله:

فيا لك شيخاً لا يضاهي عصابة   وقد كان بحراً تستقي غيثه السحب

ومنها:

ويا عجباً للطيب وهو مطيبٌ   بطيب تصانيف تسير بها النجب

تصانيف علم زاد في الكم عدها   على السبع والسبعين حررها الحسب

ومن الصغرى:

فهدَّ ركناً شديداً لا نظير له   بأرض مكة في الفتوى بلا بدل

وصير الناس فوضى لا شهاب لهم   هذا يقول: من المفتي عليّ، وليّ؟

وكانت وفاته رضي الله عنه بمكة المكرمة، ودفن بالمعلاة، في تربة الطبريين، بالقرب من مشهد ابن الزبير رضي الله عنه، وجعل عليه تابوت من خشب -وقتها-.

وقد أكرمه الله تعالى بكرامات عديدة: منها ما رآه بعض جماعته في المنام بعد موته؛ فسأله عن حاله، فقال: "نحن في عِليين".

وكفى بأبحاثه الجمة، وتوليدات أفكاره المهمة، كرامات وخوارق عادات، وقد صرح الإمام البلقيني بأنها من أعظم كرامات الصوفي لأنها تدوم ويتعدد نفعها.

مؤلفـــاته :

امتاز الإمام شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي منذ نعومة أظفاره بشغف المعرفة، وطلب العلم إلى نهاية عمره كل ذلك في حياة كانت منذ بدايتها إلى نهايتها خمساً وستين سنة، وعلمنا مما مر سابقاً أن ثقافته كانت متنوعة، واطلاعه كان واسعاً، وعلمه كان غزيراً، متعمقاً في بعض ألوان المعرفة، فضلاً عن هذا كان ذا ذكاء خارق، وعقل ناضج، وملكة حافظة، صبوراً على البحث، دؤوباً على الدرس والتأليف، ومصاحباً للعلماء الأعلام، ولا شكَّ أن هذه العوامل وغيرها أثمرت ثروة عظيمة، وأنتجت مؤلفات ضخمة جليلة متنوعة المواد، من فقه، وحديث، وتفسير، وكلام، أصولاً وفروعاً، وفرائض وغيرها، وصدق من قال: من تبحر في علم توصل به إلى سائر العلوم... وأن هذه الثروة العظيمة وهذا الإنتاج العلمي الضخم الغزير، قد نالا إعجاب تلاميذه، وأدهش من بعدهم، فتناولوه بالإجلال والإكبار والشرح والتحليل.

ولا عجب أخي القارىء فمؤلفاته كما ذكرنا تربو على الثمانين كتاباً ما بين مشروح ومؤلَّف ومخطوط ومطبوع، وذلك عدا الرسائل والحواشي الأخرى. نذكر من هذه المؤلفات: -

١ . إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام.

٢ . الإتحاف ببيان أحكام إجارة الأوقاف.

٣ . الأربعون العدلية.

٤ . الأربعون في الجهاد.

٥ . إسعاف الأبرار شرح مشكاة الأنوار.

٦ . أسنى المطالب في صلة الأقارب.

٧ . أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل.

٨ . إصابة الأغراض في سقوط الخيار بالإعراض.

٩ . الإعلام بقواطع الإسلام.

١٠ . الإفادة فيما جاء في المرض والعيادة.

١١ . الإمداد شرح الإرشاد.

١٢ . الإنافة فيما جاء في الصدقة والضيافة.

١٣ . إيضاح الأحكام لما تأخذه العمال والحكام.

١٤ . الإيضاح شرح أحاديث النكاح.

١٥ . الإيعاب شرح العباب.

١٦ . الانتباه لتحقيق غويص مسائل الإكراه.

١٧ . تاريخ إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا .

١٨ . تحذير الثقات من أكل الكفتة والقات .

١٩ . تحرير الكلام في القيام عند ذكر مولد خير الأنام .

٢٠ . تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال .

٢١ . تحفة الزوار إلى قبر النبي المختار .

٢٢ . تحفة المحتاج إلى شرح المنهاج .

٢٣ . التحقيق لما يشمله لفظ العتيق .

٢٤ . تطهير الجنان واللسان عن الخطورة والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان .

٢٥ . تطهير العيبة عن دنس الغيبة .

٢٦ . التعرف في الأصول .

٢٧ . تكفير الكبائر .

٢٨ . جزء في العمامة النبوية .

٢٩ . جزء فيما ورد في المهدي .

٣٠ . الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم «مما أكرمني الله بتحقيقه» .

٣١ . الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان .

٣٢ . الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود .

٣٣ . الدر المنظوم في تسلية الهموم .

٣٤ . رسالة في القدر .

٣٥ . زوائد سنن ابن ماجه .

٣٦ . الزواجر عن اقتراف الكبائر .

٣٧ . شرح ألفية ابن مالك .

٣٨ . شرح إيضاح النووي .

٣٩ . شرح العباب .

٤٠ . شرح صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإمام الغزالي .

٤١ . شرح مختصر أبي الحسن البكري في الفقه .

٤٢ . شرح مختصر الروض في الفقه .

٤٣ . شرح مقدمة بافضل في الفقه أو المنهاج القويم .

٤٤ . الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة .

٤٥ . العمدة في شرح البردة ؛ موضوع هذا الكتاب المستطاب .

٤٦ . الفتاوى الحديثية .

٤٧ . الفتاوى الفقهية الكبرى .

٤٨ . فتح الإله بشرح مشكاة المصابيح للتبريزي .

٤٩ . فتح الجواد شرح الإرشاد .

٥٠ . الفتح المبين شرح الأربعين .

٥١ . فضائل الصدقة وأحكامها وأنواعها .

٥٢ . قواطع الإسلام في الألفاظ المكفرة .

٥٣ . القول الجلي في خفض المعتلي .

٥٤ . القول المختصر في علامات المهدي المنتظر .

٥٥ . كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع .

٥٦ . مبلغ الأرب في فضل العرب .

٥٧ . مختصر الإيضاح .

٥٨ . معجم صغير – لشيوخه وإجازاتهم له .

٥٩ . معجم وسط – لشيوخه .

٦٠ . معدن اليواقيت الملتمعة في مناقب الأئمة الأربعة .

٦١ . المنح المكية في شرح الهمزية – وقد أكرمني الله بتحقيقه أيضاً – .

٦٢ . منهاج الطالبين في مختصر المحرر في فروع الشافعية .

٦٣ . مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

٦٤ . النخب الجليلة في الخطب الجزيلة .

٦٥ . نصيحة الملوك .

٦٦ . النعمة الكبرى على العالم بمولد سيد ولد آدم .

وغيرها كثير مما هو مطبوع أو مخطوط، أو مفقود ذكر في طيات الشروح والحواشي . . .

فرحم الله الإمام ابن حجر الهيتمي وأجزل له المثوبة جزاء ما قدمه للإسلام والمسلمين من تراث علمي لازال طلبة العلم والشيوخ ينهلون من ينابيعه الصافية،

وحري بنا -أبناء اليوم - أن نقتبس الهدى والرشاد من حياة أمثال هذا العلَم الهمام، ومن سبقه ولحقه من الأئمة الأعلام، وأن نترسم خطاهم، ونتبع منهاجهم، ونسير على منوالهم في إيمانهم الصادق، ويقينهم المخلص، ومحبتهم لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد... فهذا قلٌّ من كثر مما تمتع به إمامنا الهيتمي ذلك العالم العلم، وهذا جهد المقل، والكمال لله وحده.

اللهم إنا نضرع إليك أن تجعلنا ممن قام بحقوق آبائه في الدين لا سيما أكابر السلف الماضين الذين شهد لهم الصادق المصدوق بأنهم من خير القرون، المبرئين من كل وصمة وعيب رغم أنف الحساد والحاقدين، الذين رموهم بما هم منه بريئون، وممن أثنى الله عليهم في كتابه العزيز بالدعاء لكل عامل عليم، بقوله تعالى: - ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ وأن تحشرنا معهم فإننا نحبهم، ومن أحب قوماً حشر معهم، وأن تدخلنا في زمرتهم، وتجعلنا من جملة خدمهم وتعيد علينا من صالح معاملاتهم وأحوالهم الباهرة، وكراماتهم الظاهرة المتكاثرة حتى نكون من جملة أتباعهم، وجملة أشياعهم إنك الجواد الكريم، الرؤوف الرحيم، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وصلى الله على سيدي ومولاي وحبيبي وقرة عيني محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

قصيدة
بردة المديح المباركة

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله تعالى على سيدنا محمد و آله وصحبه
وسلم وشرَّف وكرَّم ومجَّد وعظَّم ووالى عليه وأنعم

قصيدة
بردة المديح المباركة

للإمام أبي عبد الله شرف الدين
محمد بن سعيد بن حماد البوصيري
رضي اللّه تعالى عنه وأرضاه

الفصل الأول
في الغزل وشكوى الغرام

١ أمِنْ تَذَكُّرِ جِيرانٍ بِذي سَلَمِ   مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

٢ أمْ هَبَّتْ الريحُ مِنْ تِلْقاءِ كاظِمَةٍ   وأوْمَضَ البَرْقُ في الظلْماءِ مِنْ إضَمِ

٣ فما لِعَيْنَيْكَ إنْ قُلْتَ اكْفُفا هَمَتا   فَما لِقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

٤ أيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ   ما بَيْنَ مُنْسَجِمٍ منهُ ومُضْطَرِمِ

٥ لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ   ولا أرِقْتَ لِذِكْرِ البَانِ والعَلَمِ

٦ فكيفَ تُنْكِرُ حُبّاً بعدَ ما شَهِدَتْ   به عليكَ عُدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ

٧ وأثْبَتَ الوجدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنىً   مِثْلَ البَهارِ عَلَى خَدَّيْكَ والعَنَمِ

٨ نَعَمْ سَرَى طَيفُ مَنْ أهوَى فَأرَّقَني   والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالألَمِ

٩ يا لائمي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً   مِنِّي إليكَ ولو أنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

١٠ عَدَتْكَ حالِي لا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ   عَنِ الوُشاةِ ولا دائي بِمُنْحَسِمِ

١١ مَحَّضْتَني النُّصحَ لكنْ لَسْتُ أسْمَعُهُ   إنَّ المُحِبَّ عَنْ العُذَّالِ في صَمَمِ

١٢ إنِّي اتهَمْتُ نَصيحَ الشَّيْبِ في عَذَلي   والشَّيْبُ أبْعَدُ في نُصحٍ عَنْ التُّهَمِ

الفصل الثاني
في التحذير من هوى النفس

١٣ فـإِنَّ أَمَّـارَتِي بالسُّوءِ مـا اتَّعَظَتْ   مِنْ جَهْلِهَـا بنذيرِ الشَّيْبِ وَالهَـرَمِ
١٤ ولا أَعَـدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَميلِ قِرَى   ضَيفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غـيرَ مُحْتَشِمِ
١٥ لو كنت أعلم أني مـا أوقِّـره   كـتمت سراً بدا لي منه بالكتمِ
١٦ مَنْ لِي بِرَدِّ جِمـاحٍ مِنْ غَـوايَتِـهـا   كـمـا يُرَدُّ جِمـاحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ
١٧ فلا تَرُمْ بالمعاصِي كَسْرَ شَهْوَتِها   إِنَّ الطعـامَ يُقَـوِّي شَـهْـوَةَ النَّهِمِ
١٨ والنَّفْسُ كـالطِّفْلِ إنْ تُهْـمِلْهُ شَبَّ   عَلَى حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
١٩ فـاصْرِفْ هَواها وَحـاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَـهُ   إِنَّ الهَـوَى مـا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ
٢٠ وَراعِهـا وهِيَ في الأعـمالِ سائِمَةٌ   وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرعَى فلا تُسِمِ
٢١ كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَـرْءِ قـاتِلَةً   مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
٢٢ وَاخْشَ الدَّسائسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ   فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
٢٣ واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قد امْتَلأَتْ   مِنَ المَحارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ
٢٤ وخالفِ النَّفْسَ والشَّيْطانَ واعْصِهِما   وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ
٢٥ وَلا تُطِعْ منهما خَصْماً وَلا حَكَماً   فأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ
٢٦ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ   لقد نَسَبْتُ به نَسْلاً لِذِي عُقُمِ

٢٧ أمَرْتُكَ الخَيْرَ لكنْ ما ائْتَمَرْتُ به ... وما اسْتَقَمْتُ فما قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ
٢٨ ولا تَزَوَّدْتُ قَبلَ المَوْتِ نافِلَةً ... ولَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ ولَمْ أَصُمِ

الفصل الثالث
في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم

٢٩ ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أحْيا الظَّلامَ إلَى ... أن اشْتَكَت قَدَماهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ
٣٠ وشَدَّ من سَغَبٍ أحشاءَهُ وطَوى ... تَحتَ الحِجَارةِ كَشحاً مترَفَ الأدَمِ
٣١ وَرَاوَدَتهُ الجِبالُ الشُّمُّ من ذهبٍ ... عن نفسِهِ فَأَراها أيَّما شَمَمِ
٣٢ وأكَّدتْ زُهدَهُ فيها ضرورتُهُ ... إنَّ الضَّرورةَ لا تعدو على العِصَمِ
٣٣ وكيف تدعو إلى الدُّنيا ضَرورةُ من ... لولاه لم تخرجِ الدُّنيا من العَدَمِ
٣٤ محمدٌ سيدُ الكونينِ والثَّقَلين ... والفَريقين من عُربٍ ومن عَجَمِ
٣٥ نبيُّنا الآمِرُ النَّاهي فلا أحدٌ ... أبرَّ في قول "لا" منه ولا "نعمِ"
٣٦ هُوَ الحَبيبُ الذي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ ... لكلِّ هَوْلٍ مِنَ الأهوالِ مُقْتَحِمِ
٣٧ دَعا إلى اللهِ فالمُسْتَمْسِكُونَ بهِ ... مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غيرِ مُنْفَصِمِ
٣٨ فاقَ النَّبِيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولَمْ يُدانُوهُ في عِلْمٍ ولا كَرَمِ
٣٩ وكلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ... غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

٤٠ وواقِفُونَ لَدَيْه عندَ حَدِّهِمِ ... مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ

٤١ فَهْوَ الذي تَمَّ معناهُ وصُورَتُهُ ... ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبيباً بارِئُ النَّسَمِ

٤٢ مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ في مَحاسِنِهِ ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيهِ غيرُ مُنْقَسِمِ

٤٣ دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِمِ ... وَاحْكُمْ بما شِئْتَ مَدْحاً فيهِ واحْتَكِمِ

٤٤ وانْسُبْ إلى ذاتِهِ ما شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وَانْسُبْ إلى قَدْرِهِ ما شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

٤٥ فإنَّ فَضْلَ رسولِ اللهِ ليسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبَ عنه ناطِقٌ بِفَمِ

٤٦ لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَماً ... أَحْيا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دارِسَ الرِّمَمِ

٤٧ لَمْ يَمْتَحِنَّا بما تَعْيا العُقُولُ بِهِ ... حِرْصاً علينا فلمْ نرْتَبْ ولَمْ نَهِمِ

٤٨ أَعْيا الوَرَى فَهْمُ معْناهُ فليس يُرَى ... في القُرْبِ والبُعْدِ فيهِ غيرُ مُنْفَحِمِ

٤٩ كالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ ... صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

٥٠ وكيفَ يُدْرِكُ في الدُّنيا حَقِيقَتَهُ ... قَوْمٌ نِيامٌ تَسَلَّوْا عنهُ بالحُلُمِ

٥١ فَمَبْلَغُ العِلْمِ فيهِ أنهُ بَشَرٌ ... وأنهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

٥٢ وكلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكرامُ بها ... فإنما اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

٥٣ فإنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَواكِبُها ... يُظْهِرْنَ أَنْوارَها للناسِ في الظُّلَمِ

٥٤ أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زانَهُ خُلُقٌ ... بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالبِشْرِ مُتَّسِمِ

٥٥ كالزَّهْرِ في تَرَفٍ والبَدْرِ في شَرَفٍ ... والبَحْرِ في كَرَمٍ والدَّهْرِ في هِمَمِ

٥٦ كَـأَنَّهُ وَهْوَ فَـرْدٌ مِنْ جَـلالَتِـهِ ... في عَسْكَرٍ حينَ تَلْقَاهُ وفي حَشَمِ
٥٧ كَـأَنَّمـا اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ في صَـدَفٍ ... مِنْ مَـعْدِنَيْ مَنْطِقٍ منهُ ومَبْتَسَمِ
٥٨ لا طِيبَ يَعْـدِلُ تُرْباً ضَمَّ أعظُمَـهُ ... طُوبَى لِمُنْتَـشِقٍ منهُ وَمُلْتَـثِمِ

الفصل الرابع
في مولده عليه أفضل الصلاة والسلام

٥٩ أبانَ مَـوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُـرِهِ ... يا طِيبَ مُبْتَـدَإٍ منه ومُـخْتَـتَمِ
٦٠ يَوْمٌ تَفَـرَّسَ فـيـهِ الفُـرْسُ أَنَّهمُ ... قـد أُنْذِرُوا بِحُلولِ البُـؤْسِ والنِّقَمِ
٦١ وباتَ إيوانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَـدِعٌ ... كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ
٦٢ والنَّارُ خـامِـدَةُ الأنفـاسِ مِنْ أَسَفٍ ... عليه والنَّهْرُ ساهي العَيْنِ مِنْ سَدَمِ
٦٣ وساءَ سـاوَةَ أَنْ غـاضَتْ بُحَيْـرَتُهـا ... ورُدَّ وارِدُها بـالغَـيْظِ حينَ ظَمِي
٦٤ كَـأَنَّ بالنـارِ مـا بالماءِ مِنْ بَلَلٍ ... حُـزْناً وَبالماءِ مـا بالنَّارِ مِنْ ضَـرَمِ
٦٥ والجِنُّ تَهْـتِفُ وَالأَنْوارُ سـاطِعَـةٌ ... وَالحَقُّ يَظْهَـرُ مِنْ مَـعْنَى ومِنْ كَلِمِ
٦٦ عَمُـوا وَصَمُّوا فـإعْلانُ البَشـائِرِ لَمْ ... تُسْـمَعْ وَبارِقَـةُ الإِنْذارِ لَمْ تُشَمِ
٦٧ مِنْ بَعْـدِ مـا أَخْبَرَ الأَقْـوامَ كـاهِنُهُمْ ... بـأَنَّ دينَهُـمُ المُـعْـوَجَّ لَـمْ يَقُـمِ
٦٨ وبَعْدَ ما عايَنُوا في الأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ ... مُنْقَضَّةٍ وفْقَ ما في الأَرْضِ مِنْ صَنَمِ

٦٩ حَتى غدا عَنْ طَرِيقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ | من الشياطِينِ يَقْفُو إثْرَ مَنْهَزِمِ
٧٠ كأنَّهُمْ هَرَباً أبطالُ أبْرَهَةٍ | أوْ عَسْكَرٌ بالحَصَى مِنْ رَاحَتَيْه رُمِي
٧١ نَبْذاً به بَعْدَ تَسْبِيحٍ بِبَطْنِهِما | نَبْذَ المُسَبِّحِ مِنْ أحشاءِ مُلْتَقِمِ

الفصل الخامس
في معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم ووالى عليه وأنعم

٧٢ جاءتْ لِدَعْوَتِه الأشْجارُ ساجِدَةً | تَمْشِي إليه عَلَى ساقٍ بلا قَدَمِ
٧٣ كأنَّما سَطَرَتْ سَطْراً لما كَتَبَتْ | فُرُوعُها مِنْ بَدِيعِ الخَطِّ باللَّقَمِ
٧٤ مِثْلُ الغَمامَةِ أنَّى سَارَ سائِرَةٌ | تَقِيهِ حَرَّ وطِيسٍ لِلْهَجِيرِ حَمِي
٧٥ أقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ | مِنْ قَلْبِه نِسْبَةً مَبْرُورَةَ القَسَمِ
٧٦ ومَا حَوَى الغارُ مِنْ خَيرٍ وَمِنْ كَرَمٍ | وكلُّ طَرْفٍ مِنَ الكُفَّارِ عنه عَمِي
٧٧ فالصِّدْقُ في الغارِ والصِّدِّيقُ لَمْ يَرِما | وَهُمْ يقولونَ ما بالغارِ مِنْ أرِمِ
٧٨ ظَنُّوا الحَمامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ على | خَيْرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ ولمْ تَحُمِ
٧٩ وِقايةُ الله أغنَتْ عَنْ مُضاعَفَةٍ | مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عالٍ مِنَ الأطمِ
٨٠ ما سامَنِي الدَّهْرُ ضَيْماً واسْتَجَرْتُ به | إلاَّ اسْتَلَمتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

٨١ ولا التمستُ غنى الدارين من يده | إلا استلمت الندى من خير مستلمِ
٨٢ لا تُنْكرِ الوَحْيَ منْ رُؤْيَاهُ إنَّ لهُ | قَلْباً إذا نامت العَيْنان لَمْ يَنَمِ
٨٣ فذاكَ حينَ بُلوغ منْ نُبُوَّته | فليس يُنْكَرُ فيه حالُ مُحْتَلمِ
٨٤ تَبَاركَ اللهُ ما وحْيٌ بمُكْتَسَب | ولا نَبيٌّ عَلَى غَيْب بمُتَّهَمِ
٨٥ كَمْ أبْرأتَ وَصِباً باللَّمْسِ راحَتُهُ | وأطْلَقَتْ أرِباً منْ رِبْقَة اللَّمَمِ
٨٦ وأحْيَت السَنَّةَ الشَهْبَاءُ دَعْوتُهُ | حتى حكت غُرَّةً في الأعْصُرِ الدُّهُمِ
٨٧ بعارضٍ جادَ أوْ خِلْتَ البطاحَ بها | سَيْباً مِنَ اليَمِّ أوْ سَيْلاً مِنَ العَرِمِ

الفصل السادس
في شرف القرآن الكريم ومدحه

٨٨ دَعْنِي وَوَصْفِي آياتٍ لهُ ظَهَرَتْ | ظُهورَ نارِ القِرَى لَيْلاً عَلَى عَلَمِ
٨٩ فالدُّرُّ يَزدادُ حُسْناً وَهْوَ مُنْتَظِمٌ | ولَيس يَنْقُصُ قَدْراً غَيرَ مُنْتَظِمِ
٩٠ فما تَطَاوُلُ آمالُ المَديحِ إلى | ما فيه مِنْ كَرَمِ الأخلاقِ والشِّيَمِ
٩١ آياتُ حَقٍّ منَ الرَّحْمنِ مُحْدَثَةٌ | قَديمَةٌ صِفَةُ الموصوف بالقِدَمِ
٩٢ لَمْ تَقْتَرِنْ بزمانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنا | عَنِ المعادِ وعَنْ عادٍ وعَنْ إرَمِ
٩٣ دامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كلَّ مُعْجِزَةٍ | منَ النَّبيِّينَ إذْ جاءَتْ ولَمْ تَدُمِ
٩٤ مُحكَّماتٌ فما تُبْقِينَ منْ شُبَهٍ | لذي شِقاقٍ وما تَبْغِينَ منْ حَكَمِ

٩٥ مـا حُـورِبَتْ قَطُّ إلاَّ عـادَ مِنْ حَـرَبٍ ... أعدى الأعـادي إليها مُلْقِيَ السَّلَمِ
٩٦ رَدَّتْ بلاغَـتُـهـا دَعْـوَى مُـعـارِضِـهـا ... رَدَّ الغَـيُـورِ يَدَ الجَـاني عَنِ الحُـرَمِ
٩٧ لهـا مَـعـانٍ كَـمَـوْجِ البَـحْـرِ في مَـدَدٍ ... وفَـوْقَ جَـوْهَـرِهِ في الحُـسْنِ والقِـيَمِ
٩٨ فـمـا تُعَـدُّ ولا تُـحْـصى عَـجَـائِـبُـهـا ... ولا تُـسـامُ عَلَى الإكـثـارِ بالسَّـأَمِ
٩٩ قَـرَّتْ بهـا عَـيْنُ قـاريهـا فَـقُلْتُ لَهُ ... لقـد ظَفِـرتَ بِحَبْلِ الله فـاعْـتَـصِمِ
١٠٠ إنْ تَتْلُهـا خِـيـفَـةً مِنْ حَـرِّ نارِ لَظىً ... أطْفَأْتَ حـرَّ لَظىً مِنْ وِرْدِها الشَّبِمِ
١٠١ كَـأَنَّهـا الحَـوْضُ تَـبْيَضُّ الوجـوهُ به ... مِنَ العُـصـاةِ وقـد جـاءُوهُ كَـالحُـمَمِ
١٠٢ وكَـالصِّـراطِ وكـالمِـيـزانِ مَـعْـدِلَةً ... فالقِسْطُ مِنْ غَيرِها في الناسِ لَمْ يَقُمِ
١٠٣ لا تَعْـجَـبَنْ لِحَـسُـودٍ راحَ يُنْكِرُها ... تَجـاهُلاً وهْوَ عَـيْنُ الحـاذِقِ الفَـهِمِ
١٠٤ قد تُنْكِرُ العينُ ضَوْءَ الشَّمْسِ من رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ من سَـقَمِ

الفصل السابع
في إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وآله وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم ووالى عليه وأنعم

١٠٥ يا خيرَ منْ يَمَّمَ العافُونَ ساحَتَهُ ... سَعْياً وفَوْقَ مُتُونِ الأيْنُقِ الرُّسُمِ

١٠٦ وَمَنْ هُوَ الآيَةُ الكُبْرَى لُمعْتَبِرٍ ... وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ العُظْمَى لُمغْتَنِمِ

١٠٧ سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إلَى حَرَمٍ ... كما سَرَى البَدْرُ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

١٠٨ وَبِتَّ تَرْقَى إلَى أنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً ... مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

١٠٩ وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأنبِياءِ بِها ... والرُّسْلِ تَقْديمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

١١٠ وأنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ ... في مَوْكِبٍ كُنْتَ فيه صاحِبَ العلَمِ

١١١ حتى إذا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لُمسْتَبِقٍ ... مِنَ الدُّنُوِّ وَلا مَرْقَىً لُمسْتَنِمِ

١١٢ خَفَضْتَ كلَّ مَقامٍ بالإضافَةِ إذْ ... نُودِيتَ بالرَّفْعِ مِثْلَ الُمفْرَدِ العَلَمِ

١١٣ كَيْمَا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أيِّ مُسْتَتِرٍ ... عَنِ العُيُونِ وَسِرٍّ أيِّ مُكْتَتَمِ

١١٤ فَحُزْتَ كلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ ... وَجُزْتَ كلَّ مَقامٍ غيرَ مُزْدَحَمِ

١١٥ وَجَلَّ مِقْدارُ ما وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ ... وعَزَّ إدْرَاكُ ما أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ

١١٦ بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الإسلامِ إنَّ لنا ... مِنَ العِنَايَةِ رُكْناً غيرَ مُنْهَدِمِ

١١٧ لَمَّا دَعَا اللهُ داعِينا لِطَاعَتِهِ ... بأكْرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أكْرَمَ الأُمَمِ

الفصل الثامن

في جهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشرف وعظم ومجد وكرّم ووالى عليه وأنعم

١١٨ راعتْ قلوبَ العدا أنباءُ بعْثَتهِ ... كَنَبْأَةٍ أجْفَلَتْ غُفْلاً منَ الغَنَمِ

١١٩ ما زالَ يَلْقاهُمُ في كلِّ مُعْتَرَكٍ ... حتى حكَوْا بالقَنا لحْماً على وَضَمِ

١٢٠ وَدُّوا الفِرارَ فكادُوا يَغْبِطُونَ بهِ ... أشْلاءَ شالَتْ مَعَ العِقْبانِ والرَّخَمِ

١٢١ تَمْضِي اللَّيالي ولا يَدْرُونَ عِدَّتَها ... ما لَمْ تكُنْ منْ لَيالي الأشْهُرِ الحُرُمِ

١٢٢ كأنَّما الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ ... بكلِّ قَرْمٍ إلَى لحْمِ العِدا قَرِمِ

١٢٣ يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فوقَ سابحَةٍ ... يَرْمِي بِمَوْجٍ منَ الأبطالِ مُلْتَطِمِ

١٢٤ منْ كلِّ مُنْتَدِبٍ للهِ مُحْتَسِبٍ ... يَسْطو بِمُسْتَأْصِلٍ للْكُفْرِ مُصْطَلِمِ

١٢٥ حتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإسلامِ وهِيَ بِهِمْ ... منْ بَعْدِ غُرْبَتِها مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

١٢٦ مَكْفُولَةً أبَداً منهمْ بِخَيْرِ أبٍ ... وخَيْرِ بَعلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ ولَمْ تَئِمِ

١٢٧ همُ الجِبالُ فَسَلْ عنهمْ مُصادِمَهُمْ ... ماذا رأى منْهُمُ في كلِّ مُصطَدَمِ

١٢٨ وسَلْ حُنَيْناً وسَلْ بَدْراً وَسَلْ أُحُداً ... فُصُولَ حَتْفٍ لهُمْ أدْهَى منَ الوَخَمِ

١٢٩ المُصْدِرِي البِيضِ حُمْراً بعدَ ما وَرَدَتْ ... منَ العِدا كُلَّ مُسْوَدٍّ منَ اللِّمَمِ

١٣٠ وَالكاتبينَ بسُمْرِ الخَطِّ مَا تَركَتْ أقْلامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ

١٣١ شاكِي السِّلاحِ لهمْ سِيمَا تُميِّزُهُم والوَرْدُ يَمْتازُ بالسيما عَنِ السَّلَمِ

١٣٢ تُهْدي إليكَ رياحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُ فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ في الأكمامِ كلَّ كَمي

١٣٣ كأنَّهمْ في ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُباً منْ شَدَّةِ الحَزْمِ لاَ مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ

١٣٤ طارَتْ قلوبُ العِدا منْ بَأْسِهمْ فَرَقاً فما تُفَرِّقُ بينَ البَهْمِ والبُهَمِ

١٣٥ ومَنْ تكُنْ برَسُولِ الله نُصْرَتُهُ إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامِها تَجِمِ

١٣٦ ولَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرِ به ولا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرِ مُنْقَصِمِ

١٣٧ أحَلَّ أُمَّتَهُ في حِرزِ مِلَّتِهِ كاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأشبالِ في أُجَمِ

١٣٨ كَمْ جَدَّلَتْ كلماتُ الله مِنْ جَدِلِ فيه وكم خَصَمَ البُرْهانُ مِنْ خَصِمِ

١٣٩ كفاكَ بالعِلْمِ في الأُميِّ مُعْجِزَةً في الجاهِلِيَّةِ وَالتَّأديبِ في اليُتُمِ

الفصل التاسع
في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم ووالى عليه وأنعم

١٤٠ خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالخِدَمِ

١٤١ إِذْ قَلَّدَانِيَ مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ كَأَنَّنِي بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

١٤٢ أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا فِي الحَالَتَيْنِ وَمَا حَصَلْتُ إِلاَّ عَلَى الآثَامِ وَالنَّدَمِ

١٤٣ فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهَا لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسُمِ

١٤٤ وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ يَبِنْ لَهُ الغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمِ

١٤٥ إِنْ آتِ ذَنْباً فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ

١٤٦ فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي مُحَمَّداً ، وَهْوَ أَوْفَى الخَلْقِ بِالذِّمَمِ

١٤٧ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي فَضْلاً ، وَإِلاَّ فَقُلْ : يَا زَلَّةَ القَدَمِ

١٤٨ حَاشَاهُ أَنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ أَوْ يَرْجِعَ الجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمِ

١٤٩ وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ وَجَدْتُهُ لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

١٥٠ وَلَنْ يَفُوتَ الغِنَى مِنْهُ يَداً تَرِبَتْ إِنَّ الحَيَا يُنْبِتُ الأَزْهَارَ فِي الأَكَمِ

١٥١ وَلَمْ أُرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي اقْتَطَفَتْ يَدَا زُهَيْرٍ بِمَا أَثْنَى عَلَى هَرِمِ

الفصل العاشر
في المناجاة وعرض الحاجات

١٥٢ يا أكْـرَمَ الرُّسْلِ مـالِي مَنْ أَلوذُ به ... سِـواكَ عندَ حلولِ الحـادثِ العَـمَمِ

١٥٣ ولَنْ يَضيقَ رَسولَ اللهِ جاهُكَ بي ... إذا الكريمُ تَجَلَّى باسْمِ مُنْتَقِمِ

١٥٤ فَإنَّ مِنْ جُودِكَ الدنيا وضَرَّتَها ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ

١٥٥ يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إنَّ الكَبائِرَ في الغُفْرانِ كاللَّمَمِ

١٥٦ لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حينَ يَقْسِمُها ... تأتي عَلَى حَسَبِ العِصْيانِ في القِسَمِ

١٥٧ يا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجائي غَيرَ مُنْعَكِسٍ ... لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسابي غَيْرَ مُنْخَرِمِ

١٥٨ وَالْطُفْ بِعَبْدِكَ في الدَّارَيْنِ إنَّ لَهُ ... صَبْراً مَتى تَدْعُهُ الأهوالُ يَنْهَزِمِ

١٥٩ وَأْذَنْ لِسُحْبِ صَلاةٍ منكَ دائمةٍ ... عَلَى النَّبيِّ بِمُنْهَلٍّ ومُنْسَجِمِ

١٦٠ ما رَنَّحَتْ عَذَباتِ البانِ ريحُ صَباً ... وأطْرَبَ العِيسَ حادي العِيسِ بِالنَّغَمِ

زاد بعض الصالحين هذه الأبيات

١٦١ ثم الرضا عن أبي بكر وعن عمر   وعن علي وعن عثمان ذي الكرم

١٦٢ والآل والصّحب ثم التابعين فهم   هل التقى والنقا والحلم والكرم

١٦٣ يا رب بالمصطفى بلِّغ مقاصدنا   واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم

١٦٤ واغفر إلهي لكل المسلمين بما   يتلون في المسجد الأقصى وفي الحرم

١٦٥ بجاه من بيته في طيبة حرمٌ   وإسمه قسمٌ من أعظم القسم

١٦٦ وهذه بردة المختار قد ختمت   والحمد لله في بدء وفي ختمِ

١٦٧ أبياتها قد أتت ستين مع مائة   فرج بها كربنا يا واسع الكرم

تمت القصيدة المباركة
والحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم وبارك على أشرف
المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

كتاب

العمدة في شرح البردة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم ووالى عليه وأنعم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي وفّق أقواماً لمدح نبيه الكريم، وحباهم على ذلك برضوان جنة النعيم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالمعجزات والكلام القديم، صاحب الإسراء والمعراج، والجهاد، والدِّين القويم، وعلى آله الحائزين نهايتي التكريم والتعظيم، وأصحابه الذين لا يحصي فضائلَهم كلٌّ حاذقٍ وفهيم، ما توجَّه سائل إلى ولي كريم، وفاز منه بكل مطلب جسيم.

وبعد . . . . فهذا شرحٌ لطيفٌ على بردة البشير النذير، المنظومة على البحر البسيط، والأسلوب الوسيط، التي أنشأها أعلم الشعراء، وأشعر العلماء: الإمام أبو عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد البوصيري؛ أفاض الله تعالى عليه شآبيب الغفران، وأسكنه أعلى فراديس الجنان - وسمَّيته بـ:

العمدة في شرح البردة

واللهَ أسألُ أن ينفع به الطالبين، وأن يوجِّه إليه رغبة الراغبين.

قال رحمة الله تعالى عليه، بعد أن تيمن بالبسملة والحمدلة، وقد جرَّد من نفسه مخاطَباً على عادة الشعراء ثمّة، وهذا منقول منها لطويلها:

الفصل الأول
في الغزل وشكوى الغرام

«١» أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ
مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

أمِنْ

أجل:

تَذَكُّرِ جِيرانٍ

كـ"كرام"؛ محبوبين، والظرف متعلِّقٌ بـ"مزجت" الآتي، والهمزة للتقرير.

والتذكُّر: مصدر تذكَّرَ، أضيف إلى مفعوله من "الذِّكر" بالكسر، وهو ما يكون باللسان.

أو من "الذُّكر" بالضم، وهو ما يكون بالقلب. والثاني هنا أنسب.

والجيران: جمع جار، وأصله "جِوْران"، قلبت الواو ياء، وأراد بهم: [سيدنا] محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه الكرام، الكائنين:

بِذِي سَلَمِ

هو علمٌ بالغَلَبَة على مكانٍ بين مكة والمدينة. وقيل: "ذو" بمعنى صاحب. و"سَلَم" اسمٌ لنوعٍ من شجر العضاه؛ على أنه نعتٌ لمحذوفٍ أي: بمكان ذي سلم. والباء فيه بمعنى: في.

مَزَجْتَ

من "المزج" وهو خلط الشيء بالشيء .

دمْعاً

منك عظيماً كثيراً، وهو الماء السائل من العين لحُزن أو سرور، لا يبرد مع الحزن بعد مفارقة الحدقة إلا بعد مدة، بخلاف دمع السرور فإنَّه يبرد بمجرد تلك المفارقة، ووصف "دمعاً" بقوله:

جَرَى

من الجريان، وهو سيلان الشيء مع شدة .

مِنْ مُقْلَةٍ

عظيمة منك، وهو متعلِّقٌ بـ" : جرى " والمقلة: شحمة العين الجامعة للسواد والبياض.

بِدَمِ

منك عظيم كثير، والباء فيه للتعدية .

* * *

«٢» أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

أَمْ

وهي ههنا متصلة.

هَبَّتْ

أي: من تذكرنا بشيء من أجل إدراك أن هبت:

الرِّيحُ

وأصلُه "رِوْحُ" قلبت الواو ياء، وروعي في جمعه حالة الأصل تارة؛ فقالوا: أرواح.

وحالة القلب أخرى فقالوا: أرياح. وهي مأخوذة من الرَّوْح بمعنى الراحة. ورياح الرحمة ثلاث: الجنوب والشمال والصَّبا. وريح العذاب واحدة وهي "الدَّبُور."

مِنْ

لابتداء الغاية.

تِلْقاءِ

بكسر التاء، وبالمدّ، أي: جهة.

كَاظِمَةٍ

بالظاء؛ عَلَمٌ على موضع قريب من المدينة، غير منصرف، وصرفه هنا للضرورة.

وأَوْمَضَ

عطفٌ على هبَّت، يقال: أومض البرقُ وومض لمع لمعاناً خفياً، والواو فيه إما على حقيقتها أو بمعنى: أو.

البَرْقُ

واحد "بَرَقَ السَّحاب"، من: برق السيف بريقاً: إذا تلألأ وانحلب منه ما لا مطر معه.

في

الليلةِ.

الظَّلماء

بالمد، أي: ذات الظُّلمة.

مِن

لابتداء الغاية.

بكسر الهمزة، وفتح الضاد: جبلٌ أو وادٍ بين مكة والمدينة(١).

وحاصل معنى هذا البيت والذي قبله: أن المخاطب يقول للمخاطَب: ما سبب مزج دمعك بالدم، وبكائك الكثير من ذلك؟ أهو من التذكر الناشىء عن سماع الأخبار الدَّالَّة على محاسن أولئك الأحبة؟ أم التذكر الناشىء عن إدراك الريح الهابَّة من جهتهم بحسِّ اللمس؟ أم التذكُّر الناشىء من إدراك لمعان البرق من تلقائهم بحاسة البصر؟.

وبهذا يظهر أن الأولى جعل الواو في "وأومض" معنى "أم".

ثم استفهم من المخاطَب لما أنكر أن يكون سبب بكائه أحدَ الأمرين من تذكر الجيران وهبوب الريح بقوله-:

* * *

(١) قال في القاموس: إضَمٌ، كعنَب: جبلٌ، والوادي الذي فيه المَدينةُ النَّبويَّةُ - صلى الله وسلم على ساكنها - عندَ المَدينة يُسَمَّى القَناةَ، ومن أعْلَى منها عندَ السُّدِّ الشَّظَاةَ، ثم ما كان أسْفَلَ ذلك يُسَمَّى إضَماً. وذو إضَمٍ: ماءٌ بين مكةَ واليَمامةِ. "مادة أضم".

«٣» فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ ٱكْفُفَا هَمَتَا
وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ ٱسْتَفِقْ يَهِمِ

فَمَا

أي: أي شيء ثبتَ

لِعَيْنَيكَ

تثنيةُ عين، وهو مؤنَّثة لتصغيرها على "عيينة"، وتجمع على "عيون" في الكثرة، وعلى": أَعْيُن، وأعيان"، في القِلَّة.

إِنْ

بكسر الهمزة وسكون النون: للشرط.

قُلْتَ

لهما أيها المخاطب في زمن من الأزمان قصداً لكتم الحب:

اكفُفَا

أي: كُفَّا الدمعَ؛ ففكَّ الفعل لضرورة الوزن.

هَمَتَا

أي: سال دمعهُما.

وأصل هَمَتا" : هميتا"، قلبت الياء ألفاً ثم حذفت الألف، وقد يقال في لغة ضعيفة: هماتا، كما يقال: رماتا.

وما

عطفٌ على الاستفهام السابق، أي: أي شيء ثبت:

لقَلْبك

وهو جوهر صنوبريُّ الشَّكل، مودَعٌ في الجانب الأيسر من الصدر، في باطنه تجويف فيه دمٌ أسود هو منبع الروح ومعدنه.

إن قُلتَ

له وهو في سكرات الهيام، وغمرات الغرام-:

استَفِقْ

أي: أفِقْ مما أنت فيه قصداً لكتم الحبِّ عن العُذَّال، وإخفائه عن الوشاة. حال من القلب.

يَهِمِ

مضارع "هامَ"، وأما هيمان القلب فيعلم بالقرائن الدالة عليه، مثل إطالة السكوت، وغيبة الحسِّ، وعدم ردِّ الجواب في المحاورات.

ثم لما لم يحرر المخاطب جواباً وأفحمه السائل بالسؤال المسكت، والإلزام المُبهت رجع إلى تغليطه في إنكاره حالة الحب التي لا تخفى على أحد فقال منكراً عليه وموبِّخاً إياه:

«٤» أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ
مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ

أيحسبُ

أي: يظنُّ، فهو من أفعال القلوب.

الصَّبُّ

أي: العاشق الصَّادق، وهو أبلغ من نسبة الفعل إلى المخاطب إفادته أن عدم صحة إنكار الحب مع ظهور العلامات الدالة عليه. وهي مأخوذة من "الصَّبابة" التي هي رقة الشَّوق وحرارته. أو سمي صبّاً لأنه لكثرة بكائه كأنه يصبُّ الدمع من عينيه.

ويجوز أن يريد به المخاطب وحده، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغَيبة.

أنَّ الحُبَّ

بضم الحاء بمعنى المحبة.

مُنكَتِمٌ

أي: مستترٌ عن الناس.

مَا

زائدة، والجملة سدَّت مسدَّ مفعولي "يحسب".

بينَ

ظرف مكان، ومحلُّه نصب على الحال. دمعٍ- :

مُنسَجِمٍ

أي: سائلٍ بشدَّة.

مِنهُ ومُضطرِمِ

أي: المشتعل؛ من قولهم: اضطرمت النار إذا اشتعلت.

* * *

«٥» لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ
وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ

لولا

حرف يدل على امتناع الجواب لوجود الشرط .

الهَوى

الهوى : مصدر "هوِي" بكسر الواو ، إذا أحبَّ ؛ فهو بمعنى الحُب . وهو مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : موجود . فالمعنى : امتنع عدم إراقتك دمعاً على طلل لوجود الهوى .

لم تُرِقْ دَمعاً

أي : لم تصبَّه . يقال : أراق الماء أي : صبَّه ، ويقال : هراق أيضاً بمعناه .

على

للتعليل ، أي : لأجل طلل الآتي ، أو بمعنى " في " .

طللٍ(١)

الطَّلل : ما بقي من آثار الدار مرتفعاً ، فإن لم يكن بأن كان ملتصقاً بالأرض كان رسماً .

---

(١) قال في القاموس : الطَّلَلُ ، محرَّكةً : الشاخصُ من آثارِ الدارِ ، وشَخَصُ كلِّ شيءٍ ، كالطَّلالَةِ كسحابةٍ فيهما ، وجمعه : أطْلالٌ وطُلولٌ . مادة طلل .

ولا أَرِقتَ

بكسر الراء بمعنى: سهرتَ.

لذكرِ البانِ

البان: شجر طيب الريح، ويتخذ منه دهن يعرف بدهن البان.

والعَلَمِ

العَلَم: يطلق على معان؛ منها: الجبل، والرمح. أي: ولا سهرت لذكر البان والعَلَم الكائنَين بمحلِّ المحبوبِ. وعلى هذا فـ"البان" و"العَلَم" باقيان على معناهما، ويحتمل أنه شبَّه المحبوبَ بهما في طيب الرائحة وحسن الهيئة، وطول القامة، وإنما أورثه ذكرهما السهرَ لأنَّ النومَ إنما يكون عن الرطوبة الصَّاعدة من المعدة إلى الدماغ، والمحبُّ تكثر حرارته، فتنفى عنه الرطوبة، وحينئذ فلا ينام، وتلك الرطوبة تنشأ غالباً عن كثرة الطَّعام والشراب، والمحب يلهيه حبُّه عن أكله وشرابه، فتنتفي رطوبته وتتضاعف حرارته لا سيما عند ذكر معاهد الأحباب(١). ولما ألزم السائلُ المخاطَبَ أولاً، وأقام عليه الحجج ثانياً، أقبل عليه بالتقريع والتوبيخ ثالثاً، منادياً عليه بفسادِ الرأي وكساد الاعتقاد، فقال:-

---

(١) فكيف بمعاهد ومآثر سيد الأحباب الآخذ بالألباب سيد الوجود وحبيب الرب المعبود صلى الله عليه وآله وسلم، كيف لا تأخذ معاهده بألباب العاشقين، فتتركهم في ولَه ودَهَش من سطوع تلك الأنوار، وتنزلات تلك الأسرار بما لا تتخيله العيون، ولا تتصوره العقول، كيف بك يا حبيبي وأنت في بساط القرب من الحبيب المحبوب، هل يعقل أن ترقأ لك عين، أو يغمض لك جفن، والله لن يقع هذا لك إلا في حال الغفلة، وإلا فمن أدرك تلك الأنوار، دهشت منه الأبصار، وغرق في بحر حب النبي المختار، أذاقنا الله من ذاك المعين، ›

«٦» فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدَتْ
بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ

فكيفَ

هو اسم استفهام، ومحلُّها النَّصب على الحال لوقوعها قبل جملة، بخلاف ما إذا وقعت قبل مفرد؛ فإنها تعرب خبراً عنه، كما في قولك" : كيف زيد تنكر؟. " أي: تجحدُ.

تُنكِرُ

أي: تجحدُ.

حُبًّا

بإنكار لوازمه على أي حال يقع منك ذلك الإنكار

ففي كلامه سلوكٌ لطريق البرهان الذي هو فنٌّ من فنون الفصاحة، وضربٌ من ضروب البلاغة على طريقة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[(١)].

بَعدَ

ظرف زمان منصوب بـ" تنكر ".

بجاه عظيم الجاه صلى الله عليه وآله وسلم. . . آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا.

(١) سورة البقرة الآية ٢٨ .

مَا

هي مصدرية .

شَهِدَت به

أي : بالحبِّ.

عَلَيكَ

والظرفان متعلقان بـ " شهدت " .

عُدُولُ

جمع : عَدْل من " العدالة " .

الدَّمعِ

السائلِ من عينيك عند تذكر أولئك الجيران .

وَالسَّقَمِ

أي : المرض الطويل القائم بجسمك الناشيء عن السهر الطويل الحاصل من تذكر " البان والعلم " ، وإضافة العُدُول إليهما إما بيانية ، أو من إضافة الصِّفة إلى موصوفها ، واستعمال الجمع في اثنين شائع .

والسَّقَم : بفتح أوَّليه كالسَّلَم ، ويجوز فيه " سُقْم " بضم أوله وسكون ثانيه .

* * *

«٧» وَأَثْبَتَ الْوَجْدُ خَطَّي عَبْرَةٍ وَضَنًى
مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالْعَنَمِ(١)

و

بعد ما .

أثبتَ الوَجْدُ

أي: الحُزن الحاصلُ من المحبة . وهو - بفتح الواو - مصدر "وجد عليه" بمعنى: حزن، وهو عطف على "شهدت" .

خطّي عبرةٍ

أي: دمع سائل من عينيك، وإضافته للبيان . وسميت عَبْرة لعبورها ومجاوزتها الحدَقة .

وضنىً

أي: نُحول(١) . عطفٌ على "خطّي" لا على "عَبرة" ، والمعنى: الأثر الناشىء عنه .

---

(١) قال في اللسان" : الضَّنَى : المرضُ . ضَنِيَ الرجلُ ، بالكسر ، يَضْنى ضَنىً شديداً إذا كان به مرضٌ مُخامرٌ ، ظُنَّ أنه قد برَأ نُكسَ . والعرب تقول رجلٌ ضَنىً وقوم دنَفٌ وضَنىً لأنه مصدر ، كقولهم قوم زَوْرٌ وعَدْلٌ وصَوْم" .

مثل البهار

في الصُّفرة، بفتح الباء: وردٌ أصفر[1].

على خدَيك

تثنية "خَدّ"، وهو أحد جانبي الوجه. والظرف متعلق بـ"أثبت".

وَ

أي: وتلك العبرة في الحمرة لامتزاجها بالدم مثل:-

العَنَمِ

بفتح أوَّليه: شجرٌ أحمر ليّن الأغصان[2].

ولما قامت عليه تلك الحجج الواضحة، وتوجَّهت إليه هاتيك الدلائل اللائحة، اعترف بالحبِّ، ورجع فقال:-

---

(١) قال في اللسان: البَهارُ: نبت طيب الريح. وقال الجوهري في الصَّحاح: البَهارُ العَرارُ الذي يقال له عين البقر وهو بَهارُ البَرّ، وهو نبت جَعْدٌ له فُقَّاحَةٌ صفراء ينبت أيام الربيع يقال له: العرارة.

(٢) وقال ابن منظور": العَنَمُ: شجر لَيِّنُ الأغصانُ لَطيفُها يُشَبَّهُ به البَنان كأنه بَنان العَذارى، واحدتها عَنَمةٌ، وهو مما يستاك به، وقيل: العَنَمُ: أغصان تنبت في سُوق العضاه رطبة لا تشبه سائر أغصانها حُمْرُ اللون، وقيل: هو ضرب من الشجر له نَوْرٌ أحمر تشبَّه به الأصابع المخضوبة؛ قال النابغة:

بمُخَضَّب رَخْص، كأنَّ بَنانَهُ عَنَمٌ على أغصانه لم يَعْقد

وقال الجوهري: هذا يدل على أنه نَبْتٌ لا دُودٌ. وبَنَان مُعَنَّمٌ أي مخضوب. قال ابن بري: وقيل العَنَم: ثمر العَوْسَج، يكون أحمر ثم يسودّ إذا نَضِجَ وعَقَد. انظر: اللسان مادة عنم.

«٨» نَعَمْ سَرَىٰ طَيْفُ مَنْ أَهْوَىٰ فَأَرَّقَنِي
وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالْأَلَمِ (١)

نَعَم

أي: صدقتَ أيها السائلُ في جميع ما نسبته إليّ. و"نعم" حرف جواب، كـ"لا" إلا أنها لتصديق الإيجاب، و"لا" لتصديق النفي.

سَرى

أي: جاءني ليلاً.

طَيفُ مَن أهوى

أي: خياله، بعد أن فارقتهم. وأصل طيف: طيّف بتشديد الياء، فخففوه بحذف عينه كما فعلوا في "ميّت".

فأرّقني

أي: أسهرني حزناً على مفارقتهم.

---

(١) ذكر العلامة الباجوري رحمه الله تعالى في حاشيته على البردة فقال: وفائدة هذا البيت أن من كرّره بعد صلاة العشاء حتى يغلب عليه النوم فإنه يرى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في منامه إن شاء الله تعالى. انظر حاشية الباجوري: صفحة ٨.
لا حرمنا الله رؤيتك يا سيدي يقظة ومناما بجاهك عند الله.

والحُبُّ

أي: العشق، باعتبار ما ينشأ عنه من عدم الوصل بالمحبوب.

يعتَرِضُ اللذّاتِ

أي: يحولُ بينها وبين المحب، ولا يصل إليه منها شيء.

بالأَلَمِ

والجملة اعتراضية أو حالية.

ثم استشعر لائماً يلومه في الحب فقال: -

*　　*　　*

«٩» يَا لَائِمِي فِي الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً
مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

يا

حرفٌ لنداء البعيد.

لائمي

من "اللَّوم"، وإنما ناداه نداء البعيد مع قربه بحسب المسافة تبعيداً له عن ساحة الحضور.

في الهوَى

أي: الحُبِّ المفرط، و"في": للتنبيه، أو بمعنى "على".

العُذريّ

المنسوب إلى بني عُذرة، بضم العين وإسكان الذال، وهي قبيلة من العرب يفضي بهم العشق إلى التَّلف.

وسئل بعضهم عن ذلك فأجاب: بأن في قلوبنا خفّة، وفي نسائنا عفّة.

---

(١) ذكر العلامة الباجوري في حاشيته فقال: وفائدة هذا البيت وما بعده أنك إذا أردت أن تقهر نفسك على إقامة شعائر الدين فواظب على قراءتهما خلف كل صلاة.

انظر: حاشية العلامة الباجوري: صفحة ٩.

مَعذرةً

مصدر منصوب بفعل مقدّر، أي: أعتذر معذرة.

مني إِليكَ

أي: حالة كونها واصلةً مني إليك.

ويصح رفع معذرة على أنه خبرٌ لمحذوف، أي: هذه معذرة. أو على أنه مبتدأ، والظرف الأول: صفة. والثاني: خبر عنه.

ولَو

حرف[1].

أنصفتَ

أي: عدلت.

لم تَلُمِ

أي: لم تُعَنِّف في الهوى أحداً أبداً، لعلمك بأنه ليس اختيارياً، لأنه مرضٌ يسوقه الله للأبدان كسائر الأمراض.

ثم دعا على ذلك اللائم بأن يصيبه مثل ما أصابه، أو دعا له بأن ينجيه الله مما ابتلاه به فقال: -

---

(١) حرف امتناع لوجوب.

«١٠» عَدَتْكَ حَالِيَ لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ
عَنِ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمِ

عَدَتك

أي: تعدَّت إليكَ وأصابتك أيها اللائم.

حاليَ

أي: ما أنا فيه من مضارِّ العشق، ومصائب الهوى. ثم بين حاله بعض البيان في قوله: -

لا سرِّي

أي: أمري الخفيّ الذي ينبغي كتمه، وأراد به العشق.

بمُستَتِرٍ

أي: مختفٍ.

عن الوُشاةِ

جمع "واش" كـ"رُماة" لـ"رام"، وهم الحَسَدة، الكَذَبَة؛ ويسعون بالفساد قصداً للتفريق بين الأحباب(١)، وذلك لوجود العلامات الكثيرة الدالّة على حاله، من امتزاج الدمع بالدم، وصفرة اللون، ونحول البدن، وكثرة الأنين، والسهر، وغير

(١)وما أكثرهم في أيامنا هذه ولو كان بعضهم يتزيى بلباس أهل العلم والدين، إلا أنه يحمل في صدره قلباً أسود قاس، لا همَّ له إلا أن يفسد على الناس عقيدتهم في محبة ›

ذلك من أمارات العشق، ودلائل الهوى.

ولا دائي

أي: مرضي القائم بي، وهو العشق.

بمنحسم

بالحاء المهملة، أي: منقطع لعدم الوصل من المحبوب، فل يرجى زواله. ويحتمل أن تكون جملة "عدتك حالي" أي: جاوزتك حالي فأنت لم تُصَب بمصيبةٍ ولو أصبتَ بها لما عذلتني، بل عذرتني.

ولما أبدى اللائم لومَه وكان في الحقيقة محضر نصح وكان اللوم أكره شيء على العاشق على كل حال قال:-

---

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متظاهراً بدعوته إلى عدم المبالغة في مدح هذا الجناب الشريف، ولا يترك مناسبة من المناسبات المباركة سواء مولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو غيرها من المناسبات التي اعتاد الناس إحياءها بمديح هذا الجناب المبارك، أو إحياء ليلة مولده الشريف إلا وينتصب هذا الداعية السوء لمنع الناس عن ذلك بحجج واهية باطلة فاسدة، وإلا فقل لي يا أخي المسلم المحب لهذا الرسول العظيم قل لي بربك: هل عرف قدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا الله؟ فماذا يقول المادحون بمدحه، ومهما قالوا هل بلغوا بعضاً من حقه؟ قل لي بربك، وأي شيء يفعله المحتفلون بمولد سيد الكائنات عليه من الله أفضل الصلوات، إلا قراءة قرآن، ثم إظهار الفرح بمولد سيد الكائنات والتلذذ بسيرته الشريفة المباركة، والحث على محبته والتأسي بسنته، ثم التمدح بذكره وذكر شمائله وخصائصه مما حباه الله من حسن الأخلاق ومكارم الصفات، هل في الموالد التي تقام في العالم الإسلامي غير هذا؟ لكن رسل الشيطان ›

«١١» مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ
إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ

مَحَضتَني

أي: أخلصت لي أيها اللائم[١]

النُّصحَ

عن شوائب الغَيِّ، ومفاسد الإعراض، في لومك إياي على الهوى من جهة أسبابه الاختيارية، كالالتفات إلى ما يحب والتطلُّع إليه والتولُّع به، والتفكُّر في محاسنه.

ولما كان العاشق ممن يتعذب في ذات الحبيب[٢]، ويعد المحنة من جرائه

من بني الإنسان يأبون إلا أن يشوشوا على الناس عقولهم وعقيدتهم، فيطلعون عليهم في كل مناسبة ما يمنعهم ويحجبهم عن إظهار محبتهم والتعبير عنها بتلك الاحتفالات، فإياك إياك من سماع كلام قطاع الطرق إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وكن على يقين بأنك على ما انتهجه السلف الصالح الثقات من هذه الأمة رضي الله عنهم ووفقنا لنهج مسلكهم على ما يرضي الله ورسوله .

(١) ويقال لكل شيء أخلصته فقد أمحضته، وأمْحَضْتُ له النُّصْحَ إذا أخلصتَه. وقيل: مَحَضْتُكَ نُصْحي، بغير ألف، ومَحَضْتُكَ مودَّتي. قال الجوهري: ومَحضتُه الودَّ وأمْحَضْتُه؛ والأُمْحُوضةُ: النَّصيحة الخالصة. قاله في اللسان.

(٢) ذلك مما يراه من حبيبه من الصد أو الهجر، أو البعاد... إلى آخر ذلك مما يعانيه العشاق والمحبون من أحبابهم، وكما قيل" :عرف الحبيب مقامه فتدلَّلا" .

منحة[1] قال: -

لكن

هو استدراك.

لستُ أسمعُهُ

أي: سماع قَبول وإذعان. ثم علَّل النفي المذكور بقوله: -

إنَّ

بكسر الهمزة[2].

المُحِبَّ

أي: العاشق، وفيه التفات من المتكلم إلى الغَيبة.

عَنِ العُذَّالِ

أي: اللُوَّام، وعبَّر أولاً بـ"اللَّوم"، وثانياً بـ"العذل" تفنُّناً وتنبيهاً على ترادف اللفظين.

في صَمَمِ

فلا يسمَع عذلَهم سماعَ قَبول. والظرف الأول يتعلَّق بـ"صمم"، والثاني: خبر

---

(١)في الأصل المخطوط": وبعد المحنة من جزائه محنة" وهو تصحيف نسخي، لعل صوابه ما أثبته أعلاه، والله سبحانه أعلم.

(٢)حرفٌ مشبه بالفعل ينصب المبتدأ ويرفع الخبر.

" إنَّ" . قال في فقه اللغة : يقال : في أذنيه وقرٌ، فإن زاد فـ" صَمَم " فإن زاد فـ" طرش " ، فإن زاد فـ" صنج " . وما ذكره الناظم مأخوذ من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «حبك الشيء يعمي ويصم»(١) ثم أخذ العاشق يبين عدم قبول نصح اللائم، ويبرهن عليه فقال : -

---

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « حبك الشيء يعمي ويصم »، قال في المقاصد : رواه أبو داود والعسكري عن أبي الدرداء مرفوعا وموقوفا والوقف أشبه، وفي سنده ابن أبي مريم ضعيف . ورواه أحمد عن ابن أبي مريم فوقفه، والرفع أكثر ولم يصب الصغاني حيث حكم عليه بالوضع، وكذا قال العراقي أن ابن أبي مريم لم يتهمه أحد بكذب، إنما سرق له حلي فأنكر عقله وقال الحافظ ابن حجر تبعا للعراقي : ويكفينا سكوت أبي داود عليه فليس بموضوع ولا شديد الضعف، فهو حسن انتهى . وقال القاري بعد أن ذكر ما تقدم : فالحديث إما صحيح لذاته أو لغيره مرتق عن درجة الحسن لذاته إلى صحة معناه، وإن لم يثبت مبناه انتهى . وفي الباب ما لم يثبت عن معاوية قال العسكري " : إن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن من الحب ما يعميك عن طريق الرشد ويصمك عن استماع الحق، وإن كان الرجل إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له رادع من عقل أودين أصمه حبه عن العذل وأعماه عن الرشد، ولذا قال بعضهم رحمه الله تعالى :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وقيل معناه : يعمي ويصم عن الآخرة، والغرض النهي عن حب ما لا ينبغي، وعن الإغراق في حبه، ومثل هذا الحديث ما ذكره في الجامع الصغير عن ابن عباس " حب الثناء من الناس يعمي ويصم " ، وسنده ضعيف كما في المناوي انتهى . انظر : كشف الخفاء، للإمام العجلوني الحديث رقم ١٠٩٥ .

«١٢» إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

إنّي اتَّهمتُ

بالكذب والخديعة: -

نَصيحَ الشَّيبِ

الذي هو أحقُّ بعدم الاتهام منك. و"نصيحٌ" بمعنى: ناصح. والشَّيب: بياض الشعر بعد سواده. والإضافة للبيان. أو من إضافة الصِّفة إلى موصوفها.

في عَذَلٍ

بفتح الذال المعجمة، اسم مصدر بمعنى اللَّوم، والمصدر: عذْل، بسكونها.

والشَّيبُ أبعَدُ

أظهر موضع الإضمار، أي: أشدُّ بُعداً.

في نُصْحٍ

صدر منه في حقّي.

عن التُّهَمِ

أي: أنواع المكر والخديعة.

وحاصل المعنى: أني لو قبلت نصحك لقبلت نصحه، والثاني منفي والمقدم مثله، والجملة المقرونة بالواو إما حال لازمة، أو اعتراضية.

ثم وجَّه كونَ الشيب نصيحاً أنه مؤذنٌ بقرب انتهاء الآجال، ومُشعرٌ بدنوٍّ الموت والارتحال، وذلك مما يوجب إقبال العبد على ما يقرِّبه إلى مولاه، ويبعده عن غياهب غيه وهواه، إذ ليس بعد بياض الزرع إلا الحصاد.

ولما كان قوله "إني اتّهمت نصيح الشيب في عذل" مُشعِراً بأنه لم يقبل نصحه، ولم يأخذ بقوله، أشار إلى بيان علَّة ذلك فقال: -

* * *

الفصل الثاني
في التحذير من هوى النفس

«١٣» فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ
مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ

فإنَّ

نفسي.

أمَّارتي

أي: كثيرة الأمر(١).

---

(١) يقال: النفوس ثلاث مراتب:

الأولى: النفس الأمارة بالسوء.

والثانية: وهي فوقها: النفس اللَّوَّامة.

والثالثة: النفس المطمئنة. قال تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾. وقيل: بل هي النفس التي قد اطمأنت في ذاتها، وترشحت لتأديب غيرها، فهي فوق النفس المطمئنة، ويقال: رجل لُوَمَة: يلوم الناس، ولومة: يلومه الناس، نحو سخرة وسخرة، وهزأة وهزأة، واللومة: الملامة، واللائمة: الأمر الذي يلام عليه الإنسان.

فالنفس الأمارة هي التي تميل إلى الطبيعة الدَّنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشر، ومنبع الأخلاق الذميمة، والأفعال السيئة، قال الله تعالى: ﴿إن النفس لأمّارةٌ بالسوء﴾.

بالسُّوء

أي: بفعلِ كلِّ شَرٍّ، وتركِ كلِّ خير.

ما اتَّعظَت

أي: لم تقبَلْ الموعظةَ.

من

أجل:-

جَهلِها

والجهل يقال على عدم إدراك الشيء بالكلية، وعلى إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه.

بِنَذيرِ الشَّيبِ

أي: بإنذاره بقرب انتهاء الآجال، ودنوّ الموت والارتحال[١]. والظرف قد تنازعه كلٌّ مِن "اتّعظت" و"جهلها".

---

(١) من حيث أن الشيب نذير لنا، يخبرنا بقرب الموت وانتقالنا من هذه الدار إلى البرزخ الأخير. ولا يخلو حالنا من أن ننتقل إما إلى خير أو شر، وكلاهما يذكرنا به الشيب فنأخذ في الأهبة للانتقال والتزود وننتصل من ذنوبنا وتبعاتنا، وقد ألغز الإمام الشاطبي في نظير ذلك في النعش أبيات فقال:

أتعرف شيئاً في السماء نظيره ... إذا سار صاح الناس حيث يسير
فتلقاه مركوبا وتلقاه راكبا ... وكل أمير يعتريه أسير
يحض على التقوى ويكره قربه ... وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستزد عن رغبة في زيارة ... ولكن على رغم المزور يزور

أنشد إمامنا الشافعي محمد بن إدريس رضي اللّه عنه لما طلع الشيب في رأسه ولحيته:

خبت نار نفسي باشتعال مفارقي ... وأظلم ليلي إذ أضاء شهابها
أيا بومة قد عشعشت فوق هامتي ... على رغم نفسي حين طار غرابها
رأيت خراب العمر مني فزرتني ... ومأواك من كل الديار خرابها
أأنعم عيشاً بعد ما حل عارضي ... طلائع شيب ليس يغني خضابها
ولذة عمر المرء قبل مشيبه ... وقد فنيت نفس تولى شبابها
إذا اصفر لون المرء وابيض شعره ... تنغص من أيامه مستطابها
فدع عنك سوآت الأمور فإنها ... حرام على نفس التقي ارتكابها
وأدِّ زكاة الجاه واعلم بأنها ... كمثل زكاة المال تم نصابها
وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم ... فخير تجارات الكريم اكتسابها
ولاتمشين في منكب الأرض فاخرا ... فعما قليل يحتويك ترابها
ومن يذق الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فإذا تجتنبها عشت سلما من أهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أوطنت قعر دارها ... مغلقة الأبواب مرخى حجابها
فلن تخرب الدنيا بموت شرورها ... ولكن موت الأكرمين خرابها

والهَرَم

أي: كِبَر السِّنِّ، وضعف القُوى. وهو عطفٌ على الشيب.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[1].

ولما بلغ ر الأربعين سنة أمسك العصا فقيل له: نراك تدمن إمساك العصا ولست بمحتاج إليها؟ فقال لأذكر أني مسافر من هذه الدار. وأنشد أيضاً لما خرج من بغداد إلى مصر:

ومتعب العيش مرتاح إلى بلد ... والموت يطلبه في ذلك البلد

وماش والمنايا فوق هامته ... لو كان يعلم غيبا مات من كمد

آماله فوق ظهر النجم شامخة ... والموت من بين رجليه على رصد

من كان لم يعط علما في حياة غد ... فما تفكره في رزق بعد غد

وأنشد أيضاً لما خرج من بغداد أو من مكة إلى مصر:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ... ومن دونها أرض المهامة والقفر

فو الله ما أدري إلى الفوز والغنى ... أساق إليهما أم أساق إلى قبري

ولما تمنى بعض الناس موته أنشد يقول:

تمنى رجال أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

وإنما ذكرت لك يا أخي هذه الأشعار لتعرف أن السلف الصالح كان الموت على بالهم لا يغفلون عنه ساعة ويحبون من يذكرهم بالموت سواء كان شيباً أو انحناء أو مرضاً أو غير ذلك.

(١) سورة فاطر الآية ٣٧.

أي: المشيب، كما ذكر بعض المفسرين[١].

واختلف العلماء في مقدار التَّعمير، فقيل: سبعون سنة، وقيل: ستون، وقيل: أربعون. وعبَّر الناظم ههنا بصيغة المبالغة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] لأنَّ النفس كما قال بعض العلماء مستمدّة صفاتها من البهائم والوحوش والحشرات، والشياطين، فاستمدَّت الجهلَ من الثور، والشرَّ من الخنزير، والحرصَ من النَّمل، والوقوعَ على النجاسة من

---

(١) روى الإمام القرطبي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وجاءكم النذير﴾، قال: هو الشيب؛ فإنه يأتي في سن الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سنِّ الصِّبا. وجعل الستين غاية الإعذار لأن السِّتين قريب من معترك العباد، وهو سنُّ الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقُّب المنية ولقاء الله؛ ففيه إعذار بعد إعذار. الأول بالنبي عليه السَّلام، والثاني بالشَّيب؛ وذلك عند كمال الأربعين؛ قال الله تعالى: ﴿وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك﴾ [الأحقاف: ١٥]. فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها. قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس. انظر: الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي - الجزء ٧ سورة الأعراف. الآية: ١٤٢, وقد ترجم الإمام البخاري في صحيحه: "باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله عز وجل ﴿أولم نعمركم ما يتذكر قيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ يعني الشيب".

(٢) سورة يوسف - الآية ٥٣.

الذباب، والتهافتَ على الشهوات من الفراش، والخسَّةَ[1] من الكلب، والتمزيقَ للأموال من الذئب، والرياسةَ من السَّبُع، والروغان[2] من الثعلب، والخُبثَ من الدب، والجبن من الضبع، والنميمة من القرد، والكِبْر من النمر، والحقد من الجمل، وكثرة السؤال من الهرّ، والبلادة من الحمار، والدغل[3] من البغل، والجماح[4] من الخيل الشموسة، أي الخيل التي لا تنقاد بالراكب، واللَّدغ من العقرب، وعظم الأذية مع حسن الصورة من الحيَّة، والمكر والخديعة من الشيطان، فالإنسان إذا أعطى نفسه

---

(١) الخَساسَةُ: مصدرُ الرجل الخَسيس البَيِّن الخَساسَة. والخَسيسُ: الدنيء. وخَسَّ الشيءُ يَخَسُّ ويَخِسُّ خسَّةً وخَساسَةً، فهو خَسيسٌ: رَذُلَ. وشيء خَسيسٌ وخُساسٌ ومَخْسُوسٌ: تافه. ورجل مَخْسُوسٌ: مَرْذُول. وقوم خِساسٌ: أرذال.

(٢) الروغ: الميل على سبيل الاحتيال، ومنه: راغ الثعلب يروغ روغاناً، وطريق رائغ: إذا لم يكن مستقيما، كأنه يراوغ، وراوغ فلان فلانا، وراغ فلان إلى فلان: مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال قال تعالى: ﴿فراغ إلى أهله﴾ و[الذاريات/ ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿فراغ عليهم ضربا باليمين﴾ [الصافات/ ٩٣]، أي: مال، وحقيقته: طلب بضرب من الروغان، ونبه بقوله: "على" على معنى الاستيلاء.

(٣) أصل الدَّغَل: الشَّجَرُ المُلْتَفُّ الذي يكْمُنُ أهل الفَسادِ فيه، وقيلَ هو من قَولهم أدْغَلْتُ في هَذا الأمر إذا أدْخَلْتَ فيه ما يُخَالفُه ويُفْسُده. ومنه حديث سيدنا علي « ليسَ المؤْمن بالمُدْغِل » .

(٤) يقال: جمح في أثره: أي أسْرع إسْراعاً لا يَرُدّه شيء. وكل شيء مَضَى لوَجْهه على أمْر فقد جمَح. ومنه حديث عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه "فطَفِق يُجَمِّحُ إلى الشَّاهد النَّظَر" أي يُدِيمه مع فتح العين. قاله في النهاية.

مناها واتَّبع غيَّها وهواها، كان شراً من جميع ما ذكر[1]؛ لأنه جمع جميع ما تفرَّق فيها من الأوصاف الذميمة، والأحوال الوخيمة.

---

(١) فالرضا عن النفس أصل كل بلية تصيب المرء في دنياه وآخرته. قال سيدي ابن عطاء الله السكندري في بعض حكمه الجليلة: " أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها".

يعني أن النظر إلى النفس بعين الرضا يوجب تغطية عيوبها، ويصير قبيحها حسناً. والنظر إليها بعين السخط يكون بضد ذلك، على حد قول القائل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

فمن رضي عن نفسه، استحسن حالها، فتستولي عليه الغفلة عن الله تعالى، فينصرف قلبه عن مراعاة خواطره، فتثور عليه الشهوة وتغلبه؛ لعدم وجود المراقبة القلبية التي تدفعها، فيقع في المعاصي لا محالة. فعطف الغفلة والشهوة على المعصية، من عطف السبب على المسبب. وكذا عطف اليقظة والعفة على الطاعة، فإن اليقظة التي هي التنبه لما يرضي الله تعالى، والعفة التي هي علو الهمة عن الشهوات، يتسبب عنهما الطاعة التي هي اتباع المأمورات، واجتناب المنهيات. وإنما كان الرضا عن النفس أصل كل معصية؛ لأنها أمَّارة بالسُّوء، فهي العدو الملازم. وناهيك قول يوسف الصديق: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي أن النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. وصُحْبَتُكَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك في تحصيل فائدة الصحبة التي هي الزيادة في حالك، من أن تصحب عالماً بالعلوم الظاهرية، يرضى عن نفسه. فإن المدار في الانتفاع بالصحبة، إنما هو على العلم بعظمة الله وجلاله وإحسانه، الذي ينشأ عنه معرفة النفس وعيوبها، لا على العلوم العقلية والنقلية. فأي علم نافع لعالم بالعلوم الظاهرية يرضى عن نفسه؟. وأي جهل ضار لجاهل بالعلوم الظاهرية لا يرضى عن نفسه؛ لعلمه بعيوبها، فإنه - وإن قَلَّتْ بضاعته من الأحكام -، لا بدَّ أن يحصِّلها بالوقائع على مدى الأيام. فلا ينبغي للمريد أن يصحب إلا من يكون عارفاً بعيوب نفسه، غير ›

«١٤» وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى
ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ

ولا أعدَّت

أي: هيَّأت، وهو عطفٌ على "ما اتَّعظت".

منَ الفعلِ الجَميلِ

أي: الحسن؛ من فضيل العبادات، وشريف القربات.

قِرى

بكسر القاف، وهو في الأصل: ما يُقَدَّم للضيفان من الطعام والشراب، والمراد هنا: التوبة النصوح المشفوعة بالأعمال الصالحات.

ضَيفٍ

هو المشيب.

راض عنها؛ ليقتدي به في أفعاله، فإن الطبع سرَّاق. كما قال بعضهم:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارنة يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

ألـمّ

أي: نزل ذلك الضَّيف: -

برأسي

حالة كونه: -

غير مُحتشِم

أي: مستحٍ في إلمامه، حيث ألمَّ بغير إذنٍ مني ولا إرادة، وأطال الإقامة فلم يرتحل بالموت.

وفي الحديث الصحيح: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»(١)

وقد ضمَّن الناظم هذا البيت قول المتنبي:

ضيفٌ ألمَّ برأسي غير محتشم   والسيف أحسن فعلاً منه باللمم(٢)

ولما كان قوله "ولا أعدَّت . . ." البيت، يستلزم عدم توقير ذلك الضَّيف، قال: -

---

(١) قطعة من حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه بلفظ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت». رواه الإمام أحمد في مسنده واتفق عليه الشيخان، والنسائي في سننه، وابن ماجة كلهم عن أبي شريح، وعن أبي هريرة رضي الله عنهما. انظر: الجامع الصغير للسيوطي - الحديث رقم ٨٩٧٩ .

(٢) انظر: ديوان المتنبي بشرح البرقوقي - صفحة ١٥٠ .

«١٥» لَوْ كُنتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ
كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ

لو كُنتُ أعلَمُ

أي: أتيقَّنُ وأظنُّ قبل إلمام المشيب برأسي.

أنِّي

بفتح الهمزة.

مَا أُوَقِّرُهُ

أي: أعَظِّمه بعد نزوله بقبول نصحه، وتهيئة قِراه.

كَتمتُ

أي: أخفيتُ.

سِرّاً

أي: أمراً خفياً من الشَّيب، وأوقع الكتْمَ على السِّر مبالغة في إخفائه.

بَدَا

أي: ظهر:-

لي

قبل غيري، لأني أطَّلع من أحوال نفسي على ما لم يطَّلع عليه غيري.

منه

أي: الشَّيب.

بالكَتَم

بفتح الكاف والتاء مخفَّفة، وحكي تشديدها: نبتٌ يخضب به كالحناء[1] أي بأن أخضبه به بعد نزوله كي لا أنسب إلى عدم توقيره الناشىء عن نفسي الأمَّارة بالسوء.

تنبيه: يجوز خضب شيب بغير السواد من حمرة أو صفرة، وأما الخضب بالسواد فلا يجوز إلا في جهاد الكفار إرهاباً للكفار، ويجوز للمرأة أن تخضب به لكن بإذن زوجها، لأنَّ له غرضاً في ذلك[2].

ثم استفهم عمَّن يتكفَّل بردِّ جماح نفسه الأمّارة بالسوء فقال صائحاً: -

---

(١) قال ابن الأثير في "النهاية": الكَتَمُ: هو نَبْتٌ يُخْلَط مع الوَسْمَة، ويصبغ به الشعر أسْوَد. وقيل: هو الوَسْمَة. ومنه الحديث «إن أبا بكر كان يَصْبُغ بالحنَّاء والكَتَم» وقد تكرر في الحديث. ويُشْبِه أن يُراد به استِعمال الكتَمَ مُفْرَداً عن الحِنَّاء، فإن الحِنَّاء إذا خُضِب به مع الكَتَم جاء أسْوَد.

(٢) قال في المغني: "يكره نَتْفُ الشيب من المحلّ الذي لا يطلب منه إزالة شعره لخبر: "لاَ تَنْتِفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ نُورُ الْمُسْلِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" رواه الترمذي وحسّنه. وإن نقل ابن الرفعة تحريمه عن نص الأمِّ وقال في المجموع: ولو قيل بتحريمه لم يبعد. قال: ونَتْفُ لحية المرأة وشاربها مستحبّ لأن ذلك مثلةٌ في حقّها. ويسنُّ خضب الشيب بالحنّاء ونحوه للاتباع. انظر: مغني المحتاج، للخطيب الشربيني كتاب الصلاة - باب شروط الصلاة وموانعها.

«١٦» مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ

مَن لي

استفهام استعطاف واستغاثة، أي: من ذا الذي يتكفل لي؟

بِرَدِّ جِماحٍ

أي: إباء وامتناع عن كل خير، من جمح الفرس: إذا أعيا راكبه من شدة عَدْوِه، وعدمِ انقياده. وتنكيره للتعظيم.

عن

وفي نسخة: "من".

غَوايَتِها

أي: ضلالتها بمواعظ السُّنَّة وأسرارها القدسية، والظرف متعلق بـ"رد".

كَمَا يُرَدُّ

أي: ردُّ مثل ما يردّ. فـ"ما" مصدرية، والكاف بمعنى: "مثل"؛ صفة لموصوف محذوف نُصِب على أنه مفعول مطلق.

جِماحُ الخَيلِ

أي: غلبتها. والإضافة إلى موصوفها.

والخيلُ: اسمُ جمعٍ لا واحدَ له من لفظه، سميت بذلك لأنها تختال في مشيتها. وهي أشرف البهائم، قد جاء مدحها في قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(١).

وفي قوله صلى ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»(٢)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: " لما أراد الله تعالى أن يخلق الخيل أوحى إلى ريح الجنوب، وقال إني خالق منك خلقاً؛ فاجتمعي. فاجتمعت؛ فأتى جبريل فأخذ منها فرساً كُمَيتاً، أي: أسود - وقال: خلقتك غريباً وفضَّلتك على جميع البهائم، فالرزق بناصيتك، والغنائم تُقاد على ظهرك، وبصهيلك أرهب المشركين، وأعزِّ المؤمنين. ثم وسمه بغُرَّةٍ وتحجيل. فلما خلق الله تعالى آدم قال له: اختر يا آدم،

---

(١) سورة الأنفال - الآية رقم ٦٠ .

(٢) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامة». قال النجم: رواه أحمد، والشيخان، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه: عن عروة بن الجعد. وهؤلاء ومالك: عن ابن عمر. والبخاري: عن أنس. ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه: عن أبي هريرة. ثم قال وعند الطبراني عن جابر بلفظ: «الخيل معقود في نواصيها الخير واليُمْنُ إلى يوم القيامة»، وأهلها معانون عليها، قلدوها ولا تقلدوها الأوتار» وهو عند أحمد بنحوه بزيادة: «فامسحوا بنواصيها، وادعوا لها بالبركة»، ولم يقل واليُمْن. وفي لفظ للشيخين: «الخيل لثلاثة: هي لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر» الحديث، ثم قال: ورواه الخطيب عن ابن عباس بلفظ: «الخيل في نواصي شُقْرها الخير» انتهى. وللجلال السيوطي رسالة سماها: [جر الذيل في الخيل]. انظر: كشف الخفاء للعجلوني - الحديث رقم ١٢٧٢ .

أي الدابتين الفرس أو البراق؟. فقال: الفرس. فقال اخترت عزَّكَ وعزَّ أولادك.

وورد في حديث: «ما من فرس إلا ويقول كل يوم: اللهم من جعلتني له فاجعلني أحبَّ أهله إليه»(١)

ثم: الخيل ثلاثة: فرسٌ للرحمن، وهي المعَدَّة للغزو. وفرسٌ لك، وهي التي تسابق عليها. وفرسٌ للشيطان، وهي التي أعِدَّت للخيلاء(٢)

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الخيل ثلاثة: لرجلٍ أجر، ولرجلٍ ستر، ولرجلٍ وزر»(٣).

---

(١) لم أعثر عليه فيما لدي من مصادر، والله أعلم.

(٢) عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الخيل ثلاثة ففرس للرحمن وفرس للإنسان وفرس للشيطان، فأما فرس الرحمن فالذي يرتبط في سبيل الله عز وجل فعلفه وبوله وروثه - وذكر ما شاء الله - وأما فرس الشيطان فالذي يقامر عليه ويراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها فهي ستر من فقر». رواه أحمد ورجاله ثقات قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد فان كان القاسم بن حسان سمع من ابن مسعود فالحديث صحيح. انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي -المجلد الخامس. ٢٤ . كتاب الجهاد. ١١ . (أبواب في الخيل). ٢ . باب منه فيما جاء في الخيل وارتباطها. الحديث رقم: ٩٣٣٨ .

(٣)قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الخيل لثلاثة: هن لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر» وتتمته: «فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت ›

وفي حديث آخر: «إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللّهو إلا مسابقة الخيل وملاعبة الرجل أهله» (١).

بِاللُّجُم

القوية. جمع "لجام"؛ وهو: الحديدة المعترضة في جانبي فم الفرس. ولما طلب ردَّ النفس الأمَّارة بالسوء بأقصى ما يكون من العنف كردِّ الخيل الجموح باللُّجُمِ القوية، أشار إلى ردِّ ذلك بقوله: -

* * *

خيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت ولم يرد أن يسقيها فإن ذلك حسنات له. ورجل ربطها تغنياً وستراً وتعففاً ثم لم ينس حق الله في رقابها وظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواء لأهل الإسلام، فهي له وزر». رواه مالك، والإمام أحمد في مسنده واتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، انظر: الجامع الصغير للإمام السيوطي - الحديث رقم ٤١٦٢ .

(١) لم أجده فيما لدي من مصادر، والله أعلم.

«١٧» فَلَا تَرُمْ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا
إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ

فلا تَرُم

أي: لا تطلب.

بالمعَاصِي

أي بتمكينها من معاصيها - صغائر كانت أو كبائر - ، ومثلها الرذائل المباحة الخارمة للمروءة كالأكل في السوق لغير سوقي[1].

كَسْرَ شَهوتِها

أي إذهابها بالمروءة، على أنه مصدر المبني للمفعول، وإذهابها على أنه مصدر المبني للفاعل.

وعلّل ذلك النهي عل طريق ضرب المثل بقوله: -

إنَّ

بكسر الهمزة.

(١) أي لغير عامل في السوق.

الطَعامَ

أي: جنسه، وهو ما يؤكل ويشرب.

يُقوّي

أي: يزيد: –

شهوةَ

الشخص: –

النَّهمِ

أي: الشَّديد الشهوة إليه. ومعنى البيت: لو كسرت شهوة النفس للمعاصي بتمكينها منها لكسرت شهوة النَّهم للطعام بتمكينها منه، واللازم باطل، فالملزوم مثله. ثم ضرب لذلك مثلاً آخر زيادة في التقرير فقال: –

* * *

«١٨» وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

والنَّفسُ

بالقياس إلى الرَّضَاع :

إن تُهمِلهُ

أي : تتركه يرضع .

شَبَّ

أي : كبر .

على حُبِّ الرَّضاعِ

أي : مع محبته إياه ، فلا يتركه أبداً لأنه صار عادة له وطبعاً .

وإن تَفطِمهُ

أي : تمنعه عنه بأن تلزمه طعاماً آخر .

ينفطِم

أي : يمتنع فلا يعود إليه للكراهة إياه ، فكذلك النَّفس إذا تركتها ترتع في أودية المعاصي أَلِفَتها وتعذَّر رجوعها عنها ، وإن منعتَها عنها بأن شغلتها بالطاعات امتنعت

عنها وكرهتها فلا تعود إليها أبداً. وإذا عرفت أن النَّفس لا يرام كسر شهوتها بإرسالها في معاصيها بل بكبحها عنها، وفطمها عن رضاعها: -

* * *

«١٩» فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ
إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ

فاصرف هواها

أي: ادفعه. والهوى - بالقصر - لغة: الميل إلى الشيء. وعرفاً: ميلان النفس إلى ما يترتب عليه ذَمٌّ في العاجل، وعقاب في الآجل(١).

(١) قال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار. وقال ابن عباس: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه، قال الله تعالى: ﴿واتبع هواه فمثله كمثل الكلب﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وقال تعالى: ﴿واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله﴾[الروم: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[القصص: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[سورة ص: ٢٦]. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». وقال أبو أمامة: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى». وقال شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيت شُحّاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شحٌ مطاع وهوى متبع وإعجابُ المرء بنفسه. والمنجيات خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب». ›

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه؛ فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح. وقال الأصمعي سمعت رجلاً يقول:

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هَوَانٌ سرقت نونه، فأخذه الشاعر فنظمه وقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال آخر:

إن الهوى هو الهوان بعينه فإذا هويت فقد كسبت هوانا
وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى فاخضع لحبك كائناً من كانا

ولعبدالله بن المبارك:

ومن البلايا للبلاء علامةٌ ألاّ يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع

ولابن دريد:

إذا طالبتك النفس يوماً بشهوة وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطوسي:

والنفس إن أعطيتها مناها فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبي الحواري: مررت براهب فوجدته نحيفاً فقلت له: أنت عليل. قال نعم. قلت: مذ كم؟. قال: مذ عرفت نفسي! . قلت فتداوى؟ قال: قد أعياني الدواء وقد عزمت على الكي. قلت وما الكي؟ قال: مخالفة الهوى. وقال سهل بن عبدالله التستري: هواك داؤك. فإن خالفته فدواؤك. وقال وهب: إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته.

وللعلماء في هذا الباب في ذم الهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه؛ ويحسبك بقوله تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات: ٤١].

وَحَاذِرْ

أي: خَفْ في كل زمان، وعلى أي حال، ومن ثَمَّ اختاره على احذر "[1].

أن تُوَلِّيَه

أي: تجعله والياً عليها يتصرّف فيها تصرفَ الأمير في المأمور، وعلَّل ذلك بقوله: -

إنَّ

بكسر الهمزة على الاستئناف، وفتحها على إرادة التعليل، وإضمار لامه.

الهَوى

أي: كل فرد من أفراده.

مَا

أي: مهما.

تَوَلَّى، يُصْمِ

بضم أوَّله، أي: يقتل، من "أصمى الصيدَ: قتله"[2].

---

(١) وقوله" وحاذر أن توليه" أي واحذر أن تعطي هواها الولاية والإمارة عليك، لأنه داع إلى الضلالة غير صالح للإمارة، وإنما عبر المصنف بحاذر دون احذر تنبيها على أن النفس تراقب غفلة الشخص لتقع في هواها فهي تحاذره كما يحاذرها فالمحاذرة من الجانبين. قاله العلامة الباجوري – ص ١٣.

(٢) قال في اللسان: " أصْمَيت الصيد إذا رمَيْتَه فقتَلْتَه وأنت تراه. وأصْمى ›

أو يصِم

بفتح أوله، أي: يعب، لأن الهوى تارة يأتي بما فيه قتلٌ وعيب، كالرِّدَّة وزنى المحصَن، وتارة يأتي فيه عيبٌ فقط كالسرقة والقذف، ودلالة على أنه أصل كل مفسدة، ورأس كل خطيئة، إذ هو حالة شبيهة بالسُّكْر تمنع التمييزَ بين حُسنِ الأمور وقُبحِها، ففي منثور الحِكَم:

"من أطاع هواه أعطى عدوَّه مناه".

وقال بعض الحكماء: العقل صديقٌ مقطوع، والهوى عدوٌّ متبوع.

وقال بعض البلغاء: أفضل من عُصي هواكا، وأفضل من رُفض دنياكا.

وقال هشام بن عبد الملك - شعراً -:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال

وذكر بعض المحقِّقين أن "هوى" أصله: هوان، اختصر بحذف آخره كما فعلوا كذلك في "يد"، و"دم". وأنشد على ذلك:

نون الهوان من الهوى مسروقة فصريع كل هوى صريع هوان

ولما استشعر اعتراضاً بالنفس [من أنها] قد تهوى ما هو طاعة مأمور بها شرعاً أجاب عنها بقوله: -

---

الرَّميَّة: أنفذَها. روي عن ابن عباس أنه سُئل عن الرجُل يَرْمي الصيد فيجده مقتولاً فقال: كُلْ ما أصْمَيْت ودع ما أنْمَيْت؛ المعنى في قوله "كُلْ ما أصْمَيْت" أي: ما أصابَه السهمُ وأنت تراه فأسْرع في الموت فرأيته، ولا محالة أنه مات برَمْيك، وأصله من الصَّمَيان وهو السُّرعة والخفَّة. وصَمى الصيدُ يَصْمي إذا مات وأنت تراه. والإصْماءُ: أن تقتُلَ الصيدَ مكانه، ومعناه سرعةُ إزهاق الرُّوحِ من قولهم للمُسْرِع صَمَيانٌ".

«٢٠» وَرَاعِهَا وَهْيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ
وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسِمِ

وَراعِها

أي: لاحظها، أي: النَّفس الأمَّارة بالسوء، وتتبَّع أحوالها، وتأمَّلْ دسائسَها.

وَهيَ

أي: والحال أنها: -

في الأعمالِ

الصالحةِ: -

سائمةٌ

أي: متلبِّسةٌ بها تلبُّس الماشية بسومها في المرعى.

وإنْ

أو: "إن"، شرط:

هي

فاعل بفعل محذوف يفسِّره قوله: -

استحلت

أي: استطابت: -

المرعى

أي: ما تتعاطاه من الأعمال الصَّالحة الشبيهة بمرعى الماشية بأن أحبَّتها، ومالت بطبعها إليها.

فلا تُسِم

أي: فلا تُبقِها في ذلك المرعى.

تنبيه: الأعمال في كلام الناظم مختصةٌ بالأعمال المندوبة، لأن الأعمال الواجبة على تقدير دخول نحو الرياء فيها لا يجوز قطعها، بل يجب قطع ذلك العارض عنها.

ثم ذكر ما هو كالدليل على ما ذكره، فقال: -

* * *

«٢١» كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ

كم

أي: كثير.

حَسَّنَتْ

أي: زيَّنت النفس الأمَّارة بالسوء لذةً في طعام. قال النُّحاة: وإذا فصل بين "كم" الخبرية، ومميزها بفعل متعدٍّ وجب جرّه لئلا يلبس بمفعوله، كما في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[1].

والناظم ترك ذلك لضرورة النظم، والمميز محذوف وسد مفعوله، والأصل: كم من المرات.. وهذا أقوى الوجهين.

للمرءِ

أي: الشخص المطيع لها في هواها.

قاتلةً

أي: مهلكةً:-

(١) سورة الدخان - الآية رقم ٢٥.

من حيثُ لم يدرِ

أي: لم يعلم.

أنَ السُّمَّ

أي: القاتلَ مدسوسٌ له: -

في الدَّسَمِ

بفتح أوَّليه، وهو نوع من أنواع الطعام كالحلاوة، على تقدير مضاف، أي: ذي الدسم من الأطعمة.

ويصحُّ أن يكون بفتح أوله وكسر ثانيه على أنه صفةٌ مشبَّهة، كـ "فَرِح". وحينئذ فلا يقدر مضاف.

واعلم أن دسائس النفس في الطَّاعات أعظم من دسائسها في المعاصي، لأنَّ حظَّها في المعاصي ظاهر جليّ، وحظَّها في الطَّاعات باطنٌ خفي[1].

---

(١) فربما أورثت الطاعة عجباً يقلبها إلى شرٍّ معصية كما جاء في حكم ابن عطاء الله - رضي الله عنه -: «ربَّ معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً». فإن الذل والافتقار من أوصاف العبودية، والتحقق بهما موجب للقرب من رب البرية. وأما العز والاستكبار فإنهما من أوصاف الربوبية، والتعلق بهما مقتض للخذلان والتباعد عن المراتب العلية.

وتأمل قوله - رضي الله عنه - هنا حيث جعل الخيرية في أثر المعصية لا في عين المعصية، فلا يصح إجماعاً أن يفهم أحد عن القوم أنهم يقولون إن المعصية تقرب إلى اللّه تعالى أبدا، فإن الحس يكذب هذا القائل، فلو أراد العاصي أن يحصل له باللّه وصلة بوقوعه في المعصية لايصح ذلك له أبدا، بل يجد حبل الوصلة بشهوده تعالى أو شهود حضرته انقطع.

ولما كان من دسائس النفس في الأعمال الجوع والشِّبَع، صرَّح بهما لخفائهما، فقال: -

---

وقد جاء شخص إلى الإمام الجنيد - رضي الله عنه - فقال: يا سيدي أنا صرت آتي المعاصي وأنا مشاهد للّه عز وجل من كونه خالقاً لتلك المعصية، فقال له الجنيد: هذا تلبيس من الشيطان ولو حققت النظر لوجدت نفسك حال المعصية لا يصح لها مشاهدة الحق تعالى مطلقاً، ثم لو قدر أنك شاهدته تعالى لشهدته ساخطاً عليك غير راض عنك وهو كلام نفيس.

ولا يعرف هذا إلا من تربى على يد شيخ يقطع علائقه أو يقلبها إلى خير، وإلا فمن لازم ذلك كثرة العوائق عن اللّه حتى آخر العمر، وقد عجز الأكابر فضلاً عن غيرهم أن يعرفوا طريق قطع علائقهم بأنفسهم من غير شيخ فلم يقدروا، فلا يزال الشيخ يأمر بإزالة العوائق واحداً بعد واحد حتى لايبقى إلا واحد فيقول لك أزله وها أنت وحضرة ربك. كما يحتاج ذلك إلى طول زمان وصبر على مأمورات الشيخ، وغالب الناس يرجع من الطريق فلا يحصل من قطع العلائق على طائل. وإيضاح ذلك أن طريق السير في الطريق غيب والمريد كالأعمى الذي يريد يسلك طريقاً طول عمره ماسلكها، والشيخ كالمسافر الذي سلكها في نور الشمس زماناً طويلاً فعرف مهالكها كلَّها، فهو بتقدير أنه يعمي أو يسير في ظلمة الليل يعرف المهالك الطرق المسدودة كدليل الحاج سواء، فمن سلَّم للشيخ وانقاد له قطع تلك الطريق ونجا من العطب، ومن لم يسلِّم للشيخ لايعرف يمشي وربما وقع في مهلكة، فلم يعرف يخرج منها حتى يموت، ولولا أنها طريق غيب لايقدر أحد على سلوكها وحده ما كان للدعاة إلى اللّه فائدة من أنبياء وأولياء وعلماء، فلابد من مزيد خصوصية. وقد أجمع الأشياخ على أنه لو صح لعبد أن يأتي بالمأمورات على الوجه الذي أمره اللّه تعالى به من غير خلل لما احتاج أحد إلى شيخ، لكن لم يصح لهم ذلك فاحتاجوا ضرورة إلى من يبين لهم مراد الحق فلذلك احتاج أتباع المجتهدين إلى المجتهدين ليبينوا لهم مراد الشارع، ومقلدو الأتباع إلى من يبين لهم مراد المجتهدين، وهكذا فكل أهل دور يعرفون مراد الدور الذي قبلهم لقربهم منهم، ولو أراد الذين بعدهم أن يعرفوا الواسطة التي قبلهم ويستقلوا بفهم كلام من قبلهم على وجهه، لا يقدرون.

«٢٢» وَٱخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

واخْشَ

أي: خَف:-

الدَّسائِسَ

جمع "دسيسة"، وهو المكر الخفي الذي بُولغ في إخفائه. ومن ثَمَّ قيلَ للجاسوس: دسيس القوم. ثم قوله" واخشَ الدسائس" عطفه بعض الشرّاح على قوله: " وراعها.." وردَّه الزركشي، وجعله معطوفاً على محذوف، أي: احذر اللّذَّات، واخش الدسائسَ الحاصلةَ:-

مِن جُوعٍ، ومن شِبَعٍ

مفرِطَين. والجوع: خلوُّ المعدة من الطعام. والشِّبَع: ملؤها منه.

فمن دسائس الجوع: الحدّة وسوء الخلق، والذبول، والملل، والكلال(١)، والضعف عن القيام(٢).

ومن دسائس الشبع: الكسل، وغلبة الشهوة، وإظلام القلب، والفتور عن القيام. وقد تحصل العبادة مع الشِّبع دون الجوع فيكون الجوع شراً من الشبع، كما أشار إليه

(١): الكلال: الإعياء والتعب.

(٢) أي قيام الليل أو القيام بالطاعات.

بقوله: -

فرُبَّ مخمصةٍ

أي: مجاعة.

شرٌّ من التُّخَمِ

أي: إفراط الشِّبع، جمع تُخمة، وهي فساد المعدة الحاصل من إدخال الطعام على الطعام قبل هضمه، وأصل "تخمة": وخمة، قلبت الواو تاء كما في تُجاه، وتُراث. وأشار الناظم بذلك إلى طلب التوسُّط بين الجوع والشبع المفرطَين، على ما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1].

إذ قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، يشير إلى نفي شدة الجوع والعطش.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾، يشير إلى نفي شدة الشبع، وينفي بانتفاء ذلك سائر الأمراض[2].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣١.

(٢) روى الشيخان وغيرهما مرفوعاً: «المسلم يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». وفي رواية للبخاري: أن رجلاً كان يأكل أكلاً كثيراً فأسلم فكان يأكل أكلاً قليلاً؛ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إن المسلم يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». وفي رواية لمسلم: أضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفاً كافراً فأمر له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشاة فحلبت؛ فشرب حلابها. ثم أخرى؛ فشرب حلابها حتى شرب حلاب سبع شياه. ثم إنه أصبح فأسلم، فأمر له ›

. . . .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة فشرب حلابها ؛ ثم بأخرى فلم يتمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن المؤمن يشرب في معي واحد ، والكافر يشرب في سبعة أمعاء» .

وروى الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه مرفوعاً : «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، فحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه» . وروى الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد : عن أبي جحيفة قال : أكلت مرة ثريدة من خبز ولحم ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فجعلت أتجشى فقال : «يا هذا كُفَّ من جشائك ، فإنَّ أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة» . زاد في رواية : فما أكل أبو جحيفة ملء بطنة حتى فارق الدنيا ، كان إذا تغدى لا يتعشى وإذا تعشى لا يتغدى . وفي رواية لابن أبي الدنيا قال أبو جحيفة : «فما ملأت بطني منذ ثلاثين سنة» . وروى البخاري في كتاب الضعفاء ، وابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها قالت : أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشبع ، فإنَّ القومَ لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم . وروى البيهقي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عائشة أكلت في اليوم مرتين فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا عائشة : أما تحبين أن يكون لك شغل إلا جوفك ! الأكل في اليوم مرتين من الإسراف ، والله لا يحب المسرفين . وفي رواية : «يا عائشة اتخذت الدنيا بطنك ، أكثر من أكلة كل يوم سرف ، والله لا يحب المسرفين» . وروى الإمام أحمد والطبراني وغيرهما مرفوعاً : «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى» . وروى الإمام أحمد والطبراني ورواته ثقات : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : «إياك والتنعم ، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» . والأحاديث في ذلك كثيرة . والله أعلم .

ومن ثم قال بعض الحكماء: إن الله تعالى قد جمع الطِّبَّ كلَّه في نصف آية، وأشار إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»(١).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حسب المؤمن لقيمات يقمن صلبه» أي: لُقَم قليلة في المعدة صغيرة في الحجم.

واعلم يا أخي الحبيب أن الإنسان لو تورَّع التورُّع المشروع لم يجد شيئاً يشبع منه ولا وسع به على نفسه فضلا عن أن يوسع على غيره. وفي الشبع من الحلال مفاسد كثيرة فكيف الشبع من الشبهات والحرام؟ أقل ما فيها أن الإنسان إذا أكل وشبع جاعت جوارحه فلا تشبع إلا إن وقعت في المعاصي المشاكلة لذلك الأكل في الحل والحرمة خفة وثقلا. فإذا كان الأكل حراماً نشأ منه أعمال حرام، وإذا كان خلاف الأولى نشا منه ارتكاب خلاف الأولى، ومن قال إن الأعمال تنشأ على غير مشاكلة الأكل فليس عنده تحقيق. كان سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه يقول: أطب مطعمك ولا عليك أن لا تصوم النهار ولا تقوم الليل. وكان سيدي إبراهيم المتبولي يقول: إياكم والأكل من الشبهات فإنها تؤثر في قلب العبد ولو كان من أكابر الأولياء. ومن مفاسد الأكل الكثير أيضاً: ثقل الأعضاء عن القيام بالطاعات في الليل والنهار.

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنَّفَس». رواه الترمذي وقال حسن من حديث المقدام بن معدي كرب. وفي لفظ له عقب صلبه: «وإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه». هذا ما في الإحياء وتخريجه للعراقي في موضعين، ورواه السيوطي في الجامع الكَبير عن ابن المبارك، وأحمد والترمذي ›

«٢٣» وَٱسْتَفْرِغ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ ٱمْتَلَأَتْ
مِنَ ٱلْمَحَارِمِ وَٱلْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

واستفرغِ الدَّمعَ

أي: أرِقْهُ: -

من عَينٍ

حقيرةٍ: -

قَد امتَلأَتْ منَ

النَّظرِ إلى: -

المَحَارِمِ

وهذا كناية عن كثرته، وهو جمع "مُحَرَّم" بمعنى حرام.

وابن ماجه وابن سعد وابن جرير والطبراني والبيهقي عن المقدام بن معدي كرب أيضاً بلفظ: « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه»، ورواه أيضاً فيه عن ابن حبان والبيهقي عن المقدام أيضاً بلفظ: « ما ملأ آدم من وعاء شَراً من بطن، حسبك يا ابن آدم لقيمات يقمن صلبك فإن كان لا بدّ فثُلُثٌ طعام، وثلثٌ شراب، وثلثٌ نَفَس». انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني - الحديث رقم: ٢٢٧٠ .

ولما كان أكثر المعاصي ما يقع من العين عبَّر عنه بعض الشعراء بالجميع في قوله:

كل الحوادث مبداها من الـــنظر ومعظم النار من مستصغر الشَّرَرِ
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتَــرِ
يسرُ مقلته ما ضرَّ مهجـــــته لا مرحباً بسرور جاء بالكـــدر

والزَمْ

عطفٌ على "استفرغ . . ":-

حميَة

بكسر الحاء، مصدر "حمي".

النَّدَمِ

مصدر ندم على الشيء إذا أسف عليه، وتحسَّر. والإضافة فيه بيانية.

والمراد: من حمية النَّدم: التوبة النصوح المستجمعة لجميع المعتبرات الشرعية، وهي: الندم على الذنب، والإقلاع عنه، والعزم على أن لا يعود إليه، وتفريغ الذمة عن سائر الحقوق.

ثم . . . التوبة واجبةٌ فوراً على جميع الأشخاص، في جميع الأزمان، من جميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، تخلُّصاً عن المعاصي، وإماتةً للذنوب.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(1)

(1) سورة النور الآية ٣١.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(١)

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (التائبُ من الذنب كَمن لا ذنبَ له). رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود رفعه، ومن شواهده ما أخرجه البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس بزيادة: «والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه، ومن آذى مسلما كان عليه من الإثم مثل كذا وكذا». وفي لفظ: «كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل»، ولأبي نعيم والطبراني في الكبير بسند ضعيف عن أبي سعيد الأنصاري مرفوعاً: «الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له».

فعلينا يا أخي الحبيب جميعاً أن نبادر بالتوبة عقب كل ذنب، ولا نصر على ما فعلناه لحظة واحدة هروبا من سخط الله تعالى، مع أن الإصرار أيضاً معصية ثانية، فإذا وقع بادرنا أيضاً بالتوبة من الإصرار، وهكذا القول في الإصرار على عدم التوبة من الإصرار أبداً، فما من ذنب إلا وله دواء، حتى لو أصر على ذنب سبعين سنة أو أكثر فندم واستغفر الله عن جميع الإصرار السابق كله انسحب الاستغفار عليه، فإنَّ التوبة تَجُبُّ ما قبلها.

قال العلماء: والتوبة عن الشرك مقطوع بها بنص القرآن فهي مقبولة بلا شك، بخلاف معاصي أهل الإسلام فإنها كلها مظنونة القبول، وذلك لأن المشرك كان في حجاب القطيعة الكلية فلاطفه الحق تعالى كما لاطف الشيخ الفاني وحمل عنه حكم الذنوب السالفة كلها إذا تاب وأحسن.

وأما العاصي من أهل الإسلام فكان حكمه حكم الشاب القوي العاتي لضعف حجاب قطيعته فإنه مسلم موحد يشم رائحة الإسلام، فكان من شأنه أن لا يقع في معصية الله تعالى: قال سيدي عبد الوهاب الشعراني: هذا ما ظهر لي الآن من الحكمة ومن فتح الله تعالى عليه بشيء أوضح مما قلناه فليلحقه بهذا الموضع. قال سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى: ما دامت شهوة الذنوب في القلب فلا فائدة في الطاعات، لأن ظلمة شهوة المعصية تمنع دخول نور الطاعات إلى القلب، والمدار على حصول النور في القلب حتى يصلح لمجالسة الرب. ﴿والله غفور رحيم﴾.

وقوله [illegible] واستمر [illegible] [illegible] أن الندم إذا كان صحيحاً صحبه البكاء غالباً صادراً من القلب.

ولم يزل الأنبياء [illegible] يبكون على ما صدر منهم؛ فلقد بكى آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة بكاء كثيراً، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن آدم وحواء بكيا على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي عام، ولم يأكلا، ولم يشربا أربعين، ولم يقرب آدمُ حواء مائة عام.

وعن وهب بن منبه: لما أهبط آدم إلى الأرض مكث يبكي ثلاثمائة عام، لا يرقأ له دمع.

وعن مجاهد: بقي آدم لا يرفع رأسه إلى السماء، وأنبت الله من دموعه العود الرطب، والزنجبيل، والصندل، وأنواع الطيب.

وبكى داودُ أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسَه حتى نبت المرعى من دموعه، وغطى رأسَه، فنودي: يا داود أجائع أنت فتطعم؟ أم ظمآن فتُسقى، أم عارٍ فتُكسى؟. فنحب نحبة هاج منها العود الرطب واحترق من حرِّ جوفه، ثم أنزل الله تعالى التوبة والمغفرة. وغير ذلك مما ورد عن الأخبار في الآثار والأخبار(1).

(1) وقد جاء في الأحاديث الشريفة، وصحاح الآثار ما يحث على البكاء والتباكي في حضرة الله تعالى، ومن كل ما يوجب الندم من معاصي، منها ما رواه الشيخان وغيرهما مرفوعاً: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فذكر منهم: ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». وعن الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعاً: «من ذكر الله ففاضت عيناه من

ولما أمر أولاً بالتوبة، أمر ثانياً بمخالفة من تنشأ المعاصي عن موافقته، فقال:

خشية اللّه حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذبه اللّه يوم القيامة».

وروى الإمام أحمد والنسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعاً: «حرمت النار على عين بكت من خشية اللّه».

وروى الترمذي وقال حسن صحيح الإسناد مرفوعاً: «لايدخل النار رجل يبكي من خشية اللّه تعالى حتى يعود اللبن في الضرع». وزاد في رواية البيهقي «ولايدخل الجنة مصر على معصية اللّه».

وروى الأصبهاني مرفوعاً: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عين خرج منها مثل رأس الذباب من خشية اللّه عز وجل».

وروى الأصبهاني وابن ماجه والبيهقي مرفوعاً: «ما من مؤمن يخرج من عينيه دموع، وإن كان مثل رأس الذباب خشية اللّه، ثم يصيب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه اللّه على النار».

وروى البيهقي مرسلاً: «ما اغرورقت عين بمائها إلا حرم اللّه سائر ذلك الجسد على النار، ولا سالت قطرة على خدها فيرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة ولو أن باكياً بكى في أمة من الأمم لرحموا، وما من شيء إلا له مقدار وميزان إلا الدمعة فإنه يطفأ بها بحار من النار».

وروى الحاكم مرفوعاً وقال صحيح الإسناد عن ابن مليكة قال: «جلسنا إلى عبدالله ابن عمر في الحجر فقال ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا، لو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره، ولبكي حتى ينقطع صوته».

وروى أبو داود واللفظ له النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما عن مطرف عن أبيه عبدالله قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ولصدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء. أي صوت كصوت الرحى، يقال أزت الرحى إذا صوتت.

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: «ما كان فينا فارس يوم بدر إلا

المقداد، ولقد رأينا وما فينا قائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح». وفي حديث الطبراني وغيره: «إن اللّه تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام: لم يتعبدني المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي».

وروى الترمذي وابن الدنيا والبيهقي عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول اللّه ما النجاة؟ قال «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك».

وروى البيهقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فبكى رجل بين يديه، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «لو شهدكم اليوم كل مؤمن عليه من الذنوب كأمثال الجبال الرواسي لغفر لهم ببكاء هذا الرجل وذلك أن الملائكة تبكي وتدعو له وتقول اللهم شفع البكائين فيمن لم يبك».

وروى البيهقي والأصبهاني مرفوعاً: يقول الله عز وجل: «وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، لاتبكي عين عبد في الدنيا من مخافتي إلا أن أكثرت ضحكها في الجنة».

وروى أبو الشيخ والبيهقي مرفوعاً: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها». وفي رواية لهما مرفوعاً: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله عز وجل وقعت عنه ذنوبه وبقيت له حسناته». واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

«٢٤» وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا وَإِنْ هُمَا مَحَضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ

وخالفِ

عطفٌ على "الزم حمية الندم".

النَّفسَ

الأمَّارةَ بالسُّوء.

والشَّيطانَ

أي: إبليس - لعنه الله تعالى -، ومثله في ذلك سائر أعوانه من الجن والإنس[١] وهو من: "شَطَنَ"، إذا بعُدَ، لبعده عن رحمة الله.

---

(١) ومن أشد هؤلاء الشياطين: علماء السوء الذين أضلَّهم الله على علم وزين لهم أعمالهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وغالباً ما يكون هؤلاء من الذين لم يتربَّوا على شيوخ التربية المخلصين وأهل الله العارفين الصادقين الذين اتصلت سلسلتهم بسيد الوجود صلى الله عليه وآله وسلم، واعلم يا أخي أن من أعظم أبواب الكبر هو العلم ومن هذا العلم "العلم الشرعي" الذي أخذه بعضهم من الكتب دون التلقي عن أهله من مشايخ التربية كما قال الإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين" فترى الواحد من هؤلاء ما أن يقرأ كتاباً إلا وينصب من نفسه مفتياً أو قاضياً يوزع شهادات التكفير على من هب ودبَّ من عباد الله تعالى لمجرد شبهة أو لسوء فهم أو سوء ظن بعباد الله، وهم في زماننا كثير كثير، ›

أو من : "شاط" إذا احترقَ؛ لاحتراقه بنار غضب الله تعالى. إما من عطف الخاص على العام، على معنى: وخالفهما فيما يوصيانه، سواء أمر به أم لا.

ممن ابتليت الأمة في أيامنا بوجودهم، فكانوا خوارج الوقت، لا يدخل عليهم أحد ويسمع كلامهم إلا ويخرج متكبراً متجبراً قاسي القلب، غليظ الطبع، مشحوناً بغضاً وحسداً وضغينة، امتلأ قلبه بالحقد الدفين على أهل لا إله إلا الله، وتنكَّب طريق السلف الصالح من هذه الأمة وخلفها من حسن الظن بعباد الله، وحسن الأدب مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأئمة المسلمين وعامتهم، ومع كل أحد، لكن هؤلاء تراهم يتطاولون على أهل الله - خاصة ساداتنا الصوفية الصادقين الذين شهدت الأمة على إخلاصهم وصلاحهم وعلمهم وفضلهم وإمامتهم-، ثم من تبعهم من الأئمة الأعلام، ولا فرق عند هؤلاء المغرورين - من طلبة العلم المبتدئين - بين أئمة المذاهب وغيرهم، فهم عندهم: "رجال ونحن رجال" - كما يقولون -، وهي كلمة حق أريد بها باطل، فنقول لهم: يا هؤلاء! كان ينبغي عليكم أن تقولوا: "هم ذكور ونحن ذكور" إذ للذكورة علامات معروفة ربما اجتمعت في كثير من الناس، أما "الرجولة" فأول علاماتها: ان يعرف الرجل قدر نفسه، فيقف عنده. ثم... يا هؤلاء! هل عملتم عمل أولئك الرجال من الأئمة الأعلام، وهل قمتم قيامهم، وهل صمتم صيامهم، وهل قرأتم قراءتهم، وهل أخلصتم أعمالكم كإخلاصهم، فأين وجه الشبه - ولا شبه والله -؟! خبروني بربكم، فإياك يا أخي ثم إياك من هؤلاء فإنهم والله أشدُّ رسل الشيطان وجنوده، وقانا الله وإياك منهم ومن شرورهم ورد كيدهم في نحورهم، ووفقنا إلى ما يحبه ويرضاه، ونسأله سبحانه السلامة والعافية، والأدب معه، ومع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأوليائه، وأئمة السلف والخلف، أحياءً وأمواتاً، والمسلمين أجمعين آمين.

فيما يأمران به، أو من عطف التغاير، على معنى: وخالفهما في المكروه، واعصهما في الحرام.

وقدَّم النفس على الشيطان لأنها ملازمٌ لا يُطرد، ولا يبعد، ولا كذلك الشيطان.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك»[1]. ومن ثَمَّ كانت مخالفةُ النفس رأسَ العبادة، وتركُ شهواتها أولَ مراتب السعادة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2].

وسئل بعضهم عن الإسلام فقال: ذبح النفوس بسيوف المخالفات.

ثم أشار الناظم إلى وجوب مخالفتهما وعصيانهما على أي حال كان فقال: -

---

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك». رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف، وله شاهد من حديث أنس، ويجرى على ألسنة كثيرين: "أعدى عدويك" بالتثنية في الموضعين، ولا أصل له بهذا اللفظ، والمشهور على الألسنة: "أعدى عدوك" بالأفراد في عدوك، وما أحسن ما قيل:

إني بُليتُ بأربع ما سُلّطوا ... إلا لأجل شقاوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي

(٢) سورة النازعات - الآية ٤١ .

وإنْ

بكسر الهمزة، أداة شرط .

هُمَا

مرفوع بفعل مقدَّر يفسِّره قوله : -

مَحَضاك

أي : أخلصا لك .

النُّصحَ

عن شوائب المكر والخديعة في ظاهر الحال .

فاتَّهِم

كلٍّ واحد منهما في أنّه أعلن خلاف ما أبطن، وقبَّح باطن ما حسَّن، وذلك كأن يقولا لمن جدَّ في العبادة : إن الله غنيٌّ عنك وعن عبادتك، فأرِح نفسك، وبعِّدها عن مشاقِّها ومتاعبها، وحافظْ على أصل الإيمان، فإنَّه يكفيك، ومن أهوال يوم القيامة ينجيك . وكأن يقولا لمن انهمك في المعاصي : إنك قد اقترفت ذنوباً عظاماً، واجترحت سيئات كباراً لا يقبل لك معها توبة، فأربح دنياك حيث خسرت أخراكَ . والعاقل العارف بدسائسهما يجيب عن الأول : بأنّنا عبيدٌ لله تعالى، خلقنا للعبادة، وأمرنا بها، ولا يسوغ للعبد مخالفة مولاه فيما أمره به، ونهاه عنه[1] ويجيب عن

(١) ومما وقع للقطب الرباني والعارف الصمداني سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله

الثاني: بأن باب التوبة مفتوح، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١)

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(٢).

ثم أعاد معنى البيت بعبارة أخرى، وعلى أسلوب آخر تقويةً للمعنى، وتأكيداً للمقصود: -

* * *

تعالى عنه وعنا به - على ما ذكر الإمام الشعراني في طبقاته - قال: " كان رضي الله عنه يقول: تراءى لي نورٌ عظيم ملأ الأفق، ثم تدلّى فيه صورة تناديني: يا عبد القادر! أنا ربك، وقد حللت لك المحرمات. فقلت: اخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني: يا عبد القادر!، نجوتَ مني بعلمك بأمر ربك، وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللتُ بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق. فقلت: لله الفضل. فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟. قال: بقوله: "قد حللت لك المحرمات". انظر: طبقات الشعراني ١/ ١٠٩.

(١) سورة الزمر - الآية ٥٣.

(٢) مر تخريجه.

«٢٥» وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلَا حَكَمًا
فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ

ولا تُطِعْ منهما

أي: من النفس والشَّيطان.

خَصماً ولا حَكَماً

بفتح أوَّليه، وعلَّل النهي بقوله:

فأنتَ

أيها العاقل.

تَعرفُ

مما شاهدتَ في نفسك، وسمعته في غيرك.

كَيدَ

أي: مكر.

الخصم والحَكَمِ

منهما أو من الناس؛ وكيدُ النَّفسِ والشَّيطان أعظم.

وتحقيق كون كل من النفس والشيطان خصما وحكما: أن دواعي النفوس ثلاثة: العقل، والنفس، والشيطان. فالعقل يدعوك إلى الخير، وهما[1] إلى الشر.

ولَمَّا حذَّر من غوائل[2] النفس، وأمر بصرف الهوى عنها، ومخالفتها، ومخالفة الشيطان، ونهى عن إطاعة خصمهما وحكَمِهِما، خاف على نفسه الرياء فأخذ يستقصرها، ويغضُّ منها، فقال: -

* * *

---

(١) أي النفس والشيطان.

(٢) الغائلَةُ: الحِقْدُ الباطِنُ، والشَّرُّ، وكل ما أهلك.

«٢٦» أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ
لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلًا لِذِي عُقُمِ

أستغفرُ اللهَ

أي: أطلب مغفرته من أجل:

قولٍ

صدر عني بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

بلا

أي: بغير.

عَمَلٍ

بمقتضاه، حيث تركتُ ما أمرتُ به، وارتكبتُ ما نهيت عنه.

لقد نسبتُ بهِ

أي: بالقول المذكور الخالي عن العمل:-

نَسْلاً

أي: قولاً شبيهاً بالنسل.

لذي عُقُم

أي: لشخصٍ شبيهٍ بالرجل العقيم الذي لا يأتي منه ولد، لأن القول كالنسل لقائله؛ فإذا لم يعمل به لم يعمل به سامعه غالباً؛ فكأنَّه لم يقله، فنسبته إليه والحالة هذه كنسبة نسلٍ إلى شخصٍ عقيم، وهو كذب يجب الاستغفار منه.

وقاف "عُقُم" ساكنه، وضمّها مبالغة مأخوذة مما نقل الجوهري في "عُسْر"؛ أنّ كل اسمٍ على ثلاثة أحرف أوله مضموم، وأوسطه ساكن: من العرب من يثقّله، أي بضم ساكنه، مثل: عُسر، وزحم، وحلم.

ولما أورد الناظم هذا المعنى أولاً في عبارة خفية خطاباً للأذكياء، أورد ثانياً بعبارة جليَّة خطاباً للأغبياء، فقال: -

* * *

«٢٧» أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ
وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ

أَمرتُك الخيرَ

أي: طلبتُ منك، وهو من الأفعال التي تتعدّى إلى مفعولين، أولهما بنفسها، والآخر: تارة كذلك، وتارة بواسطة حرف، وقد اجتمعا في قول الشاعر:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به   فقد تركتك ذا مال وذا حسبِ[1]

لكن ما ائتَمرتُ بِه

أي: بذلك الخير الذي تقدَّم في قوله "فلا ترُم بالمعاصي كسرَ شهوتها...[2]" إلى قوله: "أستغفر الله من قولٍ بلا عمل..."، ويحتمل أن يرادَ من الخير جنسه الشامل لما ذكره وغيره.

وما

حرف نفي.

استقمتُ

أي: اعتدلتُ في الأعمال.

---

(١) البيت لعمرو بن مَعد يكرِب الزُّبيدي.

(٢) البيت رقم ١٧ .

وإن شئتم. فقد جامع جميع أنواع الخير يقتضي المداومة على مقتضيات الأوامر والنواهي التي جاء بها الشرع القويم، والنبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم، ومن ثَمَّ لما نزل قوله سبحانه وتعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[1]؛ شمَّر صلى الله عليه وآله وسلم عن ساعد الجدّ، وقام بأعباء العبادة، ولم يُرَ ضاحكاً بعد نزول هذه الآية، وتوالت عليه الأحزان، وتتابعت عليه الهموم[2].

---

(١) سورة هود - الآية ١١٢ .

(٢) أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾ قال: شمروا شمروا فما رؤي ضاحكا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع القرآن آيةٌ كانت أشدَّ ولا أشقَّ عليه من هذه الآية، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه حين قالوا: قد أسرع إليك الشيب، فقال: «شيبتني هود وأخواتها».

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده، قال: وقيل: الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله تعالى حقيقة الصدق، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «استقيموا ولن تحصوا».

وقال الواسطي: الاستقامة: الخصلة التي بها كملت المحاسن وبفقدها قبحت المحاسن، والله أعلم.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي -كتاب، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشدّ من هذه الآية ، حتى قال ما قال[1] .

ومن ثَمَّ كانت الاستقامة عند أرباب السلوك أعلى الدَّرجات ، وأرفع المقامات بها كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، فمن لم يكن مستقيماً في أحواله خاب سعيه في أعماله .

قال أبو علي الجرجاني : كن صاحب استقامة لا طالب كرامة .

وقال غيره : ذرَّة استقامة خير من ألف كرامة .

وقال آخر : " ما الكرامة إلا الاستقامة " .

فمَا قَولي لكَ استَقِمِ؟

أي : لأنَّ القولَ لا يعتبره السامع ويعمل بمقتضاه غالباً إلا إذا عمل به المتكلِّم .

وجاء أن الله تعالى أوحى إلى عيسى – على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام– : يا ابن مريم . . . عِظْ نفسَكَ ، فإن اتَّعظتْ فَعظ الناسَ ، وإلا فاستحِ مني [2] .

---

(١) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي ، تفسير الآية ١١٢ من سورة هود .

(٢) قوله : " أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : عظ نفسك بحكمتي ، فإن انتفعت فعظ الناس ، وإلا فاستحي مني " . رواه الديلمي بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . انظر : كنز العمال للمتقي الهندي – المجلد الخامس عشر – تتمة الترغيب الأحادي من الإكمال . الحديث رقم : ٤٣١٥٦ .

وقال مالك بن دينار . إذا لم يعمل العالم بعلمه زلَّت موعظتُه من القلوب كما ›

يزلُّ القطر من الصفا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذْ عبتَ منهُمْ أموراً أنت تأتيها

وقال سيدنا عمر بن الخطاب لمن سأله عن القصِّ والوعظ : «اخش أن تقُصَّ فترتفع في نفسك، ثم تقصَّ فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا؛ فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة» رواه الإمام أحمد بسند رجاله موثقون. فحقٌّ الواعظ أن يتَّعظَ بما يعظُ ويبصر ثم يبصر، ويهتدي ثم يهدي ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد، ومِسَنّاً يشحذ ولا يقطع، بل يكون كالشمس التي تفيد القمرَ الضوءَ، ولها من النور أفضل مما تفيده، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمي أكثر، ويجب أن لا يجرح مقالَه بفعله، ولا يكذب لسانه بحاله؛ فيكون ممن وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ الآية. فالواعظ ما لم يكن مع مقاله فعالٌ لم ينتفع به، إذ عمله مدركٌ بالبصر، وعلمُه مدركٌ بالبصيرة، وأكثر الناس أهل أبصار لا بصائر؛ فيجب كون عنايته بإظهار ما يدركه جماعتهم أكثر، ومنزلة الواعظ من الموعوظ كالمداوي من المداوى؛ فكما أن الطبيب إذا قال للناس : لا تأكلوا كذا فإنه سم! . ثم رأوه يأكله عُدَّ سخرية وهزءاً، كذا الواعظ إذا أمر بما لم يعمله، ومن ثَمَّ قيل : يا طبيب طبِّبْ نفسك!! فالواعظ من الموعوظ يجري مجرى الطابع من المطبوع؛ فكما يستحيل انطباع الطين من الطابع بما ليس منتقشاً فيه فمحالٌ أن يحصل في نفس الموعوظ ما ليس في نفس الواعظ. وقيل : من وعظ بقوله ضاع كلامه، ومن وعظ بفعله نفذت سهامه. وقيل : عملُ رجلٍ في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل في رجل.

تنبيه : وقد جاءت الآيات والأخبار وصحاح الآثار تأمرنا أن لا نرائي في عباداتنا أحداً من الخلق خوفاً من مقت الله عز وجل سواء كان الرياء مصاحباً للعمل أو متأخرا عنه، كأن يحب أحدنا والعياذ بالله تعالى ظهور أثر الطاعة عليه من نور الوجه وحسن السمت في المستقبل، أو ظهور أثر السجود في جبهته مثل ركبة العنز، أو كثرة المصلين في جنازته لغير ›

. . . .

غرضٍ صحيح، أو يميل إلى قول الناس له إذا مرَّ عليهم وعلى وجهه نور: "شيء لله"، أو: "المدد يا سيدي الشيخ"، ونحو ذلك، فإن ذلك كله يرجع إلى الرياء ولو لم يصاحب العبادة.

يقول سيدي علي الخوّاص رضي الله عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً جعل نوره في قلبه ليعرف ما يأتي وما يذر من الحسن والقبيح، وجعلَ وجهَه كآحاد الناس، وإذا أراد الله بعبد سوءاً نقل النور الذي في قلبه على وجهه وأخلى باطنه من النور وجعله مظلماً ليقع في كل فاحشة وفي كل رذيلة، ويقول له الناس مع ذلك: "شيء لله، المدد يا سيدي الشيخ".. لما يرونه من النور الذي على وجهه مع أنَّ قلبَه خرابٌ مظلم، وقد أمرنا الله تعالى بالستر لأعمالنا في هذه الدار فلا يظهر لنا كمال إلا في محل يقتدى بنا فيه، وربما ظهر كمال العبد بميل خفي لا يشعر به فليفتش العبد نفسه انتهى.

وقال أحد العارفين رضي الله عنهم: الكامل المكمَّل مَن كان على عبادة الملائكة، ومع ذلك لم يظهر على ظاهر منه شيءٌ؛ فهذا هو الذي يخرج من الدنيا وأجره موفور لا ينقص منه ذرة، ومن هنا ترك بعض الأكابر العمامةَ والسبحةَ وتربية الشعر ولبس الصوف والجلوس على السجادة، ودخلوا في غمار العامة فلا يكادون يتميزون عن العامة بهيئة، فإنَّ هذه الأمور قد صارت عَلَمَاً على أنَّ صاحبَها من أهل الطريق، وأما من لبس الطيلسان وأرخى عذبة عمامته ولبس الصوف وجلس على سجادة بلا نية صالحة فكأن كل شعرة منه تقول للناس: أنا من الصالحين، ومحكُّ ذلك: أنه إذا ترك تلك اللبسة ولبس ثياب العوام على الدوام يجد في نفسه استيحاشاً، لأنَّ هيئة المشيخة فارقته وما هو شيخ إلا بها، فصار كالحدَّاد بلا فحم. قال الإمام الشعراني - رضي الله عنه -: وقد طلبت مرة أن أعمل لي شملة حمراء كالأحمدية فشاورت سيدي علياً الخوّاص، فقال إن قدرت تقوم بواجبها فالبسها، فقلت ›

له وما واجبها؟ قال أن تمشي على قدم سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه. وكذلك القول في لباس كل زي من لباس الصالحين، إن لم يمشِ الإنسان على قدم أصحابه وإلا فليتركه، وأين قدم سيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وسيدي أحمد الرفاعي، وسيدي إبراهيم الدسوقي مثلا من أقدام من يتشبه بهم؟؟.

وقد رأى سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه يوماً مريداً لبس جبةً بيضاء، فقال يا ولدي لقد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأصفياء، فإن لم تسلك طريقهم وإلا فانزع لبستهم، فاعلم ذلك.

يقول بعض العارفين: الظهور يقطع الظهور، وربما استوفى من أظهر صلاحه في هذه الدار جزاء أعماله كلها من كثرة الاعتقاد فيه، وقضاء حوائجه وإرسال الهدايا له، ونحو ذلك فيذهب إلى الآخرة صفر اليدين من الأعمال الصالحة.

فاعلم يا أخي الحبيب أن الله تعالى ما طلب منا إلا أن نعبده خالصاً لوجهه لا نشرك بعبادته أحدا من خلقه حتى أنفسنا إلا بقدر نسبة العمل إلينا لأجل التكليف، فيا خسارة من يرائي بعمله من هذه الدار، ويا ندامته يوم القيامة فإنه ليس مع الخلق الذين راءاهم شيء يعطونه له يوم القيامة في نظير مراءاتهم، ولا هو عبد الله تعالى حتى يثيبه على عبادته. قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادة ربه أحدا﴾. يقول سيدي علي الخواص رحمه الله: من شرط العمل الصالح أن لا يرى به نفسه على أحد من خلق الله تعالى، فمتى رأى له به فضل على أحد خرج عن كونه صالحاً إلا إن قصد بذلك الشكرَ، انتهى. ولا يخفى على كل عاقل أنَّ العبد لا يستحق قط على خدمة سيده شيئاً لأن خدمة السيد واجبة على عبده شرعاً لكونها وظيفة الرق، وكل عبد لا يرى المنة لسيده عليه في إذن له في الوقوف بين يديه فضلاً عن إعطائه الثواب الجزيل فهو أعمى القلب في العبيد، فإنه لو طرده مثل غيره، ومنعه الوقوف بين يديه لهلك مع الهالكين.

واعلم يا أخي الحبيب.. ! أنَّ أكثر ما يدخل الرياء في الفضائل الزائدة على الفرائض، أما الفرائض فلا يدخلها رياء إلا من حيث تحسينها بإظهار الخشوع فيها ونحو ذلك. والفرق بينهما في فعل الفرائض عبد اضطرار وفي النوافل عبد اختيار؛ فكأنه يقول في نفسه: قد فعلت ما كلَّفني الله تعالى به وزدت عليه، ولو شئت لم أفعله، فلذلك يغلب عليه شهود فضله على أخيه بفعل ذلك بخلافه في الفرائض، ولذلك أمر العبد أن يقول في سجود التلاوة: "سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره بحوله وقوته". بخلاف الفرائض لا يقول فيها: "بحوله وقوته" لأنه لا يرى نفسه بها على غيره غالبا.

ويحتاج من يريد العمل بهذا الأمر إلى شيخٍ صادقٍ يفني اختياره ويصبر على نهره ومناقشته له حتى يسير به في طريق الغيب ويوصله إلى حضرة ربه عز وجل، ومن لم يجالس الشيوخ الصادقين فمن لازمه شهود العمل لنفسه وحب المحمدة به عند الناس وحب الشهرة بالصلاح شاء أم أبى. وإيضاح ذلك أن من لم يسلك الطريق لا يصح له غالباً دخول حضرة الإحسان التي يعبد الله فيها كأنه يراه أبداً، فهو واقف في عبادته مع نفسه ومع الخلق في الأعمال، ولو أنه دخل حضرة الإحسان لشهد الله تعالى هو الفاعل لجميع أعماله خلقاً وإيجاداً على الكشف والشهود، وما بقي للعبد إلا وجه إسناد الفعل إليه مجازاً لأجل قيامه بالحدود والتكاليف لا غير، ومن كان كذلك لم يجد لنفسه عملاً أصلاً فاستراح من ورطة الرياء بالأعمال والإعجاب به وطلب الثواب من الله تعالى لأجله ونحو ذلك، فصار يشهد جوارحه كالآلة التي يحركها المحرك على الفارغ؛ فيرى اللهَ هو الفاعلَ في جوارحه بالإمداد والقوى؟؟ لا هو، فإنَّ العبدَ إذا أمره الحقُّ تعالى، بقوله: "افعل" يتيه إعجاباً في نسبة الفعل إليه، ثم يسبقه إمداد الحق تعالى لقوته الفاعلة عند الفعل من حيث لا يشعر، فيظن أنه الفاعل وينسى الفاعل الحقيقي، ولو أنه نظر إلى قواه الباطنة وما أمدَّه الحقُّ تعالى لها من القوى لذهب عنه الرياء جملة واحدة، فكان حكمه حينئذ حكم من نام إلى الصباح ›

وذمَّ الله سبحانه وتعالى أحبارَ اليهود حيث لم يعملوا بعلمهم في قوله عز وجل من قائل: ﴿أتأمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنسَوْنَ أنفُسَكُمْ وأنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أفَلا تَعْقِلُونَ﴾(١).

حكي أن رجلاً من كبار المشايخ قُدِّم للإمامة؛ فقال: استووا واستقيموا رحمكم الله تعالى، فغشّي عليه، فلما أفاق قال: أوّه... ما لي آمر غيري بالاستقامة وأنسى نفسي منها؟؟.

وبجانبه شخص قائم؟؟ يصلي طول الليل والناس ينظرون؛ فهو لا يصح له أن يرائي بما فعل ذلك الشخص أبداً، ولو أنه ادَّعى ذلك لكذَّبه الناس، ومثل ذلك أيضاً ما لو استعار ثوباً ليحضر به عرساً وجميع من حضر العرس يعرفون أن ذلك الثوب لفلان أعارها له فلا يصح له أن يدعيها لنفسه، ولو ادَّعى كذَّبه الناسُ، ولم يحصل له به تجمُّلٌ، بل كان العري له أولى من لبسه، وكذلك القول في المرائي بعَمَله يكذِّبه اللهُ، وملائكتُه، وجميعُ العارفين، وتمقته القلوب، قال تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

أي لو انكشف حجابكم لرأيتم الله تعالى فاعلاً ومقتِّم نفوسكم عنده - يعني في حضرة شهوده - لادّعائها ما ليس لها، لا أنَّ الله تعالى يمقت العبد على وجه نسبة الفعل إلى نفسه، فإنَّه تعالى قد أضاف الأفعال إلى عباده وما أضافه إليهم لا يصح مقتهم لأجله فافهم. وبالجملة فمن راءى الناس بأعماله فهو مجنون والسلام.

ولبيان تفصيل هذا وذاك مما ذكرنا ومعرفة خبايا النفس ودقائقها وخبثها وطريق إصلاحها انظر ما ذكره الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى في إحيائه لعلوم الدين، الذي قال فيه العلماء: من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء. انظر فيه كتاب "عجائب القلب" تجد فيه العجب العجاب.

(١) سورة البقرة - الآية ٤٤.

«٢٨» وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً
وَلَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصُمِ

ولا تزوَّدتُ

عطفٌ على قوله "وما استقمت". والتزوُّد: اتِّخاذ الزاد للسفر. و"المِزوَد": ما يجعل فيه الزاد.

قَبلَ

حصول: -

المَوتِ

المفوِّت للطاعات، واتِّخاذ زاد الآخرة. والموت أمر وجودي مضادٌّ للحياة. وقيل: عدم الحياة.

نافلةً

أي: طاعة زائدةً على المفروضات، لأن التزوُّد بالفرائض لذلك السفر قد [لا] يكفي لاحتمال أن يكون فيها نقصٌ فتكمَّل بالنوافل.

ولم أُصَلِّ

أي: أفعل الصلاة الشرعية التي هي: أقوالٌ وأفعالٌ مفتتحةٌ بالتكبير، ومختتمةٌ بالتسليم.

سوى فَرضٍ

أصليٍّ أومنذور، إذ لا مسوّغ لتركه.

ولم أَصُم

أي: لم أفعل الصَّوم الشرعيَّ، الذي هو إمساكٌ عن شهوتي البطن والفرج بياضَ النهار، أي: سوى فرضٍ أصليٍّ أو منذورٍ، أو غير ذلك. فحذف مفعول الفعل الثاني لدلالة الفعل الأول عليه.

واقتصر الناظم على الصَّلاة والصَّوم تاركاً غيرهما من بقية فروض الإسلام؛ إما لعمومهما لسائر أفراد المسلمين بعد الشهادة، التي هي أفضل الفرائض. وإما لأنه يحتمل أن الزكاة والحج لم يجبا عليه.

ثم بعد فراغه من المواعظ، شرع يتكلم على ما قصده من مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم وشرَّف وكرَّم ووالى عليه وأنعم؛ فقال:

* * *

الفصل الثالث
في مدح النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم

«٢٩» ظَلَمتُ سُنَّةَ مَنْ أَحيَا الظَّلامَ إِلَى
أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

ظَلَمتُ

بتركي نوافل العبادات ؛ من الظلم .

سُنَّةَ

أي : طريقة : -

مَنْ

أي : النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي :

أحيا الظَّلامَ

أي : قام بأعباء العبادة في الليل المظلم[(١)] ، وذلك لأنَّ عدم العمل بالشريعة ظلمٌ لها .

---

(١) فأنار صلى الله عليه وآله وسلم ظلمة الليل الحالك بأنوار العبادات وعلى رأسها الصلاة التي هي عماد الدين ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم . إذ الصلاة كما أنها تؤثر النور في وجه العابد كذلك تؤثره في زمانها .

إلى أن اشتكت قدماه الضُرَّ

أي: تصوَّرتا بصورة الشاكي لما نزل بهما من الضرر (١).

---

(١) واشتكاء القدم كناية عن شدة الألم من المجاهدة في طول القيام في الصلاة، وهو وإن كان صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يزيد بالليل على اثنتي عشر ركعة، لكن كان يطيل القيام فيها، ويطيل الركوع والسجود. وجاء في الحديث: " أنه قال له جبريل عليه السلام: أبقِ على نفسك، فإنَّ لها عليك حقاً. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.. ﴾. فأين أنا وأنت يا أخي مما كان صلى الله عليه وآله وسلم يفعله في ليله ونهاره من الطاعات، ولزوم المجاهدات، والاستغراق في عبادة الله سبحانه وتعالى؟!!، ثم بعد هذا وذاك ندّعي أننا على قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونحبه، ونتبعه، ونعمل بسنته، والله ما هكذا كان عليه الصَّحابة، ولا التَّابعون ولا سلفنا الصالح من هذه الأمة الذين أفنوا أعمارهم في عمارة الليل بأنوار العبادات من صلاة وقراءة قرآن وأذكار، فكانوا بحق رهباناً بالليل فرساناً في النهار. روي أن سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة وهو في قيامه يبكي بكاء شديداً قائماً ليله، صائماً يومه، فقال: يا رسول الله أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أفلا أكون عبداً شكورا. فيجب علينا يأخي المحب وعلى كل من ادّعى محبة هذا النبي العظيم أن يبادر بالتوبة، ويقف في ليله بباب سيده، وأن يتوسل بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ويرسل دمعه على خديه لعل هذا الدمع يشفع فيه عند ربه. كان أحد العارفين بالله تعالى إذا كان يوم عيد غدا للمصلَّى فإذا انصرف منه جمع أهله وولده وجعل التراب على رأسه ولحيته، وأخذ في البكاء. فقال له بعض أصحابه: أتبكي واليوم يوم عيد وسرور؟. فقال: صدقتم، ولكني عبدٌ أمرني مولاي أن أعمل عملاً فعملته، فما أدري أيقبل مني أم لا؟. فكيف ألام لطول البكاء؟... رضي الله عنهم، علموا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا". فعملوا بما علموا ›

من

أجل: –

ورم

أي انتفاخٍ حصل لهما من طول قيام اللَّيل. وأشار الناظم بذلك إلى ما رواه المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتتكلّف هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أفلا أكون عبداً شكورا؟[1].

من حال نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، وتركوا نومهم، واشتغلوا بطاعة ربهم. وكان بعض التابعين يقول في ليله: إن حرَّ جهنَّم أذهب نوم العابدين. وكان الربيع بن خثيم رضي الله عنه يقول لابنته حيث قالت له: يا أبت ما لك لا تنام؟. قال لها: يا بنية إن أباك يخاف أن يكون من المبيَّتين، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فهذه يا أخي طريقة المحبين لله ورسوله الخائفين والمراقبين لأعمالهم وأحوالهم وطاعاتهم، فمن كان مثلي لا يزال في غفلته ولا يرعوي عن معصيته فلعله سبحانه وتعالى أن يتداركه برحمته، ويتغمده بعفوه ورضوانه، ويلهمه التوبة بحرمة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، آمين.

(١) الحديث أخرجه الستة سوى أبي داود والإمام أحمد: فأخرجه البخاري في: ١٩ – كتاب التهجد (٦) باب قيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم الليل، فتح الباري ٣/ ١٤، وفي: ٦٥ –كتاب التفسير (٢) باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، >

وبعد أن ذكر مواظبته صلى الله عليه وآله وسلم على قيام الليل أخذ يذكر ملازمته لصيام النهار، فقال: -

* * *

تفسير سورة الفتح، فتح الباري (٨/ ٥٨٤) ، كلاهما من حديث المغيرة. وأخرجه مسلم في: ٥٠ - كتاب المنافقين (١٨) باب إكثار الأعمال، والاجتهاد في العبادة، حديث رقم ٧٩- ٨٠، عن المغيرة، وحديث ٨١ - عن عائشة رضي الله عنها، صفحة ٢١٧١-٢١٧٢ . وأخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في الاجتهاد في الصلاة، من حديث المغيرة، وقال: "وفي الباب عن أبي هريرة، وعائشة، وحديث المغيرة بن شعبة حديث صحيح" ٢/ ٢٦٨ . وأخرجه النسائي في قيام الليل ٣/ ٢١٩، من حديث المغيرة بن شعبة. وأخرجه ابن ماجة في: ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، ٢٠٠ باب ما جاء في طول القيام - الحديث رقم ١٤١٩ عن المغيرة، وحديث ١٤٢٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه - ص ٤٥٦ . وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٢٥١-٢٥٦، و٦/ ١١٥ . والبيهقي في دلائله ١/ ٣٥٤ وما بعدها.

«٣٠» وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى
تَحْتَ الْحِجَارَةِ كَشْحًا مُتْرَفَ الْأَدَمِ

وشَدَّ مِن

أي: ربط من أجل شدَّةٍ: -

سَغَبٍ

أي: جوع.

أحشَاءَهُ

جمع: حشا، وهو ما انطوت عليه البطن من كبدٍ وطحال، وأمعاء، وغيرها.

وطَوَى

أي: من الطَّيِّ: ضد النَّشر.

تَحتَ الحجارَةِ

التي ربطها على بطنه:

كَشْحَاً

وهو ما بين الخاصرة وأقصر ضلع من الجَنب.

مُترَفَ الأدَمِ

بفتح الدَّال أي: ناعم الجلد.

وإنما ربط صلى الله عليه وآله وسلم الحجارة على بطنه عند شدة المجاعة، لأن المعدة شديدة الحرارة، فإذا كان في المعدة طعام اشتغلت به تلك الحرارة، وإذا لم يكن فيها طعام اشتغلت برطوبات البدن وجواهره؛ فيتألّم الإنسان لذلك، وإذا ربطت الحجارة على البدن انضمَّ على المعدة الأحشاء والجلد فتخمد نارها بعض الخماد، فيقلّ الألم.

وفي الصحيح: أنه صلى الله عليه وآله وسلم نهى الناس عن الوصال في الصوم. فقيل له: إنك تواصل. قال: إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني[1].

والمراد: يطعمني قوة من يُطعَم ويُسقَى، وذلك لا ينافي حصول الألم زيادة في الأجر. وإنما نهى صلى الله عليه وآله وسلم الناسَ عن الوصال لئلا تضعف قواهم عن الجهاد وغيره من العبادات، ولم ينههم لأجل تألّمهم بالجوع.

ثم... شدُّ الحجر على بطنه وقع له صلى الله عليه وآله وسلم في حفر الخندق، ورواه البخاري.

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقين». رواه الشيخان.

انظر: صحيح البخاري، الجزء الأول. ٣٦ - كتاب الصوم. ٤٧ - باب: الوصال، ومن قال: ليس في الليل صيام. الحديث رقم: ١٨٦٣. وصحيح مسلم في الصيام، باب: النهي عن الوصال في الصوم، رقم: ١١٠٥.

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: جئتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فوجدتُه جالساً مع أصحابه يحدِّثهم، وقد عصَب بطنه بعصابة، فقالوا: من الجوع[1].

ولما ذكر الناظم من جوعه صلى الله عليه وآله وسلم ما ذكر، خشي أن يتوهم متوهِّمٌ أن ذلك كان لإزواء الدنيا عنه، وعدم تمكنه من الوصول إلى شيء منها، فلا يكون تركه عن زهد اختياري بل عن أمرٍ اضطراري، فدفع ذلك بقوله:

* * *

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أنَس بْنَ مَالك يَقُولُ: جئْتُ رَسُولَ اللّه صلى الله عليه وسلم يَوْماً فَوجَدْتُهُ جَالساً مَعَ أصْحَابه يُحَدِّثُهُمْ، وَقَدْ عَصَّبَ بَطْنَهُ بعصَابَة قَالَ أُسَامَةُ: وَأنَا أشُكُّ عَلَى حَجَر. فَقُلْتُ لبَعْض أصْحَابه: لمَ عَصَّبَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم بَطْنَهُ؟ فَقَالُوا: منَ الجُوع. فَذَهَبْتُ إلَى أبي طَلْحَةَ، وَهُوَ زَوْجُ أُمّ سُلَيْم بنْت ملْحَانَ. فَقُلْتُ: يَا أبَتَاهُ قَدْ رَأيْتُ رَسُولَ اللّه صلى الله عليه وسلم عَصَّبَ بَطْنَهُ بعصَابَة. فَسَألْتُ بَعْضَ أصْحَابه فَقَالُوا: منَ الجُوع. فَدَخَلَ أبُو طَلْحَةَ عَلَى أُمّي. فَقَالَ: هَلْ منْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ. عنْدي كسَرٌ منْ خُبْز وَتَمَرَاتٌ. فَإنْ جَاءَنَا رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم وَحْدَهُ أشْبَعْنَاهُ. وَإنْ جَاءَ آخَرُ مَعَهُ قَلَّ عَنْهُمْ. ثُمّ ذَكَرَ سَائرَ الحَديث بقصّته.

انظر: صحيح مسلم. الجزء الثالث. ٣٦ - كتاب الأشربة. ٢٠ - باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، ويتحققه تحققا تاما، واستحباب الاجتماع على الطعام. الحديث رقم: ٦ م - (٢٠٤٠).

«٣١» وَرَاوَدَتْهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ
عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ

وَرَاوَدَتْهُ

أي: خادعته، من "راد، يرود": إذا جاء وذهب.

الجِبَالُ

أي: جبال مكة، كما دلَّت عليه الأخبار(١).

الشُّمُّ

جمع: "أَشَمّ" أي: العوالي.

---

(١) روى الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، بسندهما عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائي عِنْدي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحَاذ ذُوحَظ مِنَ الصَّلاَة، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّه وَأَطَاعَهُ في السِّرّ وَكَانَ غَامضاً في النَّاس لا يُشَارُ إِلَيْه بالاصَابِع، وكَانَ رِزْقُهُ كَفَافاً فَصَبرَ عَلَى ذَلكَ. ثم نَقَرَ بإِصْبَعَيْه فَقَالَ: عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ قَلَّتْ بَوَاكيه قَلَّ تُرَاثُهُ". وَبِهَذَا الإِسْنَاد عَن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً. قلت: لاَ يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْماً وَأَجُوعُ يَوْماً، أَوْ قَالَ ثَلاَثاً، أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ" قَالَ: هذا حديثٌ حسنٌ. انظر: سنن الترمذي (وشرح العلل)، المجلد الرابع. [تابع أبواب الزهد-٢٢] باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه. الحديث رقم: ٢٤٥١.

من ذَهَبٍ

أي : حالة كونها على صفة الذهبية دون الحجرية ، وسُمّي الذهب ذهباً لذهابه ، كما سميت الفضة فضةً لانفضاضها ، والمال مالاً لميلانه من جهة إلى أخرى ، والدنيا دنيا لدناءتها وخستّها ، أو لدنوِّها وانحطاط قدرها ، أو لدنوِّها وقربها من الدار الآخرة بسرعة زوالها ، ولكلٍّ مُسَمَّىً نصيب .

وخَصَّ الذهب من بين سائر الجواهر لأنه للمعاملات المنتفع بها ، وأغلاها . وإنما اختصَّ التعامل في الدنيا بالذهب والفضة ، لما روي أنه لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض حزن عليه كل شيء جاوره في الجنة إلا الذهب والفضة ، فأوحى الله تعالى إليهما : جاورتكما بعبد من عبيدي ، ثم أهبطته من جواركما فحزن عليه كل شيء إلا أنتما ، فقالا : إلهنا وسيدنا إنك تعلم أنك جاورتنا به وهو مطيع ، فلما عصاك لم نحب أن نحزن عليه ، فأوحى الله إليهما كذا كان بدو شأنكما ، فوعزتي وجلالي لأعزنّكما حتى لا ينال كل شيء إلا بكما[1] .

---

(١) روى الديلمي وابن النجار بسندهما عن سيدنا أنس رضي الله تعالى عنه قال : " لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض حزن عليه كل شيء جاوره إلا الذهب والفضة ، فأوحى الله تعالى إليهما جاورتكما بعبد من عبيدي ثم أهبطته من جواركما ، فحزن عليه كل شيء جاوره إلا أنتما ، فقالا : إلهنا وسيدنا أنت أعلم إنك جاورتنا به وهو لك مطيع فلما عصاك لم نحب أن نحزن عليه ، فأوحى الله تعالى إليهما : وعزتي وجلالي لأعزنكما حتى لا ينال كل شيء إلا بكما . الديلمي وابن النجار عن أنس .

انظر : كنز العمال للمتقي الهندي - المجلد الثالث . الإكمال من تتمة في فوائد المال والدنيا المحمودة . الحديث رقم : ٦٣٤٤ .

عن نفسه

متعلّق بـ "راودته" . أي : طلبت أن يمكّنها منه بأن يأخذها .

فأراها

أي : جعلها صلى الله عليه وآله وسلم رائية ومبصرةً .

أيَما

نعتٌ لمحذوف . و "ما" : زائدة ، و "أي" : مضاف إلى قوله : -

شَمَمِ

أي : شمماً عظيماً . والشَّمّ : ارتفاع في قصبة الأنف مع استواء أعلاه ، وأصله الارتفاع في كل شيء ، كُنّي به ههنا عن الإعراض عن الدنيا ، وعدم المبالاة بها مع القوة وشدة العزم ، وهو من علامات الشرف . وما ذكره الناظم مأخوذ من الأحاديث الواردة في ذلك الشأن ، كخبر : إن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله يقول لك : أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهباً ، وتكون معك حيثما كنت؟ . فأطرق ساعة ثم قال : يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مالَ له ، وقد يجمعهما من لا عقلَ له . فقال له جبريل : ثبتك الله بالحق الثابت يا محمد[1] .

---

(١) حديث : أن جبريل نزل فقال : إن الله يقرأ عليك السلام ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك أينما كنت ، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال" ›

وخبر: "أنه جاء جبريل يصف لي الدنيا؛ فقال: "يا محمد حلالها حساب، وحرامها عقاب" [(١)]؛ فاختار الفقر والدار اللآخرة.

ولما كان إعراضه صلى الله عليه وآله وسلم عن جبال الذهب ليس عن كثرة مال، بل كان مع كمال حاجة، وتمام ضرورة، على ما دلّت عليه الأخبار؛ أشار الناظم رضي الله عنه إلى ذلك بقوله:

يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له" فقال له جبريل: يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت" قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: هذا ملفق من حديثين: فروى الترمذي من حديث أبي أمامة: "عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً" الحديث وقال: حسن. وروى الإمام أحمد والبيهقي مرفوعاً وإسنادهما جيد: "الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له". وزاد البيهقي: "ومال من لا مال له". والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حلالها حساب وحرامها عذاب». رواه في الإحياء، وقال الحافظ العراقي في تخريجه: لم أجده، ورواه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن علي موقوفاً بلفظ: " وحرامها النار". وسنده منقطع. وفي مسند الفردوس عن ابن عباس رفعه: " يا ابن آدم ما تصنع بالدنيا؟ حلالها حساب، وحرامها عذاب". وقال النجم أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن مالك بزيادة قال: قالوا لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن صف لنا الدنيا، قال: أطيل أو أقصر؟ قالوا أقصر، قال: "حلالها حساب وحرامها النار". وأسنده الشيخ محي الدين قدس سره في مسامراته من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، انتهى فليراجع.

«٣٢» وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ
إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ

وأكدت

هو معطوف على مضمون قوله " فأراها أيَّما شَمَمِ . . . " . أي : فزهد فيها، و " أكَّدت " : من التأكيد، وهو تقوية الشيء وإحكامه .

زُهدَهُ فيها

أي : كمال إعراضه صلى الله عليه وآله وسلم عن جبال الذهب، خصوصاً، أو من الدنيا عموماً .

ضرورتُهُ

أي : شدة حاجته صلى الله عليه وآله وسلم إلى شيء منها في معاشه أو معاده . وللقوم في الزهد عبارات سمية ؛ منها : هو خلوُّ الأيدي من الأملاك والقلوب[١] مع الشبع . ومنها : قول الشبلي رضي الله عنه[٢] هو أن لا ترى ما سوى الله تعالى . وهو معنى قول بعضهم : هو تجريد القلب لله، والأعراض عما سواه .

---

(١) أي خلو القلب من الدنيا مع الاستغناء عن ذلك كما يستغني الشبعان عن المأكل والمشرب .

(٢) أبو بكر الشبلي : دلف بن جحدر، وقيل : ابن جعفر نسبة إلى قرية شِبْلِيَّة، ›

ومنها: قول بعضهم: هو استصغار الدنيا بجملتها، واحتقار جميع شئونها. وقيل لمحمد بن واسع[1] فلانٌ يزهد في الدنيا!. فقال: وهل للدنيا قدرٌ حتى يزهد فيها؟!.

يعني: أنه لا يتحقق الزهد إلا عند من يرى للدنيا قدراً، وأما من لا يرى لها قدراً فلا يتحقق في حقه الزهد[2].

إحدى قرى أسروشنة من بلاد ما وراء النهر، خراساني الأصل، بغدادي المولد والمنشأ، جليل القدر، مالكي المذهب، عظيم الشأن، صحب الجنيد وطبقته، يبالغ في تعظيم الشرع المكرم، وإذا دخل رمضان جدّ في الطاعات، ويقول: هذا شهر عظّمه ربي فأنا أولى بتعظيمه. سئل عن حديث: «خير كسب المرء عمل يمينه» فقال: إذا كان الليل فخذ ماء، وتهيأ للصلاة، وصلِّ ما شئت ومدَّ يدك، وسل الله تعالى. فذلك كسب يمينك. توفي رضي الله عنه سنة ٣٣٤ من الهجرة. انظر ترجمته في: " طبقات السلمي ٣٣٧، طبقات ابن الملقن ٢٠٤، حلية الأولياء ١٠/ ٣٦٦".

(١) محمد بن واسع بن جابر الأزدي، أبو بكر، البصري، الزاهد، أحد الأعلام، روى عن أنس بن مالك والحسن البصري وطبقتهما قال سليمان التيمي: ما أجد أحب إلي من أن ألقى الله بصحيفته إلا محمد بن واسع. وثقه العجلي والدارقطني. توفي سنة ١٢٧ هجرية. انظر: خلاصة تذهيب الكمال ٣٠٩.

(٢) وقد أمرنا سيدنا وحبيبنا ورسولنا صلى الله عليه وسلم أن نزهد في الدنيا بقلوبنا ونرضى منها بالقليل اقتداء بجمهور الأنبياء والأولياء، ويحتاج من يريد العمل بهذا الأمر إلى شيخ عظيم ما فوقه شيخ في عصره يسلك به حتى يخرجه من ظلمة حب الدنيا إلى نور حب الآخرة ويريها له كأنها رأى عين، وهناك يزهد في الدنيا وجميع شهواتها المكروهة حين يرى حجابها له عن ربه مع فنائها وانقطاعها وعدم نظر ربه لها، كما ورد: إن الله تعالى منذ خلق الدنيا لم ينظر إليها هوانا بها.

واعلم يا أخي المسلم الحبيب أن حقيقة الزهد في الدنيا إنما هو زوال محبة المال والطعام والمنام والكلام، فلا يزال السالك يتبع أستاذه وهو يخلّصه من شبائك الأوهام شيئاً فشيئاً إلى أن يخلصه من الدنيا بأسرها ثم يرجع به رجوعاً ثانياً، ويقول له أمسك جميع ما كنت أنهاك عنه في الذهاب وانو له نية صالحة واستعمل كل شيء فيما خلق له على الوجه المشروع، على أن الزاهدين والمتورعين كلهم لا يصح لهم الزهد ولا التورع عما قسمه الحق لهم أبداً، وإنما حقيقة الزهد والتورع زوال تعلق القلب بما لم يقسم لا غير.

فاعلم أن المريد متى رأى شفوق نفسه على من لم يزهد ولم يتورع فهو في عالم الطبيعة، وورعه وزهده لا حقيقة له، وهذا ورع أكثر الناس اليوم كأنه يظن بنفسه أنه كان قادرا أن يأكل ما قدر عليه من الحرام، ومنع نفسه منه، وغاب عنه أن كل شيء تركه تبين أنه لم يقسم له فكيف يرى بذلك نفسه؟ فالورع الحقيقي إنما هو حماية الله تعالى للعبد فلا يقسم له الأكل من شيء للشرع عليه اعتراض، فيستخرج له الحلال كما يستخرج له اللبن من بين فرث ودم. وقد درج العلماء العاملون كلهم على عدم أخذهم من الدنيا فوق زاد الراكب. يروى أن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام لما غضب من سلطان مصر حمل أمتعة بيته على حمارته وأركب زوجته فوقها وخرج من مصر، فانظر يا أخي شيخ الإسلام واعتبر به رضي الله عنه، والله يتولى هداك. ويتعين على كل من ادعى المشيخة في الطريق أن يتظاهر برمي الدنيا وترك مطاعمها اللذيذة وملابسها النفيسة وفرشها الرفيعة ومراكبها المسومة، وذلك لئلا يتبعه المقتدون فيهلكون فإنهم لا يتعلقون مشهده بتقدير صدقه وربما كذبوه في دعواه حين يرون أفعاله تخالف أقواله، فيحجبهم شاهد الفعل عن شاهد القول. كما يتعين على الشيخ أن يكون أكثر من المريدين سهرا لليل وأكثر جوعا، وأقلّ لغواً وأكثرهم صدقة، وذلك ليكون إماما يقتدون به في الأفعال، وأما إذا كان أكثرهم نوما وأكثرهم أكلا، أو أكثرهم لغوا أو أقلهم صدقة وخيرا، فإنهم يرون نفوسهم عليه ضرورة ›

فلا يثبت له قدم في الإمامة وتطرده المرتبة عنها ودعواه المشيخة زور وبهتان لا برهان عليه. يروى أن امرأة دخلت على سيدي الشيخ عبدالقادر الجبلي فرأته في ملابس ومأكل وفرش ودخلت على ولدها عنده فوجدته على الأرض وعنده كسرة يابسة وملح، فرجعت إلى الشيخ وقالت يا سيدي لا يطيب خاطري بإقامة ولدي عندك إلا إن أطعمته مما تأكل وكان بين يديه دجاجة فقال إذا صار ولدك يحيي الموتى بإذن الله أطعمته من طعامي، ثم أمر الدجاجة فانتفضت من الإناء وصارت حية، ثم ذهبت إلى حال سبيلها، فلولا أن الشيخ أقام البرهان على طعامه اللذيذ لفارقته تلك المرأة وهي منكرة عليه. فكذلك يتعين على الشيخ أن يوطن نفسه على تحمل أذى من يأمره من إخوانه بأنه يترك الدنيا وهو لم يشرف على الدار الآخرة بقلبه، فإنه كالكلب العاكف على الجيفة كل من منعه من الأكل منها يكشر أسنانه ويهبهب عليه، وربما عضه حتى يرجع عنه، فليكن أمر الشيخ إخوانه بترك الدنيا بسياسة ورفق ورحمة وتقديم مقدمات وذكر ما كان السلف الصالح عليه ثم يقول يرحم الله من اقتدى بهم. وليحذر من التكدر منهم بالباطن إذا عصوا أمره وليس عليه إلا أن يظهر لهم عدم الرضا بكثرة رغبتهم في الدنيا لا غير كما يظهر الوالد غضبه لولده إذا خالفه، ويعبس في وجهه وقلبه راحم له مشفق عليه، وربما ضربه بالعصا وربما نخست الأم ولدها بالإبرة في يده حتى أخرجت دمه ومع ذلك فيقضي العقل بأن ذلك كله ليس ببغض لولدها وإنما هو لوفور شفقة والدته عليه، فليوطن الداعي إلى طريق الله عز وجل نفسه على سماع كل مكروه ممن يدعوهم لأنهم عمي عما يدعوهم إليه ثم إذا انجلى حجابهم فسوف يشكرون الداعي لهم إلى الخير، وإن لم ينجل حجابهم فقد وفى الداعي بما عليه من النصح والجهاد فيهم. و لا يخفى أنه لا بد أن ينقسم جماعة كل داع إلى الله تعالى كما انقسم من دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى دين الإسلام إذ هو الشيخ الحقيقي لجميع الأمة، وجميع الدعاة نوابه صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»(١).

فلا بد يقع لهم مع أصحابهم كما وقع له صلى الله عليه وسلم مع قومه، فمنهم من يقول: سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومنهم من يقول: سمعنا وعصينا ومنهم من يقول: سمعنا وأطعنا نفاقا. ومنهم من يقول إنما يريد هذا الشيخ بدعائنا إلى الله الفضل والرياسة علينا عند الناس، ومنهم من يقول إنما يريد بذلك نصحنا ونجاتنا من النار، ومنهم من لا يتحول عن محبة شيخه في شدة ولا رخاء، ومنهم من هو معه على الرخاء فإذا جاءت الشدة تحول عن شيخه، ومنهم من لا يبرح من حول شيخه ولو أغلظ عليه القول، ومنهم من إذا أغلظ عليه الشيخ القول هرب منه كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾. ومنهم من يريد الدنيا وزينتها وهو غافل عن الآخرة، ومنهم من يريد الدنيا للآخرة كعبدالرحمن بن عوف ومنهم من لا يريد الدنيا كأهل الصفة، ومنهم من يقول لشيخه قد أكثرت جدالنا وتنقيصنا بين الناس، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾. فلا يؤمنون لنصحه حتى يروا العذاب الأليم، ومنهم من يقول لشيخه بلسان المقال أو الحال لن نؤمن لك إلا إن أريتنا كرامة كما قالت قريش: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾. إلى آخر النسق، وكما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾.

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك». قال العجلوني: هكذا وقع في الأصل وتبعه في التمييز، والمعروف "وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس". ورواه الإمام النووي في أربعينه بلفظ: "ازهد فيما عند الناس يحبك الناس"، ثم قال: حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة؛ ورواه ابن ماجه والطبراني وأبو نعيم وابن حبان ›

وهذا دالٌّ على كمال عقل صاحبه.

ومن ثمَّ قال الشافعي رضي الله عنه: لو أوصى شخصٌ بمال لأعقل الناس؛ صرفناه للزهَّاد.

وعلَّل الناظم تأكيد الضرورة بقوله:

إنَّ الضَّرورةَ

أي: نهاية الحاجة إلى شيء من الدنيا.

لا تَعدُو

أي: لا تتعدَّى بمقتضياتها من الرغبة في الدنيا الفانية، والميل إلى جمع حطامها الزائل:

على

ذوي: -

والحاكم والبيهقي وآخرون من حديث خالد بن عمرو القرشي عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال: (ازهد...) وذكره؛ قال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه أبو نعيم من طريق مجاهد عن أنس مرفوعاً، وكذا يروى عن الربيع بن خثيم رَفَعَهُ مُرْسَلا، وبالجملة فقد حسن الحديث النووي ثم العراقي. ورواه السيوطي في ذيل جامعه من طريق أبي نعيم عن أنس بلفظ: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وأما الناس فانبذ إليهم هذا يحبوك". انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني- الحديث رقم: ٣٢٣.

من أجل عصمتهم المنافية لذلك، إذ هذا من أقبح العيوب، وأغلظ المعاصي، لا يليق بجناب صلحاء الأمم، فضلاً عن الأنبياء خيرةِ الله من خلق الله، وصفوته من خليقته، فكيف بأكملهم وأفضلهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

والعِصَم: جمع عِصْمَة [1] ثم أستدلَّ الناظم على ما تضمَّنه قوله " إن الضرورة لا تعدو على العصم " من كمال نزاهته صلى الله عليه وآله وسلم، وتمام إعراضه عن الدنيا، وإن اشتدت إليها ضرورته، بقوله:

* * *

(١) وهي الحفظ.

«٣٣» وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ لَوْلَاهُ لَمْ تُخْرَجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

وكيف

أي: على أي حال؟

تدعُو إلى الدنيا

الميل إليها، والإقبال على زينتها الباطلة، وزخارفها العاطلة.

ضرورةُ مَن

أي: نبي عظيم.

لولاهُ

و "لو": حرف امتناع لوجوب، يليه الضمير متصلاً تارةً، ومنفصلاً أخرى، والأفصح الانفصال. كما قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[1].

لم تُخرَجِ

بالبناء للمفعول.

---

(١) سورة سبأ الآية ٣١.

إلى الوجود، امتنع عدم إخراج الدنيا من العدم إلى الوجود لوجوده صلى الله عليه وآله وسلم، بل وجدت لوجوده.

وهذا مأخوذ من حديث: « لما اقترف آدم الخطيئة، وكان قد رأى على قوائم العرش مكتوباً" لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله" سأل بحقِّ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يغفر له، فقال سبحانه وتعالى: إذ سألتني بحقه، فقد غفرت لك، ولولا محمدٌ ما خلقتك»(١).

وآدمِ أبو البشر، وقد خلق الله له ولذريته الأرض وما فيها، وسخَّر لهم الليلَ والنهارَ، والشمسَ والقمرَ، وغيرَ ذلك.

* * *

(١) رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل، والحاكم في المستدرك، وتعقب بأن فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف. والبيهقي في الدلائل وضعفه وابن عساكر كلهم عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: كنز العمال للمتقي الهندي المجلد الحادي عشر. تتمة الإكمال من فضائل متفرقة تنبيء عن التحدث بالنعم. الحديث رقم: ٣٢١٣٨.

«٣٤» مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـ
ـنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

مُحَمَّدٌ

أي: ذلك الممدوح هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

سَيِّدُ الكونَيْنِ

أي: أشرف أهل الوجودين، وجود الدنيا ووجود الآخرة(١).

---

(١) قال بعض العارفين - رضي الله عنه -: معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم " أنا سيد ولد آدم " بمعنى: سيد الخلق أو الناس، فيدخل في ذلك آدم ومن عداه من المخلوقات، لأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - أفضل رسل الله وأنبيائه عموماً وخصوصاً. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾. قال المفسرون: هو سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، لأنه بعث إلى الأحمرِ والأسود، وأُحلَّت له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحدٌ من الأنبياء أعطي فضيلةً أو كرامة إلا وأعطي صلى الله عليه وآله وسلم مثلها، فلذلك كان سيد المرسلين، وحبيب رب العالمين. وأنبياء الله تعالى على علوِّ منازلهم، وبلوغ مكانتهم قد اعترفوا بأن هذا الرسول هو أكرم الخلق على ربه، وأعزهم مكاناً ومكانة لديه، وأنه أفضلهم برفع درجته عليهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - علموا ذلك لما أوحى الله إليهم في كتبهم، ولذا آمن من منَّ الله تعالى عليه، وأراد هدايته، فألهمه النظر في الكتب السالفة، حتى يرى صفته، ويشاهد فيها نعته، ويعلم كيف قدر الله سبحانه عند ›

و

سيدُ : -

أنبيائه منزلته، وشرّف به أمته. فسيادة مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب مشهورة، وفضل أمته ومناقبها على سائر الأمم في الرقوم مسطورة، ومعجزاته زادت على المعجزات المأثورة. وفي هذا قال بعض العارفين رضي الله عنهم : - [شعراً]

لئن كان موسى سقى قومه ... عيونٌ من الما بضربِ العصا
وجاز بعسكره البحر في ... حضيض من الماء خوفَ العدا
فمن كفِّ أحمدَ قد فُجِّرت ... عيونٌ من الماء يوم الظما
وجَاز على الماء في جيشه ... بواد عظيمٍ بعيد المدى
فأقبلت الخيل تمشي به ... وتعدو عليه كمثل الثرى
وإن كانت الجنُّ قد نالها ... سليمان والريح تجري رُخا
فشهرُ غُدوٌّ له بكرةً ... وشهر رواحٍ له إن يشا
فإن النبي سرى ليلةً ... من المسجدين إلى المرتقى
وأرسله الله للعالمين ... من الجنِّ والإنسِ يبغي الهدى
وإن كان في صالحٍ عبرةٌ ... لأهل المدائن بعد القُرى
لإخراجه ناقةً آيةً ... لديها فصيلٌ مليح الخُطا
فإن النبي حوى كفُّه ... عنانَ البراق وهذا كفى
وإن كانت النار يوم الخليل ... وقد أضرموها لأمرٍ قضى
فنادته بالأمن من تحته ... سلامٌ سلامٌ لأمرٍ أتى
فإن النبيَّ وأصحابَه ... لقد هزَّه الطود أعني حِرا
فنادى به : اسكن يا حِرا ... علاكَ النبي وأهل التقى

الثقلين

الإنس والجنِ، سُمُّوا بذلك لثقلهم على الأرض[١].

و

سيِّدُ: -

الفريقين

أي: الطائفتين، وبيَّنهما بقوله: -

من عُربٍ

بضم أوله، وسكون ثانيه. لغةٌ في "عَرَب". والعَرَب: سكان القرى والأمصار. والأعراب: سكان البوادي، والصحاري. ولغة الجميع: العربية، وأول من تكلَّم بها: يعرب بن قحطان أبو اليمن، كذا قيل[٢]

(١) في حديث سؤال القَبْر "يسْمعُهما مَن بَين المشْرق والمغرب إلاَّ الثقَلَيْن". قال ابن الأثير في النهاية: الثَّقَلان: هما الجنّ والإنسُ؛ لأنَّهما قُطّان الأرض.

(٢) قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: "اختلف في أول من تكلم باللسان العربي، فروي عن كعب الأحبار: أن أول من وضع الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها بالألسنة كلها آدم عليه السلام. وقاله غير كعب الأحبار. فإن قيل: قد روي عن كعب الأحبار من وجه حسن قال: أول من تكلم بالعربية جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لسان ابنه سام، ورواه ثور ابن زيد عن خالد بن معدان عن كعب. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين». وقد روي أيضا: أن أول من تكلم بالعربية ›

قلت: وهذا إنما يكون إذا ثبت أنَّ آدم لم يتكلم بها، بل كانت لغته السريانية خاصة، كما ذهب إليه البعض. وأما إذا ثبت أنه كان يتكلم بكلِّ لسان؛ عربي وسرياني، وغيرهما، كما ذهب إليه البعض الآخر فلا؛ ويمكن التوفيق بأنَّ آدم كان يتكلم بها لكنَّها قد اندرست بعده، وأول من تكلم بها بعد اندراسها لا مطلقاً يعرب بن قحطان. وسميت العرب شعوباً لأنهم تشعَّبوا من ولد إسماعيل، وكلُّ قبائل العرب من ولد إسماعيل إلا أربعاً: السلف، والأوزاع، وثقيفاً، وحضرموت.

ومن عَجَمِ

بفتح أوَّليه، والمراد بالعجم: ما عدا العرب من أي جنس كانوا، وقدَّم العرب على العجم لشرفهم عليهم، لأنَّ أفضلَ الخلقِ سيدنا محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم -

---

يعرب بن قحطان، وقد روي غير ذلك. قلنا: الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام، والقرآن يشهد له، قال الله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ [البقرة: ٣١] واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته وبهذا جاءت السنة، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصعة والقصيعة﴾. وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أول من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام. وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أول من تكلم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علمها الله آدم أو جبريل، على ما تقدم، والله أعلم. انظر: الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي - الجزء الأول - تفسير قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾.

منهم، ومجيء القرآن - الذي هو أشرف الكتب السماوية - بلغتهم، وقد جاءت الأخبار بطلب حبهم وتعظيمهم، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحبَّ العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغضَ العرب فببغضي أبغضهم»[1].

* * *

(١) قطعة من حديث تمامه: « ما بال أقوام يبلغني عنهم أن الله خلق السماوات سبعاً فاختار العليا منها فسكنها وأسكن سائر سماواته من شاء من خلقه، وخلق الأرضين سبعاً فاختار العليا منها فأسكنها من شاء من خلقه؛ ثم خلق الخلق واختار من الخلق بني آدم؛ ثم اختار بني آدم فاختار العرب، ثم اختار العرب فاختار مضر، ثم اختار مضر فاختار قريشاً؛ ثم اختار قريشاً فاختار بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني؛ فلم أزل خياراً من خيار، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم». رواه الحكيم الترمذي، والطبراني في الكبير، وابن عساكر بسندهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. انظر: كنز العمال للمتقي الهندي - المجلد الثاني عشر. الإكمال من العرب الحديث رقم ٣٣٩٢٧ .

«٣٥» نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلا أَحَدُ
أَبَرَّ فِي قَوْلِ لا مِنْهُ وَلا نَعَمِ

نبيُّنا

معاشرَ أمةِ الإجابة والدَّعوة[1]، وهو بدلٌ من "محمد" - صلى الله عليه وآله وسلم -، وعطفُ بيان عليه. والنبي: فعيل من "النَّبْوَة" وهي الرفعة. أو من "النَّبأ" وهو الخبر. وهو [أي: النبي]: - على المشهور -: إنسانٌ أوحي إليه بشرعٍ وإن لم يؤمر بتبليغه، فإن أمر به؛ فرسولٌ أيضاً.

الآمرُ

بالمعروف، و: -

النَّاهي

عن المنكر من قِبَلِ الله تعالى.

فلا أحَدٌ

من الخلق: -

(١) قال الكلاباذي: أمته صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام: أحدها أخص من الآخر؛ أمة الاتِّباع، ثم أمة الإجابة، ثم أمة الدعوة. فالأولى: أهل العمل الصالح. والثانية: مطلق المسلمين. والثالثة: من عداهم ممن بعث إليهم صلى الله عليه وآله وسلم.

أبَرَّ

أي: أصدقَ.

في قولِ: "لا"

أي: المتكلم بها.

منه

صلى الله عليه وآله وسلم.

ولَا

أحدَ أبرَّ في قول: -

نَعَمْ

منه صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

«٣٦» هُوَ الحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ
لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحِمِ

هُوَ الحَبِيبُ

أي: الجامع لصفات المحبوبية دون غيره. وفعيل بمعنى المفعول.

وقد اشتهر سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بالمحبة، وسيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم التسليمات - بالخُلَّة(١).

---

(١) روى الترمذي بسنده عَن ابن عَبّاس رضي الله عنهما قالَ: «جَلَسَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَاب رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم يَنْتَظِرُونَهُ قالَ فَخرَجَ حَتَّى إذَا دَنَا مِنْهُمْ سَمِعَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ فَسَمِعَ حَدِيثَهُمْ فقالَ بَعْضُهُمْ عَجَباً إنّ اللّهَ عز وجلّ اتّخَذَ مِنْ خَلْقِه خَلِيلاً اتّخَذَ مِنْ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً. وقَالَ آخرُ: مَاذَا بأَعْجَبَ مِنْ كَلاَمِ مُوسَى كَلّمَهُ تَكْلِيماً. وقَالَ آخرُ: فَعِيسَى كَلِمَةُ اللّه وَرُوحُهُ. وقَالَ آخرُ: آدَمُ اصْطَفَاهُ اللّهُ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَسَلّمَ وقَالَ: «قَدْ سَمِعْتُ كَلاَمَكُمْ وَعَجَبَكُمْ. إنّ إبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللّه وَهُوَ كَذَلكَ، وَمُوسَى نَجِيّ اللّه وَهُوَ كَذَلكَ، وَعيسَى رُوحُ الله وكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلكَ، وآدَمُ اصْطَفَاهُ اللّهُ وَهُوَ كَذَلكَ، ألاَ وَأَنَا حَبِيبُ اللّه ولاَ فَخرَ، وأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الحَمْد يَوْمَ القِيَامَةِ ولاَ فَخرَ، وأَنَا أوّلُ شَافعٍ وأوّلُ مُشَفّعٍ يَوْمَ القِيَامَةِ ولاَ فَخرَ، وأَنَا أوّلُ مَنْ يُحَرّكُ حِلَقَ الجَنّةِ فَيَفْتَحُ اللّهُ لي فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعي فُقَرَاءُ المُؤْمنِينَ ولاَ فَخرَ، وأنَا أَكْرَمُ الأوّلِينَ وَالآخرِينَ ولاَ فَخرَ». قال أبو عيسى: هَذَا حديثٌ غَرِيبٌ. انظر: سنن الترمذي، المُجلّد الخَامس، أبواب المَنَاقب عَن رَسُول اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وسَلّم - ٢٢- بابٌ. الحديث رقم: ٣٦٩٥. فبين صلى الله عليه وآله وسلم منّة ›

. . . .

الله تعالى عليه بأنه حبيب الله وسيد أولياء الله تعالى، وناهيك بهذه الخصلة الكاملة والنعمة الشاملة، لأن في هذه الإضافة على المولى جل جلاله من كون نبينا صلى الله عليه وآله وسلم حبيباً له، من التفخيم والتعظيم ما لا تحيط به العقول، ولا يعبر عن كنهه لسان أو مقول، لأنك إذا قلت - ولله المثل الأعلى - فلانٌ يحب السلطان، فقد تقرر بذلك للسامع فضله وعلوَّ منزلته عند من أضيف إليه، ما لا يسع حمله الآذان، فكيف وقد أضيف كونه صلى الله عليه وآله وسلم حبيباً إلى مالك الملوك الذي يعطي ويمنع، ويضع ويرفع، من أوجد العالمَ بأسره، وهو سبحانه كل يوم هو في شأن، يضر وينفع، ويخص من شاء بما شاء ويخفض ويرفع؟. فدلَّت هذه الإضافة إلى المولى جل جلاله وخصوصيتها لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم على كمال الرفعة وعلو المنزلة، وذروة التفخيم. وربنا سبحانه وتعالى وإن كان محباً لأوليائه وأنبيائه كلهم، بمعنى أنه منعمٌ عليهم في دنياهم وأخراهم، لكن إنعامه لسيد المخلوقات ومن خلق من أجله الأرضين والسماوات لا يصله إنعام، ولا يبلغه إعظام، فلذا خصَّه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه حبيبه، أي: أن المخلوق الذي خلقته وأنعمت عليه، واصطفيته اصطفاء لم يبلغ أحدٌ فيه منزلته، هو هذا الحبيب المرتضى، وأفضل من يأتي، وأكرم من مضى.

وإياك يا أخي الحبيب أن تفهم أن معنى المحبة من ربنا ما نجد في قلوبنا من الميل بالقلب إلى أمثالنا أو شهواتنا، فإنا محدَثون في بنيتنا وأشكالنا. وصفات مولانا جل جلاله لا تشبه صفاتنا، وذاته لا تشبه ذاتنا، وكل ما خطر في قلوبنا من صفات الله تعالى مستحيل عند العقلاء أن يكون كصفاتنا. فمحبة الله تعالى لعبده إنعامه عليه بالتوفيق، واختصاصه بما منَّ به لديه، وإضافة المحبة إلى الله تعالى كناية عن تمام الإنعام، وكمال التبجيل والإكرام. فمحبته لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم تمكينه من سعادته، وعصمته، وتأييده، وتوفيقه، وتهيئته لأسباب القرب من خالقه الرب سبحانه، وإعطاؤه من المواهب اللدنية، ›

وقد اختلف في [تفضيل]إحدى الصِّفتين على الأخرى بعد اتفاقهم على أن كلَّ واحد من النبيين جامعٌ لكلٍّ واحدة من الصفتين، وأن نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - أفضل من إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله -.

وقيل: [الخُلَّة] والمحبة في درجة واحدة.

وقيل: درجة الخلَّة أرفع، لأنها نهاية المحبة.

والأكثرون على تفضيل المحبة على الخُلَّة لأنَّ الحبيب يصل بنفسه، والخليل لا يصل إلا بواسطة.

ولأنَّ الخليل مغفرته في حد الطمع، والحبيب مغفرته في حد اليقين.

وإن الخليل قال: ﴿وَلا تُخْزِنِي﴾(١)، والحبيب قيل في حقه: ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾(٢).

ولأنَّ الخليل قال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾(٣).

والمعارف الربانية ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، صلى الله عليه وآله وصحبه ما طلعت شمس ولاح قمر. وإن كانت هذه المحبة حاصلة لسائر الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لكن قد أخذ منها سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين النهاية العظمى، ونال منها الحظ الأعظم من بين أهل الأرض والسما.

(١) في قوله تعالى: ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ سورة الشعراء - الآية ٨٨.

(٢) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمنوا معه﴾سورة التحريم- الآية ٨.

(٣) في قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ سورة الشعراء - الآية ٨٤.

والحبيب قيل له : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾[1] .

الذي تُرجى شفاعتُهُ

عند الله تعالى، لكل واحد من خلقه . والرجاء - بالمد - : ضد اليأس . والشفاعة : مأخوذة من "الشفع" ضد الوتر . والمراد هنا : طلب العفو من الله تعالى لعباده .

لكل هولٍ

عظيمٍ، والظرف متعلق بـ"شفاعة" . واللام بمعنى : في أو عند . والهول : مصدر "هال" أي : فزع .

مِنَ الأهوالِ

والظرف صفة لـ"هول" .

مُقتَحِمِ

أي : تقتَحم فيه الخلائق، وتقع فيه بشدة، من : "اقتحمت الشيء" إذا رميت بنفسك فيه من غير رويَّة وتدبُّر .

وأشار الناظم بقوله : " لكلِّ هولٍ" إلى عموم ما يترجَّى منه صلى الله عليه وآله وسلم من الشفاعات، وهي كثيرة :-

---

(١) سورة الانشراح - الآية رقم ٤ .

منها: شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - في إراحة الخلائق ما يصيبهم من كرب الموقف والمحشر، وهذه عامَّةٌ للناس والجن، والمؤمن والكافر، ومختصَّة به صلى الله عليه وآله وسلم، وهي الشفاعة العظمة، والمقام المحمود[1].

ومنها: شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - في أقوامٍ يدخلون الجنة بغير حساب. قال النووي: وهي مختصة به - صلى الله عليه وآله وسلم -، وتردَّد في ذلك ابن دقيق العيد، ووافقه السبكي فقال: لم يرد فيه شيء.

ومنها: شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - في أهل الكبائر من أمته في إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة، ويشارك فيها الأنبياء والملائكة، وسائر صلحاء المؤمنين من الأولياء والعلماء، وغيرهم.

ومنها: شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - في قوم حوسبوا، واستوجبوا النار أن لا يدخلوها، وهذه غير مختصة به - صلى الله عليه وآله وسلم - أيضاً.

ومنها: شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - في زيادة درجات في الجنة. وجوَّز النووي اختصاصها به - صلى الله عليه وآله وسلم -.

---

(١) حديث الشفاعة المشهور بطوله: أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٩، وفي كتاب الرقاق ٥١، والأنبياء ٣، والتفسير. وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، والترمذي في كتاب التفسير سورة ١٧، وابن ماجة في كتاب الزهد، والإمام أحمد في المسند ١/ ٥، ٢/ ٤٣٦، ومواضع أخر. وسيأتي نصّه في موضعه من الكتاب إن شاء الله تعالى.

ومنها : شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - في تخفيف عذاب بعض الكفار مما يتعلق بغير الكفر - كعمه أبي طالب - [1].

ومنها : شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - عند الصرّاط والميزان .

---

(١) أما عمه أبو طالب رضي الله عنه - وأرجو أن يكون قولي هذا لي يداً عند حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- فإنّ عذابه- أي : أبي طالب إن كان - فسيكون على أنه آمن ولم يعلن إيمانه ؛ فكل أقواله التي وصلت إلينا وأشعاره وأفعاله كانت دلالة تامة على إيمانه القلبي الأكيد ، فليس عذابه على الكفر والشرك فهو لم يشرك ولم يكفر ، ولكن العذاب على معصية إضمار الإيمان ، وعدم إعلانه ، وفرق بين عذاب الكفر والشرك ، وعذاب مجرد العصيان ، هذا إذا لم يدركه العفو بما خدم الدعوة ، ثم لنصرته وقرابته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ألف كثير من علماء الأمة ومحدثيها العديد من الرسائل في نجاة أبي طالب وإيمانه نورد منها على سبيل المثال لا الحصر :

١-أبو طالب مؤمن قريش لعبد الله علي الخنيزي .

٢-إتحاف الطالب بنجاة أبي طالب لمحمد بن عبد السلام جنون ١٣٢٨ هـ .

٣-أخبار أبي طالب وولده -لابن المدائني ٢٢٥ هـ .

٤-أسنى المطالب في نجاة أبي طالب لسيدي أحمد زيني دحلان ١٣٠٤ هـ .

٥-إيمان أبي طالب -للقاضي النعمان بن محمد ٣٦٣ هـ .

٦- الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب لفخار بن المعد الموسوي ٦٣٠ هجرية .

وغيرها مما ذكره العلامة صلاح الدين المنجد في كتابه " معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - صفحة ٥٦ . وكذلك جاء في البخاري عن ابن عباس قوله ﷺ عن أبي طالب : «هو في ضحضاح - أي قليل - من النار» . يقول النبي ﷺ : «ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل» .

ومنها : شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - لمن مات بالمدينة الشريفة[1].

ومنها : شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - لمن زار قبره الشريف[2].

ومعنى هذا أن أبا طالب ليس في الدرك الأسفل الذي هو مقام المنافقين والكافرين والمشركين بما قدم لله تعالى ورسوله ﷺ ؛ فهو إذن في "ضحضاح" أي يسير نار المعصية، فليس هو بخالد فيها، إذ لا خلود في نار المعصية ؛ فافهم وأفهِم الناس أن حديث الضحضاح إنما هو لأبي طالب لا عليه.

(١) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «من زارني كنت له شفيعاً أو شهيداً، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله يوم القيامة من الآمنين». رواه أبو داود الطيالسي في مسنده .

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من زار قبري وجبت له شفاعتي » . أي سؤالي الله تعالى له أن يتجاوز عنه مكافأة له على زيارته للحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم، فانظر يا أخي إلى قطاع الطرق للوصول إلى الله ورسوله انظر إلى عظم الخسارة التي يجنيها من يستمع إلى قولهم بمنع زيارة قبره صلى الله عليه وسلم ، لا حرمنا الله منها آمين. ومعنى وجبت : تحققت وثبتت ؛ فهي ثابتة له بالوعد الصادق من النبي الصادق لا بد منها، وليس المراد به الوجوب الشرعي، وروي : " حلت له شفاعتي "، ويخصه النبي صلى الله عليه وسلم بشفاعة تناسب عظيم عمله، إما بزيادة النعيم، وإما بتخفيف الأهوال عنه في ذلك اليوم؛ وإما بكونه من الذين يحشرون بلا حساب؛ وإما برفع درجاته في الجنة، وإما بزيادة شهود الحق والنظر إليه ، وإما بغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

انظر : " نسيم الرياض - الخفاجي ٣/ ٥٦٤ . رزقنا الله ذلك بمنه وفضله وبركة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن أحبنا وأحببناه ، وقال : آمين .

ومنها: غير ذلك كما بيِّنَ في المبسوطات[1].

* * *

(١) فيجب على من علم أن نبينا وسيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الشفاعة أن يتَّخذ عنده اليد العظمى والبضاعة، صلى الله عليه وعلى آله في كل حين وساعة، فأكثر يا أخي من الصلاة عليه وعلى آله فإن في الصلاة عليه منجاة لنا في الدنيا والآخرة. روى الطبراني عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: - في جملة حديث الشفاعة - "رأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط مرة ويجثو مرة ويتعلق مرة فجاءته صلاته علي فأخذت بيده فأقامته على الصراط حتى جاوز". فبادر إن كنت محباً لسيد الأنام، وتوثّق بجنابه لعل المولى سبحانه يحفظك من جميع المكاره والآثام، وتوسل إلى الله تعالى بكرامته، وتضرّع إلى مولاك وتشفّع إليه بنبيه وخاصته، فإنك إذ أخلصت في توسلك ترى العجب العجاب، ويهون عليك من الأمور أصعب الصعاب.

ألا أيها المأمولُ في كل حاجة ... شكوت إليك الضرَّ فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت كاشف كربتي ... فهب لي ذنوبي كلها واقضِ حاجتي
فزادي قليلٌ لا أراه مُبلِّغي ... على الزاد أبكي أم لبعد مسافتي؟
وجئت بأفعالٍ قباحٍ رديَّةٍ ... وما في الورى خلقٌ جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي فيك أين محبتي؟
إليك بتاج المرسلين توسلي ... أقِلْ عثرتي واقبل لديك ضراعتي
وصلِّ عليه كلما ذكر اسمه ... وسلِّم وكن لي راحةً عند فاقتي

«٣٧» دَعَا إلَى اللهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ
مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ

دَعا

صلى الله عليه وآله وسلم كلَّ أحد من المخلوقات؛ إنساً وجنّاً.

إلى الله

أي: إلى ما يرضاه ويحبُّه من الأديان، وهو دين الإسلام. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾(١).

وهذه الدعوة العامة لم تكن لغيره صلى الله عليه وآله وسلم من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

وأول ما وجب عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - أن شرّفه الله تعالى بالنبوة: الإنذار والدعاء إلى التوحيد، ثم فرض الله تعالى عليه من قيام الليل ما ذكره أول سورة المزمّل(٢).

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٢) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا﴾.

وأنزل الله تعالى عليه سورة "اقرأ" إعلاماً بنبوته.

ثم سورة "المدَّثِّر" إعلاماً برسالته[1]، بناء على أن الرسالة متأخرة عن النبوة بثلاث سنين، لا مُقارِنة لها، وهو الأصح.

وأوَّل من آمن به صلى الله عليه وآله وسلم: [سيدتنا]خديجة بنت خويلد صديقته[2] وصدِّيقته[3]، فقامت بأعباء التصديق حين قال لها: قد خشيت على نفسي، فقالت له: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً.

وأول من أسلم من النساء بعد [سيدتنا]خديجة: أم الفضل زوج العباس رضي الله عنهما، وأسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما -.

---

(١) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾.

(٢) أي: زوجته رضي الله عنها.

(٣) قال أبو الحسن بن الأثير: خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدّمها رجلٌ ولا امرأة. وأقرّه الذهبي. وقال محمد بن كعب القرظي: أول من أسلم من هذه الأمة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خديجة رضي الله تعالى عنها. رواه البيهقي. وحكى الإمام الثعلبي اتفاق العلماء على ذلك، وإنما اختلافهم في أول من أسلم بعدها. وقال النووي: إنه الصواب عند جماعة من المحققين. انظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٢/ ٣٠٠.

وأول من آمن من الرجال : سيدنا أبو بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه -(١) .

وقيل **أول من أسلم من الرجال** : ورقة بن نوفل ، حين قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أبشِرْ فأنا الذي أشهد أنك الذي بشَّر ابنُ مريم ، وأنك نبيٌّ مرسَل ، وأنك

---

(١) قال ابن إسحاق : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : " ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوةٌ وتردُّد ونظر ، إلا أبا بكر ما عكَمَ - أي ما تلبّث ، بل أجاب بسرعة - عنه حين ذكرته له ولا تردد " . قال البيهقي : وذلك لما كان يرى من دلائل نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ويسمع بشأنه قبل دعوته ، فلما دعاه وقد سبق فيه تفكره ونظره أسلم على الفور . قال السهيلي رحمه الله تعالى : وكان من أسباب ذلك توفيق الله تعالى إياه فيما ذكروا أنه رأى رؤيا قبل ، وذلك أنه رأى القمر نزل إلى مكة ثم رآه قد تفرّق على جميع منازل مكة وبيوتها ، فدخل في كل بيت شعبة ، ثم كان جميعه في حجره . فقصَّها على بعض أهل الكتابين ، فعبّرها له بأن النبي المنتظر قد أظلّ زمانه ، اتبعْه وتكون أسعد الناس به ، فلما دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتوقف .

قال المحب الطبري تبعاً لأبي عمرو بن الصلاح : الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها ، فيقال : أول من أسلم مطلقاً خديجة ، وأول ذكرٍ أسلم : علي بن أبي طالب وهو صبيٌّ لم يبلغ ، وكان مخفياً إسلامه . وأول رجل عربي أسلم وأظهر إسلامه : أبو بكر بن أبي قحافة . وأول من أسلم من الموالي : زيد . وقال : هذا متفق عليه لا خلاف فيه ، وعليه يحمل قول علي وغيره : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، أي : من البالغين . ويؤيده ما رواه خيثمة في فضائل الصحابة عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم - قال : إن أبا بكر سبقني إلى أربع لم أعتض بشيء منهن :سبقني إلى إفشاء الإسلام ، وقدَم الهجرة ، ومصاحبته في الغار ، وأقام الصلاة وأنا يومئذ بالشعب ، يظهر إسلامه وأخفيه " ، الحديث .

ستأمر بالجهاد، ولو أدركت ذلك لأجاهدن معك[1] وعدَّه ابن منده في الصحابة، وكذلك ابن حجر في "الإصابة"[2].

وأول من آمن من الصبيان: علي بن أبي طالب، وهو في كفالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موت أبيه أبي طالب[3].

وأول من أسلم من الموالي: زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) ومن يمنع يدّعي أنه أدرك نبوته عليه الصلاة والسلام لا رسالته، لكن جاء في بدء الوحي أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشّر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبيٌّ مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد، وإن أدركت ذلك لأجاهدنَّ معك. فهذا تصريح منه بتصديقه برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) انظر: الإصابة لابن حجر - الجزء السادس- القسم الأول: من ذُكِرَ له صحبة، وبيان ذلك الفصل ٩١٣٧، ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصي القرشي الأسدي ابن عم خديجة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) روى البيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال: أول من أسلم من هذه الأمة خديجة. وأول رجلين أسلما: أبو بكر وعلي، وأسلم علي قبل أبي بكر، وكان عليٌّ يكتم إيمانه خوفاً من أبيه، حتى لقيه أبوه قال: أسلمت؟. قال: نعم. قال: آزر ابن عمك وانصره. قال: وكان أبو بكر أول من أظهر الإسلام.

وأول من أسلم من الأرِقَّاء: بلال بن رباح(١).

وآمن مع زيد بن حارثة عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، بدعاء(٢) أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين استجابوا، فأسلموا.

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجرَّاح، وأبو سَلَمةَ بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وأخواه قُدامة، وعبد الله، وعبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب - رضي الله عنهم أجمعين -.

ثم دخل الناس في دين الله أفواجا؛ رجالاً ونساءً.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بُدوِّ الإسلام يطوف على الناس في منازلهم، وعلى قبائل العرب في المواسم يدعوهم إلى الله تعالى، ويقول: " أيها الناس... إنَّ الله تعالى يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً". وأبو لهب -لعنه الله- وراءه يصدُّ الناس عن الله تعالى، ويقول: أيها الناس إن الله يأمركم أن لا تتركوا دين آبائكم.

---

(١) روى البخاري عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما معه إلا خمسة أعبُد وامرأتان وأبو بكر. قال الحافظ: أما الأعبُد: بلال، وزيد بن حارثة، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، فإنه أسلم قديماً مع أبي بكر رضي الله عن الجميع.

(٢)أي: بدعوته رضي الله غنه لهم.

ولما ظهر الإسلام أقبلت قريش على ضَعَفَة المؤمنين من كل من ليس له عشيرة تحمي ظهره، يعذِّبونهم، ويؤذونهم كي يردُّوهم عن دين الإسلام، حتى مرَّ عدوُّ الله وعدوُّ رسوله – صلى الله عليه وآله وسلم –، وفرعون هذه الأمة أبو جهل، عمرو بن هشام المخزومي – لعنه الله تعالى –، بسميّة أم عمار – رضي الله تعالى عنها – وهي تعذَّب في الله؛ فطعنها بحربة في فرجها فقتلها.

وكان بلالٌ يُعَذَّب في الله يقول: أَحَدٌ أَحَد. فيمزج مرارة العذاب بحلاوة التوحيد، كي يخفف عنه ألم العذاب.

وكان –سيدنا – أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إذا مرَّ بأحد من العبيد يعذَّب في الله اشتراه من الكفار وأعتقه، منهم: عامر بن فهيرة، وبلال بن رَباح – رضي الله عنهما – فهما من موالي سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم أشار الناظم إلى تقسيم أهل الدعوة، وبيان حكم كل فريق بقوله: –

فالمستمسِكُونَ

أي: المستوثقون.

بِهِ

أي: برسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم –، أو بما دعاهم إليه من دين الإسلام.

مستمسكون بِحَبلٍ

وثيق، أي: بنبي لا يضام من اهتدى بهداه، أو بدين لا يضلُّ من تمسك بعُراه.

غَيرِ منفَصِمِ

أي: لا يعتريه فصمٌ فضلاً عن قصم، والأول بالفاء؛ معناه: القطع من غير إبانة.

والثاني: بالقاف معناه: القطع مع إبانة. والأول أولى، وحذف الناظم مقابل قوله: "فالمستمسكون. . . " إلى آخره للعلم به والتقدير: وغير المستمسكين به واقعون في مهاول التلف ومزالف الردى، لا يستمسكون بحجة، ولا يسلكون مَحَجَّة[1].

---

(١) فيا أيها الأحباب المستمسكون بهذه العروة الوثقى الطالبون من مولانا سبحانه وتعالى نعيمه الذي يبقى، لوذوا بجناب الله سبحانه، الذي كرَّمه بقوله: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، وبشرى لمن اعتمد على الله وتمسك بحبل رسول الله المتين، وبالغ في التعلق بسنَّة هذا النبي القوي الأمين صلى الله عليه وآله وسلم، ومات على ذلك متوسلاً إلى مولاه به، معرضاً عما يفنى، طالباً لما يدوم ويبقى. فإن نزل بك همٌّ أو غمٌّ أو كربٌ أو ظلمٌ، أو مرضٌ أو علةٌ، أو فاقةٌ أو شدة، أو غفلة عن مولاك، أو معصية أو بعدٌ من الطاعات، أو اتباع للمخالفات، أو ارتكاب للشهوات، أو انهماك في المحرمات، أو ما لا طاقة لك به من المكروهات؛ فبادر إن كنت محباً لسيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، ولذ بجنابه الشريف، لعلَّ المولى جل جلاله يحفظك من جميع المكاره والآثام، وتوسَّل إلى الله تعالى به، وتضرَّع إليه سبحانه، وتشفَّع إليه بسيد الوجود نبيه وخاصته، فإنك إذا أخلصت في توسلك ترى العجب العجاب، ويهون عليك من الأمور أصعب الصعاب، ولعن الله من كذب عليك.

وكيف لا ينصر من لاذ بجناب سيد الأحباب عليه أفضل الصلاة والسلام، أم كيف يضام من تمسك بأساس أهل الوفا، السيد المصطفى، أم كيف يبعد عن رحمة الله من امتلأ قلبه بمحبة حبيبه إمام أهل الود والصفا؟ وشأن الأولياء والعارفين والمحبين أن يتوسلوا في جميع حالاتهم وملازمتهم في جميع أعمالهم باتباعهم لسيد المرسلين، ويتشفعوا به إلى رب العالمين. وهل شاهدت صادقاً في محبته، مكثراً من الصلاة عليه، لَهِجاً بذكره في شدته قد ناداه من قلبه وما أجاب؟.

فاللهم لا تحرمنا مدد حبيبك وشفاعته في الدنيا والآخرة، ومن قال من قلبه مخلصاً: "آمين"، لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا.

«٣٨» فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ
وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمِ

فَاقَ

نبينا صلى الله عليه وآله وسلم :-

النَّبِيِّينَ

أي : فَضَلَهم ؛ جملةً وتفصيلاً .

في خَلْقٍ

بفتح الخاء ، وسكون اللام : في لونٍ وشكلٍ ، وغيرهما .

وفي خُلُقٍ

بضم أوَّليه ، وقد يسكَّن ثانيه ، أي : قويم السجايا كالعلم والحلم وغيرهما .

وذكر العلماء : أن من تمام الإيمان اعتقاد أنه لم يجتمع في بدن آدمي من المحاسن الظاهرة والباطنة ما اجتمع في بدنه - صلى الله عليه وآله وسلم - . وكان الأنبياء أجمل من غيرهم ، وكان نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - أجمل منهم ؛ حتى من يوسف الذي أعطي شطر الحسن ، والمراد : من شطر الحسن : شطر حسن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم .

فقد جاء عن أنس رضي الله عنه : "ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه ، وحسن

الصورة، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وصورة"[1].

وقال بعض العلماء: لم يظهر تمام الحسن، ولو ظهر لما طاقت أعين الصحابة النظر إليه[2].

---

(١) رواه الترمذي عن قتادة، والدارقطني عن أنس رضي الله تعالى عنهما.

(٢) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة أضحيا، وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر، صلى الله عليه وسلم" . رواه الترمذي في كتاب الأدب -باب ٤٧، ماجاء في الرخصة في لبس الحمرة للرجال الحديث رقم ٢٨١١، ٥/ ,١١٨ والنسائي، والدارمي، وأبو يعلى، والطبراني في الكبير، والبغوي في شمائله، والبيهقي في الدلائل، والحاكم في المستدرك.

ورحم الله ابن الفارض حيث قال:

وعلى تفنُّن واصفيه بحُسنه   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وسيدي علي وفا رضي الله عنه وعنا به حيث قال:-

كم فيه للأبصار حسنٌ مدهشٌ   كم فيه للأرواح راحٌ مسكرُ
سبحان من أنشاه من سبحاته   بشراً بأسرار الغيوب يبَشّرُ
قاسوه جهلاً بالغزال تغزُّلاً   هيهات يشبهه الغزالُ الأحورُ
هذا، وحقِّك ما له من مشبه   وأرى المشبِّهَ بالغزالة يكفرُ
يأتي عظيمَ الذنب في تشبيههَ   لولا لربٍّ جماله يستغفرُ
فَخرَ الملاحُ بحُسنهم وجمالهم   وبحُسنه كلُّ المحاسن تفخرُ
فجَمَالُه مجلىً لكلِّ جميلة   وله منار كلِّ وجه نيِّرُ
جنَّات عدن في جنى وَجَنَاتهَ   ودليلُه أنَّ المراشفَ كَوثرُ
هيهاتَ ألهوَ عن هواه بغيرَهَ   والغير في حشر الأجانب يُحشَرُ
كتب الغرامُ عليَّ في أسفاره   كُتُباً تُؤوَّلُ بالَهوى وتُفَسَّرُ
فدع الدَّعيَّ وما ادَّعاه من الهوىَ   فدعيُّهُ بالهُجر فيه يُهجَرُ
وعلَيك بالعَلَمِ العَليم فإنه   لخطيبه في كلِّ خَطبٍ منبَرُ

ولم يُدانوه

أي: لم يقاربوه.

في علمٍ

وكيف يدانوه في علم، ومن علومه القرآن الحاوي لعلوم الأولين والآخرين، وغيرها؟. ومع ذلك أمره الله تعالى بطلب الزيادة منه في قوله عز وجل من قائل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] ولذا كانت شريعته صلى الله عليه وآله وسلم ناسخة لجميع الشرائع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا ولد صلى الله عليه وآله وسلم؛ قال في أذنه رضوان خازن الجنة: أبشر يا محمد فما بقي لنبي علمٌ إلا وقد أُعطِيتَه؛ فأنت أكثرهم علماً، وأشجعهم قلباً.

ولا كَرَمِ

أي: جود، وكرَّر «ولا» ليفيد التأكيد، واقتصر الناظم على هاتين الصفتين مع أنهم لم يدانوه فيهما ولا في غيرهما من سائر صفاتِ الكمال، ونعوتِ الجمال، لأنَّ العلمَ رأسُ الفضائل، والكرمَ رأسُ الفواضل.

وروي عن أنس رضي الله عنه: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً إلا أعطاه، وقد جاءه رجلٌ فأعطاه غنماً بين الجبلين، فرجع إلى قومه وقال: يا قوم..

---

(١) سورة طه - الآية ١١٤.

أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر"[1].

---

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن مُوسَى بْن أنَس، عَنْ أبيه، قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم عَلَى الإسْلاَمِ شَيْئاً إلاَّ أعْطَاهُ. قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأعْطَاهُ غَنماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ. فَرَجعَ إلَى قَوْمِه، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أسْلِمُوا. فَإنَّ مُحَمَّداً يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ.

وعَنْ أنَس أنَّ رَجُلاً سَألَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم غَنماً بَيْنَ جَبَلَيْن. فَأعْطَاهُ إيَّاهُ. فَأتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أيْ قَوْمِ أسْلِمُوا. فَوَاللَّه إنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ. فقالَ أنَسٌ: إنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إلاَّ الدنْيَا. فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإسْلاَمُ أحَبَّ إلَيْه منَ الدنْيَا ومَا عَلَيْهَا.

وعَن ابْن شهَاب. قَالَ: غَزَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم غَزْوَةَ الْفَتْح، فَتْح مكَّةَ. ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم بِمَنْ مَعَهُ منَ الْمُسْلمينَ. فَاقْتَتَلُوا بحُنَيْن. فَنَصَرَ اللَّهُ دينَهُ وَالْمُسْلمينَ. وَأعْطَى رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَوْمَئذ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مائَةً منَ النَّعَم. ثُمَّ مائَةً. ثُمَّ مائَةً.

قَالَ ابْنُ شَهَاب: حَدَّثَني سَعيدُ بْنُ الْمُسَيّب أنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَاللَّه لَقَدْ أعْطَاني رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم مَا أعْطَاني، وَإنَّهُ لأبْغَضُ النَّاس إلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِيني حَتَّى إنَّهُ لأحَبُّ النَّاس إلَيَّ. وعن جابر بْن عَبْد اللَّه. قَالَ سُفْيَانُ: وَسَمعْتُ أيْضاً عَمْرَو بْنَ دينَار يُحَدّثُ عَنْ مُحَمَّد بْن عَليّ. قَالَ: سَمعْتُ جَابرَ بْنَ عَبْد اللَّه رضي الله عنه وَزَادَ أحَدُهُمَا عَلَى الآخَر. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: "لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ الْبَحْرَيْن لَقَدْ أعْطَيْتُكَ هكَذَا وَهكَذَا وَهكَذَا". وَقَالَ بيَدَيْه جَميعاً. فَقُبضَ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أنْ يَجيءَ مَالُ الْبَحْرَيْن. فَقَدمَ عَلَى أبي بَكْر بَعْدَهُ. فَأمَرَ مُنَادياً فَنَادَى: مَنْ كَانَتْ لَهُ عَلَى رَسُول اللَّه عدَةٌ أوْ دَيْنٌ فَلْيَأت. فَقُمْتُ فَقُلْتُ: إنَّ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ الْبَحْرَيْن أعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهكَذَا وَهكَذَا" فَحَثَى أبُو بكْر مَرَّةً، ثُمَّ قَالَ لي: عُدَّهَا. فَعَدَدْتُهَا ›

وقال حسان بن ثابت يمدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

له هممٌ لا منتهى لكبارهـــا وهمته الصغرى أجلُّ من الدَّهـــر

له راحةٌ لو أن معشار جودها على البرِّ كان البَرُّ أندى من البحر

وحاصل معنى البيت: أن الله تعالى جمع لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم ما تفرَّق في الأنبياء من محاسن السمات، وعظيم الصفات، وزاده سماتٍ لا تحصى، وصفاتٍ لا تستقصى، إعلاماً برفعة مقامه، وعظم شأنه.

قال صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] أراد بالبعض الأول سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

فَإِذَا هِيَ خُمْسُمَائَة. فَقَالَ: خُذْ مِثْلَيْهَا. انظر: صحيح مسلم: - الجزء الرابع ٤٣- كتاب الفَضَائل (١٤) بابَ ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا، وكثرة عطائه- الحديث رقم (٢٣١٢)

(١) سورة البقرة - الآية رقم ٢٥٣.

«٣٩» وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ
غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

وكُلُّهُم

أي: الأنبياء، و"كل": اسمٌ موضوع لاستغراق أفراد المنكّر، نحو: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[1] أو المعرَّف: كما هنا. أو لاستغراق أجزاء المفرد المعرفة، نحو: كل زيد حسن. أو لاستغراق الصفات مجازاً، نحو: أنت الرَّجل كل الرجل.

من رَسُولِ الله

سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، لا من غيره.

مُلتَمِسٌ

أي: طالب في جميع كمالاته من علم وحِلمٍ وغيرهما، وإفراد الضمير نظراً إلى لفظ "كل".

غَرفاً

مفعول "ملتمسٌ"، وأصل الغَرْف: أخذ الماء باليد، وبابه: ضرب. و"الغَرفة" بالفتح: المرة منه. وبالضَّم: الشيء المغروف.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٥.

مِن

هي للغاية .

البحرِ

وسمي البحر بحراً لاتِّساعه .

والرحب : للمكان المتسع ، والبحر : لمن اتسع علمه ، والربح : للفائدة المتسعة . والحرب : للشيء المتسع .

والبحر في الأصل : اسم للمكان الحاوي للماء ، ويجمع في القلة على أبحر . وفي الكثرة على : بحور ، وبحار .

أو

للتنويع .

رَشفاً

أي : بعضاً[1] .

---

(١)الأصل في الرَّشْف : المصُّ . وقد رَشَفَهُ من باب ضرب ونصر و ارْتَشَفَهُ أيضاً . وفي المثل : " الرشف أنقع " أي : إذا تَرَشَّفْتَ الماء قليلا قليلا كان أسكن للعطش .

جمع "دِيمة"[١]، وهي: المطر الدَّائم الذي لا رعدَ فيه ولا برق. وأقلُّه ثلث النهار، وأكثره يوم وليلة.

وأشار الناظم بذلك إلى أن الأنبياء وأممهم متزاحمون على موارد بحره الزاخر، ومناهل غيثه الهامر، آخذٌ كلٌّ منهم بحسب استعداده، وقدر ما قُدِّر له، غرفاً أو رشفاً، فكمالات الأنبياء وإن كثرت في أنفسها وتفاوتوا فيها بالكثرة والقلَّة قليلة جداً بالقياس إلى كمالات نبينا وسيدنا محمد - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم -، نسبتها إليها كنسبة ما يغرف من البحر، وما يرشف من الدِّيَم، فهو السيد الأعظم، والمفاضل الذي فاض من نواله فعم، صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ثَمَّ رجعوا في أمر الشفاعة العظمى إليه[٢].

---

(١) وفي حديث عائشة - رضي الله عنها- وقد سئلت عن عمل سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعبادته؟؛ فقالت: كان عملُه دِيمةً؛ شَبَّهَتْ عمله صلى الله عليه وآله وسلم في دوامه مع الاقتصاد بديمة المطر الدائم.

(٢) كما جاء في حديث الشفاعة الذي أخرجه أصحاب السنن بسندهم عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ: "أُتِيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ فَأَكَلَهُ وكَانَ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهُ نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ: "أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ هَلْ تَدْرُونَ لِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ الله النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ البَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَالاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَتَحَمَّلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ ›

فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فيه؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحاً فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ الله عَبْداً شَكُوراً. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فيه؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فيه، فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ. فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ: نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ الله فَضَّلَكَ الله بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى الْبَشَرِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فيه؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فيه؟ فَيَقُولُ: عِيسَى إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم قَالَ: فَيَأْتُونَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ الله وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ: وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فيه، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخِرُّ سَاجِداً لِرَبِّي. ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي. ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ

وأمَّهم في الصلاة ليلة الإسراء[1]. واجتمعوا تحت لوائه يوم القيامة[2].

رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ". ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ وَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى". انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري - ٣٧ - كتاب صفَةُ القيامَة والرقائق والورع عن رَسُول الله صلى الله عليه وسلم. ١٥٧٧ - باب مَا جَاءَ في الشَّفَاعَة. الحديث رقم: , ٢٤٨١

(١) روى مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: "لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ. وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كَرْباً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطّ. قَالَ: فَرَفَعَهُ الله لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ. فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي. فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ. وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي. أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهاً عُرْوَةُ ابْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ. وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي. أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ (يَعْنِي نَفْسَهُ) فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ. فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاَةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ! هٰذَا مَالِكٌ، صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلاَمِ". انظر: صحيح مسلم. الجزء الأول -١ - كتاب الإيمان. (٧٥) باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال - الحديث رقم: ٢٧٨- (١٧٢).

(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة». رواه أحمد وأبو يعلى عن ابن عباس مرفوعاً من حديث، صدره: «إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد تنجزها في الدنيا، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائي ›

وتشفَّع به آدم في قبول توبته[1] . وسأل موسى ربه أن يجعله من أمته[2] .

ولا فخر» . ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري بلفظ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر : وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن دونه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» . انظر : كشف الخفاء ، للإمام العجلوني الحديث رقم : ١١ .

(١) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب! اسألك بحق محمد إلا غفرت لي ، فقال الله تعالى : وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ، قال : يا رب! لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ؛ فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله عز وجل : صدقت يا آدم! إنه لأحب الخلق إلي وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك) . رواه الطبراني في الصغير ، وأبو نعيم في الدلائل ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الدلائل . انظر : كنز العمال للمتقي الهندي - الحديث رقم ٣٢١٣٨ .

(٢) أخرج أبو نعيم في الدلائل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن موسى لما نزلت عليه التوراة وقرأها فوجد فيها ذكر هذه الأمة قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون فاجعلها أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم فاجعلها أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونه ظاهراً فاجعلها أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يأكلون الفيء فاجعلها أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في بطونهم يؤجرون عليها فاجعلها أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : يا رب إني أجد في الألواح ›

وأخذ الله الميثاق عليهم أن يؤمنوا به وينصروه إن أدركوا زمنه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١).

وأوصى كل نبي أمته بذلك، ومن ثَمَّ قال النبي - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم -: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» (٢).

ثم أشار الناظم إلى ما ذكره بتقرير آخر في ضمن معنى آخر فقال: -

* * *

أمة إذا هَمَّ أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب إني وجدت في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم الآخر، فيقتلون قرون الضلالة والمسيح الدجال فاجعلها أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: يا رب فاجعلني من أمة أحمد، فأعطي عند ذلك خصلتين فقال: ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾. قال: قد رضيت يا رب"!.

(١) سورة آل عمران - الآية ٨٢-٨٣ .

(٢) قطعة من حديث لفظه: « لتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي». رواه ابن حبان بسنده عن جابر. انظر: كنز العمال للمتقي الهندي - المجلد الأول. الباب الثاني: الاعتصام بالكتاب والسنة الحديث رقم: ١٠١٠.

«٤٠» وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمِ
مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكَمِ

وَ

كلُّهم.

واقفُونَ

أي: ثابتون.

لَدَيه

أي: عنده صلى الله عليه وآله وسلم.

عندَ حَدِّهم

أي: غايات حظوظهم.

مِن

هي للتبعيض.

نُقطَة العِلم

أي: من الشيء اليسير من علم الله الذي أفاضه على الخلق، والظرف متعلِّق بـ"حدهم".

أو من شَكلَةِ الحِكَمِ

أي: من الشيء اليسير من حِكَمِ الله تعالى التي أفاضها على الخلق.

والحِكَم: جمع حكمة.

والنقطة: من "نقطت الكتابَ" أعجمته.

والشَّكلة: من شكَلتُ الفرس إذا قيَّدته.

وحاصل معنى هذا البيت: أن علوم الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام- وغيرهم من سائر الخلائق وإن تكاثرت في أنفسها، وكذلك حكمهم بالقياس إلى علم الله وحكمه قليلة جداً كنقطة وشَكلَة، وأنَّ كلَّ واحد من المخلوقات واقفٌ في نقطة علم الخلائق وشكلة حكمهم على حدٍّ لم يصل إلى ما وصل إليه صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك؛ فعلوم الأنبياء وسائر الخلائق، وحِكَمُهُم قليلةٌ جداً بالقياس إلى علوم نبينا وسيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وحِكَمه، كيف وهي بعضُ علومِه وحِكَمه؟، ومنه إليهم وصلت، كما قال الناظم رضي الله عنه في "همزيته"[(١)].

---

(١) عند قوله رضي الله تعالى عنه:

لك ذات العلوم من عالم الغيـ ـب، ومنها لآدمَ الأسماءُ

وهنا تنبيهان لا بد منهما لبيان ما ينبغي أن يعتقده المسلم في علم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أو غيره من الخلق الغيب وهما:

أولاً: يجب على كل أحد أن يعتقد أن الله تعالى هو المختص بعلم الغيب، وأن ما حصل لرسله وأوليائه منه؛ إما بوحيٍ، أو إلهام، والاستثناء من قوله تعالى: ›

وهذا البيت مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1].

﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظهِرُ عَلَى غَيْبِه أحداً، إلا مَن ارتَضَى من رَّسُول﴾ [الجن: ٢٦]، متَّصل كما هو الأصل، وذكر الرسول لا للاختصاص به، بل لأنَّ كرامة أولياء أتباعه من جملة كراماته ومعجزاته، وفي الحديث " إني لا أعلم إلا ما علَّمني ربي". فكلُّ ما ورد عنه صلى الله عليه وآله سلم من الإنباء بالغيوب ليس هو إلا من إعلام الله له به، للدلالة على ثبوت نبوته، وصحة رسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد اشتهر وانتشر أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالاطلاع على الغيب -ونؤكد أن ذلك بإطلاع الله إياه له - حتى كان يقول بعضهم لبعض: اسكت فو الله لو لم يكن عندنا من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء.

ثانيهما: في بيان أجلى أدلة ذلك الذي قدمناه وهو قليل من كثير؛ منها: ما رواه مسلم والبخاري في صحيحهما بسندهما عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، فقد كنت أرى الشيء كنت قد نسيته فأراه، فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب عنه فيعرفه". انظر: البخاري في كتاب القدر، باب ﴿وكان أمر الله قدراً مقدورا﴾. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب: إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة. وسيأتي مزيد بيان وتفصيل وأحاديث مروية في ذلك عند شرح قول الناظم - رضي الله عنه -: " ومن علومك علم اللوح والقلم" البيت رقم ١٥٤.

(١) سورة الإسراء - الآية ٨٥.

ومن قول الخضر لسيدنا موسى - على نبينا وعليهما السلام - : " ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور من البحر " رواه البخاري(١) . ثم فرَّع الناظم على ما تقدَّم قوله : -

---

(١) روى البخاري في صحيحه بسنده عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالي يزعم : أن موسى بني إسرائيل ليس بموسى الخضر ، فقال : كذب عدو الله . حدثنا أبي بن كعب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قام موسى خطيباً في بني إسرائيل ، فقيل له : أي الناس أعلم؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه ، إذ لم يردَّ العلم إليه ، وأوحى إليه : بلى ، عبد من عبادي بمجمع البحرين ، هو أعلم منك . قال : أي رب ، كيف السبيل إليه؟ قال : تأخذ حوتاً في مكتَل ، فحيثما فقدتَ الحوتَ فاتبعه ، قال : فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ، ومعهما الحوت ، حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام . قال سفيان : وفي حديث غير عمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة ، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرك وانسلَّ من المكتل فدخل البحر ، فلما استيقظ موسى عليه قال لفتاه : ﴿آتنا غداءنا﴾ . الآية ، قال : ولم يجد النَّصَبَ حتى جاوز ما أمر به ، قال له فتاه يوشع بن نون : ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت﴾ . الآية ، قال : فرجعا يقُصَّان في آثارهما ، فوجدا في البحر كالطاق ممرَّ الحوت ، فكان لفتاه : "عجبا" ، وللحوت : "سربا" ، قال : فلما انتهيا إلى الصخرة ، إذ هما برجل مُسَجًّى بثوب ، فسلَّم عليه موسى ، قال : وأنى بأرضك السلام ، فقال : أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل؟ قال : نعم ، قال : هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلِّمت رشدا . قال له الخضر : يا موسى إنك على علمٍ من علم الله علَّمكه الله لا أعلمه ، وأنا على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه . قال : بل أتَّبعك؟ قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا يمشيان على الساحل ، ›

. . . .

فمرت بهما سفينة فعرف الخضر، فحملوهم في سفينتهم بغير نول، يقول: بغير أجر، فركبا السفينة. قال: ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله، إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره، قال: فلم يفجأ موسى إذ عمد الخضر إلى قَدُّوم فخرق السفينة، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها: ﴿لقد جئت. . .﴾ الآية، فانطلقا إذا هما بغلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فقطعه، قال له موسى: ﴿أقتلت نفسا زكية بغير نفس، لقد جئت شيئا نكرا قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ - إلى قوله تعالى- ﴿فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾، فقال بيده: هكذا فأقامه، فقال له موسى: إنا دخلنا هذه القرية فلم يضيفونا ولم يطعمونا، لو شئت لاتخذت عليه أجر، قال: ﴿هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وددنا أن موسى صبر حتى يقص علينا من أمرهما».

قال: وكان ابن عباس يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وأما الغلام فكان كافرا.

انظر: صحيح البخاري، الجزء الثالث. ٦٨ - كتاب التفسير. ٢١٧ - باب: ﴿فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت﴾. الحديث رقم: ٤٤٥٠.

«٤١» فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ
ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيبًا بَارِئُ النَّسَمِ

فهُوَ

صلى الله عليه وآله وسلم.

الذي تَمَّ معناهُ

أي: كمُلَ خُلُقُه الباطن.

وصُورتُه

أي: خَلْقُهُ الظاهر، فلم يصل أحدٌ من الخلائق الأنبياء فمن دونهم إلى ما وصل إليه صلى الله عليه وآله وسلم من المحاسن الظاهرة، والكمالات الباطنة(١).

---

(١) فاعلم ياأخي المسلم الحبيب أنه يجب علينا أن نعتقد جزماً أنه صلى الله عليه وسلم لم يخلق الرحمن قبله ولا بعده أتم خلقاً منه، وهذا من تمام الإيمان، وسرُّ ذلك أن محاسن الذات دليل على ما بطن فيها من بدائع الأخلاق وجلائل الصفات، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية التي لم يصل إليها غيره في كل من ذلك فحقيقة الحسن الكامل كملت فيه وحده ولم تنقسم بينه وبين غيره، لأنه هو الذي تمَّ معناه وصورته دون غيره، ولو شورك لم يتمَّ معناه.

وما أحسن قول بعضهم: لم يظهر لنا تمام حسنه صلى الله عليه وسلم وإلا لما طاقت أعيننا النظر إليه.

ثم اصطَفاهُ

أي: اختاره للرسالة إلى كافَّة الخلق، حالة كونه:

حَبيباً

مفضَّلاً على جميع الخلائق؛ إنساً وجِنّاً، ومَلَكاً.

بارِىءُ النَّسَمِ

أي: خالقُ الخلق، وهو الله سبحانه وتعالى. وهو جمع "نَسَمَة" وهي النفس المصوَّرة. وقال الخليل: هي الإنسان، مأخوذة من "النسيم"، و"ثُمَّ": للترتيب.

ثم أشار الناظم إلى أن ما أوتيه صلى الله عليه وآله وسلم من المحاسن الظاهرة والباطنة مالم يؤتَه مَلَكٌ مقرَّب، ولا نبي مرسَل، فضلاً عن غيرهما، فقال: -

* * *

«٤٢» مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ
فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

مُنَزَّهٌ

صلى الله عليه وآله وسلم، أي: مبعَّدٌ.

عَن

وجودِ: -

شريكٍ

يشاركه: -

في مَحَاسِنِه

الباطنة والظاهرة، لأنَّه هو الذي تمَّ معناه وصورته دون غيره، وإذا كان كذلك:

فجَوهرُ الحُسنِ

الظاهر والباطن، أي: حقيقته الكاملة:

فيهِ

صلى الله عليه وآله وسلم:

بينه وبين غيره صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما مدَحَه صلى الله عليه وآله وسلم بأكمل الأوصاف، ونَعَتَه بأشرف النعوت، خاف على السامع أن يتجاوز الحدَّ الأوسط من المديح إلى رذيلة الإفراط والتفريط؛ فقال: -

* * *

«٤٣» دَعْ مَا ٱدَّعَتْهُ ٱلنَّصَارَىٰ فِي نَبِيِّهِـمِ
وَٱحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَٱحْتَكِمِ

دَعْ

أي: اترك في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم: -

مَا ادَّعتهُ النَّصارى

أي: قالته كذباً في المدح، وهو جمع "نصران ونصرانية"، كندامى جمع ندمان وندمانة. وهم أمة سيدنا عيسى - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام -، سُمُّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح أو لأنهم كانوا في قرية يقال لها: نصران، أو ناصرة. من قرى الشام.

في نبيِّهم

المرسَل إليهم؛ عيسى بن مريم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام -. من قولهم - كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم -: ﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[1]. تعجُّباً منه حيث ولد بلا أب!!. ورُدَّ: بأن آدم والملائكة أعجب في هذا المعنى، لأنَّ المسيحَ وإن تجرَّد عن أحد الأصلين، لم يتجرَّدْ عن الآخر، بخلاف هؤلاء فإنهم تجرَّدوا عن الأصلين معاً.

(١) سورة التوبة - الآية ٣٠.

وما ذكره الناظم مأخوذٌ من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم»(١).

قال الزَّجَّاج: لما قالت النصارى: "المسيح ابنُ الله"، وقالت اليهود: "عزيرٌ ابن الله"، كادت السماوات والأرض أن تزولا فأمسكها الله.

وقال بعض العلماء: كانت الأشجار التي على وجه الأرض لا شوك فيها، وكانت تثمر ثمراً طيباً، وكانت مياه الأرض كلُّها عذبةً، فلما قال اليهود والنصارى ما قالوا، منع أكثر الأشجار الثمر، وجعل فيه الشوك، وصار بعض ثمار الأشجار لا ينتفع به، وملح أكثر مياه الأرض.

واحكُمْ

بعد ذلك.

بما شئتَ

أي: أردت إثباته من صفات الكمال، ونعوت الجمال، فإنك وإن بالغت لا تصل إلا إلى قُلٍّ من كُثر.

---

(١) روى البخاري في صحيحه بسنده عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُه».

انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد السادس. كِتَاب أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ. باب قَوْلِ اللَّهِ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا.

مَدحاً

منصوب إما على الحال، أو على التميز، أو بنزع الخافض.

فيهِ

أي: في نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم -.

واحتَكِم

أي: احكُم في مدحه - صلى الله عليه وآله وسلم -، فلا تنسب إليه ما تقدَّم عن النصارى، ولا تقل إنه مرسلٌ إلى العرب خاصَّةً كما تدَّعيه العيسوية من اليهود، بل اسلك في مديحك المذهب الأسلم، والطريق الأقوم، من أنه: عبد الله ورسوله، وصفيُّه، وخليله، وحبيبه الأعظم، ونبيه الأكرم، الذي فضَّله الله على سائر الخلق، وأعطاه من الكمالات الظاهرة والباطنة، ما لم يعط أحداً من خلقه، وغير ذلك مما يضيق عنه نطاق البيان، ويكلُّ دون إحصائه القلم واللسان[1]. ثم فصَّل ما أجمله بعض التفصيل فقال: -

---

(١) فما أبلغ هذه الأبيات من هذا المحب في حبيب الله سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه ذكر كلاماً جامعاً في نعته، مانعاً في وصفه، أي: اترك ما ضلَّت به النصارى في عيسى عليه السلام، لأنهم أفرطوا في مدحه والثناء عليه حتى اعتقدوا فيه الألوهية، وألحقوه بمقام الربوبية، وهل هذا إلا غباوة وضلالة منهم وجهالة، بل يجب علينا أن نعتقد كل كمال في نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وكل صفة سَنِيَّة ننسبها لرسولنا صلى الله عليه وآله وسلم، إلا صفات مولانا وخالقنا الذي خلقه وصوَّره ومَنَّ عليه بصفات الكمال وقدَّره. فمعنى أن عيسى كلمة الله وروحه: أن الله سبحانه خلق عيسى من أمٍّ بلا أب بقدرته الباهرة، وإرادته القاهرة، فلما أن أراد سبحانه حملها بغير زوج، كوّن الحمل في ›

بطنها مع تمام إحصانها بقدرة القديم القادر، وتمَّم مولاه خلقه خرقاً للعادة، فكان عبرة للناظرين. وقد تقرر في العقول أن الله قادر على أن يخلق الشخص من غير أب ولا أم، كما كوَّن آدم عليه السلام، من تراب، وخلق حواء من أب من غير أم، فكذلك خلق سيدنا عيسى من أم بلا أب. فسبحان من لا يعجزه شيء في ممكن مخلوقاته، القادر على ما شاء في مصنوعاته، وسماه الله روح الله، أي: أن روحه مضافة إلى الله تعالى، إضافة تشريف وتعظيم، ومخلوق إلى خالقٍ كريم، كما قيل: "كعبة الله"، وأشباه ذلك كما هو معلوم عند أولي البصيرة والتعليم.

فامدح يا أخي المسلم المحب الصادق لرسول الله، وكن متفانياً في محبة هذا الحبيب صلى الله عليه وسلم وقل فيه ما شئت فلا غلو في هذا ما دمت أعطيت للربوبية حقها. وهنا أمران لا بد منهما:

أحدهما: وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ورفع رتبته عن سائر الخلق.

والثاني: إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه.

فمن اعتقد في مخلوق مشاركةَ الباري سبحانه وتعالى في شيء من ذلك فقد أشرك، ومن قصَّر بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر، ومن بالغ في تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم بأنواع التعظيم ولم يبلغ به ما يختص بالباري سبحانه وتعالى فقد أصاب الحقَّ، وحافظ على جناب الربوبية والرسالة جميعاً، وذلك هو القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

ولقد تصدى شيخ الإسلام ومفتي الأنام المجمَع على إمامته وجلالته واجتهاده وصلاحه، التقي السبكي - قدس الله روحه ونوَّر ضريحه - للردِّ على من خالف هذا من المحرومين، في تصنيف مستقلٍ أفاد فيه وأجاد وأصاب، وأوضح بباهر حججه طريق الصواب، فشكر الله تعالى لَه مسعاه، وأدام عليه شآبيب رضاه، آمين. وسمى كتابه: "شفاء السقام في زيارة خير الأنام"، وعنه نقل العلامة المحدث ابن حجر الهيتمي في كتابه "الجوهر المنظم" بتحقيق كاتب هذه السطور عفا الله عنه.

«٤٤» وَٱنْسُبْ إِلَىٰ ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ
وَٱنْسُبْ إِلَىٰ قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

وانسُب

أي: أضف.

إلى ذاتِهِ

الشريفة.

ما شِئتَ من شَرَفٍ

أي: أردتَ من صفاتٍ شريفة، وسماتٍ لطيفة، كأن تقول: هو صلى الله عليه وآله وسلم موصوفٌ بغاية العلم، ونهاية الحلم، وكمال الشجاعة، وتمام البلاغة، وأنه أكملُ الخلق على الإطلاق، وأجملهم، وأفضلهم، وأكرمهم على الملك الخلاَّق، وغير ذلك مما لا يبلغ إليه نبي مرسلٌ، ولا مَلَكٌ مقرَّب.

وانسُب

أيضاً.

إلى قَدْرِهِ

أي: مبلغه في الفضل عند الله تعالى.

ما شئتَ

أي: أردتَ.

من عِظَم

وكمال، كأن تقول: إن فضله فوق كل فضل، وشرفه أعلى من كل شرف، وأن كمالات الأنبياء والملائكة واصلة منه إليهم، وأنها وإن كانت كلمة في نفسها، نسبتها إلى كمالاته صلى الله عليه وآله وسلم كنسبة قطرة إلى نهر، أو نقطة إلى بحر.

* * *

«٤٥» فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ ٱللَّهِ لَيْسَ لَهُ
حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

فإنَّ فضلَ رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم الواضح، وما خصَّه الله به من المزايا الباطنة، والمحاسن الظاهرة، التي لم يصل إليها أحدٌ من خلقه تعالى.

وأقام الظاهر مقام المضمر تلذُّذاً بلفظ " رسول الله " .

ليس له حَدٌّ

أي: طرفٌ وغاية، ففضله لا يتناهى، ومقامه لا يدرك ولا يضاهى.

فيُعرِبَ

حتى يفصح:

عنه

أي: فضل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبكماله.

ناطقٌ بفمِ

أي: إنسان ناطق بفم، تأكيد الناطق.

و "فم" أصله: فوه، بدليل جمعه على "أفواه". وتصغيره على "فويه". فحذفت منه الهاء، ثم إذا لم يضف عوّض عن واوه بعد حذفها ميم، وإذا أضيف جاز فيه التعويض وتركه، والترك أكثر.

ولله درُّ خطيب الأندلس رحمه الله تعالى في قوله:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى | يثني على علياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً | كان القصور قصار كل فصيح

ورؤي ابن الفارض - رضي الله عنه - في النوم، فقيل له: لِمَ لَمْ تمدحِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟.

فقال: (1)

أرى كل مدحٍ في النبي مقصرًّا | وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذي هو أهله | عليه، فما مقدارُ ما يمدح الورى؟

ثم أشار الناظم إلى بيان علوّ قدره، وكمال فخره، فقال: -

* * *

(1) في أبيات للشاعر عمر الرافعي يمدح فيها الجناب النبوي الشريف ويقول:

أرى كلَّ مَدح في النَبي مُقَصّراً | ولو صيغَ فيه كُلُّ عقد مجوهَرا
وهَل يَقدر المُدّاحُ قَدرَ محمّد | وَإن بالَغ المثني عَلَيه وَأكثَرا
إذا اللهُ أثنى بالّذي هو أهلُهُ | على مَن يَراهُ للمَحامد مَظهرا
وخصَّصه في رفعة الذكر مثنياً | عليه فما مقدار ما تمدَحَ الورى

«٤٦» لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا
أَحْيَا ٱسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ

لو ناسَبَتْ

أي: شاكَلَت.

قَدْرَهُ

صلى الله عليه وآله وسلم، أي: مقداره، وعلو منزلته عند الله تعالى. وهو مفعول مقدَّم.

آياتُه

أي: كرامات معجزاته الدَّالَّة على عظيم نبوَّته، وعميم رسالته، وهو فاعل مؤخَّر.

والآيات: جمع "آية"، وأصلها "أيية"، أو "أوية"، على زِنة: "شجرة"، تحركت الياء أو الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، كما ذهب إليه الخليل.

وقال الكسائي: أصلها "أيية"، على زنة: فاعلة. حذفت الياء الأولى.

وقال الفراء: أصلها أيية" كثمرة، أبدلت الياء الأولى ألفاً تخفيفاً.

وقال بعضٌ آخر: أصلها أيّة بياء مشدَّدة، قبلها همزة، وأبدلت الياء الأولى الساكنة ألفاً للثقل. واشتقاقها من "أي" أو من "أوي".

عظماً

تمييز.

أحيا

أفاد الحياة.

اسمُه

أي: عَلَمُه صلى الله عليه وآله وسلم، اسماً كان، أو لقباً. ونسبة الإحياء مجاز عقلي، والحقيقة: أحيا الله بسبب اسمه.

حينَ يُدعى دارِسَ الرِّمَمِ

الدَّارسة، والعظام البالية، فالإضافة هنا من إضافة الصِّفة إلى موصوفها.

والرِّمَم: جمع رِمَّة، ودروسها: زيادتها في البِلى. و"دارس الرِّمَم": تنازعه كلٌّ من: "أحيا" و"يدعى".

والمعنى: أحيا اسمُه دارسَ الرم حين يذكر ذلك الدارس، أو ينادى مذكوراً عليه ذلك الاسم، كأن يقال: يا دارس الرم احيى بجاه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، **فيحيا بإذن الله تعالى** [1] فيكون الإحياء المذكور من آياته صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) وانتبه يا أخي إلى هذا الملحظ الدقيق في قول الشارح والناظم رضي الله عنهما، وهو أنه لايتم أمر الإحياء أو أي شيء مما هو من اختصاص القدرة إلا بإذن صاحب القدرة عز وجل، فلا مجال للانتقاد ممن لا همَّ له إلا الانتقاد لمجرد الانتقاد، واتباعاً لهوى

وحاصل معنى البيت :

لو ناسبت قدرَه في العظم آياته ومعجزاته لكان الإحياء المذكور منها ، لأنها أعظم آية منها ، وبه تناسب آياته قدره صلى الله عليه وآله وسلم ، عِظَماً .

ومن جملة آياته المذكورة : القرآن ، لكن بمعنى اللفظ المنزل للإعجاز ، إذ هو من معجزاته بهذا دون مدلوله القديم القائم بذاته تعالى .

ثم أشار الناظم رحمه الله تعالى إلى مزيد رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بأمته فقال : -

---

النفس والشيطان وأقران السوء من بني الإنسان ، ليفسدوا على المسلم عقيدته في سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم ، والوقوع في أعراض الأئمة من العلماء والصلحاء من السلف والخلف ، . . . وقد وقع في هذا الزلل كثير من طلبة العلم ، وأشباه العلماء رسل الشيطان الذي أضلهم الله على علم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فما وجدوا مناسبة للوقيعة بهذا الإمام الجليل والافتراء عليه إلا ونشروا فيها أفكارهم الفاسدة ليبعدوا الناس عن صلحاء الأمة وأهل الفضل فيها بحجج واهية ، وأدلة فاسدة ما أنزل الله بها من سلطان ، زينها لهم عقل فاسد ، ونفسٌ فتّانة ، وقلب قاس ، وشيطان مبغض لحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فانتبه يا أخي إلى هذا الكلام وكن على حذر مما يدسّه هؤلاء ، وإياك إياك من مجالستهم ومجالسة أمثالهم من أهل الزيغ والفتنة ، والبعد عن محبة الله ورسوله ، وأوليائه الصالحين فيصيبك غبار من غبارهم .

عافانا الله وإياك مما ابتلاهم ، ونسأل الله لنا وللمسلمين الهداية من كل ضلال ، والحفظ من شياطين الإنس والجان ، بجاه سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم .

«٤٧» لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَا الْعُقُولُ بِهِ
حِرْصًا عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

لَمْ يمتحنَا

أي: لم يختبرنا.

بما تعيا العقُولُ به

أي: بما لم نهتدِ لفهمه، لخفائه عليها. والعيُّ: التعب. والعقول: جمع عقل، وهو لغة: المنع. وقال الشيخ أبو إسحاق: إنَّ العقلَ صفةٌ يميّز بها بين الحسن والقبيح. وهو معنى قول الشافعي رضي الله تعالى عنه: إنه آلة التمييز، ومحلُّه الدماغ عند أكثر الحكماء، وبعض الفقهاء كأصحاب أبي حنيفة.

وعند بعض الحكماء وأكثر الفقهاء والمتكلمين من الشافعية وغيرهم: محلُّه القلب. ونقل عن الشافعي رضي الله عنه، وهو الصحيح.

حرصاً

أي: من أجل حرصه صلى الله عليه وآله وسلم، والحرص على الشيء: المحافظة عليه بمبالغة.

علينا

معاشر المسلمين أن لا نضلَّ.

فلم نرتبْ

أي: نشُكَّ فما أتانا به من أجل ذلك.

ولم نهِم

فيه، بل نظنُّه أو نتيقَّنه، فلقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يضرب الأمثال بالمحسوسات ليتَّضح ما يخفى على بعض النَّاس إدراكُه، حرصاً على هدايتهم. وقيل: المراد: لم يكلِّفنا بما تعجز أرباب العقول عن الإتيان به، كوجوب قرض محل النجاسة، ووجوب قتل النفس في التوبة من المعاصي، وغير ذلك مما وقع للأمم السالفة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بعِثتُ بالحنيفية السَّمحة»(٢).

---

(١) سورة الأنبياء – الآية ١٠٧.

(٢) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني بُعِثْتُ بالحنيفية السمحة».

رواه الديلمي عن عائشة رضي الله عنها في حديث الحبشة ولعبهم ونظر عائشة إليهم بلفظ: "لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وإني بعثت بالحنيفية السمحة". ورواه أحمد بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: «ليعلم يهود أني أرسلت بالحنيفية السمحة»، وفى الباب عن أُبَيّ وجابر وابن عمر وأبي هريرة وغيرهم، وترجم البخاري في صحيحه بلفظ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»، ورواه في الأدب المفرد عن ابن عباس بلفظ: "قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأديان أحب إلى الله ؟ قال: «الحنيفية السمحة»، وقال النجم وحديث ›

ثم أشار الناظم إلى ما خصّ الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من الصِّفات العليَّة، والسمات السنية، فقال: -

* * *

جابر أخرجه الخطيب بلفظ: "بعثت بالحنيفية السمحة"، وقال النجم: وحديث جابر أخرجه الخطيب بلفظ: "بعثت بالحنيفية ومَن خالف سنتي فليس مني". انظر: كشف الخفاء للإمام العجلوني - حرف الهمزة مع النون - الحديث رقم: ٦٥٨ .

«٤٨» أَعْيَا الْوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى
فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَحِمِ

أعيا الوَرى

أي: أعجز الخلقَ جميعاً من إنسٍ وجنٍّ وملَك.

فَهْمُ معناهُ

أي: إدراكُ جميع كمالاته صلى الله عليه وآله وسلم، الظاهرة والباطنة، على طريق التفصيل[1].

(١) ومن هنا قال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: والله ما عرفنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا كما يعرف السيف في غمده. وكذا ما عبر عنه سيدنا أويس القرني رضي الله عنه ونفعنا بمحبته حيث قال لصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والله ما عرف حقيقة رسول الله إلا الله، فقالوا: ولا أبو بكر؟ قال: ولا أبو بكر. قالوا: ولا عمر؟. قال: ولا عمر، ما عرف حقيقة رسول الله إلا خالقه أو كما قال رضي الله عنه.

فجمال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من أن يتسع له شبح الجسد، وكذا جلاله، فهو صلى الله عليه وآله وسلم "نور" كما سماه خالقه في كتابه العزيز حيث قال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾.

فالنور: هو حضرة مولانا وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والكتاب المبين: هو القرآن الكريم.

فَلَيسَ

من أراد فهم معناه تفصيلاً : -

يُرى

أي : يعلم .

في

حالَتَي : -

القُربِ

منه صلى الله عليه وآله وسلم ، بالقياس لمن شاهده ، وشاهد كمالاته ، وعظيم آياته ومعجزاته[1] .

والبُعدِ منهُ

صلى الله عليه وآله وسلم ، بالقياس لمن نقلت إليه أخباره الدَّالَّة عِلى عليٍّ ذاته ، وجميل صفاته[2] .

(١) كالصحابة رضي الله عنهم .

(٢)كمن أتى بعده من المسلمين والمؤمنين المحبين لحضرة جنابه صلى الله عليه وآله وسلم . جعلنا الله ممن يراه صلى الله عليه وسلم يقظة ومناماً ومن قال : آمين .

غيرُ مُنفَحِمِ

أي: عاجز عن إدراك كمالاته صلى الله عليه وآله وسلم، بالكنه، وعلى طريق التفصيل، إذ لا يفي مخلوقٌ بذلك لكثرتها جداً.

ثم شبَّه الناظم رحمه الله تعالى - النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم - بالشَّمس فقال: -

* * *

«٤٩» كَالشَّمسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ
صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

كالشَمسِ تظهرُ للعينَينِ

ظُهوراً حِسيّاً.

من بُعُدٍ

حالة كونها :-

صَغيرةً

أي: قدر التُرسِ، أو المرآة. وضم عين: "بُعُد" لغةٌ تقدَّم الكلام عليها في: "عُقُم"[1].

وتَكِلُّ

أي: تُتعِبُ

الطَرفَ

أي: الباصرة[2].

---

(١) عند شرح البيت رقم ٢٦، قول الناظم رضي الله عنه: "لقد نسبت به نسلاً لذي عقم"

(٢) أي: العين.

بفتح أوَّليه، أي: قرب.

وسميت شمساً لبعدها وسرعتها في سيرها، ومحلُّها الفَلَك الرابع، وذلك لأنها لكبر جرمها في الواقع، وشدة نورها، وسطوع شعاعها، تكاد تخطف الأبصار، وتعميها.

وقد اختلف العلماء في مقدار جِرمها: فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كقدر الدنيا. وقال الثعالبي: إنه كقدر الدنيا مائة وعشرين مرة.

وذهب علماء الهيئة: إلى أنه كقدر الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، والله أعلم بحقيقة الحال(١).

(١) جاء في الموسوعة العربية العالمية - المجلد الرابع عشر - صفحة ٢٤٦ - مادة الشمس: "الشمس كرة هائلة من الغاز المتوهج في وسط المجموعة الشمسية، وتدور الأرض مع ثمانية كواكب أخرى حولها. يبلغ قطر الشمس أي المسافة بين طرفيها مارة بالمركز - ١٫٣٩٣٫٠٠٠ كيلو متر. وهو ما يعادل قطر الأرض ١٠٩ مرات. ولما كانت الشمس تبعد عن الأرض بمسافة قدرها ١٥٠ مليون كيلو متر، فهي لا تظهر لنا أكبر من القمر، ويبلغ قطر الشمس ٤٠٠ ضعف قطر القمر، كما أن بعدها عن الأرض يصل إلى ٤٠٠ ضعف بُعدها عن القمر. فلو أننا تخيَّلنا الشمس في حجم ناطحة سحاب مثلاً، تبدو الأرض في حجم الإنسان، ويبدو القمر في حجم حيوان صغير يقف بجواره، ويظهر المشتري أكبر كواكب المجموعة الشمسية في حجم مبنى صغير، بينما يبدو أقرب نجم منا في حجم ناطحة سحاب، ولكنها على بعد يصل ١١ مليون كيلو متر!!!!.. فسبحانك يا مالك الملك، يا خالق، يا الله.... سبحانك عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك.

والمعنى: كما أنَّ الشمسَ - وإن شوهدت - لا تُدرك بكمالها، كذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وإن شوهد - لا يدرك معناه بكماله؛ بل لا يدرك، من كلٍّ إلا القدر اليسير والنزر القليل.

ثم أشار الناظم إلى ما هو كالعلة لذلك: -

* * *

«٥٠» وَكَيفَ يُدرِكُ في الدُّنيا حَقيقَتَهُ
قَومٌ نِيامٌ تَسَلَّوا عَنهُ بِالحُلُمِ

وكيف

أي: على أي حال؟: –

يُدركُ في

دارِ: –

الدُّنيا

التي هي حجابٌ عظيم بين الأرواح ومعارفها لأنصباب الأرواح في قوالب الأجسام المظلمة.

حقيقتَهُ

صلى الله عليه وآله وسلم؛ من كمالاته الظاهرة والباطنة، بالكنه[1] وعلى طريق التفصيل:

قومٌ

في الدنيا: –

---

(١) الكُنْهُ، بالضم: جَوْهَرُ الشيءِ، وغايَتُه، وقَدْرُه ووَقْتُه، ووجْهُه. واكْتَنَهَهُ وأكْنَهَهُ: بَلَغَ كُنْهَهُ.

نيامٌ

أي: غافلون كالنيام.

كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الناس نيام؛ فإذا ماتوا انتبهوا»[1]

تسلَوا عنه

أي: قنعوا عن إدراك كُنه معناه صلى الله عليه وآله وسلم.

بالحُلُمِ

أي: بالشيء اليسير الذي أدركوه منه في الدنيا إما بالعيان، وإما بالبيان الشبيه بما يراه النائم. وأما في الآخرة فيظهر لجميع الخلائق كمالُ معناه، وتمام حقيقته. ولام "الحُلُم" أصلها السكون، وضمّها لغة تقدَّمت في "العُقُم".

ثم أشار الناظم إلى ما هو كالنتيجة لما سبق، فقال: -

---

(١) حديث: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

هو من قول سيدنا علي بن أبي طالب لكن عزاه الشعراني في الطبقات لسهل التستري، ولفظه في ترجمته، ومن كلامه: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وإذا ماتوا ندموا وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم"، انتهى.

انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني - حرف النون. الحديث رقم: ٢٧٩٥.

«٥١» فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ
وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمِ

فمبلَغُ العلْمِ

أي: مكان بلوغه، والوصول إلى غايته. والعلم هنا بمعنى الإدراك.

فيهِ

أي: في النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والظرف إما صفة للعلم، أو حالٌ منه.

أَنَّهُ

صلى الله عليه وآله وسلم: -

بشرٌ

أي: إنسان، وسمي الإنسان بشراً لبُدوِّ بشرته، وظهور جلدته.

وأنَّهُ خيرُ خَلْقِ الله

أي: أفضل جميع مخلوقاته إنساً وجِنّاً، ومَلَكاً. وأصلُ خير: أخير.

كلِّهِمِ

توكيد.

وهذا البيت كما قال الزركشي من أحسن أبيات القصيدة، وأمدحها.

ثم الدلائل الدالة على أفضليته صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الخلق كثيرة شهيرة؛

منها: قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1].

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[2].

ثم أشار الناظم إلى بيان وجه خيريّته صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الخلائق في قوله: -

---

(١) سورة الأنبياء - الآية ١٠٧ .

(٢) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا سيدُ ولدِ آدم يوم القيامة) .

رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة من حديث، وهو عند أحمد والترمذي، وابن ماجه عن أبي سعيد في حديث بزيادة: " ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض، ولا فخر، وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر" . وعند الترمذي عن أنس: " أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأكسى حُلة من حُلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري" . وفي الفتوحات للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله عنه - في الباب العاشر ما نصه: اعلم أنه ورد في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أنا سيد ولد آدم ولا فخر - بالراء، وفي رواية بالزاي وهو التبجح بالباطل انتهى فاعرفه. انظر: كشف الخفاء للإمام العجلوني - الحديث رقم: ٦١٦ .

«٥٢» وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الْكِرَامُ بِهَا
فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

وكُلُّ آيٍ

جمع: "آية" بمعنى: المعجزة والكرامة.

أتى

أي: جاء:-

الرُسلُ الكرامُ

على ربِّهم.

بها

أي: بتلك الآي.

فإنَّما

هي أداة حصر، وأدخل عليها الفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط.

اتَّصلَت

أي: بتلك الآي، وهاتيك الكرامات التي هي أنوار يهتدى بها إلى سائر الكمالا
لسائر المخلوقات.

واقتصر الناظم على معجزات الرُّسُل، لأنها أساس كمالات أشرف الخلق.

من نُوره

صلى الله عليه وآله وسلم، أي كمالات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، منحه الله بها.

بهم

أي: وصلت منه إليهم بطريق الاستمداد، وذلك لأنَّ نورَه صلى الله عليه وآله وسلم كان مخلوقاً قبل آدم صلوات الله وسلامه عليه، بل قبل سائر المخلوقات من السماوات وما فيها، والأرض وما عليها، وغير ذلك، كما دلَّت عليه الأخبار الصحيحة، والنصوص الصريحة[1]، ثم انتقل إلى آدم وحواء، وهكذا إلى كل صُلب طيِّب، ورَحِم طاهر، مصفًّى مهذَّباً، طاهراً، طيباً، إلى أن وصل إلى [سيدنا]عبد الله و[سيدتنا]آمنه.

---

(١) ففي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (أول ما خلق اللهُ نورُ نبيك يا جابر). رواه عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله بلفظ قال: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء. قال: يا جابر، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقُدرة حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا مَلَكٌ ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنِّيٌ ولا إنسي، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسَّم ذلك النور أربعة أجزاء؛ فخلق من الجزء الأول: القلم، ومن الثاني: اللوح، ومن الثالث: العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء؛ فخلق من الجزء الأول: حَمَلَة العرش، ومن الثاني: ›

. . . .

الكرسي، ومن الثالث: باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء؛ فخلق من الأول: السماوات، ومن الثاني: الأرضين، ومن الثالث: الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء؛ فخلق من الأول: نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني: نور قلوبهم وهي المعرفة بالله، ومن الثالث: نور إنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله). الحديث. كذا في المواهب.

وقال فيها أيضا: واختُلف هل القلم أول المخلوقات بعد النور المحمدي أم لا؟. فقال الحافظ أبو يعلى الهمداني: الأصح أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قدَّر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، فهذا صريح في أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، فحديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: "أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، فقال رب وما أكتب؟ قال اكتب مقادير كل شيء" رواه أحمد والترمذي وصححه.

وروى أحمد والترمذي وصححه أيضاً من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً: إن الماء خلق قبل العرش.

وروى السدي بأسانيد متعددة (إن الله لم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء)، فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور النبوي المحمدي والماء والعرش انتهى.

وقيل: الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه، أي: "أول ما خلق الله من الأنوار نوري" وكذا باقيها.

وفي أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام» انتهى ما في المواهب.

«٥٣» فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا
يُظْهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

فإنَّهُ

صلى الله عليه وآله وسلم.

شمسُ فضْلٍ

أي: كماله كالشمس في كمال الإضاءة، وشدة الإنارة.

هُمْ

أي: الرسل الكرام.

تنبيه: قال الشبراملسي ليس المراد بقوله: "من نوره" ظاهره من أن الله تعالى له نور قائم بذاته لاستحالته عليه سبحانه وتعالى. لأنَّ النور لا يقوم إلا بالأجسام، بل المراد خلق من نور مخلوق له قبل نور محمد، وأضافه إليه تعالى لكونه تولى خلقه، ثم قال: ويحتمل أن الإضافة بيانية، أي خلق نور نبيه من نور هو ذاته تعالى لكن لا بمعنى أنها مادة خلق نور نبيه منها، بل بمعنى أنه تعالى تعلقت إرادته بإيجاد نور بلا توسط شيء في وجوده، قال وهذا أولى الأجوبة نظير ما ذكره البيضاوي في قوله تعالى ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ حيث قال: أضافه إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنه خلقٌ عجيب وأن له مناسبة إلى حضرة الربوبية انتهى ملخصاً.

كواكِبُها

أي: كواكب شمس فضله صلى الله عليه وآله وسلم.

يُظهِرنَ

أي: تلك الكواكب.

أنوارَها

أي: أنوار شمس فضله صلى الله عليه وآله وسلم.

للنَّاس في الظُّلَمِ

أي: في أزمنة الجهل والضلالات الشبيهة بالظُّلَم.

وحاصل المعنى: أن نسبة أنوار الرسل الكرام إلى نوره صلى الله عليه وآله وسلم - كنسبة أنوار الكواكب الليلية - من قمرٍ وغيره - إلى نور الشمس، بجامع أن الأول يستمدٌّ من الثاني، وأنَّ نوره[1] مستفادٌ من نوره، وذلك أن الكواكب الليلية على ما تقرَّر في الهيئة[2] أجرامٌ غير مضيئة في ذواتها، لكنها صَقلَةٌ تقبل الضوء. وجِرمُ الشمس أكبر من جِرم الأرض، فإذا غابت الشمس تحت الأرض فاضت أنوارها عن جوانب الأرض، فيطلب الصعود لكونه نورانياً إلى جهة العلو، فيصادف أجرام الكواكب الصقيلة المقابلة، فيرتسم فيها، فتضيء في الظلمة وتظهر أنوار الشمس

(١) أي القمر.

(٢) أي في علم الفلك، ويطلق عليه: علم الهيئة.

للناس في الليل المظلم من غير أن ينقص من نور الشمس شيء، وكما أن الشَّمس أفضلُ من الكواكب فنبينا صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الرسل، وكما أنَّ الشَّمسَ إذا بدت لم يبقَ للكواكب نورٌ، كذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لما بدا لم يبقَ لأحدٍ من الرسل شريعة، بل نسخت شريعتُه جميعَ شرائعهم، ومحا نورُه لسائر أنوارهم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم سلطانُهم الأكبر، ورئيسُهم الأفخر، وجنسهم العالي الأظهر، فصلى الله عليه وآله وسلم علَم الرسالة، وتاج النبوّة. صلى الله عليه وآله وسلم وشرَّف وكرَّم.

ولما ذكر الناظم من خَلْقه صلى الله عليه وآله وسلم وأخلاقه ما ذكر، أخذ يتعجَّب منهما ذاكراً في ضمن ذلك شيئاً من صفاته الجليَّة، وسماته الجميلة، فقال: -

* * *

«٥٤» أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ
بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالْبِشْرِ مُتَّسِمِ

أكرِمْ

صيغة التعجُّب.

بِخَلْقِ

بفتح أوَّله، وسكون ثانيه، أي: بصورةِ:-

نبيٍّ

كرَّمه الله تعالى عن سائر الخلق.

زانهُ

من "الزَّين" ضدّ الشَّين.

خُلُقٌ

بضمِّ أوَّليه، وقد يسكَّن ثانيه، أي: طَبْع. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

(١) سورة القلم - الآية رقم ٤ .

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه : «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس خلقاً»(١).

---

(١) حديث : «كان صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس خلقاً» . رواه الإمام مسلم، وأبو داود، بسندهما عن أنس. ورواه البخاري في كتاب الأدب - باب الانبساط إلى الناس، حديث رقم ٦١٢٩، ١٠/ ٥٢٦، وباب ١١٢، الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل، رقم ٦٢٠٣، ١٠/ ٥٨ - بأتم منه - عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبا عمير، قال: أحسبه فطيماً، وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير، ما فعل النغير؟، نغر كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا. ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٤٨، جواز الجماعة في النافلة، حديث رقم ٦٥٩، ١/ ٤٥٧، نحو لفظ البخاري الطويل دون قصة الصلاة. وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والواحدي عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما كان أحدٌ أحسنَ خُلُقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك، فلذلك أنزل الله تعالى ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين: أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي الدرداء قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه" . وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وصححه وابن مردويه عن أبي عبد الله الجدلي قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ . قالت: "لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح" . وأخرج ابن مردويه عن زينب بنت ›

بالحُسنِ مشتملٍ

والظرف متعلق بقوله "مشتمل"، وهو بالجر - صفةٌ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم -، أو لـ"خُلُق"، أي: صار الحسن له كالثوب، فهو مشتملٌ به، وفيه إشارة إلى أنَّ الحسنَ قد عمَّه من سائر الجهات.

بالبِشْرِ

أي: بطلاقة الوجه وبشاشته، واستنارته بالمسرّات[1] والظرف متعلّقٌ بقوله: -

---

يزيد بن وسق قالت: كنت عند عائشة إذا جاءها نساء أهل الشام، فقلن: يا أم المؤمنين أخبرينا عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: "كان خلقه القرآن وكان أشد الناس حياء من العواتق في خدرها". وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ثابت عن أنس قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سنة ما قال لي قط ألا فعلت هذا أو لم فعلت هذا". قال ثابت: فقلت يا أبا حمزة إنه كما قال الله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. وأخرج الخرائطي عن أنس قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثمان سنين فما لامني على شيء يوماً من الأيام فإن لامني لائم قال: دعوه فإنه لو قضي شيء لكان. وأخرج ابن سعد عن ميمونة قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من عندي فأغلقت دونه الباب، فجاء يستفتح الباب، فأبيت أن أفتح له، فقال: "أقسمت عليك إلا فتحت لي" فقلت له: تذهب إلى أزواجك في ليلتي؟! قال: "ما فعلت، ولكن وجدت حقناً من بولي".

(١) روى الترمذي وصححه، وابن سعد عن الحارث بن جزء رضي الله تعالى عنه قال: "ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم". وفي رواية:

مُتَبَسِّم

أي: معلِّمٍ. وبالجرّ أيضاً: صفة أخرى لـ "نَبيّ".

* * *

› «ما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا تبسماً». انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٩٠، وسنن الترمذي ٥/ ٦٠١ - ٢ "٣٦٤٢".

وروى الشيخان، وسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر عن أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: "ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستجمعاً ضاحكاً حتى تُرى لهواته، إنما كان يتبسم". انظر: صحيح البخاري ١٠/ ٥٠٤ "٦٠٩٢"، وصحيح مسلم ٢/ ٦١٦ "الحديث ١٦/ ٨٩٩".

وروى الإمام أحمد في المسند عن أم الدرداء رضي الله تعالى عنها قالت: "كان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه لا يحدث بحديث إلا تبسم فيه. فقلت: إني أخشى أن يحمقك الناس. فقال: "كان رسو ل الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحدث بحديث إلا تبسم".

انظر: مجمع الزوائد ١/ ١٣١

«٥٥» كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالْبَدْرِ فِي شَرَفٍ
وَالبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هِمَمِ

كالزَّهرِ

اسم جنس جمعي، واحده: "زهرة". والظَّرف متعلق بمحذوف صفة أخرى لـ"نبي".

في تَرَفٍ

أي: نعومة جسم ونضارته، وطيب رائحته.

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: "ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألينَ من كفٍّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"(١).

---

(١) حديث أنس رضي الله عنه: "ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شممت ريحاً قطُّ أو عَرفاً قطُّ أطيبَ من ريح أو عَرْفِ النبي صلى الله عليه وسلم". رواه البخاري في صحيحه: الجزء الثاني. ٦٥ - كتاب المناقب. ٢٠ - باب: صفة النبي صلى الله عليه وسلم. الحديث رقم: ٣٣٦٨. ومسلم في: الفضائل، باب: طيب رائحة النبي صلى الله عليه وسلم ولين مسه..، رقم: ٢٣٣٠. وقوله: "ديباجا" هو نوع من الثياب المصنوعة من الحرير الخالص. و"عَرفا" أي: ريحا.

والبدر

أي: القمر ليلة كماله(١). وهو معطوفٌ على "الزهر".

---

(١) روى البيهقي عن أم معبد رضي الله عنها قالت: كان رسو ل الله صلى الله عليه وآله وسلم أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب. وقال جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة إضحيان وعليه حُلَّةٌ حمراء؛ فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو أحسن في عيني من القمر". رواه الترمذي والنسائي. وقال البراء رضي الله تعالى عنه: "ما رأيت من ذي لِمَّةٍ في حلَّةٍ حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم". رواه مسلم وأبو داود.

وقال طارق بن عبيد رضي الله تعالى عنه: أقبلنا ومعنا ظعينةٌ حتى نزلنا قريباً من المدينة، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقالت الظعينة: ما رأيت وجهاً أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه صلى الله عليه وآله وسلم". رواه إبراهيم بن إسحاق الحربي في غريبه، وأبو الحسن بن الضحاك في الشمائل، وابن عساكر. وقال أبو إسحاق الهمداني لامرأة حجَّت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: شبهيه لي. قالت: كالقمر ليلة البدر، ولم أرَ قبله ولا بعده مثله". رواه يعقوب بن سفيان.

وقال أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر للرُّبَيِّع بنت معوّذ رضي الله تعالى عنها: صفي لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال: يابنيّ... لو رأيته لقلت: الشمس طالعة!". رواه الدارمي. قال الطيبي رحمه الله تعالى: قولها: "لقلت الشمس طالعة" أي: لرأيت شمساً طالعةً، جرَّدت من نفسه الشريفة شمساً وهي هي، نحو قولك: لئن لقيته لتلقين أسداً، وإذا نظرت إليه لم تر إلا أسداً. ومنه قول أبي نواس:

يزيدك وجههُ حُسناً إذا ما زدتَه نظراً

في شرفٍ

وشرف البدر على سائر الكواكب الليلية كشرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الرسل[1] .

والبحرِ

عطفٌ على "الزهر" أو "البدر" .

في كَرَمِ

حال من "البحر" . فعن أنس رضي الله عنه : " ما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً إلا أعطاه، ولقد سأله رجلٌ غَنَماً بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال : يا قوم أسلموا، فو الله إن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر "[2] .

---

(١) واعلم رحمني الله وإياك أن الله سبحانه وتعالى أنشأ النفوس مختلفة، فمنها الغاية في جودة الجوهر، ومنها المتوسط، ومنها الكَدِر. وفي كل مرتبة درجات، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هم الغاية، خلقت أبدانهم سليمة من العيب، فصلحت لحلول النفس الكاملة، ثم يتفاوتون، فكان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أصلح الأنبياء مزاجاً، وأكملهم بدناً، وأصفاهم روحاً، كما عرف ذلك من معرفة صفاته الكريمة التي مرت وسيمر بعضها إن شاء الله تعالى.

(٢) مر تخريجه عند شرح البيت ,٣٨ ولله درُّ الفرزدق حيث قال : [شعر]

ما قال لا قطُّ إلا في تشهُّده　　　لولا التشهُّدُ كانت لاؤه نعمُ

وروى البخاري وابن ماجة، وابن سعد، والطبراني بسندهم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ جَاءَتْ امْرَأَةٌ بِبُرْدَةٍ قَالَ سَهْلٌ هَلْ تَدْرِي مَا الْبُرْدَةُ قَالَ نَعَمْ هِيَ الشَّمْلَةُ مَنْسُوجٌ فِي حَاشِيَتِهَا ›

. . . .

قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّه إِنِّي نَسَجْتُ هَذه بِيَدِي أَكْسُوكَهَا فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ مُحْتَاجاً إِلَيْهَا فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا لإِزَارُهُ فَجَسَّهَا رَجُلٌ مِنْ القَوْمِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه اكْسُنِيهَا قَالَ نَعَمْ فَجَلَسَ مَا شَاءَ اللَّهُ فِي الْمَجْلِسِ ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْه فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ مَا أَحْسَنْتَ سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لا يَرُدُّ سَائِلاً فَقَالَ الرَّجُلُ وَاللَّه مَا سَأَلْتُهَا إِلا لِتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ قَالَ سَهْلٌ فَكَانَتْ كَفَنَه .

وعَنْ أَنَس بْن مَالك رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أُتيَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بِمَال مِنْ الْبَحْرَيْنِ فَقَالَ انْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِد وَكَانَ أَكْثَرَ مَال أُتيَ بِه رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِلَى الصَّلاة وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْه فَلَمَّا قَضَى الصَّلاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْه فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلا أَعْطَاهُ إِذْ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه أَعْطني فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسي وَفَادَيْتُ عَقيلا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ خُذْ فَحَثَا فِي ثَوْبِه ثُمَّ ذَهَبَ يُقلُّهُ فَلَمْ يَسْتَطعْ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه اؤْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إِلَيَّ قَالَ لا قَالَ فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ قَالَ لا فَنَثَرَ مِنْهُ ثُمَّ ذَهَبَ يُقلُّهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه اؤْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ قَالَ لا قَالَ فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ قَالَ لا فَنَثَرَ مِنْهُ ثُمَّ احْتَمَلَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى كَاهله ثُمَّ انْطَلَقَ فَمَا زَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا عَجَبًا مِنْ حِرْصِه فَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَم .

انظر : صحيح البخاري ، الجزء الثاني ٦٢ - أبواب الجزية والموادعة ٤ - باب : ما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين ، وما وعد من مال البحرين والجزية ، ولمن يقسم الفيء والجزية . وجدت الكلمات في الحديث رقم : ٢٩٩٤ .

وروى البزار وغيره عن سيدنا عمر بن الخطاب قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " ما عندي شيء أعطيك ولكن استقرض حتى يأتينا شيء فنعطيك " .

والدَّهر

أي: الزمان، بمعنى أهله.

في همم

جمعُ "همَّة"، وهي قوَّةُ العزم. والمعنى: أنَّ كلَّ همَّةٍ من هممه صلى الله عليه وآله وسلم كهمَمِ أهل الدَّهر، بل أعلى، وأجلُّ.

كما قال سيدنا حسان بن ثابت في مدحه صلى الله عليه وآله وسلم:

له هممٌ لا منتهى لكبارهـــا   وهمته الصغرى أجلُّ من الدَّهـــر

له راحةٌ لو أن معشار جودها   على البرِّ كان البَرُ أندى من البحر

وبالجملة: فهمَّته صلى الله عليه وآله وسلم أعلى الهمَم:

فمنها: كفُّه صلى الله عليه وآله وسلم بغلةً يوم حُنَين قِبَل الكفار حين فرَّ الناس عنهم إلى أن هزم الكفار بحصيات رماهم بها، وهو يقول:

فقال عمر: ما كلفك الله هذا، أعطيت ما عندك، فإذا لم يكن عندك فلا تكلف. قال: فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قول عمر رضي الله عنه حتى عرف في وجهه. فقال الرجل: يارسول الله بأبي وأمي أنت، فأعط ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، قال: فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "بهذا أمرت".

انظر: مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي - المجلد العاشر. ٤١. كتاب الزهد. ٢٢. باب في الإنفاق والإمساك. الحديث رقم: ١٧٧٧٩.

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

كما في "مسلم"(١).

وروى مسلمٌ عن البراء: "كنا والله إذا احمرَّ البأسُ نتَّقي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"(٢). ثم أشار الناظم إلى كمال هيبته صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: -

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجهاد والسير. باب في غزوة حنين. وأخرجه أيضاً: عبد الرزاق، وابن سعد، وأحمد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه: عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) روى مسلم في صحيحه قال: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْبَرَاءِ. فَقَالَ: أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ- يَا أَبَا عُمَارَةَ!- فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللَّه صلى الله عليه وسلم مَا وَلَّى، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ، وَحُسَّرٌ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ، فَرَمَوْهُمْ بِرِشْقٍ مِنْ نَبْلٍ، كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ، فَانْكَشَفُوا. فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ. فَنَزَلَ، وَدَعَا، وَاسْتَنْصَرَ، وَهُوَ يَقُولُ:

"أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ"

اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ". قَالَ الْبَرَاءُ: كُنَّا، وَاللَّه إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم. انظر: صحيح مسلم. الجزء الثالث. ٣٢ - كتاب الجهاد والسير. ٢٨ - باب في غزوة حنين. الحديث رقم: ٧٩ - (١٧٧٦). وروى أحمد في مسنده بسنده عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه".

* * *

انظر : مسند الإمام أحمد - المجلد الأول . مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وروى الطبراني عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما سئل عن موقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر قال : " كان أشدُّنا من حاذى ركبته صلى الله عليه وآله وسلم " .

تنبيه : قال القاضي عياض رضي الله عنه ، وغيره : من زعم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هزم يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . ولا يجوز ذلك عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ هو على بصيرة من أمره ، ويقين من عصمته .

وفرّقوا بينه وبين من قال : إنه جرح ، أو أُوذي بأن الإخبار عن الأذى نقص لا يحسب عليه ، والإخبار بالانهزام نقص له صلى الله عليه وآله وسلم لأنه فعله ، كما أن الأذى فعل المؤذي .

«٥٦» كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ جَلَالَتِهِ
فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ

كأنَّهُ

صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو فَرْدٌ

أي: حالة كونه منفرداً عن الأعوان والأتباع:-

من

أجل:-

جلالَتِه

ومعنى "من" على التعليل، وأما في رواية "في"؛ فمعناه سببية، أو ظرف.

في عَسْكَرٍ

أي: جيشٍ عظيم، كثيرٍ، خاصٍّ به.

حين تلقاهُ

بديهةً.

وفي حشمٍ

أي: خدمٍ خاصٍّ به أيضاً.

قال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه [(١)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: " كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس وأجود الناس، وأشجع الناس" [(٢)].

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري - ٤٩ - كتاب المَنَاقِب عَنْ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم ٢٠٦٦ ،الحديث رقم: ٣٧٨٨ . و كذا سنن الترمذي (وشرح العلل)، للإمام الترمذي - المُجَلَّد الخَامس. أبواب المَنَاقِب عَن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم. ٣٨- بابٌ. في الحديث رقم: ٣٧١٨ .

(٢) انظر: صحيح البخاري، الجزء الثاني. ٦٠ - كتاب الجهاد والسير. ٢٤ - باب: الشجاعة في الحرب والجبن. الحديث رقم: ٢٦٦٥ . وروى مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَنَس بْنِ مَالك رضي الله تعالى عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ النّاس. وكَانَ أَجْوَدَ النّاس وكَانَ أَشْجَعَ النّاسِ. ولَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَة ذَاتَ لَيْلَة، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قبلَ الصَّوْت. فَتَلَقّاهُمْ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم رَاجعاً. وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَىَ الصَّوْت. وَهُوَ عَلَى فَرَس لأبي طَلْحَةَ عُرْيٍ. في عُنُقه السّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ: "لَمْ تُرَاعُوا. لَمْ تُرَاعُوا". قَالَ: "وَجَدْنَاهُ بَحْراً. أَوْ إِنّهُ لَبَحْرٌ". قَالَ: وَكَانَ فَرَساً يُبَطّأُ. انظر: صحيح مسلم. الجزء الرابع. ٤٣- كتاب الفضائل. (١١) باب في شجاعة النبي عليه السلام، وتقدمه للحرب. الحديث رقم: ٤٨- (٢٣٠٧). وعند البخاري ٥/ ٢٤٠(٢٦٢٧و٣٠٣٣). والإمام أحمد في المسند ٣/ ١٤٧و٢٦١ . وروى مسلم بسنده عَنِ ابْنِ شِهَاب قَالَ: حَدّثَني كَثِيرُ ›

بْنُ عَبّاس بْن عَبْد المُطّلب قَالَ: قَالَ عَبّاسٌ: "شهدْتُ مَعَ رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم يَوْمَ حُنَيْن. فَلَزِمْتُ أنَا وأبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارث بْن عَبْد المُطّلب رَسُولَ اللّه صلى الله عليه وسلم، فَلَمْ نُفَارِقْهُ، ورَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم عَلَى بَغْلَة لَهُ، بَيْضَاءَ، أهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الجُذَاميّ، فَلَمّا التَقَى المُسْلمُونَ وَالكُفّارُ، وَلّى المُسْلمُونَ مُدْبرينَ، فَطفَقَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قبَلَ الكُفّار.

قَالَ عَبّاسٌ: وَأنَا آخذٌ بلجَام بَغْلَة رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم. أكُفّهَا إرَادَةَ أنْ لاَ تُسْرعَ، وأبُو سُفْيَانَ آخذٌ بركَاب رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم.

فَقَالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: "أيْ عَبّاسُ! نَاد أصْحَابَ السّمُرَة".

فقَالَ عبّاسٌ (وكَانَ رَجُلاً صَيّتاً): فَقُلْتُ بأعْلَى صَوْتي: أيْنَ أصْحَابُ السّمُرَة؟.

قَالَ: فَوَاللّه لكَأنّ عَطْفَتَهُمْ، حينَ سَمعُوا صَوْتي، عَطْفَةُ البَقَر عَلَى أوْلاَدهَا. فَقَالُوا: يَا لَبّيْكَ! يَا لَبّيْكَ! قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالكُفّارَ، وَالدّعْوَةُ في الأنْصَار، يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الأنْصَار! يَا مَعْشَرَ الأنْصَار! قَالَ: ثُمّ قُصرَت الدّعْوَةُ عَلَى بَني الحَارث بْن الخَزْرَج. فَقَالُوا: يَا بَني الحَارث بْن الخَزْرَج! يَا بَني الحَارث بْن الخَزْرَج!.

فَنَظَرَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم وَهُوَ عَلَى بَغْلَته، كَالمُتَطَاول عَلَيْهَا، إلَى قتَالهمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: "هَذَا حينَ حَميَ الوَطيسُ".

قَالَ: ثُمّ أخَذَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم حَصَيَات فَرَمَى بهنّ وُجُوهَ الكُفّار، ثُمّ قَالَ: "انْهَزَمُوا، وَرَبّ مُحَمّد".

قَالَ: فَذَهَبْتُ أنْظُرُ فَإذَا القتَالُ عَلَى هَيْئَته فيمَا أرَى. قَالَ: فَوَاللّه مَا هُوَ إلاّ أنْ رَمَاهُمْ بحَصَيَاته، فَمَا زلْتُ أرَى حَدّهُمْ كَليلاً وَأمْرَهُمْ مُدْبراً.

انظر: صحيح مسلم. الجزء الثالث. ٣٢ - كتاب الجهاد والسير٢٨, - باب في غزوة حنين - الحديث رقم: ٧٦ - (١٧٧٥)

«٥٧» كَأَنَّمَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ
مِنْ مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَمِ

كأنَّما اللُّؤلُؤُ

كأنَّ: حرف تشبيه. وما: إما زائدة غير كافّة للعمل؛ فـ"اللُّؤلؤ" منصوب على أنه اسم لها. وإما: كافَّة العمل، فهو مرفوعٌ علَى الابتداء. واللُّؤلؤ: صغار الجوهر المعروف. وأما كباره قدر: -

المَكنونِ

صفة اللُّؤلؤ، أي: المصون. من "كَنَّه" ستره، ومنه: "الكنُّ" للمكان الذي يستتر فيه.

في صَدَفٍ

متعلّق بـ"المكنون". واللُّؤلؤ المكنون في صدفه أحسن منه في غيره لكونه في معدنه مصاناً عن الغبار والحرّ والبرد، وتناول الأيدي، مما عساه أن يضرَّ به، وهذ الجوهر يتكوَّن في حيوان بحري لعلوِّ لحمه صدفتان ملتزقتان بجسمه، والذي يلي الصدفتين من لحمه أسود، ولهذا الحيوان فمٌ وأذنان.

من مَعدِنَي منطقٍ

أي: كلام. والمعدن: من "عدنت بالبلد" إذا أقمت به. وعدنت الإبل مكان كذا:

لزمته فلم تبرح عنه. ومنه: "جنات عدن". ومعدن كل شيء مركزه. والظرف خبر لـ "كأنَّ". أو للمبتدأ.

منهُ

أي: من النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والظرف صفة لمنطق.

ومبتَسم

منه صلى الله عليه وآله وسلم. أي: محل ابتسام، وهو الثغر.

والابتسام - ويقال: التبسُّم أيضاً - : مبادي الضحك، وهو انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السُّرور بلا صوت؛ فإن كان مع صوت لا يسمع من بُعد فهو الضحك؛ وإلا فقهقهة.

وإنما كان ضحكه صلى الله عليه وآله وسلم في غالب أمره التبسم، لجلالته ووقاره (١).

---

(١) رواه الشيخان من حديث عائشة رضي اللّه عنها قالت: «ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قط مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته، إنما كان يبتسم». وللترمذي من حديث عبدالله بن الحرث ابن جزء: «ما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسماً».

واللهوات جمع «لهاة» وهي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم، زاد يحيى بن نصر في رواية: «قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف في وجهه، فقلت: ›

والإضافه ههنا بيانية . وهذا التشبيه عكس ما هو المتعارف من تشبيه الثغر والكلام المليحين باللُّؤلؤ . وعدل عنه الناظم إلى ما ذكره مبالغة في المدح، بل هو في الحقيقة من تشبيه الأدنى بالأعلى؛ إذ من المعلوم أن كلامه وثغره صلى الله عليه وآله وسلم أجلُّ وأعلى في كمال الإضاءة، وتمام البريق، وغاية الحسن، ونهاية الملاحة من اللؤلؤ المكنون في صدفه . ففي حديث أم معبد : " كان ﷺ حلو المنطق فصلاً، لا نزراً ولا هذرا، كأنَّ منطقه خرزات نُظمن "(1) وحكي أن بعض الناس رأى في منامه أنَّ الصدِّيق يزفُّ النبي ﷺ بهذا البيت والذي قبله .

ثم أخذ الناظم بمدح تربته التي دفن فيها ﷺ فقال :-

يا رسول الله . . . الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية . قال : يا عائشة، وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد أتى قوماً العذاب، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾ (سورة الأحقاف : ٢٤).

أخرجه البخاري في كتاب التفسير، وفي كتاب الأدب باب التبسم والضحك، ومسلم في كتاب الاستسقاء باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والإمام أحمد في المسند ٦ / ٦٦ .

(١) حديث أم معبد وفيه : " كان نزر الكلام، سمح المقالة، إذا نطق ليس بمهذار، وكأن كلامه خرزات نظم " . أخرجه الطبراني من حديث أم معبد : " وكان منطقه خرزات نظم ينحدرن، حلو المنطق، لا نذر ولا هذر " . وفي حديث عائشة : "كان إذا تكلم تكلم نزرا " ، وفي الصحيحين من حديث عائشة : " كان يحدثنا حديثا لو عَدّه العادّ لأحصاه " . انظر : تخريج أحاديث الإحياء، للحافظ العراقي - المجلد الثاني - كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة. الحديث رقم : ٩ .

«٥٨» لَاطِيبَ يَعْدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظُمَهُ
طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ

لا طيبَ

في الوجود: -

يعدلُ تُربا

أي: يساوي تراباً في طيب الرائحة.

ضَمَّ

أي: جمع ذلك التراب.

أعظُمَهُ

أي: بدنه الشريف، واقتصر على العظام لأنها أعمدة البدن؛ بل ذلك التراب أفضل وأجلُّ من كل طيب لكونه قد اشتمل على بدنه الشريف[1]؛ فعن أنس رضي

---

(١) والبقعة الشريفة التي ضمت جسده الشريف صلى الله عليه وسلم، هي أجلُّ وأشرف بقعة في الكائنات، وهي كما قال العلماء أشرف وأجلُّ من الكعبة نفسها، وأفضل من الأرض والسموات وما فيها وأفضل من العرش والكرسي لأنها بقعة ضمت جسد سيد الكائنات حبيب رب الأرض والسماوات، حبيب رب العالمين صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم ووالى عليه وأنعم.

الله عنه: «ما شممتُ عنبراً ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيبَ من ريح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» رواه الشيخان(١).

وأنشأت فاطمة رضي الله عنها بعد موت أبيها صلى الله عليه وآله وسلم "شعراً": -

---

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن سيدنا أنس قال: " مَا شَمِمْتُ عَنْبَراً قَطّ وَلاَ مِسْكاً وَلاَ شَيْئاً أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللّه صلى الله عليه وسلم. وَلاَ مَسِسْتُ شَيْئاً قَطّ دِيبَاجاً وَلاَ حَرِيراً أَلْيَنَ مَسّا مِنْ رَسُولِ اللّه صلى الله عليه وسلم" . انظر: صحيح مسلم. الجزء الرابع. ٤٣- كتاب الفضائل: ٢١ - باب طيب رائحة النبي صلى الله عليه وسلم، ولين مسه، والتبرك بمسحه. الحديث رقم: ٨١ . ورواه البخاري عن أنس أيضاً: انظر: فتح الباري - المجلد السادس - كِتَاب الْمَنَاقِبِ - باب صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وروى ابن عساكر عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "كأنَّ عرق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ريح المسك، بأبي وأمي، لم أر قبله ولا بعده مثله" . وروى مسلم وغيره عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي أم سليم فيقيل عندها، فتبسط له نطعاً فيقيل عليه، وكان كثير العرق، وكانت تجمع عرقه صلى الله عليه وآله وسلم فتجعله في الطيب والقوارير، فيستيقظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: ما هذا الذي تصنعين يا أم سليم؟ فتقول: هذا عرقك نجعله لطيبنا، وهو أطيب الطيب. وفي رواية قالت: " هذا عرقك أدوف به طيبي" . انظر: صحيح مسلم ٤/ ١٨١٦ الحديث رقم ٨٥ - ٢٣٣٢ .

وروى البخاري في تاريخه عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: كان في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خصال: لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحدٌ إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عَرَقه، أو عَرْفه.

ماذا على من شمَّ تربة أحمدا   أن لا يشمَّ مدى الزمان غواليا[1]

صُبَّت عليَّ مصائبٌ لو أنهـا   صُبَّت على الأيام عدن لياليـا

طُوبَى

من "الطيب"، قلبت ياؤها واواً، كـ"موقن، وموسر"، وقيل: طوبى: اسم للجنة. وقيل لشجرة فيها[2]. وهي مبتدأ.

لِمُنتَشِقٍ

بأنفه.

منه

أي: من ذلك التراب.

ومُلتَثِمٍ

أي: معفّر منه موضع اللثام، أو معفّر منه وجهه.

---

(١) جمع غالية، وهي أطيب الطيب. فهو صلى الله عليه وسلم الذي طيَّب الطيب.

(١) وهذا مروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد أخرج أحمد وأبو يعلى، وابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك، وآمن بك. قال: طوبى لمن رآني وآمن، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني. قال رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها. انظر: الدر المنثور للإمام السيوطي ٤/ ٦٤٤؛ ومسند الإمام أحمد ٣/ ٧١. وقيل: بل إشارة إلى كل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال، وغنى بلا فقر.

وليس المراد من ملتثم معنى "مقبِّل"، لأنَّ التقبيل للقبر الشريف مكروه[1]. بل يسنُّ للزائر أن يقف بعيداً عن القبر خارج الحجرة تعظيماً له صلى الله عليه وآله وسلم.

وأشار الناظم بقوله: " طوبى لمنتشق منه وملتثم" إلى أن تربته صلى الله عليه وآله وسلم أفضل أنواع الطِّيب كلِّها، أعني ما يستعمل بطريق الشمّ كالورد والرياحين، وما يستعمل بطريق وضعه على البدن: كالمسك، والزباد[2]،

(١) قوله مكروه: أي إلا لمن غاب عن حسِّه كما قال الإمام ابن حجر نفسه في كتابه «الجوهر المنظم» قال: "وقد تغلب المحبة والشوق على بعض الناس فترفع عنه الحجب عن نظره، ويصير كالمشاهد لوجهه المكرم صلى الله عليه وآله وسلم، المماس لحبيبه، حتى يخرجه ذلك عن قياس العادات إلى حقائق المنازلات، أذاقنا الله سبحانه وتعالى ذلك والمحسنين إلينا، وذرارينا، بمنه وجوده، وكرمه، آمين. انظر: "الجوهر المنظم" للإمام ابن حجر - صفحة ١٨٣ - تحقيق كاتب السطور عفا الله عنه بمنه وكرمه، ولمن قال من قلبه مخلصاً: آمين.

(٢) قال في القاموس: الزَّبادُ: دابَّةٌ يُجْلَبُ منها الطِّيبُ، وإنما الدابَّةُ السِّنَّوْرُ، والزَّبادُ: الطِّيبُ، وهو رَشْحٌ يَجْتَمِعُ تَحْتَ ذَنَبِها على المَخْرَجِ، فَتُمْسَكُ الدابَّةُ، وتُمْنَعُ الاضْطِرابَ، ويُسْلَتُ ذلك الوَسَخُ المُجْتَمِعُ هناكَ بِلِيطَةٍ أو خِرْقَةٍ.

وماء الورد(١).

ثم أخذ الناظم بمدحه - صلى الله عليه وآله وسلم - بشرف أصوله، وشرف مولده؛ فقال: -

* * *

(١) واعلم يا أخي المسلم الحبيب المحب لهذا النبي الكريم أن طيبة ذلك التراب يحتمل أنها باعتبار ما عند الله تعالى، ويحتمل أنها باعتبار ما عند غيره أيضاً، لكن لا يدرك ذلك إلا من كُشف له الغطاء من الأولياء والصديقين المقربين؛ لأنَّ أحوال القبر من الأمور التي لا يدركها إلاّ من ذكر، فاندفع بهذا ما قد يقوله القائل: لو كان التراب المذكور من الطيب لزم أن يدرك طيبه كل أحد كالمسك فإنه يدرك طيبه - أي المسك - كل أحد. على أنه لا يلزم من قيام المعنى بمحل إدراك كل أحد لجواز انتفاء شرط أو وجود مانع، وعدم الإدراك لا يدل على انتفاء المدرك، ألا ترى أن المزكوم لا يدرك رائحة المسك؟ مع أنها قائمة!، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: (القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار).

ولا شك أن قبره صلى الله عليه وآله وسلم روضة من رياض الجنة، بل أفضلها. وقد قال أيضاً عليه الصلاة والسلام: " ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة " وكل من القبر والمنبر داخل في حكم ما بينهما، أما القبر: فللخبر العام الذي ذكر، وأما المنبر: فلقوله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر الحديث: " ومنبري على حوضي "، والحوض من الجنة، وإذا تقرر كون هذا المكان من الجنة لم يبق عند العاقل المصدق بالشريعة امتراءٌ في أنه لا طيب يعدل طيبه.

والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم، أذاقنا الله عرف ذاك الطيب بجاه مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكل من قال: آمين.

الفصل الرّابع
في مولده صلّى الله عليه وسلّم

«٥٩» أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ
يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ

أبانَ

أي: كشف.

مولِدُهُ

بكسر اللام، أي: زمان الولادة (١)، أو مكانها. أو نفس الولادة.

---

(١) **فائدة وتنبيه مهم**: واعلم يا أخي المحب أنَّ هذا المولد المبارك مولد خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل عند الله والأمة من كلٍّ اللَّيالي والأيام حتى ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن، وهذا ما رجَّحه العلماء الثقات، والأئمة الفضلاء.

وقد نقل أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي في كتابه النافع "المعيار المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب" فائدة جليلة، نقلها بتمامها - وإن طالت - في بيان أفضلية ليلة مولد سيد الوجود وحبيب الرب المعبود - صلى الله عليه وآله وسلم - على ليلة القدر، وذلك زيادة في النفع: قال رحمه الله تعالى في الجزء الحادي عشر - صفحة ٢٨٠: -

فائدة جليلة: صرح الشيخ الخطيب الحاج الرحال محمد بن أحمد بن مرزوق -رحمه الله تعالى- بإيثار ليلة مولده صلى الله عليه وآله وسلم على ليلة القدر، واحتج بمختاره في كتابه "جنى الجنتين في فضل الليلتين" بعشرين وجهاً، وها أنا أسردها بعون الله تعالى، قال:

الأول : إن الشرف هو العلو والرفعة، وهما نسبتان إضافيتان، فشرف كل ليلة بحسب ما شرفت به، وليلة المولد شرفت بولادة خير خلق الله عز وجل، فثبت بذلك اعتبار أفضليتها بهذا الاعتبار.

الثاني : إن ليلة المولد ليلة ظهوره صلى الله عليه وسلم، وليلة القدر معطاة له بحسب ما قدمناه، وما شرف بظهور ذات المشرف أشرف مما شرف بسبب ما أعطيه، ولا نزاع في ذلك، فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أشرف.

الثالث : إن ليلة القدر إحدى ما منحه من شرفت ليلة المولد بوجوده من المواهب والمزايا، وهي لا تحصى كثرة، وما شرف بإحدى خصائص من ثبت له الشرف المطلق لا يتنزل منزلة المشرف بوجوده، فظهر أن ليلة المولد أشرف بهذا الاعتبار، وهو المطلوب.

الرابع : إن ليلة القدر شرفت باعتبار ما خصت به، وهو منقض بانقضائها إلى مثلها من السنة المقبلة على الأرجح من القولين، وليلة المولد شرفت بمن ظهرت آثاره، وبهرت أنواره أبداً في كل فرد من أفراد الزمان إلى انقضاء الدنيا.

الخامس : إن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها، ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر على الأصح المرتضى، فتكون ليلة المولد أفضل من هذا الوجه وهو المطلوب.

السادس : الأفضلية عبارة عن ظهور فضل زائد في الأفضل، والليلتان معاً اشتركتا في الفضل بتنزل الملائكة فيهما معاً حسبما سبق مع زيادة ظهور خير خلق الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة المولد، ففضلت من هذا الوجه على القولين جميعاً، في المفاضلة بين الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

السابع : إن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة عليهم السلام وانتقالهم في محلهم من الأعلى إلى الأرض، وليلة المولد شرفت بوجوده صلى الله عليه وآله وسلم وظهوره،

وما شرف بالوجود والظهور أشرف مما شرف بالانتقال.

الثامن: إن ليلة القدر فضلت باعتبار عمل العامل فيها فإذا قدرت أهل الأرض كلهم عاملين فيها فلا يلحقون قدر من شرفت به ليلة المولد، ولا يلحقون عمله في لحظة وإن كان في غيرها، فثبت أفضلية المولد بهذا الاعتبار.

التاسع: شرفت ليلة القدر لكونها موهوبة لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عناية، وشرفت ليلة المولد بوجود من وهبت ليلة القدر لأمته صلى الله عليه وسلم اعتناء به، فكانت أفضل.

العاشر: ليلة القدر وقع التفضيل فيها على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وليلة المولد وقع التفضيل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله رحمة للعالمين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فعمَّت به النعمة على جميع الخلائق، فكانت ليلة المولد أعم نفعاً بهذا الاعتبار، فكانت الشرف، وهو المطلوب.

الحادي عشر: إن ليلة المولد فضلت على غيرها من ليالي السنة بولادته صلى الله عليه وسلم، فإنك تقول فيها: ليلة مولد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتقول في ليلة القدر: ليلة القدر، وهو الشرف، وأما التقدير والإضافة إلى ليلة المولد إضافة اختصاص، وهي أفضل وأبلغ من الإضافة إلى مطلق الشرف، أو ليلة التقدير، فهي وإن كان التقدير فيها من لوازم شرفها فاعتباره في ليلة المولد ليلة الشرف العام بلا امتراء، فثبت فضل ليلة المولد، وهو المطلوب.

الثاني عشر: إن ليلة القدر إنما يحظى العامل فيها، فمنفعتها قاصرة، وليلة المولد متعدية منفعتها، وما كانت منفعتها متعدية أفضل من غيرها، وهو المدعى.

الثالث عشر: إن ليلة القدر ثبت في فضلها ما ثبت مما قدمناه إلا أنه عرض فيها ما عرض من الخلاف في البقاء والرفع، وإن ضعف، وليلة مولده صلى الله عليه وآله وسلم شرفها ›

باق لما سنذكره بعد إن شاء الله تعالى، فكانت أفضل بهذا الاعتبار .

الرابع عشر: المدعى أن ليلة المولد أفضل، ويدل عليه أن تقول: زمن شرف بولادته صلى الله عليه وسلم، وإضافته إليه، واختص بذلك، فليكن أفضل الأزمنة، قياساً على أفضلية البقعة التي اختصت بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أفضل الأزمنة بهذا الاعتبار.

الخامس عشر: إن ليلة القدر فرع ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم والفرع لا يقوى قوة الأصل، ففضلت ليلة المولد على ليلة القدر بهذا الاعتبار، وهو المطلوب .

السادس عشر: إن ليلة المولد حصل فيها من الفيض الإلهي النوراني ما عم الوجود، ووجوده مقارن لوجوده صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يقع ذلك إلا فيما وجب فضلها على غيرها، وهو المدعى .

السابع عشر: إن ليلة المولد أظهر الله تعالى فيها أسرار وجوده صلى الله عليه وآله وسلم التي ارتبطت بها السعادة الأخروية على الإطلاق، واتضحت للحقائق، وتميز بها الحق من الباطل، وظهر ما أظهر الله تعالى في الوجود من أنوار السعادة وسبيل الرشاد، وافترق به فريق الجنة من فريق السعير، وتميز وعلا به الدين، وأظلم الكفر وهو الحقير إلى غير ذلك من أسرار وجود الله عز وجل في مخلوقاته، وما هو الموجود من آياته، ولم يثبت ذلك في ليلة من ليالي الزمان، فوجب بذلك تفضيلها بهذا الاعتبار وهو المطلوب .

الثامن عشر: وهو تنويع في الاستدلال وإن كان معنى ما تقدم، وهو أن نقول: لو لم تكن ليلة المولد أفضل من ليلة القدر للزم أحد أمور وهي: إما تفضيل الملائكة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو العمل المضاعف، أو التسوية، وكلها ممتنع .

أما الأول: فعلى الصحيح المرتضى .

وأما الثاني والثالث: فباتفاق وبيان الملازمة أن التفضيل في الأول حصل بولادته صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الثانية: إما بنزول الملائكة أو للعمل .

التاسع عشر: أن بعض زمان المولد الشريف هو زمان ولادته صلى الله عليه وسلم، وولادته صلى الله عليه وسلم أفضل الأزمنة، فبعض ليلة المولد أفضل الأزمنة، وإذا فضل بعضها على سائر الأزمنة، ففضلت ليلةَ القدر بهذا الاعتبار.

العشرون: إن أفضل الأزمنة زمن ولادته صلى الله عليه وآله وسلم، ولا شيء من زمان ولادته صلى الله عليه وآله وسلم بليلة القدر، فلا شيء من أفضل الأزمنة بليلة القدر، وينعكس إلى قولنا لا شيء من ليلة القدر بأفضل الأزمنة، وهذا إبطال لدعوى الخصم إذاً.

فإن قلت: ليلة القدر اختصت بأعمال لم توجد في ليلة المولد، وذلك يدل على كونها أفضل وأشرف.

قلت: الأعمال التي اختصت بها ليلة القدر وإن كانت شريفة مشرفة إلا أن ما اختصت به ليلة المولد المشرف أعم نفعاً، فإن ثمرة العمل في ليلة القدر إنما يعود بالنفع على العامل فقط دون غيره، وليلة المولد عاد نفعها على كل الخلائق بما سبق.

فإن قلت: ليلة القدر شرفت باعتبارات: -

منها: أنها في رمضان. ومنها: نزول القرآن فيها إلى سماء الدنيا كما تقرر. ومنها: تنزل الملائكة عليهم السلام إلى الأرض للسلام على أهل الإيمان.

قلت: وكلها من خصائص النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فهو أصل المواهب، وسبب الخيرات والرغائب، انتهى.

أي: شرف أصوله - آباء، وأمهات - من آدم وحواء إلى [سيدنا]عبد الله و[سيدتنا] آمنة. أي: خلوصهم مما يشين في النسب، وما يضرّ بالدين؛ فإنهم إما أنبياء، أو أتباع أنبياء، أوأهل فترة محكومٌ لهم بالنجاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1]. وهو صلى الله عليه وآله وسلم المختار من الخيار، والمصطفى من النخبة الأبرار، للحديث الصحيح: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار»[2].

وقد حققنا الكلام على نجاة آبائه وأمهاته من آدم وحواء إلى [سيدنا]عبد الله، و[سيدتنا] آمنة، في شرحنا على همزية الناظم أكمل تحقيق؛ فراجعه[3].

(١) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٢)أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٧٣، ونقله ابن كثير في "البداية والنهاية" ٢/ ٥٧، وقال: حديث غريب. وأخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في دلائله ١/ ١٧١-١٧٢ بسندهم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشا، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا من خيار إلى خيار".

(٣) وذلك عند قول الناظم رضي الله عنه:

لم تزل في ضمائر الكون تختا ... رُ لك الأمّهات والآباء

البيت رقم: ٦ من القصيدة الهمزية، وقد أكرم الله تعالى كاتب السطور - ›

عفا الله عنه بمنه وكرمه - بتحقيق شرحها المسمى بـ " المنح المكية في شرح الهمزية " في ثلاثة مجلدات طبع المجمع الثقافي في أبوظبي.

فائدة وتنبيه في إحياء الله تعالى أبوي النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

روى الطبراني بسنده عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل بالحجون كئيباً حزيناً، فأقام به ما شاء الله، ثم رجع مسروراً، قال: سألت ربي عز وجل فأحيا لي أمي، فآمنت بي، ثم ردها.

وكذا روي من حديث عائشة أيضاً إحياء أبويه صلى الله عليه وسلم حتى آمنا به. أورده السهيلي والخطيب.

وقال القرطبي في " التذكرة ": إن فضائله صلى الله عليه وسلم وخصائصه لم تزل تتوالى وتتابع إلى حين مماته، فيكون هذا مما فضله الله به وأكرمه. قال: وليس إحياؤهما وإيمانهما ممتنعاً عقلاً ولا شرعاً، فقد ورد في الكتاب العزيز إحياء قتيل بني إسرائيل، وأخبر بقاتله، وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى بإذن الله تعالى، وكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم أحيا الله على يديه جماعة من الموتى، وإذا ثبت هذا فما يمتنع إيمانهما بعد إحيائهما، ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضيلته صلى الله عليه وسلم.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: إن جميع آباء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين. ومما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»، وقد قال تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾ فوجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركاً. ولقد أحسن الحافظ شمس الدين بن ناصر الدمشقي حيث قال:

حبا الله النبي مزيد فضل ... على فضل وكان به رؤوفا
فأحيا أمه وكذا أباه ... لإيمانٍ به فضلاً لطيفا
فسلم فالقدير بذا قدير ... وإن كان الحديث به ضعيفا

. . . .

أقول: ولقد عجبت لأقوام يتصدرون المجالس في أيام الناس هذه، ويتزيون بزي العلماء والدعاة إلى الله تعالى ورسوله، ولا يجدون ما يتفكهون به في مجالسهم ومواعظهم إلا تكفير أبوي النبي وعمه أبي طالب، ولست أدري ماذا يضير هؤلاء لو دخلوا الجنة هم والناس أجمعون بفضل الله ورحمته، ولو كان ما يقولونه حقاً - على سبيل الفرض فالحياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمس نسبه بسوء يدفع كل مقالة، لكن رسل الشيطان من بني الإنسان يأبون إلا أن يستميلوا عوام الناس، ومن في طبقة العوام من طلبة العلم المبتدئين، ليملؤا أذهانهم وعقولهم بمثل هذه الترَّهات التي أقل ما فيها إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحذار يا أخي من الانزلاق في تلك المهاوي إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، نسأل الله لنا ولهم وللمسلمين السلامة والهداية، آمين.

وأما حكم من تكلم في أبويه الكريمين صلى الله عليه وسلم: فقد ذكر الصالحي الشامي في "سبل الهدى والرشاد" فتوى لبعض علماء المغاربة هذا نص كلامه:

". . . . وقد وقعت على فتوى بخط بعض علماء المغاربة بسط فيها الكلام على هذا المقام، ومن جملة ما ذكره؛ أن المتكلم في هذا المقام على ثلاثة أقسام:

قسم: يوجب تكفير قائله وزندقته، وليس فيه إلا القتل دون تلعثم، وهو حيث يتكلم بمثل هذا الكلام المؤذي في أبويه صلى الله عليه وسلم قاصداً لأذيته، وتعييره، والازدراء به، والتجسر على جهته العزيزة، بما يصادم تعظيمه وتوقيره.

وقسم: ليس على المتكلم به وصم، وهو حيث يدعوه داع ضروري إلى الكلام به، كما إذا تكلم على الحديث مفسراً له ومقرراً. ونحو ذلك مما يدعو الكلام به من الدواعي الشرعية.

وقسم: يحرم علينا التكلم فيه، ولا يبلغ بالتكلم به إلى القتل، وهو حيث لا يدعوه داع شرعي إلى الكلام به، فهذا يؤدَّب على حسب حاله، ويشدَّد في أدبه إن علم منه الجرأة وعدم التحفظ في اللسان، ويعزل عن الوظائف الشرعية، واستدل بعزل عمر بن عبدالعزيز ›

. . . .

عامله" . انظر : سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي الشامي ٢/ ١٧٣ .

وقد ألف كثير من الأئمة الأعلام الكتب والرسائل في نجاة أبويه الكريمين صلى الله عليه وسلم وإيمانهما، وإحيائهما، أذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

١- إرشاد الغبي في إسلام آباء النبي صلى الله عليه وسلم، تأليف أحد علماء الهند كما في ذيل كشف الظنون.

٢- الانتصار لوالدي النبي المختار صلى الله عليه وسلم للسيد المرتضى الزبيدي .

٣- تحقيق آمال الراجين في أن والدي المصطفى من الناجين ، لابن الجزار .

٤- التعظيم والمنة في أن أبوي المصطفى في الجنة للإمام السيوطي .

٥-حديقة الصفا في والدي المصطفى للإمام السيد المرتضى الزبيدي .

٦-الدرج المنيفة في الآباء الشريفة للإمام السيوطي .

٧- ذخائر العابدين في نجاة والدي المكرم سيد المرسلين للأسبيري .

٨-مرشد الهدى في نجاة أبوي المصطفى صلى الله عليه وسلم لوحدي الرومي .

٩- مسالك الحنفا في والدي المصطفى صلى الله عليه وسلم للإمام السيوطي .

١٠-مطلع النيرين في إثبات نجاة أبوي سيد الكونين صلى الله عليه وسلم ، للمنيني .

١١-نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين للإمام السيوطي .

١٢-هدايا الكرام في تنزيه آباء النبي عليه الصلاة والسلام ، للبديعي .

١٣- أمهات النبي صلى الله عليه وسلم ، للمدائني .

١٤-الأنوار النبوية في آباء خير البرية صلى الله عليه وسلم ، للرفيعي .

١٥- بلوغ المآرب في نجاة أبوي المصطفى وعمه أبي طالب للأزهري اللاذقي .

١٦- بلوغ المرام في آباء النبي عليه الصلاة والسلام لإدريس بن محفوظ .

١٧- تأديب المتمردين في حق الأبوين ، للكتاني .

١٨-الرد على من اقتحم القدح في الأبوين الكريمين للنجشي .

١٩-سداد الدِّين وسداد الدَّين في إثبات النجاة والدرجات للوالدين، للبرزنجي .

٢٠-قرة العين في إيمان الأبوين ، للدوايخي .

٢١-القول المختار فيما يتعلق بأبوي النبي المختار صلى الله عليه وسلم ، للديربي .

٢٢-المقامة السندسية في الآباء الشريفة المصطفوية ، للإمام السيوطي .

٢٣-الجواهر المضية في حق أبوي خير البرية صلى الله عليه وسلم ، للتمرتاشي .

٢٤-سبيل السلام في حكم آباء سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، لمحمد بن عمر البالي .

٢٥ - وآخر ما وقفت عليه ما نظمه العلامة الشيخ محمد سليمان فرج حفظه الله تعالى في قصيدة (الوفا لوالدي المصطفى صلى الله عليه وسلم) ردًّ فيها على أحد المتنطعين الذي أساؤوا الأدب في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وفي روضته الشريفة حيث تكلم في أبويه الطاهرين ما يسوؤه صلى الله عليه وسلم، ويسوء كل مؤمن صادق محب، وقد تشرفت بتحقيق الكتاب بعد أن شرح القصيدة المستشار السيد أحمد السائح فخرج بفضل الله تعالى كتاب علم وحب لمن أرادهما، وكتاب حرب لمناوىء سيد الوجود والمسيء الأدب له في أبويه الكريمين رضي الله عنهما .

وغيرها كثير كثير ، ذكرها العلامة السيد عبد الله الحبشي في " معجم الموضوعات المطروقة " ، وذكر بعضها العلامة صلاح الدين المنجد في " معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " فانظرها ثمة .

يا

حرف نداء وتعجُّب، والمنادى محذوف، وتقديره: يا قومي.

طيبَ

منصوب بفعل محذوف، وتقديره: "انظروا". والمنادى ما دخل عليه حرف النداء تعجُّباً.

مبتدإٍ

أي: مكان ابتداء منه صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الأصلاب الطيبة، والأرحام الطاهرة من آدم وحواء إلى [سيدنا] عبد الله و[سيدتنا] آمنه.

ومُختتَمٍ

منه، أي: محل اختتامه صلى الله عليه وآله وسلم، وهو نفسه صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ هو المنتهى إليه. ويصح أن يكون الضمير في "منه" عائداً على العنصر.

والمشهور: أنه صلى الله عليه وآله وسلم ولد عام الفيل، لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، نهاراً[1].

---

(١) قال بعض أهل المعاني: كان مولده صلى الله عليه وآله وسلم في فصل الربيع، وهو أعدل الفصول؛ ليله ونهاره معتدلان بين الحرِّ والبرد، ونسيمه معتدل بين اليبوسة والرُّطوبة، وشمسه معتدلة في العلوِّ والهبوط، وقمره معتدل في أوَّل درجة من اللَّيالي البيض. وينعقد في سلك هذا النظام ما هيَّأ الله تعالى له صلى الله عليه وآله وسلم من أسماء ›

مربّيه؛ ففي الوالدة والقابلة: الأمن والشفاء. وفي اسم الحاضنة: البركة والنماء. وفي مرضعيه صلى الله عليه وآله وسلم: الثواب والحلم والسعد.

وفي مولده صلى الله عليه وآله وسلم يوم الاثنين إشارات منها: ما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٢٧: "أن الله تعالى خلق الشجر يوم الاثنين". وفي ذلك تنبيه عظيم وهو أن خلق الأقوات والأرزاق والفواكه والخيرات التي يمتد بها بنو آدم ويحيون ويتداوون وتنشرح صدورهم لرؤيتها، وتطيب بها نفوسهم، وتسكن خواطرهم عند رؤيتها لاطمئنان نفوسهم لتحصيل ما يبقي حياتهم، على ما جرت به حكمة الحكيم سبحانه وتعالى. فوجوده صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الشهر في هذا اليوم قرَّةُ عين بسبب ما وجد من الخير العظيم والبركة الشاملة لأمته صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك إشارة أخرى وبشاره: وهي أن ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم في شهر ربيع إشارة ظاهرة لمن تفطن لها بالنسبة إلى اشتقاق لفظة "ربيع" إذ أن فيه تفاؤلاً حسناً وبشارة لأمته صلى الله عليه وآله وسلم. وقد قال الشيخ الإمام أبو عبد الرحمن الصقلي رحمه الله تعالى: "لكلٍّ إنسان من اسمه نصيب، هذا في الأشخاص، وكذلك في غيرهم، وإذا كان ذلك كذلك؛ ففصل الربيع فيه تنشق الأرض عما في باطنها من نعم المولى سبحانه وتعالى وأرزاقه التي بها قوام العباد وحياتهم ومعايشهم وصلاح أحوالهم، فتنفلق الحبة والنوى، وأنواع النبات والأقوات المقدرة فيها، فتبهج الناظر عند رؤيتها، وتبشِّره بلسان حالها بقدوم ينعها، وفي ذلك إشارة عظيمة إلى الاستبشار بابتداء نعم المولى سبحانه وتعالى، ألا ترى أنك إذا دخلت إلى البستان في مثل هذه الأيام تنظر إليه كأنه يضحك لك، وتجد زهره كأن لسان حاله يخبرك بما لك من الأرزاق المدَّخرة، والفواكه. وكذلك الأرض إذا أبهج نوّارها كأنه يحدِّثك بلسان حاله كذلك أيضاً.

. . . .

فمولده صلى الله عليه وآله وسلم في شهر ربيع فيه من الإشارات والبشارات ما تقدم ذكر بعضه، وذلك بشارة ظاهرة من المولى تبارك وتعالى إلى التنويه بعظيم قدر هذا النبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه رحمة للعالمين، وبشرى للمؤمنين، وحماية لهم من المهالك والمخاوف في الدارين، وحماية للكافرين بتأخير العذاب عنهم لأجله صلى الله عليه وآله وسلم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فوقعت البركات وإدرار الأرزاق والأقوات، ومن أعظمها منّته على عباده لهدايته صلى الله عليه وآله وسلم لهم إلى صراط الله المستقيم.

ووجه آخر أيضاً: وهو أن ما في شريعته صلى الله عليه وآله وسلم من شبه الحال: ألا ترى أن فصل الربيع أعدل الفصول، وأحسنها؟ إذ ليس فه بردٌ مزعج، ولا حرٌ مقلق، وليس في ليله ونهاره طول خارق، بل كله معتدل، وفصله سالم من العلل والأمراض والعوارض التي يتوقعها الناس في أبدانهم في زمان الخريف، بل الناس فيه تنتعش قواهم، وتنصلح أمزجتهم، وتنشرح صدورهم، لأنَّ الأبدان يدركها فيه من أمداد القوة ما يدرك النبات حين خروجه، إذ منها خلقوا، فيطيب ليلهم للقيام، ونهارهم للصيام، لما تقدم من اعتداله في الطول والقصر، والحر والبرد، فكان في ذلك شبه الحال بالشريعة السمحة التي جاء بها صلوات الله وسلامه عليه من رفع الإصر والأغلال التي كانت على من قبلنا.

وأخيراً: شاء الحكيم العليم أنه صلى الله عليه وآله وسلم تتشرف به الأزمنه والأمكنة لا هو يتشرف بها، بل يحصل للزمان والمكان الذي يباشره صلى الله عليه وآله وسلم الفضيلة العظمى والمزية على ما سواه من جنسه إلا ما استثني من ذلك لأجل زيادة الأعمال فيها وغير ذلك، فلو ولد صلى الله عليه وآله وسلم في الأوقات المتقدم ذكرها لكان قد يتوهم أنه يتشرف بها، فجع الحكيم العليم جل جلاله مولده صلى الله عليه وآله وسلم في غيرها ليظهر عظيم عنايته سبحانه وتعالى وكرامته عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

بشعب بني هاشم؛ بالمكان المعروف عند أهل مكة سلفاً وخلفاً[1].

* * *

---

(١) كان معروفاً بزقاق المولد في شعب بني هاشم، وكانت بيد عقيل. قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهبها عقيل بن أبي طالب فلم تزل بيده حتى توفي عنها، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج، وقيل: إن عقيلاً باعها بعد الهجرة تبعاً لقريش حين باعوا دور المهاجرين.

وآه ثم آه، ووا حسرتاه، وواأسفاه على ما حل بذاك المنزل المبارك في أيامنا هذه ..... حيث حاول البعض هدمه وتحويله إلى مرفق عام بل إلى شر محل بعد أن شرف بمولد سيد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلم؛ حيث حُوِّل في بعض الأعصار إلى[سوق للبهائم]ثم حَوَّل هذه السوق بعضُ الصالحين - بالحيلة - إلى مكتبة هي "مكتبة مكة المكرمة". فصار بعض القوم ينظرون إليه بعيون الشر والتهديد والانتقام، متربصين به الدوائر، وقد طالب البعض ممن لا يخاف الله ولا يعرف قدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يحرض المسؤولين على هدم المكتبة تلك، غير أنه والحق يقال أن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد العاقل الحكيم العارف بالعواقب تجاهل هذه الطلبات وأوقف محرضيها. [انظر في ذلك ما ذكره العلامة يوسف هاشم الرفاعي في نصيحته لعلماء نجد: صفحة ٦٠ وما بعدها]بعد أن أراد هؤلاء أن يحرموا المسلمين من بركتها باسم التوحيد والحفاظ على العقيدة من البدع والشرك إلى آخر هذه المسميات التي ظاهرها الحق وباطنها باطل باطل باطل، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بل إنا لله وإنا إليه راجعون.

«٦٠» يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الْفُرْسُ أَنَّهُمُ
قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنِّقَمِ

يومٌ

بالرَّفع، عن ضمير محذوف يرجع إلى "مولد" بمعنى: زمان الولادة، ويجوز أن يكون بدلاً من "مولد". والمراد من "اليوم" ههنا قطعة من الزمان ليلاً كان أو نهاراً، لأنَّ زمان تفرّس الفرس كان كذلك. واليوم: ما بين طلوع الفجر ومغيب الشمس. وفي اصطلاح الفلكيين: ما بين طلوع الشمس ومغيبها.

تفرّس

أي: تثبَّت، وتعرَّف. من "الفِراسة" بالكسر، ومنه: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(١). وأما الفَراسة بالفتح فهي: الحذق في ركوب الخيل.

---

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». قال في الدرر: رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة. وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد، وقال في التمييز تبعاً للأصل: رواه الترمذي وقال غريب، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الديلمي بعد أن عزاه للترمذي عن أبي سعيد، قال: وزاد بعضهم وينطق بتوفيق الله. وقال في الأصل: ورواه الطبراني وأبو نعيم والعسكري عن ثوبان رفعه بلفظ: «احذروا دعوة المسلم وفراسته فإنه ينظر بنور الله وينظر بتوفيق الله»، ورواه العسكري عن أبي الدرداء موقوفاً بلفظ: "اتقوا فراسة العلماء فإنهم ينظرون بنور الله، إنه شيء يقذفه الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم". ورواه عن أبي الدرداء بلفظ:

فيه

أي: بسبب ما وقع فيه من الكرامات. متعلِّق بـ" تفرَّس " والضمير لـ" يوم ".

" اتقوا فراسة العلماء فوالله إنه لحق يقذفه الله في قلوبهم ويجعله على أبصارهم " ، وطرقه كلها ضعيفة، وبعضها متماسك، فلا يليق مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع، ورواه الطبراني والبزار وأبو نعيم بسند حسن عن أنس رفعه: " إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم " ، ونحوه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين وقد أخذ بطرف عمامته من ورائه: واعلم أن الله يحب الناظر الناقد عند مجيء الشبهات " .

وفي مستدرك الحاكم عن عروة مرسلا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن لكل قوم فراسة، وإنما يعرفها الأشراف " قيل: والمراد بهم المؤمنون جمعاً بين الأحاديث، وحكم عليه الصغاني بالوضع، لكن لفظه عنده اتق بالإفراد فاعرفه.

وقال النجم: ورواه البخاري في التاريخ والترمذي والعسكري والخطيب وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابي سعيد، وزاد ثم قرأ ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم انتهى. وفي شرح مثلثة قطرب للشيخ برهان الدين اللخمي بلفظ: " احذروا فراسة المؤمن فيكم فإنه ينظر بنور الله " انتهى. انظر: كشف الخفاء للإمام العجلوني-الحديث رقم ٨٠ .

والفراسة بكسر الفاء قال في الصّحاح: الفراسة بالكسر الاسم من قولك تفرست فيه خيراً، وهو يتفرس أي يتثبت وينظر، وتقول منه: رجل فارس النظر، وفي الحديث: (اتقوا فراسة المؤمن). والفَراسة بالفتح مصدر قولك: " رجل فارس على الخيل بين الفراسة " ، والفروسة الفروسية، وقد فرس بالضم يفرس فروسة وفراسة أي حذق أمر الخيل انتهى.

الفُرسُ

بضم الفاء، فاعل تفرَّسَ. والفُرسُ - ويقال لهم فارس أيضاً -: أمةٌ عظيمةٌ مسكنهم بشمال العراق، مأخوذ من "الفَراسة" وهي الشجاعة، سُمُّوا بذلك لكمال شجاعتهم، وتمام فراستهم. قيل: إنهم من ولد هدرام بن أرفخشد بن سام بن نوح[1]. وأنه ولد له بضعة عشر رجلاً كلهم فارسٌ، فسُمُّوا الفرس لذلك.

وقيل: إنهم من ولد يوسف عليه السلام.

وقيل: من ولد فارس بن أفرندك بن إسحاق.

وقيل: من ولد فارس بن سام بن نوح عليه السلام. والله أعلم بحقيقة الحال.

وجملة "تفرَّس في الفرسُ": صفة يوم.

أنهُمْ

أي: الفرس.

---

(١) قال في "فتح الباري": قيل إنهم من ولد هدرام بن أرفخشد بن سام بن نوح وأنه ولد بضعة عشر رجلا كلهم كان فارسا شجاعا فسموا الفرس للفروسية، وقيل في نسبهم أقوال أخرى. وقال صاعد في الطبقات كان أولهم على دين نوح، ثم دخلوا في دين الصابئة في زمن طمهورث فداموا على ذلك أكثر من ألفي سنة، ثم تمجسوا على يد زرادشت. انظر: فتح الباري شرح البخاري للعلامة العسقلاني - المجلد الثامن. كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ. باب قَوْلُهُ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾.

قد أُنذِروا

أي: أُخبروا على تلك الإرهاصات، هاتيك الكرامات، بعد أن أنذروا في غابر الأزمان على ألسنة الأحبار والكُهَّان.

والجملة: مفعول "تفرَّسَ". والإنذار: إعلامٌ مع تخويف. وقيل: بشرط مدة يسع الحفظ من الأمر الخوف منه، وإلا فهو مجرَّدُ إخبار، وإعلام: -

بحُلولِ البؤسِ

بنزول شدة الخوف بهم، تقول منه: بؤس الرجل فهو بئيس، كـ"شرُفَ"، فهو "شريف".

وأما بئس الرجل فهو بائس، كـ"علم" فهو "عالم". فمعناه: اشتدت حاجته. ومنه: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (1).

والنِّقَمِ

أي: العقوبات. جمع "نقمة"، وتجمع أيضاً على "نَقِمات" كـ"كلمات".

وحاصل معنى البيت: أن الفرس لما شاهدوا ما وقع زمن ولادته صلى الله عليه وآله وسلم من الكرامات وخوارق العادات، علموا علماً جازماً بما أخبرهم به أحبارهم ورهبانهم من حلول البؤس والنقم بهم، ما أدركه الأحبار من تصفُّح الكتب السماوية، والكُهَّان بالكهانة، بعد أن كان الفُرسُ على ظَنٍّ وتردُّدٍ.

ثم أشار الناظم إلى تفصيل ما نزل بساحتهم من الشدائد والعقوبات، فقال: -

---

(1) سورة الحج الآية ٢٨.

«٦١» وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ
كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ

وباتَ

أي: صار ليلةَ ولادته صلى الله عليه وآله وسلم.

إيوانُ

بكسر الهمزة، ويقال فيه "أوانُ" كـ"كتاب" ويجمع على "إيوانات" و"أوائن".

كِسرى

بفتح الكاف، وكسرها. وكسرى: اسمٌ لكلٍّ من ملك الفرس، كقيصر للرُّوم، وتُبَّع لليمن، والنُّعمان للعرب، والنَّجاشي للحبشة، والعزيز لمصر، وفرعون للقبط، وخاقان للتُّرك، وجالوت للبربر.

وهو

أي: الإيوانُ المذكور.

مُنصَدِعٌ

قد سقط منه أربع عشرة شرفة. والصَّدع: الشقُّ البيِّنُ في الشيء الصُّلب. فهو أبلغ من الكسر.

والجملة المقرونة بالواو خبر "بات" على حد قول الشاعر:

فلما صرّح الشُّرَّاحُ أمسى وهو عريانُ

كشَملِ

أي: ما تفرّق من أمر

أصحاب كسرى

يقال: جمع الله شمله، أي: ما تفرّ. و"فرّق الله شمله" أي: ما اجتمع من أمره. والشَّمَل - بفتحتين -: لغةٌ في "الشَّمْل".

وذكر كسرى ههنا بالاسم الظاهر دون الضمير لأن كسرى المذكور ثانياً غير كسرى المذكور أولاً، لأن الأول هو: كسرى أنوشروان. وكسرى الثاني هو: أبرويز بن هرمز.

ومعنى "أبرويز" بالعربية: المظفر، وهو الذي غلب إلى الروم حين أنزل الله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾[1].

وهو أيضاً الذي عرض في المنام على الله تعالى فقال له: أسلم ما في يديك لصاحب الهراوة[2]. فلم يزل مذعوراً من ذلك حتى كتب إليه النعمان بن المنذر يخبره

(١) سورة الروم - الآية رقم ٢.

(٢) صاحب الهراوة: اسم من أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم، ورد في كثير من الآثار، ومشهور الأخبار. والهراوة هي العصا، ويحتمل معاني: منها أن يكون المراد بذلك القضيب الممشوق فيكون الاسمَ راجعاً إلى معنى "صاحب القضيب". ومنها ما أشار إليه ›

بظهوره صلى الله عليه وآله وسلم بتُهامة، فعلم أن الأمر سيصير إليه حتى كان من أمره ما كان[1].

وهو أيضاً الذي كتب إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فمزّق كتابه، فدعا عليه صلى الله عليه وآله وسلم بتمزيق ملكه[2].

غير ملتئم

أي: مجتمعٍ، من ذلك اليوم إلى يوم القيامة.

القاضي عياض رحمه الله تعالى أنها العصا التي يذود بها لناس عن حوضه يوم القيامة. ومنها: أن يكون هذا الاسم الكريم كناية عن كثرة غزواته صلى الله عليه وآله وسلم، وأسفاره في طاعة ربه. ومنها: أن يكون معنى "صاحب الهراوة" إشارة إلى كثرة أتباعه صلى الله عليه وآله وسلم وانقيادهم له، وموافقتهم لطاعته، حتى صارت الخلائق كلها معه وله، يسوقها سوقاً بالعصا إلى منافعها كما يسوق الراعي الغنم بهراوته منطاعة له منقادة لحكمه إلى مرافقها. ذكر ذلك الإمام الرصاع في "تذكرة المحبين" - صفحة ٨٢٨ بتحقيق الصديق العلامة الدكتور محمد رضوان الداية حفظه الله تعالى.

١: والقصة بتمامها مذكورة في: "سيرة ابن هشام" ١/ ١١، و"الوفا" لابن الجوزي ١/ ٩٧، و"شرح المواهب اللّدنية" للعلامة الزرقاني ١/ ١٢١، و"الخصائص الكبرى" للإمام السيوطي ١/ ٥١، وغيرها من كتب السير والخصائص.

٢: روى البخاري وغيره عن عُبَيْد اللَّه بْن عَبْد اللَّه بْن عُتْبَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّه بْنَ عَبَّاس أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بَعَثَ بكتَابه إلَى كسْرَى فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إلَى عَظيم الْبَحْرَيْن يَدْفَعُهُ عَظيمُ الْبَحْرَيْن إلَى كسْرَى فَلَمَّا قَرَأَهُ كسْرَى مَزَّقَهُ فَحَسبْتُ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّب قَالَ فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّق.

. . . .

* * *

انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري -المجلد الثالث عشر - كتاب الآحاد - باب مَا كَانَ يَبْعَثُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الأُمَرَاءِ وَالرُّسُلِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِد.

وروى البيهقي أيضاً من طريق ابن شهاب قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد القاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث بكتاب إلى كسرى، فمزقه كسرى. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " اللهم مزّق ملكه ".

انظر: دلائل النبوة للإمام البيهقي ٤/ ٣٨٧، وسبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ١٠/ ٢٢٢.

«٦٢» وَالنَّارُ خَامِدَةُ الأَنْفَاسِ مِنْ أَسَفٍ
عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِي العَيْنِ مِنْ سَدَمِ

والنَّارُ

عطفٌ على "إيوان كسرى" وهي: جوهرٌ مضيء محرق، وهي مؤنثة، من ذوات الواو لتصغيرها على نويرة، وجمعها على "نور"، و"أَنوُر". وقلبت الواو ياءً في جمعها على "نيران". و"ال" فيها: إما للجنس؛ فيصدق بكل نار من نيرانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، فيتوافق كلامه هنا وفي "الهمزية" حيث قال فيها(١):

وغدا كل بيت نارٍ وفيه كربةٌ من خمودها وبلاءُ

مشيراً بها إلى أعظم نيرانهم التي اعتنى بإيقادها كبراؤهم، ولم تخمد منذ ألف عام.

خامدَةُ

اسم فاعل من "خمدت النار خموداً" إذا سكت لهبها، ولم يطفأ جمرها، وأما الهمود بالهاء: فهو سكون اللَّهب مع انطفاء الجمر. فإن قلت: لم حصل تلك الليلة

(١) البيت رقم ١٦ من الهمزية أخت البردة للناظم رضي الله عنه -انظر: المنح المكية في شرح الهمزية لابن حجر ١/ ١٩١ .

الخمود دون الهمود مع أنه أبلغ منه؟ .

قلت: في ذلك إشارةٌ إلى أنه بقي من ملكهم بقيَّةٌ، وأنه لم يزُل بالكلية(١).

الأنفاس

جمع نَفَس - بفتحتين - ، والأصل: خامدة أنفاسها.

من أسَفٍ

أي: لأجل شدَّة حزن.

عليه

متعلِّق بـ"أسف" والضمير يرجع إلى: "شملهم". وزعم بعضهم أنه راجعٌ إلى "انصداع إيوان كسرى" الذي هو علامة على مولد نبينا وسيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - المخمِد لنارهم، والمشتِّت لشملهم، والمغيضِ لمائهم.

والنَّهر

الذي قوامهم وأراد به نهر بحيرة طبرية، ونهر وادي السماوة.

---

(١) روى البيهقي من طريق ابن عون عن عمير عن ابن إسحاق رضي الله عنه قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كسرى وقيصر، فأما قيصر فوضعه، وأما كسرى فمزَّقه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "أما هؤلاء فيمزقون، وأما هؤلاء فستكون لهم بقية". انظر: دلائل النبوة للإمام البيهقي ٤/ ٣٨٧

ساهي العينِ

أي: ساكنٌ عن الجريان، وفي نسخة "الطرف".

من سدمٍ[1]

أي: من أجل حزنٍ عليه.

* * *

(١) قال في القاموس: السَّدَمُ، مُحرَّكةً: الهَمُّ، أو مع نَدَمٍ، أو غَيْظٌ مع حُزْن. ويأتي بمعنى: الولوع واللهج بالشيء: قال في النهاية: ومنه حديث: "من كانت الدُّنيا هَمَّهُ وسَدَمه جعل اللّهُ فَقْره بين عَينَيه". السَّدَم: اللَّهَجُ والوُلوعُ بالشيء، وفي الدر النثير: قال الفارسي: هو همّ في ندم.

«٦٣» وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا
وَرُدَّ وَارِدُهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمِي

وساء ساوة

أي: حزن أهلها. و"ساوة": مدينة بين همدان والرّي، من مدنهم.

أن غاضت بحيرتُها

أي: ذهب ماؤها بالكليَّة تلك الليلة. وهي بحيرةٌ واسعةٌ جداً[1] فتصغيرها للتعظيم، كما في قول الشاعر: -

وكلُّ أناسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُم   دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرّ مِنْهَا الأنامل [2]

---

(١) بحيرة ساوة: بحيرة متسعة الأكناف جداً، وقد قال فيها الصرصري رحمه الله تعالى في بعض قصائده:

"غارت وقد كانت جوانبها تفوت الميلا"

وقال غيره: كانت أكثر من ستة فراسخ، تركب فيها السفن، ويسافر فيها إلى ما حولها من البلاد والمدن، فأصبحت ليلة المولد ناشفة كأن لم يكن بها شيء من الماء. وقال الصالحي: وقع في بعض الكتب: غاضت بحيرة طبرية، وهذا غير معروف، وبحيرة طبرية لم يثبت أن ماءها غاض، وهو باق إلى اليوم. انظر: سبل الهدى والرشاد ١/ ٤٣٣ .

(٢) البيت للبيد بن أبي ربيعة، وهو تصغير تكبير كما في فقه اللغة للثعالبي.

والجملة فاعل "ساء" .

وردَ واردُها

بالبناء للمفعول، عطفٌ على "غاضت" ، ويجوز أن يكون على صيغة المصدر، فيكون عطفاً على أن غاضت . و "ردً" : من يَرِد الماء لشربٍ أو استقاء .

بالغيظِ

أي : بما يغيظه من غور مائها ونضوبه .

حين ظمي

أي : عطش حيث لم يجد من مائها شيئاً .

* * *

والدويهية تصغير داهية وليس تصغيرها للتحقير بدليل قوله تصفر منها الأنامل ورد بأن تصغيرها على حسب اعتقاد الناس لها وتهاونهم بها إذ المراد بها الموت أي يجيئهم ما يحتقرونه مع أنه عظيم في نفسه تصفر منه الأنامل . واللّه أعلم . انظر : مجمع الأمثال، لأبي الفضل الميداني - الجزء الأول . الباب الأول فيما أوله همزة .

«٦٤» كَأَنَّ بالنَّارِ مَا بِالْمَاءِ مِنْ بَلَلٍ
حُزْنًا وَبِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ

كأنَّ

حرف تشبيه.

بالنَّارِ

أي: نار فارس التي كانوا يعبدونها بعد خمودها، وهو خبر "كأنَّ" مقدَّماً.

ما

أي: الذي.

بالماءِ

أي: ماء بحيرة ساوة قبل غيضه، وهو اسمها مؤخراً.

من بلَلٍ

أي: أثر ماء، وَوَرَدَتِه حيث خمدت تلك الليلة:

حُزناً

أي من أجل حزنها على تشتُّتِ شملِ كسرى وأصحابه، وما نزل بساحتهم من أنواع الهموم، وأصناف الغموم.

وَ

كأنَّ بالماء بعد غيضه وغوره في الأرض.

مَا

أي: الذي.

بالنارِ

المذكورة قبل خمودها.

من ضَرَمِ

أي: شدة التهاب، حيث ذهب تلك الليلة في تخوم الأرض حزناً على ما ذكر. وهذه من أبهر معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم، وأظهر كراماته.

وأشار الناظم بهذا البيت والثلاثة قبله إلى ما وقع ليلة ولادته صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات؛ كانصداع إيوان(١) كِسرى، وسقوط بعض شرفاته، وخمود النيران، وغيض الماء، وذلك على كسرى وأهل مملكته، ثم كتب إليه الموكّل بإيقاد النيران وكان لها خَدَمَة يوقدونها ليلاً ونهاراً في بيوت اتخذوها معابد: أن النار

---

(١) الإيوان بوزن "الديوان"، ويقال فيه بوزن "كتاب" بناء أزج غير مسدود الوجه، والأزج: بيت يبنى طولاً، وجمعه على الأول: أواوين. كدواوين، و"إيوانات". وعلى الثاني: "أوان" كـ"خوان، وخون". بناء مشهور بالمدائن من أرض العراق كان بناء محكماً مبنياً بالآجر الكبار والجص، سمكه مائة ذراع في طول مثلها. انظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ١/ ٤٣٣.

خمدت تلك لليلة، ولم يظهر لها لهب مع جمرها. وكتب إليه صاحب طبرية: أن النهر لم يجر تلك الليلة!!. وكتب إليه صاحب الشام: أن وادي السماوة قد انقطعت جريته تلك الليلة. وكتب إليه صاحب الري: أن بحيرة ساوة قد غاض ماؤها تلك الليلة!! فتضاعفت عليه الهموم، وتكاثرت عليه الغموم[1].

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية: " قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب "هواتف الجان": حدثنا علي بن حرب حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران من آل جرير بن عبدالله البجلي حدثني مخزوم بن هاني المخزومي عن أبيه وأتت عليه خمسون ومائة سنة قال:

"لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم. فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبَّر عليه تشجُّعاً، ثم رأى أنه لا يدَّخر ذلك عن مرازبته؛ فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره، ثم بعث إليهم؛ فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ قالوا: لا إلا أن يخبرنا الملك. فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران؛ فازداد غماً إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله؛ فقال الموبذان: وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيت في هذه الليلة رؤيا. ثم قصَّ عليه رؤياه في الإبل فقال: أي شيء يكون هذا يا موبذان؟. قال: حَدَثٌ يكون في ناحية العرب وكان أعلمهم من أنفسهم، فكتب عند ذلك: " من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر أما بعد فوجِّه إليَّ برجلٍ عالمٍ بما أريد أن أسأله عنه".

فوجَّه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني؛ فلما ورد عليه قال له: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟. فقال: لتخبرني أو ليسألني الملك عما أحب؛ فإن كان ›

. . . .

عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم. فأخبره بالذي وجه به إليه فيه قال علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام يقال له: "سطيح". قال: فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتني بتفسيره. وخرج عبدالمسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى علي الضريح فسلم عليه وكلّمه فلم يرد إليه سطيح جوابا فأنشأ يقول:

أصم أم يسمع غطريف اليمن — أم فاد فاز لم به شأو العنن
يا فاصل الخطة أعيت من ومن — أتاك شيخ الحي من آل سنن
وأمه من آل ذئب بن حجن — أزرق نهم الناب صرار الأذن
أبيض فضفاض الرداء والبدن — رسول قيل العجم يسري للوسن
يجوب بي الأرض علنداة شزن — لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
ترفعني وجنا وتهوي بي وجن — حتى أتى عاري الجآجي والقطن
تلفه في الريح بوغاء الدمن — كأنما حثحث من حضني ثكن

قال: فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول عبد المسيح على جمل مشيح أتى سطيح وقد أوفى على الضريح بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها!! يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس؛ فليس الشام لسطيح شاماً يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت.

ثم قضى سطيح مكانه، فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول: ›

. . . .

* * *

شمر فإنك ماضي العزم شمير	لا يفزعنك تفريق وتغيير
إن يمس ملك بني ساسان أفرطهم	فإن ذا الدهر أطوار دهارير
فربما ربما أضحوا بمنزلة	يخاف صولهم الأسد المهاصير
منهم أخو الصرح بهرام وإخوته	والهرمزان وشابور وسابور
والناس أولاد علات فمن علموا	أن قد أقل فمحقور ومهجور
ورب قوم لهم صحبان ذي أذن	بدت تلهيهم فيه المزامير
وهم بنو الام إما إن رأوا نشبا	فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشر مقرونان في قرن	فالخير متبع والشر محذور

قال فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره ما قال له سطيح فقال كسرى إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور فملك منهم عشرة في أربع سنين وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه.

ورواه البيهقي من حديث عبدالرحمن بن محمد بن إدريس عن علي بن حرب الموصلي بنحوه. قال ابن كثير: قلت: كان آخر ملوكهم الذي سلب منه الملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان وهو الذي انشق الإيوان في زمانه وكان لأسلافه في الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ ابن سام بن نوح.

انظر: البداية والنهاية لابن كثير: الجزء الثاني - ذكر ارتحاس إيوان كسرى وسقوط الشرفات وخمود النيران ورؤيا الموبذان وغير ذلك من الدلالات.

«٦٥» وَالْجِنُّ تَهْتِفُ وَالأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ
وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنًى وَمِنْ كَلِمِ

والجنُّ

أحد الثقلَين.

تهتِفُ

أي: تتكلَّمُ من حيثُ لا تُرى أشخاصُها، بولادته صلى الله عليه وآله وسلم، ليلتها.

والأنوارُ

فيها:-

ساطعةٌ

أي: لها كمالُ إضاءة، وتمامُ ارتفاع، حتى أضاء لها قصور قيصر بالشام والروم.

فقد روي أن[سيدتنا] آمنة - رضي الله عنها - رأت حين وضعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - نوراً أضاء لها قصور الشام[1].

---

(١) أخرج الإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٦٢، وابن سعد في الطبقات ١/ ٩٦، والطبراني وابن مردويه والبيهقي في دلائله ١/ ٤٧، عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله ›

ما كان بدء أمرك؟ قال: "دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام".

روى الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٢٧و١٢٨، والطبراني، والإمام الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٠٠، وأبو نعيم في حلية الأولياء، والبيهقي كلهم بسندهم عن العرباض بن ساريه رضي الله عنه أن سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: "إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بتأويل ذلك أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت حين وضعت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك أمهات النبيين يرين". قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي. وكذا روى الحديث البزار، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن سويد، وقد وثَّقه ابن حبان.

انظر: الهيثمي في "مجمع الزوائد" ٨/ ٢٢٣، والبيهقي في الدلائل ٢/ ١٣٠.

وروى ابن سعد عن محمد بن عمر الأسلمي بأسانيد متعددة عن آمنة رضي الله عنها قالت: "لما وضعته خرج معه نورٌ أضاء له ما بين المشرق والمغرب ثم وقع جاثياً على ركبتيه، معتمداً على الأرض بيديه، ثم أخذ قبضة من تراب وقبضها ورفع رأسه إلى السماء. وأضاءت له قصور الشام وأسواقها، حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى". انظر: سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي الشامي ١/ ٤١٢، وطبقات ابن سعد ١/ ٩٦.

وفي رواية قالت: " خرج من فرجي شهابٌ أضاءت له الأرض حتى رأيت قصور الشام". فولدته نظيفاً ما به قَذَر [1]- صلى الله عليه وآله وسلم - .

والحقُّ

الساطعُ الذي لا شُبهةَ فيه، وهو أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ولادته صلى الله عليه وآله وسلم، وبعثته إلى كافَّة الخلق، وظهور دينه على سائر الأديان، وغير ذلك:-

---

(١) روى ابن سعد بسند رجاله ثقات عن إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً - رحمه الله تعالى: "أنَّ [السيدة]آمنة - رضي الله عنها - قالت: "وضعته نظيفاً، ما ولدته كما يولد السخل، ما به قذر، ووقع إلى الأرض وهو جالس على الأرض بيديه". انظر: طبقات ابن سعد، وسبل الهدى والرشاد (١/ ٤٢١).

وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتاب "الوفا" ١/ ٩٧: " عن سيدنا أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من كرامتي أني ولدت مختوناً، ولم ير أحدٌ سوأتي). وروى أبو نعيم في دلائله بسنده عن ابن عباس عن أبيه العباس رضي الله عنهما قال: "ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مختوناً مسروراً، فأعجب ذلك جده، وحظي عنده، وقال: ليكوننَّ لابني هذا شأن، فكان له شأن". انظر: دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٤٦ .

وفي خبر ختانه وولادته مسروراً صلى الله عيه وآله وسلم قال الحاكم أن ذلك تواترت به الأخبار. انظر: طبقات ابن سعد ١/ ١٠٣، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتهذيب تاريخ دمشق الكبير ١/ ٢٨٢ وأورد له طرقاً، ونقله الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" ٢/ ٢٦٥ .

يظهرُ من معنى

قارنَ ولادته من الآيات السابقة وغيرها.

ومن كَلِم

هتفت به الجنُّ ليلة ولادته صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد روي أنَّ الجنَّ هتفت تلك الليلة بولادته صلى الله عليه وآله وسلم، على رأس الجبال، وفي بطون الأودية(١).

---

(١) روى البيهقي في "الدلائل" بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الناس على منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: أيها الناس أفيكم سواد بن قارب؟، قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين وما سواد بن قارب؟ قال: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً. قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان؟ قال سواد: فإني كنت نازلاً بالهند، وكان لي رئيٌّ من الجن. قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ جاءني في منامي ذلك، قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤي بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وأنجاسها   وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى   ما مؤمنوها مثل أرجاسها
فانهض إلى الصفوة من هاشم   واسم بعينيك إلى راسها

ثم أنبهني وأفزعني، وقال: يا سواد بن قارب إن الله عز وجل بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد.

فلما كان في الليلة الثانية أتاني فأنبهني ثم أنشأ يقول كذلك :

عجبت للجن وتطلابهـا	وشـدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهـدى	ليس قـداماها كـأذنابها
فانهض إلى الصفوة من هاشم	واسم بعـينيك إلى نابها

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني ثم قال كذلك :

عجبت للجن وتخبارهـا	وشـدها العيس بأكـوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهـدى	ليس ذوو الشـر كـأخيـارها
فانهض إلى الصفوة من هاشم	مـا مـؤمنو الجن ككفـارها

قال : فلما سمعته يكرر ليلة بعد ليلة ، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ، قال : فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي فما حللت نسعة ، ولا عقدت أخرى حتى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو بالمدينة والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآني النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : مرحباً بك يا سواد بن قارب ! ! ، قد علمنا ما جاء بك ، قال : قلت : يا رسول الله ! قد قلت شعراً فاسمعه مني ، قال سواد : فقلت :

أتاني رئيٌّ بعـد ليل وهجـعـة	ولم يك فيـما قـد بلوت بكاذب
ثلاث ليـال قـوله كل ليلة	أتاك رسـول من لؤي بن غـالب
فشمرت عن ساقي الإزار ووسّطت	بي الذعلب الوجناء عند السباسب
فـأشـهـد أن الله لا شيء غـيره	وأنك مـأمـون على كل غـائب
وأنك أدنى المرسلين شـفـاعـة	إلى الله يا ابن الأكـرمين الأطايب
فـمـرنا بما يأتيك يا خـير من مـشى	وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لي شـفـيعاً يوم لا ذو شفـاعـة	سـواك بمغنٍ عن سـواد بن قـارب

فمن ذلك: ما جاء أنه هتف هاتفٌ على الحَجون فقال:

فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت ... ولا ولدت أنثى من الناس واحده

كما ولدت زهرية ذات معجزة ... مجنّبة لؤم القبائل ماجـــــــده(1)

ثم بيَّن الناظم - رضي الله عنه - أن الكفَّار لم ينتفعوا مما ظهر في زمن ولادته صلى الله عليه وآله وسلم من الكرامات، وخوارق العادات: -

* * *

قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، وقال لي: أفلحت يا سواد. فقال له عمر: هل يأتيك رئيك الآن؟ . فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن).

انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٤٨ فصل: حديث سواد بن قارب ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح.

(١) رواه ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. انظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ١/ ٣٥١-٣٥٢.

«٦٦» عَمُوا وَصَمُّوا فَإِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ
يُسْمَعْ وَبَارِقَةُ الْإِنْذَارِ لَمْ تُشَمِ

عَمُوا

أي: الكفار. وأصله: "عميوا"، حذفت الياء. والعمى: عدم البصر عما في شأنه أن يكون بصيراً.

وقد يقال لعمى البصيرة وهو أضرُّ العميين، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١).

وصَمُّوا

أي: الكفار. وأصله "صَمَمُوا" من الصَّمَم، وهو عدم السمع عمَّا من شأنه أن يكون سميعاً.

والمعنى: أنَّ الكفَّار لما لم يبصروا الآيات الدَّالَّةَ على عظيم نبوَّته، وعمومِ رسالته - صلى الله عليه وآله وسلم - إبصارَ إذعانٍ وقَبول، نُزِّلَ بصرُهم لفقد ثمرته منزلة العدم فصاروا عمياً على طريق المجاز. وكذلك لما لم يسمعوا إخبار الهواتف وغيرها الدالَّةِ على ذلك سماعَ إذعان وقبول نُزِّلَ سمعهم لذلك منزلة العدم؛ فصاروا صُمَّاً على طريق المجاز.

---

(١) سورة الحج الآية ٤٦.

فإعلانُ

هو مصدر "أعلن الشيء" : أظهره.

البشائرِ

جمع "بشيرة" بمعنى: مبشِّرة. والإضافة ههنا من إضافة الصفة إلى موصوفها.

لم تُسْمَعْ

لهم سماعَ قبول، وكذلك:

وبارقةُ الإنذارِ

أي: الإعلام مع تخويف، ويقال: سحابٌ بارق: ذو برق.

لم تُشَمِ

لهم، أي: لم ينظروا إليها نظر قبول. من: "شامَ البرق": نظر إليه.

* * *

«٦٧» مِن بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ
بِأَنَّ دِينَهُمُ المُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ

من بَعد

متعلّق بـ "عمُوا، وصَمُّوا".

ما

هي حرفٌ مصدري.

أخبَرَ

فعلٌ يتعدَّى إلى مفعولين أولهما: بنفسه، وثانيهما: بالباء كما هنا.

الأقوامَ

جمع "قَوم"، وهو لفظٌ يختصُّ بالذكور، وقد تدخل فيه النساء تغليباً للأشرف على غيره. والقوم: اسم جمعٍ لا واحد له من لفظه. وهو مفعول مقدَّم.

كاهِنُهُم

فاعل مؤخَّر وجوباً، وهو مفرد مضاف إلى معرفة؛ فيعمُّ كل كاهن واحد الكهنة، والكُهَّان ويقال له أيضاً: عرِّيف، وعرَّاف، وهو من يخبر بالمغيَّبات. واشترط البغوي في الكاهن أن يكون معه شيطان يسمى "رئبيلا" وقريناً، وقد كان في العرب كهنة قبل الإسلام يلقي إليهم الشياطين ما يسترقونه من الملائكة ويضيفون إلى الكلمة الواحدة

التي يسمعونها من الملائكة نحو ألف كذبة، ويخبرون بذلك الناس؛ فلما ولد سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، منعت الشياطين من استراق السمع، وبطلت الكهان[1].

بأنَّ دينَهُمُ

الذي اتَّخذوه من عند أنفسهم افتراء على الله، ولذا وصفه بقوله:

المعوَجَّ

أي: المنحرف عن طريق الحق، وسبيل الهدى، الموقع في مهاوي الضلال والرَّدى.

لم يَقُمِ

أي: ليس له قيامٌ ولا رواج. قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2].

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السموات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها، فيلقون على الكهنة، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مُنعوا من السماوات كلها، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب - وهو الشعلة من النار - فلا يخطىء أحداً أبداً، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يخبله، فيصير غولاً يضل الناس في البراري. انظر: المنح المكية في شرح الهمزية لابن حجر ١/ ٣٠١. بتحقيق كاتب السطور عفا الله عنه.

(٢) سورة الإسراء - الآية ٨١.

وأشار الناظم بذلك إلى ما روي أنه لما آن ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم، ولاحت تباشير ولادته، وسطعت أدلَّةُ نبوَّته ورسالته، تواترت بذلك الأخبار من الرهبان والأحبار، وتواترت العلامات على سائر الكُهَّان، في سائر البلدان والأقطار، فطفقوا يخبرون بذلك، ويوضحون للناس هاتيك المسالك.

* * *

«٦٨» وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الْأُفُقِ مِنْ شُهُبٍ
مُنْقَضَّةٍ وِفْقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنَمِ

وبَعدَ

معطوفةٌ على ما قبلها.

ما

موصولة.

عَايَنُوا

أي: شاهدُوه بأبصارهم ليلةَ ولادته صلى الله عليه وآله وسلم.

في الأُفقِ

أي: في جميع الآفاق، وجهات السماء.

من شُهُبٍ

بيانٌ لـ"ما"، وجمع شهاب: وهو شعلة نارٍ ساطعةٌ، والمراد: ما يرسله الله لإحراق الشياطين عند استراقهم السمعَ من الملائكة لما يحدثه الله في العالم.

مُنقَضَّةٍ

صفة لـ"شهب". أي: ساقطةٍ على الشياطين المسترقين للسمعِ.

وفقَ

أي: موافقة، وهو إما مجرورٌ على أنه صفة لـ "شهب". أو منصوب على أنه حالٌ منه، أو صفة لـ "منقضّة"، أو على نزع الخافض.

ما

أي: الذي.

في الأرضِ من صَنَمِ

أي: من جنس ما كانوا يعبدون من دون الله في سقوطه تلك الليلة، وهو بيان لـ "ما".

والصنم والوثنُ قيل: مترادفان، وقيل: الصَّنَم: ما كان مصوَّراً. والوثن: ما ليس كذلك. وقيل غير ذلك.

وأشار الناظم إلى أمرين متوافقين علوي وسفلي، وقعا ليلة ولادته صلى الله عليه وآله وسلم:

-انقضاض الشهب على مسترقي السمع مع حجبهم عن السموات كلها بعد أن حجبوا بولادة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام من ثلاث سماوات منها.

-وسقوط كل صنم كان يُعبَدُ من دون الله تعالى. وذلك من أبهر المعجزات الدالّة على اضمحلال كل باطل، وظهور كل حق بظهوره صلى الله عليه وآله وسلم.

«٦٩» حَتَّىٰ غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مُنْهَزِمٌ
مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

حتى

أي: إلى أن.

غَدا

أي: ذهب، وهو غاية لانقضاضِ الشهب.

عن طريق الوحيِ

جبريل - عليه السلام - ، وهي السماء.

مُنهزِمٌ

أي: مُدْبِر.

من الشياطينِ

المسترقين للسمع. والظرف نعتٌ لـ"منهزم"، أو حالٌ منه.

إثرَ

بكسر الهمزة، لغةٌ في الأثر، بفتح أوليه. وأَثَرُ الشيء: رسمه.

منهزم

منهم، ولم يكن للكفار عهدٌ بمثل ذلك، وإن كان لهم عهدٌ بانقضاضها في الجملة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾(١). وأما قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾(٢).

فالمراد بـ"الآن" فيه: ما بعد بعثته صلى الله عليه وآله وسلم.

والحكمة في حجبهم عن خبر السماء بالكلية صون هذه الشريعة الناسخة لجميع الشرائع عن أن يخلط بها شيء من الأكاذيب وأمر الكهانة.

* * *

(١) سورة الملك الآية ٥.

(٢) سورة الجن - الآيتان ٨و٩.

«٧٠» كَأَنَّهُمْ هَرَبًا أَبْطَالُ أَبْرَهَةٍ
أَوْ عَسْكَرٍ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ رُمِي

كأنَّهُم

أي: الشياطين المنهزمين.

هَرَباً

أي: هاربين، أو: وقت هربهم. والهرب: الفرار. قال ابن السِّكِّيت: هرب الرجلُ إذا جَدَّ في الذَّهاب مذعوراً.

أبطالُ

جمع: بطل، وهو الشجاع الجسور. ويقال للرجل: بطل، وللمرأة: بطَلَة. وجمعها: بطلات.

أبرَهَةٍ

بفتح الهمزة والراء: ملك اليمن، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. وصرفه الناظم - رضي الله عنه - للضرورة. ومعنى أبرهة بالحبشية: الأبيض الوجه، واختلفوا فيه؛ فقيل له: الحميري، وقيل: هو أبو كيسوم الحبشي، ويلقب بالأشرم.

وحاصل ما أشار إليه الناظم: أن أبرهة[1] بنى بصنعاء مدينة اليمن كنيسةً ليصرف إليها حُجَّاج العرب[2]؛ فجاء رجلٌ من كنانةَ؛ فأحدث فيها، ولطَّخ قبلتها بالعذرة[3] فغاظ ذلك أبرهةَ غيظاً شديداً، وحلف ليهدمنَّ الكعبةَ حجراً حجراً، فجاء بجيش عظيم، ومعه فيلٌ عظيم يقال له: "محمود"، في أفيال كثيرة إلى مكة؛ فحين تهيؤوا لدخولها غشّي عليهم، فولّوا هاربين، ورموا بحجارة من سجِّيل، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[4].

ولهذه القصة نوع بسط أشرنا إليه في شرحنا على همزية الناظم؛ فراجعه[5].

---

(١) انظر خبر أبرهة في: سيرة ابن هشام ١/ ٤٥ وما بعدها، و"دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١١٥، و"البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ١٧٠، وكذا تفسير سورة الفيل في جميع كتب التفسير.

(٢) وسمتها العرب: "القليس" لارتفاعها، لأن الناظر إليها يكاد تسقط قلنسوته عن رأسه لارتفاع بنائها، ونقل من قصر بلقيس ما تحتاج إليه، واستذلَّ أهلَ اليمن في بنيان هذه الكنيسة.

(٣) قال ابن سعد رحمه الله تعالى: "وكان نفيل بن خبيب الخثعمي يعرض له ما يكره، فأمهل حتى إذا كان ليلة من الليالي، لم ير أحداً يتحرك، فقام فجاء بعذرة، فلطخ بها قبلته، وجمع جيفاً فألقاها فيها". سبل الهدى والرشاد: ١/ ٢٥٠.

(٤) سورة الفيل.

(٥) عند قول الناظم - رضي الله عنه - في همزيته البيت رقم ٦٢:

إذ أبى الفيلُ ما أتى صاحب الفيـ ـلِ ولم ينفعِ الحِجا والذَّكاءُ >

أو عَسكَرٍ

أي: جيشٍ عظيم، وهو عطف على "أبطال أبرهة".

بالحصا

جمع "حصاة"، وهي الحجر الصغير. والظرف متعلق بـ"رمى" الآتي:

من راحتَيه

صلى الله عليه وآله وسلم. والراحة: بطن الكف، سميت بذلك لحصول الراحة بها:

رُمي

بالبناء للمفعول، وأشار الناظم إلى ما وقع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة بدر؛ كما روى البخاري، وفي غزوة حُنَين كما رواه مسلم(١).

انظر: المنح المكية في شرح الهمزية - همزية البوصيري -للإمام ابن حجر الهيتمي أيضاً: الجزء الأول - صفحة ٣٥٢. تحقيق كاتب هذه السطور عفا الله عنه بمنه وكرمه. وهو من مطبوعات المجمع الثقافي - أبوظبي.

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة حنين: (شاهت الوجوه)- رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع؛ والإمام أحمد في المسند عن أبي عبد الرحمن الفهري - واسمه يزيد بن أسيد - عن عبد بن حميد عن يزيد بن عامر؛ والطبراني في الكبير عن الحارث بن بدل السعدي؛ قال البغوي: وماله غيره، قال: وبلغني أنه لم يسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم وإنما رواه عن عمر بن سفيان الثقفي؛ البغوي، والطبراني أيضاً عن شيبة بن ›

أما غزوة بدر: فلأنَّه لما التقى الجمعان، تناول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفاً من الحصا؛ فرمى به في وجوه المشركين، وقال: شاهت الوجوه. فما بقي مشرك إلا ودخل في عينيه ومنخريه منها شيء، فانهزموا، وقتل من صناديد قريش من قُتل، وأسر من أشرافهم من أسر.

وأما غزوة حُنَين: فلأنَّه - صلى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين، لما استقبلهم ما لم يروا مثله قطُّ من السواد الأكبر والجيش الأكثر، وخرجت الكتائب، وحملوا عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - حملة رجل واحد، وانكشفت عنه خيل بني سليم، وتبعهم أهل مكة، ولم يثبت معه - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا جماعة قليلة، والعباس آخذٌ بعنان بغلته مخافة أن تصل إلى العدو، وأبو سفيان آخذٌ بركابه، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

أنا النبي لا كذب		أنا ابن عبد المطلب

ثم جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول للعباس: "ناد: يا معشر الأنصار، ويا أصحاب شجرة بيعة الرضوان" وكان العباس رجلاً صيِّتاً، فلما سمع المسلمون نداء العباس أقبلوا كأنهم إبلٌ حنَّت على أولادها؛ فتراجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أمرهم أن يصدقوا في الحملة، فاقتتلوا مع الكفار، وانصرف

عثمان؛ وكذا عن حكيم بن حزام أنه قاله يوم بدر؛ والحاكم في المستدرك عن ابن عباس أنه قاله لقريش بمكة. انظر: صحيح مسلم في كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين رقم (١٧٧٧).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إلى قتالهم؛ فقال: الآن حمي الوطيس، وتناول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حصيات من الأرض، ورمى بها في وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه. فلم يبق مشركٌ منهم إلا وأصابه من تلك الرمية في عينيه ما شغله عن القتال[١].

* * *

(١) انظر: صحيح مسلم - باب غزوة حنين، الحديث رقم ٨١/ ١٤٠٢، عن زهير بن حرب. وكذا انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٤١.

«٧١» نَبْذًا بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحٍ بِبَطْنِهِمَا
نَبْذَ الْمُسَبِّحِ مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِمِ

نَبذاً به

أي: رمياً بالحصا، وهو مصدر منصوب بـ"رمى"، نحو: جلست قعوداً. أو بفعل محذوف موافق له في لفظه، أي: نبذ نبذاً.

بعد تسبيحٍ

أي: تنزيه الله تعالى. وبعد: ظرف زمان متعلق بـ"نبذ".

ببطنِهِما

أي: في بطن راحتيه الشريفتين صلى الله عليه وآله وسلم.

وأشار الناظم بذلك إلى ما روي عن أنس رضي الله عنه قال: "أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفاً من حصا؛ فسبَّحن في يده حتى سمعنا التسبيح، ثم صرن في يد أبي بكر فسبَّحنَ، ثم في أيدينا فما سبَّحنَ!"[1].

---

(١) روى الطبراني، والبيهقي، والبزار عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع حصيات، أو قال: تسع حصيات، فأخذهن في كفه، فسبَّحنَ حتى سمعت لهنَّ حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهنَّ فخرسن، ثم أخذهنَّ فوضعهنَّ في كف أبي بكر فسبَّحن حتى سمعت لهنَّ حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهنَّ ›

. . . .

* * *

ورواه البخاري في صحيحه(٦٣٤٥) ، ومسلم (٢٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٣١) ، والنسائي (٦٥٢) . وللحديث شاهد عند الترمذي برقم (٣٥٢٢) . و(٣٠٩) البخاري (٦٣٨٩) ، ومسلم (٢٦٩٠) . والنسائي في سننه (٦٣٠) ، وابن السني (٣٤٣) .

وقال الحافظ بعد تخريجه : حديث صحيح أخرجه أحمد والنسائي وابن حبان وابن السني . الفتوحات ٤/ ٧ . وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وابن أبي شيبة ، وابن السني . وإسناده حسن . (٣١٢) أبو داود (١٥٢٥) ، وابن ماجه (٣٨٨٢) والنسائي (٦٤٧) ، والمسند ٦/ ٣٦٩ ، وإسناده حسن .

الفصل الخامس
في معجزاته صلّى الله عليه وآله وسلّم

«٧٢» جَاءَتْ لِدَعْوَتِـهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً
تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَىٰ سَاقٍ بِلَا قَدَمِ

جاءت

أي: أتته صلى الله عليه وآله وسلم.

لدعوَته

أي: لأجل دعائه إياها، وندائه لها.

الأشجارُ

جمع "شجرة" وهو ما له ساق من النبات.

وأما ما لا ساق له: فنجم. وقد تنازعه كلٌّ من: "جاءت" و"دعوته". والروايات على رفعه إعمالاً للأول.

ساجدةً

أي: خاضعة، وهو حال من "الأشجار".

تمشي

أي: تسير على وجه الأرض.

إليه

صلى الله عليه وآله وسلم.

على ساقٍ

أي: أصلٍ لاصقٍ بالأرض. وسميت ساقاً: لأن الماشي ينساق إليها.

بلا قَدَمِ

أي: خاليةً عنها. والجملة حال من "الأشجار" أيضاً، أي: من الضمير "ساجدةً".

* * *

«٧٣» كَأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ
فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الخَطِّ بِاللَّقَمِ

كأنَّما سَطَرَتْ سطراً

واحدُ سطورِ الكتابة .

لِما

أي : للذي .

كَتَبَتْ

أي : خطَّت من الآثار في الأرض المحاكية لكتابة الحروف .

فروعُها

أي : أصولها التي كانت غائصة في الأرض ، كما يشعر به في كلامه . وبعضهم حمل الفروع على حقيقتها ؛ لأنَّ تلك الأشجار حين جاءت ساجدة ، صارت فروعها وأعلاها من الأغصان تَخُدُّ الأرض . ولا تنافي . . . لجواز أنها خطَّت الأرض أسافلها وأعاليها .

مِن

بيانٌ لـ " ما " .

بديع الخطِّ

أي: عجيبه، وهو: ضمُّ صور الحروف بعضها إلى بعض.

والإضافة فيه إضافة الصفة إلى موصوفها.

في اللَّقم

بفتح أوَّليه: وسط الطرق. وفي نسخة: "باللقم"، بالباء التي بمعنى "في".

وأشار الناظم بذلك إلى ما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فدنا منه - صلى الله عليه وآله وسلم - أعرابيٌّ فقال: يا أعرابي، أين تريد؟. قال: أهلي. قال: هل لك إلى خير؟. قال: وما هو؟. قال: تشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: ومن يشهد لك على ما تقول؟. قال: هذه الشجرة المثمرة، وهي بشاطىء الوادي، فادعها؛ فإنها تجيبك. قال: فدعوتها؛ فأقبلت تَخُدُّ الأرضَ حتى قامت. فأشهدها، فشهدت أنه كما قال. ثم رجعت إلى مكانها.

وفي بعض الروايات: "فقال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها"[1].

---

(١) ذكر الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" ٦/ ١٢٥، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ١٤-١٥ بلفظ قال: "ثم رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه، فقال: إن يتبعوني آتيك بهم، وإلا رجعت إليك فكنت معك". وعند الحاكم في المستدرك "عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بم أعرف ›

وفي رواية: " أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم آيةً. فقال له: قل لتلك الشجرة: رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يدعوكِ.

فمالت عن يمينها وشمالها، وأمامها، وخلفها؛ فقطعت عروقها، ثم جاءت تخدُّ في الأرض حتى وقفت بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم. فقالت: السلام عليك يا رسول الله.

قال الأعرابي: فمرها فلترجع إلى مكانها. فأمرها؛ فرجعت ودلَّت عروقَها في منبتها؛ فاستوت فيه[1].

أنك رسول الله؟ قال: أرأيت لو دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، قال: فدعا العذق، فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط في الأرض، فجعل ينقز حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ثم قال له: ارجع، فرجع، حتى عاد إلى مكانه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وآمن". رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٢٠ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ونقله ابن كثير في التاريخ ٦/ ١٢٥ عن البيهقي في الدلائل.

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فدنا منه أعرابي، فقال: يا أعرابي، أين تريد؟، قال: إلى أهلي، قال: هل لك إلى خير؟، قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.
قال: من يشهد لك على ما تقول؟.
قال: هذه الشجرة السَّمُرَة، وهي بشاطيء الوادي، وادعها فإنها تجبك. فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها.

وروى مسلم: أنه صلى الله عليه وآله وسلم ذهب يقضي حاجته؛ فنظر، فلم يرَ شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي؛ فانطلق إلى إحداهما؛ فأخذ بغصن من أغصانها؛ فقال: انقادي معي بإذن الله. فانقات معه حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها؛ فقال: انقادي معي بإذن الله تعالى؛ فالتأمتا؛ ثم لما قضى حاجته افترقتا؛ فقامت كل واحدة منهما على ساق(١).

رواه البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ١٥، والبزار، والدارمي مسنداً عن ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره القاضي عياض في الشفا صفحة ٤٢٠.

وعن بريدة: سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم أية، فقال له: قل لتلك الشجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك. قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها، فتقطّعت عروقها، ثم جاءت تخدُّ الأرض، تجر عروقها، مغبرّة حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: السلام عليك يا رسول الله. قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت، فدلت عروقها فاستوت. فقال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك. قال: لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. قال: فأذن لي أن أقبل يديك ورجليك، فأذن له. رواه البزار مسنداً، وذكره القاضي عياض في الشفا ص ٤٢١.

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه حديث جابر الطويل، وفيه: قال جابر: "سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللّه صلى الله عليه وسلم حَتّىٰ نَزَلْنَا وَادِياً أَفْيَحَ. فَذَهَبَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم يَقْضِي حَاجَتَهُ. فَاتّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ مِنْ مَاء. فَنَظَرَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يَرَ شَيْئاً يَسْتَتِرُ بِهِ. فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِىءِ الْوَادِي. فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم إِلَىٰ إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا. فَقَالَ: "انْقَادِي عَلَيّ بِإِذْنِ اللّه" فَانْقَادَتْ مَعَهُ ←

وللإشارة إلى جميع هذه الروايات عبَّر الناظم بـ" الأشجار" صيغة الجمع. ثم آية مجيء الأشجار ساجدة: -

---

كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ، الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ. حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الأُخْرَى. فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا. فَقَالَ: "انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ" فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ. حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ و"المنصف": بفتح الميم والصاد، والمهملة: نصف المسافة - مِمَّا بَيْنَهُمَا، لأَمَ بَيْنَهُمَا (يَعْنِي جَمَعَهُمَا) فَقَالَ: "الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ" فَالْتَأَمَتَا. قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ مَخَافَةَ أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ (وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ: فَيَتَبَعَّدَ) فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي. فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُقْبِلاً، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا. فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ. فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَفَ وَقْفَةً. فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا (وَأَشَارَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ بِرَأْسِهِ يَمِيناً وَشِمَالاً) ثُمَّ أَقْبَلَ. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيَّ قَالَ: "يَا جَابِرُ! هَلْ رَأَيْتَ مَقَامِي؟" قُلْتُ: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: "فَانْطَلِقْ إِلَى الشَّجَرَتَيْنِ فَاقْطَعْ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا غُصْناً. فَأَقْبِلْ بِهِمَا. حَتَّى إِذَا قُمْتَ مَقَامِي فَأَرْسِلْ غُصْناً عَنْ يَمِينِكَ وَغُصْناً عَنْ يَسَارِكَ". قَالَ جَابِرٌ: فَقُمْتُ فَأَخَذْتُ حَجَراً فَكَسَرْتُهُ وَحَسَرْتُهُ. فَانْذَلَقَ لِي. فَأَتَيْتُ الشَّجَرَتَيْنِ فَقَطَعْتُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا غُصْناً. ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَجُرُّهُمَا حَتَّى قُمْتُ مَقَامَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. أَرْسَلْتُ غُصْناً عَنْ يَمِينِي وَغُصْناً عَنْ يَسَارِي. ثُمَّ لَحِقْتُهُ فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَعَمَّ ذَاكَ؟ قَالَ: "إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ. فَأَحْبَبْتُ، بِشَفَاعَتِي، أَنْ يُرَفَّهَ عَنْهُمَا، مَا دَامَ الْغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ".

انظر: صحيح مسلم - الجزء الرابع. ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق. ١٨ - باب حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليسر. الحديث رقم: ٣٠١٢. و البداية والنهاية، للإمام ابن كثير - الجزء السادس. حديث آخر عن جابر في ذلك. وباب انقياد الشجر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

«٧٤» مِثْلَ الْغَمَامَةِ أَنَّى سَارَ سَائِرَةً
تَقِيهِ حَرَّ وَطِيسٍ لِلْهَجِيرِ حَمِي

مثلَ

آية :

الغَمامةِ

واحدة "الغمام" بمعنى السحاب، أي: في الانقياد إليه، وتعظيمه، والقيام بوظائف خدمته؛ فتطابق العلوي والسفلي. فهي في ذلك. . . . : -

أنَّى

حيثما.

سارَ

صلى الله عليه وآله وسلم. وهو ظرفٌ لقوله:

سائرةً

وهو حال من "الغمامة".

تقيهِ

صلى الله عليه وآله وسلم- أي: تمنع عنه بتظليلها إياه:

حرَ وطيسٍ

أي: تَنُّور.

للهجير

وهو وسط النهار إذا كان حراً، ويقال له: الهاجرة. والمعنى: تقيه حرَّ هجيرٍ كحَرِّ وطيسٍ في شدَّته.

حمِي

أي: اشتدت حرارته، وهو صفة لـ "وطيس". يقال: حمي الوطيس إذا اشتدَّ الحرُّ أو الحرب. وصيغة "حمي" يحتمل الفعل والاسم، لكن الفعل أنسب بالقول السابق.

ثم ... تظليل الغمام وقع له صلى الله عليه وآله وسلم مرَّات كلها قبل النبوة إرهاصاً.

فمنها: ما وقع له مع عمه أبي طالب حين سافر معه إلى الشام[1].

---

(١) قال البيهقي في "دلائل النبوة": فأما القصة فهي عند أهل المغازي مشهورة، "دلائل النبوة للبيهقي" ٢/ ٢٦، وضعَّف الذهبي هذا الحديث، وقال ابن حجر: رجاله ثقات. وانظر أيضاً: "الوفا" لابن الجوزي ١/ ١٣١ وما بعدها. وخبر "بحيرا الراهب" في: شرح المواهب اللدنية ١/ ١٩٠، والخصائص الكبرى ١/ ٨٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٥٤، و"الوفا بأحوال المصطفى" لابن الجوزي ١/ ١٣١، وما بعدها، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٥٢ وما بعدها.

ومنها: ما وقع له عند حليمة السعدية رضي الله عنها.

ومنها: ما وقع له وهو راجعٌ من الشام مع ميسرة غلام خديجة رضي الله عنها[1].

ومما يدلُّ على انقطاع ذلك بعد النبوة: أن الصِّدِّيقَ أظلَّه - حين قدما المدينة في الهجرة لما أصابته الشمس - بردائه. وصحَّ: أنه ظلَّل عليه بثوب وهو يرمي الجمرة[2]. وظلَّل عليه مرة أخرى - وهو بالجعرانة - [3]. والصحابةُ كانوا في أسفارهم يتركون له الشجرة الظليلة[4].

* * *

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٥٨.

(٢) عَنْ يَحْيَى بْنِ الْحُصَيْنِ، عَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ جَدَّتِه قَالَتْ: حَجَجْتُ مَعَ رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم حَجَّةَ الْوَدَاعِ. فَرَأَيْتُ أُسَامَةَ وَبِلاَلاً وَأَحَدُهُمَا آخِذٌ بِخِطَامِ نَاقَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم. وَالآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ يَسْتُرُهُ مِنَ الْحَرِّ. حَتَّى رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ. انظر: صحيح مسلم ج ٢/ كتاب الحج باب ٥١/ ٣١٢.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام العسقلاني - وجدت في: المجلد السابع. بقية كتَاب الْمَنَاقب. باب هِجْرَة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه إِلَى الْمَدِينَة.

(٤) انظر: المنح المكية في شرح الهمزية للإمام ابن حجر ١/ ٣١٦، بتحقيق كاتب السطور عفا الله عنه.

«٧٥» أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ إِنَّ لَهُ
مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ

أقسمتُ

أي: حلفتُ.

بالقمرِ

أي: بربه أو خالقه(١)، أو ما يؤاخي ذلك، لأنَّ الحلف بغير الله لا يجوز، لخبر: "من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت"(٢).

---

(١) فانظر يا أخي إلى حسن الظن من الشارح بالناظم رضي الله عنهما حين شرح "قسمه ويمينه بالقمر" أنه حلف برب القمر لا بالقمر، فحاشا الإمام البوصيري أن يحلف بغير الله تعالى وهو الإمام العارف بالله تعالى، والمحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حاشاه أن يحلف بغير الله، فيخالف شريعة الله، لكن بعض الناس من الحسدة الذين لا همَّ لهم إلا الافتراء على من خالفهم في عقيدتهم ويأبون إلا أن يسيؤوا إلى الإمام ويستشهدون بهذا البيت أن الإمام أشرك بالله حين حلف بالقمر، ويصموه بالشرك والابتداع والزندقة إلى آخر هذه الأوصاف التي تمجها الأسماع - وهو بريء بريء بريء من كل ما وصمه به قطاع الطرق من رسل الشيطان، المبغضون لأهل الله، نحمد الله تعالى أن عافانا مما ابتلاهم.

(٢) قوله صلى الله عليه وسلم قال: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت». رواه البخاري في صحيحه. انظر: صحيح البخاري، الجزء الثاني. ٥٦ - كتاب الشهادات.،

أما الله سبحانه؛ فيجوز في حقِّه أن يقسم بما شاء من خلقه، وهو في القرآن كثير؛ كقوله تعالى: ﴿والطُّور﴾، و: ﴿والشمس﴾، و﴿والليل﴾، و: ﴿والضحى﴾، وغير ذلك.

المُنشَق

أي: المنفلِق.

إنَّ له

صلى الله عليه وآله وسلم، وهو من أمهات المعجزات، وأصول الكرامات التي لم تقع لغيره صلى الله عليه وآله وسلم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

وذلك لأنَّ كفار مكة لما كذَّبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، طلبوا منه آية تدلُّ على صدقه في دعواه، فأعطاه الله هذه الآية العظيمة.

قال السبكي: والصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر منصوصٌ عليه في القرآن، مرويٌّ في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى، انتهى[1].

› ٢٦ - باب: كيف يستحلف. الحديث رقم: ٢٥٣٣. وصحيح مسلم. الجزء الثالث. ٢٧ - كتاب الأيمان. باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى. الحديث رقم: ٤ - (١٦٤٦).

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين. وعنه أيضاً: سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر بمكة فرقتين مرتين ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾. يقول: ذاهب". أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٢٧ باب سؤال ›

وقد ورد في رواية: " انشق القمر فلقتين، فلقة دون الجبل، وفلقة خلف الجبل" . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اشهدوا(١) .

المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر، حديث ٣٦٢٧، فتح الباري ٦/ ٦٣١، عن عبد الله بن محمد، عن يونس، عن شيبان، عن قتادة، عن أنس، وأعاده في كتاب مناقب الأنصار ٣٦، باب انشقاق القمر، حديث ٣٨٦٨، فتح الباري ٧/ ١٨٣، عن عبد الله بن عبد الوهاب، عن بشر بن المفضل، عن سعيد ابن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس، وبالإسناد الأول أعاده البخاري في تفسير وانشق القمر . "فتح الباري ٨/ ٦١٧" . وأخرجه مسلم في : كتاب المنافقين - باب انشقاق القمر، حديث ٤٣، ٤٧، ٤٨ . عن عبد الله بن مسعود، وعن أنس، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، ٤/ ٢١٥٨ . وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٧٧، و ٤١٣، و ٤٤٧ . و ٣/ ٢٧٥، ٢٧٨ . و٤/ ٨٢ .

(١) عن عبدالله بن مسعود. قال: " بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى، إذا انفلق القمر فلقتين. فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه. فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "اشهدوا" . انظر: صحيح مسلم. الجزء الرابع. كتاب صفة القيامة والجنة والنار. ٨ - باب انشقاق القمر . الحديث رقم: ٤٤ - (٢٨٠٠). وسنن الترمذي (وشرح العلل)، للإمام الترمذي - المُجَلَّد الخَامس. تابع: أبواب تفسير القرآن، عن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم. سُورَةَ الْقَمَرِ. الحديث رقم: ٣٣٣٩ . وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(١) أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير

وفي رواية: "فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل"[1].

فقالوا: سحرنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -.

فقال رجل منهم - قيل: أبو جهل لعنه الله-: إن كان محمدٌ سَحَرَكم فإنه لا يستطيع سحر الناس كلهم. فقال كفار قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة!.

فقال بعضهم: ألا تنظرون من يأتيكم من السُّفَّار؛ فإنَّ محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلَّهم. فجاء سُفَّارٌ فأخبروهم بذلك[2].

بن مطعم في قوله ﴿وانشق القمر﴾قال: انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. انظر: مسند الإمام أحمد - المجلد الرابع. أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين. حديث جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه.

(٢) روى الترمذي بسنده عن مُحمَّد بن جُبَيْر بن مُطعم عَنْ أبيه قَالَ: " انشقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم حتَّى صَارَ فِرْقَتَيْن عَلَى هَذَا الجبل وعَلَى هَذَا الجبلِ فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحمَّدٌ فَقَالَ بعضُهُم: لَئِنْ كَانَ سَحَرَنا فمَا يستطيعُ أنْ يسْحَرَ النَّاس كلَّهُم" وقد رَوى بعضُهم هَذَا الحُديث عَنْ حُصَيْن عَنْ جُبَير بن مُحمَّد بن جُبَير بن مطعم عَنْ أبيه عَنْ جدِّه جُبير ابن مطعم نحوه. انظر: سنن الترمذي (وشرح العلل)، للإمام الترمذي - المُجَلَّد الخَامس. تابع: أبواب تفسير القرآن، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. سُورَة الْقَمَر. الحديث رقم: ٣٣٤٣. و مسند الإمام أحمد. المجلد الرابع. أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين. حديث جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه.

(١) دلائل النبوة للبيهقي، ورواه ابن عساكر. انظر: كنز العمال للمتقي الهندي - المجلد

ونسبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي كبشة وهو جدُّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمِّه. وقيل: جدُّ عبد المطَّلب لأمه. وقيل غير ذلك؛ لأنه كان من عادتهم أنهم إذا غضبوا على رجل نسبوه إلى أغمض أجداده.

واختلف العلماء في أي ليلة كان انشقاق القمر، وفي الجبل الذي انشقَّ عليه، وفي تعدُّدِ وقوعه.

والأكثرون على أنه انشق ليلة إبدائه على "حراء: . وأنه لم يقع إلا مرة.

إنَّ

بكسر الهمزة: جواب القسم. وفتَحَها الزركشي على حذف لام التعليل، وجعل جواب القسم قوله الآتي: "ما ضامني الدهر يوماً. . ." .

له

أي: القمر المنشق.

من قلبه

صلى الله عليه وآله وسلم، والظرف يتعلق بقوله:

نِسبَةً

أي: شبيهاً باعتبار أن قلبه الشريف كما شُقَّ وغُسِل ليقرَّر فيه معارف النبوة، ويتمكن فيه أسرارها، كذلك القمر شُقَّ لتتحقَّق النبوة، وتظهر عند الناس أحوالها باعتبار أنَّ القمر كما يتلألأ نوراً كذلك قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم يتلألأ

نوراً، بما أفرغ فيه من معارف النبوة، وأسرار الرسالة على وجه أكمل من تلألؤ القمر.

مبرورة القَسَم

أي: صادقة القسَم، بالنصب، صفة نسبة، وبعضهم جعلها صفة "يميناً" دلَّ عليها قوله: "أقسمت".

ثم . . . شقُّ قلبه صلى الله عليه وآله وسلم وقع له مرات:

أولها: وهو عند حليمة السعدية، كما جاء في حديث أبي نعيم[1] وغيره أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«كنت مسترضعاً في بني ليث بن بكر؛ فبينا أنا ذات يوم في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان؛ فإذا أنا برهطٍ ثلاثة، معهم طست من ذهب مليء ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق الصِّبيان مسرعين إلى الحي، فعمد أحدهم فأضجعني إلى الأرض إضجاعاً لطيفاً، ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مسّاً، ثم أخرج أحشاء بطني وغسلها بذلك الثلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني، فقال لصاحبه: تنحَّ عنه. ثم أدخل يده في جوفي، وأخرج قلبي، وأنا أنظر إليه، فصدعه، ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها، ثم قال بيده يمنة ويسرة كأنه يتناول شيئاً، فإذا خاتم من نور يحار الناظرون [به]، فختم به قلبي، فامتلأ نوراً، وذلك نور النبوة والحكمة. ثم أعاده مكانه؛ فوجدت برد ذلك

الثاني عشر. جامع الدلائل وأعلام النبوة. الحديث رقم: ٣٥٥٥٩.

(١) روى أبو نعيم في الدلائل، وابن عساكر، وابن حبان، والحاكم في المستدرك: أن أبا

الخاتم في قلبي دهراً، ثم قال الثالث لصاحبه: تنحَّ فأمرَّ يده بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى. ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً».

وثانيها: وهو ابن عشر سنين [1] على ما روى أبو نعيم، وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ما أول ما ابتداءت به من أمر النبوة؟.

هريرة رضي الله عنه كان جريئاً على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله! ما أقول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى جالساً وقال: لقد سألت أبا هريرة! إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج وأشهر إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأخذاني فصلقاني - أي ألقياني على ظهري - على ظهري بحلاوة القفا ثم شقا بطني، فكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فإذا صدري فيما أرى ملفوفاً لا أجد له وجعاً، ثم قال: اشقق قلبه، فشق قلبي، فقال: أخرج الغل والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذ به، ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئا كهيئة الفضة، ثم أخرج ذروراً كان معه فذره عليه ثم نقر إبهامي ثم قال: اغد، فرجعت بما لم أغد به من رحمتي للصغير ورقتي على الكبير.
انظر: كنز العمال للمتقي الهندي - المجلد الثاني عشر تتمة المعجزات ودلائل النبوة - الحديث رقم: ٣٥٤٣٠ "مسند أبي بن كعب".

(١) والذي ينبغي لنا أن نتذكره هنا قبل قراءة القصة وما يليها أن ما وقع له صلى الله عليه وآله

قال: إني لفي صحراء أمشي وأنا ابن عشر حجج، إذ أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأخذاني فأضجعاني لحلاوة القفا، ثم شقا بطني، وكان أحدهما يختلف بالماء في طشت من ذهب، والآخر يغسل جوفي، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدرَه. فإذا صدري فيما أرى مفلوق لا أجد له وجعاً. ثم قال: اشقق قلبه. فشقَّ قلبي، فقال: أخرج الغِلَّ والحسد منه. فأخرج شبه العلقة، فنبذ به. ثم قال: أدخل الرحمة والرأفة قلبه، فأخرج شيئاً كهيئة الفضة، ثم أخرج ذروراً كان معه فذرَّ عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغدُ. فرجعت بما لم أغدُ به من رحمتي للصغير، ورأفتي للكبير".

والحكمة في شق صدره صلى الله عليه وآله وسلم -حالة صباه، واستخراج ما مرَّ من تطهيره عن نقائص الصبا، ليكون من ابتداء عمره على أكمل الصفات، وأتمَّ الحالات[1].

وسلم في صباه هو من إرهاصات نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، ودلائل اختيار الله تعالى له لأمر جليل، وليست الحكمة من هذه الحادثة استئصال غدة الشر من جسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحاشاه أن يكون فيه هذا، ودليله أنه لو كان الشرُّ منبعه غدة في الجسم أو عَلَقةً في بعض أنحائه، لأمكن أن يصبح الشرير خيِّراً بعملية جراحية، ولكن يبدو أن الحكمة هي إعلان أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتهيؤه للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به، وتصديقهم برسالته صلى الله عليه وآله وسلم، إنها إذاً: عملية تطهير معنوي، ولكنها اتَّخذت هذا الشكل المادي الحي ليكون في ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم. وأياً كانت الحكمة فلا ينبغي - >
وقد ثبت الخبر الصحيح في نقلها ثبوتاً يقينياً لا ينبغي محاولة البحث عن مخارج لنخرج

وثالثها: عند مجيء جبريل عليه السلام، وهو صلى الله عليه وآله وسلم بغار حراء. وممن رواه: أبو نعيم، ولفظه: " إن جبريل وميكائيل شقا صدره صلى الله عليه وآله وسلم، وغسلاه ثم قالا: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١).

والحكمة فيه كمال تهيئه، والتقوّي على ما سيلقى عليه من الوحي بقلب قوي مطهَّر.

ورابعتها: ليلة الإسراء.

ففي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه: " فرج سقفُ بيتي وأنا بمكة، فنزل

منها بهذا الحديث عن ظاهره وحقيقته، كما يفعل بعض الناس اليوم، تجدهم من الحياء بمكان وهم يقفون أمام معجزة من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم، أو قصة كهذه القصة، تجدهم فيجهدون أنفسهم في استخراج مسوغات أو تعاليل ربما تؤدي أحدهم إلى إنكار القصة من أصلها، وليس هذا إلا من ضعف الإيمان بالله تعالى، وخور اليقين بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهم يريدون إسلاماً دون معجزات أو خرق للنواميس حتى يقال عنهم إنهم أهل منطق وعلم لا يصحب إيمانهم خوارق ينكرها من هم على غير ملة الإسلام، وبهذا يتخلصون من وصمهم بأنهم غيبيون يؤمنون بما وراء الطبيعة... إلخ، والله تعالى أعلم. وقد نبه لهذا العلامة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه " فقه السيرة " - صفحة ٧٣ عند ذكر قصة شق الصدر.

(١)سورة العلق - الآيات(١٥).

(١) انظر: صحيح البخاري، الجزء الأول. ٨ - كتاب الصلاة. ١ - باب: كيف فرضت

جبريل ، ففرَّج صدري ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطشت من ذهب ممتلء حكمة وإيمانا ، فأفرغها في صدري ، أطبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء»[1] .

والحكمة في هذا الشق : الاستعداد للرُّقيّ إلى الملأ الأعلى ، والتقوِّي على ما وقع له تلك الليلة مما لم يقع لنبي مرسل ، ولا ملَك مقرَّب .

* * *

الصلوات في الإسراء . الحديث رقم : ٣٤٢ وصحيح مسلم . الجزء الأول . ١ - كتاب الإيمان . (٧٤) باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات ، وفرض الصلوات . الحديث رقم : ٢٦٣ - (١٦٣) . ومسند الإمام أحمد . المجلد الخامس . مسند الأنصار رضي الله عنهم . حديث أنس بن مالك عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه .

(١) سورة التوبة - الآية ٤٠ .

«٧٦» وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ
وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي

وما حوى

أي: جمع.

الغَارُ

غار ثَور، وهو جبلٌ بأسفل مكة، على ثلاثة أميال منها، وهو الغار الذي اختفى فيه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأبو بكر الصِّدِّيق - رضي الله تعالى عنه - عن أعين الكفار حين أرادا أن يهاجرا من مكةَ إلى المدينة، ولبثا فيه ثلاث ليال كي ينقطع عنهما الطلب. وهو الغار المشار إليه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١). وهو - أي الغار - مشهور، سُنَّ زيارته كسائر الأمكنة المأثورة، ولذلك الغار بابان أحدهما مُتَّسع، والآخر ضيِّق.

وفي القاموس: "جبلٌ بمكَّةَ، وفيه الغارُ المذكورُ في التَّنْزِيلِ، ويقالُ له: ثَوْرُ أطْحَلَ، واسمُ الجَبَلِ: أطْحَلُ، نَزَلَهُ ثَوْرُ بنُ عبدِ مَنَاةَ، فَنُسِبَ إليه". وفيه - كما قيل -

(١)أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر قال: "جاء أبو بكر

قتل قابيلُ هابيلَ. وهذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما. والغار بأعلى الجبل لا يوصل إليه إلا بكمال مشقّة.

ثم قول الناظم: "وما حوى الغار" إما معطوفٌ على المقسم به، وإما منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر ما حوى الغار:-

من خَيرٍ

بيان لـ"ما"، و"خير" إما بكسر الخاء وهو الكرم، كما قال الجوهري، وحينئذ فالعطف في قوله:-

ومن كَرَمٍ

من عطف أحد المترادفين على الآخر، وإما بفتحها: وهو ضد الشرّ؛ فيكون من عطف أحد المتغايرين على الآخر. ثم يحتمل أن يريد بكلٍّ من الخير ومن الكرم كُلاً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، ويحتمل أن يريد بالأول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبالثاني أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وذلك لأنه آثر النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه وماله.

أما الثاني: فلأنه أنفق جميع ماله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى ضَعَفَةَ المسلمين، حتى تخلّى للعبادة، ولم يترك لأولاده إلا الله ورسوله، كما جاء عنه(١) مع أنَّ ماله ينوف على أربعين ألف دينار.

بجميع ماله وعمر بشطر ماله فقال صلى الله عليه وسلم: "ما أبقيت لأهلك" فقال: مثله، وقال لأبي بكر رضي الله عنه "ما أبقيت لأهلك" قال الله ورسوله، فقال صلى الله

وأما الأول: فمنه أنهما لما أتيا الغار تقدَّم أبو بكر لدخوله مخافة أن يكون فيه ما يؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم - فيتلقّاه بنفسه، ثم لما لم يرَ شيئاً حمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأدخله الغار، وكان فيه خرقٌ فخشي أن يخرج منه ما يؤذي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، فألقمه قدمه؛ فجعلت الحيات تضربه، وجعلت دموعه تنحدر، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا(١).

عليه وسلم: "بينكما ما بين كلمتيكما". انظر: تخريج أحاديث الإحياء، للحافظ العراقي- المجلد الأول - كتاب أسرار الزكاة - الحديث رقم: ١".

وروى الترمذي في سننه عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، جئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك؟ قلت، أبقيت لهم، قال: ما أبقيت لهم؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدا". سنن الترمذي كتاب مناقب أبي بكر الصديق رقم ٣٧٥٧ وقال حسن صحيح. ورواه الدارمي، وأبو داود.

انظر: كنز العمال للمتقي الهندي - المجلد الثاني عشر - فضل الصديق رضي الله عنه. الحديث رقم: ٣٥٦١١.

(١) أخرج البيهقي في "الدلائل"، وابن عساكر عن ضبة بن محصن العبري قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنت خير من أبي بكر، فبكى وقال: والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين. ›
قال: أما ليلته، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم هاربا من أهل مكة، خرج ليلا

وفي رواية: فدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووضع رأسه في حجر أبي بكر ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر فلم يتحرَّكْ مخافة أن ينتبه من نومه صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: ما لك يا أبا بكر؟ فقال: لدغت فداك أبي وأمي. فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذهب عنه ما كان يجده. ومعنى

فتبعه أبو بكر رضي الله عنه فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه، ومرة عن يمينه ومرة عن يساره، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من فعلك؟! قال: يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون من خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك. فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه أنها قد حفيت حمله على كاهله وجعل يشد به حتى أتى فم الغار فأنزله، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، فدخل فلم ير شيئا فحمله فأدخله، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعي، فخشي أبو بكر رضي الله عنه أن يخرج منهن شيء يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقمه قدمه، فجعلن يضربنه وتلسعه الأفاعي والحيات وجعلت دموعه تتحدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته، أي طمأنينته لأبي بكر رضي الله عنه، فهذه ليلته.

انظر: دلائل النبوة للإمام البيهقي - الجزء الثاني - ص ٤٧١ وما بعدها - باب خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع صاحبه أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى الغار، وما ظهر في ذلك من الآثار.

(١) سورة البقرة - الآية ١٥٣ .

قوله: "إن الله معنا" أي: بالمعونة والنصر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]. لتنزُّهه تعالى عن المكان والزمان.

وكُلُّ طَرفٍ

أي: عينٍ باصرة.

من الكُفَّار

الذين وصلوا إلى الغار لطلب من حواه. والظرف: صفة لـ"طرف".

عَنهُ

أي: عما حواه الغار. والظرف متعلق بقوله: -

عَمِ

أي: غير مبصرة، وصيغة "عَمِي": يحتمل الفعلية والاسمية.

وأشار الناظم بما ذكر إلى ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "اللَّهم أعمِ أبصارهم" فعميت عن دخوله، وجعلوا يضربون شمالاً ويميناً حول الغار.

وعن أنس رضي الله عنه: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) روى مسلم في صحيحه بسنده عن سيدنا أَنَس بن مَالِكٍ أَنَّ أَبَا بكرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ:

«ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟»[1].

وروي أيضاً: أن أبا بكر رضي الله عنه لما رأى القافلة اشتدَّ خوفه على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: إن قتلت أنا فإنما أنا رجلٌ واحد، وإن قتلت أنت يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هلكت الأمة.

فعندها قال: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[2].

والسَّكينةُ: أَمَنَةٌ تسكن عندها القلوب.

والضمير في "عليه" يرجع إلى أبي بكر رضي الله عنه، لأنه هو الذي ارتاع من الكفرة الفجرة.

والضمير في "أيده" يرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والجنود هم الملائكة الذين حرسوه صلى الله عليه وآله وسلم، وصرفوا عنه وجوه الكفار وأبصارهم فلم يروه.

نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُؤُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ. فَقَالَ "يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا".
انظر: صحيح مسلم - الجزء الرابع - ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ١ - باب من فضائل أبي بكر الصديق، رضي الله عنه. الحديث رقم: ١ - (٢٣٨١).
و "فتح الباري، شرح صحيح البخاري"، للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد السابع. بقية كِتَاب المَنَاقب. باب هِجْرَة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.
(٢) سورة التوبة - الآية ٤٠.
(١) سورة الزمر - الآية ٣٣.

«٧٧» فَالصِّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا
وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمِ

فالصِّدقُ

أي: صاحبه، وهو النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -. ووصفه بذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢).

في الغَار

أي: غار ثور.

والصِّدِّيق

أبو بكر - رضي الله عنه - كذلك، أو مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والظرف: خبر "الصدق"، وخبر "الصِّدِّيق" محذوفٌ لدلالته عليه، نحو: زيدٌ في الدار وعمرو. وفي نسخة بخط المصنف: "والتصديق" مصدر "صدَّق" المضاعف.

وسمي أبو بكر بذلك لأنه صدَّق النبي صلى الله عليه وآله وسلم - مبادرةً من غير سبق تلعثُم واستغراب بشيء مما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاءت

---

(٢) سورة النجم - الآية ٣و٤ .

(١) روى أبو نعيم بسنده عن عائشة قالت: لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم أصبح

به الأخبار [1].

لم يرِمَا

أي: حالة كونهما لم يبرحا، ولم يتحوَّلا عن الغار.

وأصل لم يرما: "لم يريما" حذف الناظم الياء من فعل الاثنين تبعاً لحذفها في الواحد نحو: لم يرَ.

قال أبو عمرو: و"مريم" مفعل من: رام يريم، يقال: لا رمت. أي: لا برحت، وهو دعاء بالإقامة، أي: لا زلت مقيماً.

وهم

أي: والحال أن الكفار الذين وصلوا إلى الغار: -

يقولون

لما أنزل الله بساحتهم، وأعمى الأبصار والبصائر: -

يحدث بذاك الناس، فارتد ناس ممن كان آمن به وصدق وفتنوا، فقال أبو بكر: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدق بخبر السماء في غدوة أو روحة؛ فلذلك سمي أبو بكر: الصديق. انظر: كنز العمال للمتقي الهندي - المجلد الثاني عشر. تتمة فضل الصديق رضي الله عنه. الحديث رقم: ٣٥٦٥٧.

(١) قال العلامة ابن منظور في لسان العرب: " والحمامُ يَشْرَبُ الماء عبّاً، كما تَعُبُّ

ما بالغار من أرِمِ

بفتح الهمزة وكسر الراء، أي: من أحد، بزيادة "من" بعد النفي. وحكى أبو زيد في "أرم" لغة أخرى، وهي: أريم على زنة: فعيل. وحكى ابن الأعرابي: آرم، على وزن: فاعل.

ومعنى البيت: أن الكفار عموا عمَّن في الغار، فقالوا: ما فيه من أحد منهما، والحال: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه رضي الله عنه فيه لم يتحوَّلا عنه. ثم أشار الناظم رضي الله عنه إلى بيان ظنِّهم بسبب عماهم فقال: -

* * *

«٧٨» ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ

ظَنُّوا

أي: الكفَّار الذين وصلوا إلى الغار.

الحَمام

جمع حمامة، وتاؤها للوحدة، وتقع على الذكر والأنثى. والحمام كما قال الشافعي رضي الله عنه: ما عبَّ وهدر. والعبُّ: شربُ الماء بغير مصّ. والهدير: ترجيع الصوت بترنُّم(١).

وظَنُّوا العنكبوت

أيضاً، وهي الدابّة النسَّاجة، ويقال لها أيضاً: العنكبات. والعنكبوت يقع على الواحد وغيره، والذكر وغيره، ويجمع على: عناكب، وعناكيب، وأعكاب، وأعكُب، وعكبة.

الدَّوابُّ. قال الشافعي: الحمامُ من الطير ما عَبَّ وهَدَر؛ وذلك أن الحمام يَعُبُّ الماء عَبّاً ولا يَشرب كما يشرب الطَّير شيئاً فشيئاً».

(١) عن أبي مصعب المكي قال: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك

على خير البريَّة

أي : أفضلِ الخلق صلى الله عليه وآله وسلم ، والظرف متعلق بقوله : -

لم تنسُجْ

بضمِّ السين وكسرها ، أي : لم تحُكْ حَوكَها المعروف .

ولم تَحُمِ

أي : لم تدُرْ على خير البريَّةِ . من " حام حول الشيء " : دار به .

ومعنى البيت : أن الكفار لعمى أبصارهم وانطماس بصائرهم ، ظنوا الحمامَ لم يحُم حول فم الغار ، والعنكبوت لم تنسج عليه!!! . . . معجزةً له صلى الله عليه وآله وسلم ، ووقايةً له من أعدائه ، بل ظنُّوا ذلك لخلوِّ المكان عن الأناسيّ رأساً ، لأنهما دابتان وحشيتان ، لا يألفان مأهولاً في العادة ، وأنهما متى أحسَّا بشخصٍ فرَّا . وما علموا أن الله تعالى فاعلٌ مختار يسخِّر ما يشاء من خلقه لمن يشاء من عباده .

وأشار الناظم رضي الله عنه بهذا البيت إلى ما رواه البزار في مسنده : أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين ؛ فوقفتا على وجه الغار ، ثم أقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيِّهم وهراويهم وسيوفهم ، فجعل بعضهم ينظر في الغار فلم يرَ إلا حمامتين وحشيتين ، فعرفوا أنه ليس فيه أحد - أي : بفم الغار - ؛ فرجع إلى أصحابه . فقالوا : ما لك؟ . فقال : رأيت حمامتين وحشيتين ؛ فعرفت أنه ليس فيه أحد .

وقال الآخر: ادخلوا الغار. فقال أمية بن خلف: وما أربكم بالغار؟ إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -.

وقد روي أن الحمامتين باضتا بأسفل الثقب، ونسج العنكبوت على فم الغار. فقالوا: لو دخل لتكسَّر البيض، وتفسَّخ نسج العنكبوت.

وروي أيضاً: أن شجرة نبتت على باب الغار؛ فسترت وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من أعدائه [1].

يحدثون أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة بات في الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار فسترت وجه النبي صلى الله عليه وسلم. وأمر الله تبارك وتعالى العنكبوت فنسجت على وجه الغار. وأمر الله تبارك وتعالى حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار. وأتى المشركون من كل فج حتى كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم وتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين فرجع فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد فسمع النبي صلى الله عليه وسلم قوله فعلم أن الله تبارك وتعالى قد درأ بهما عنه فسمت عليهما وفرض جزاءهما واتخذ في حرم الله تبارك وتعالى فرخين أحسبه قال: فأصل كل حمام في الحرم من فراخهما. رواه البزار والطبراني.

انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي - المجلد السادس. ٢٥ . كتاب المغازي والسير. ١١ . باب الهجرة إلى المدينة. الحديث رقم: ٩٩٠٤ .

(١) في الأصل المخطوط: " ما ضامني ". وهو اختلاف نسخ، أثبت هنا الغالب على أكثر

«٧٩» وِقَايَـةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَـةٍ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَـالٍ مِنَ الأُطُمِ

وقاية الله

أي: حمايته، ومنَعَتهُ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أعدائه الجَم الغفير، والعدد الكثير:-

أغنَتْ عن مضاعَفةٍ من

جنس:

الدُّروع

وهو بيان لـ"مضاعفة". والدّروع: جمع درع، وهو ثوب منسوج من حِلَق الحديد، ويجمع في الكثير على: دروع، وفي القلة على: أدرُع، وأدراع.

والدُّروع المضاعفة هي المنسوجة حلقتين حلقتين.

وَ

أغنت أيضاً:

عن عالٍ

أي: مرتفع من جنس:

الأُطُم

بضمٍّ أوَّليهِ : الحصن . والظرف بيان لـ " عال " .

ومعنى البيت : أن حماية الله لرسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - من أعدائه الكفَرَة الفَجَرة ، وقعت بأضعف الأشياء ؛ من حوم الحمام ، ونسج العنكبوت ، مُغنيةً عن أقوى الأشياء من الدروع المضاعفة ، والحصون الحصينة ، فسبحان الملك الفعَّال لما يريد ، القاهر بقوة بطشه لكلِّ جبار عنيد .

* * *

«٨٠» مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ
إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

ما سامني الدهر[(١)]

أي: ما ظلمني أهله، على حدّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿واسألِ القريةَ﴾[(٢)]، أي: أهلها. و﴿وجاء ربُّكَ﴾[(٣)]، أي: أمره. ولا يصحُّ أن يحمل "الدهر" هنا على الله تعالى؛ لأمرين:

الأول: أنه لا يصح نسبة الظلم إلى الله سبحانه وتعالى، ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾[(٤)] ﴿وما ربك بظلامٍ للعبيد﴾[(٥)] «يا عبادي إني حرَّمتُ الظُّلم على نفسي»[(٦)].

نسخ قصيدة البردة المطبوع والمخطوط منها.

(٢) سورة يوسف - الآية ٨٢ .

(٣) سورة الفجر - الآية ٢٢ .

(٤) سورة الكهف - الآية ٤٩ .

(٥) سورة فصلت - الآية ٤٦ .

(٦) من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه -صحيح مسلم. الجزء الرابع. ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب. ١٥ - باب تحريم الظلم. الحديث رقم: ٥٥ - (٢٥٧٧).

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر». رواه مسلم عن

والثاني: أن "الدَّهر" على الصحيح ليس من أسمائه تعالى.

وأما خبر: «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله»[1] فمعناه: أنهم كانوا يسبّون الزمان، باعتبار أنه مؤثِّرٌ في الحوادث، لأنهم كانوا يضيفونها إليه، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا تسبوا من فعل ذلك بكم، فإنَّ فاعلَ ذلك هو الله تعالى. فتبين بذلك أن الدهر ليس من أسمائه تعالى.

يوماً

أي: في وقت من الأوقات[2].

أبي هريرة، ورواه البخاري ومسلم عنه بلفظ: " يقول الله تعالى: يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار"، وفي رواية: " أقلب ليله ونهاره وإذا شئت قبضتهما". وعند مسلم وأبي داود والحاكم عنه: " قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر؛ فلا يقل أحدكم: يا خيبة الدهر؛ فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره". وفي رواية عند الحاكم: "يقول الله: استقرضت عبدي فلم يقرضني وشتمني عبدي وهو لا يدري يقول: وادهراه وأنا الدهر". وأخرجه البيهقي بلفظ: " لا تسبوا الدهر قال الله تعالى أنا الدهر الأيام والليالي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك". ورواه الشيخان وأحمد عنه بلفظ: " يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار". انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني - الحديث رقم: ,٣٠٢٠

(٢) في الأصل المخطوط قال الشارح رضي الله عنه: " وفي نسخة: ما سامني الدهر ضيماً". ومآل النسختين واحد.

(١) إلا من طمس الله على بصيرته ومنع التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم، وأنكر ذلك

واستجرتُ به

صلى الله عليه وآله وسلم، أي: طلبت منه أن يدخلني في جواره، ليحميني بذلك من ضيم الدهر: -

إلا وَ

الحال أني قد:

نلتُ

أي: أُعطيتُ

جواراً

بكسر الجيم، ويجوز ضمُّها. أي: قرباً

منه

صلى الله عليه وآله وسلم.

لم يُضَم

أي: لم يحقَّرْ بل يُعظَّم. وهذا المعنى ليس مخصوصاً بالناظم، بل هو حاصلٌ لغالب المسلمين[1] من أمته صلى الله عليه وآله وسلم، فما توسَّل به صلى الله عليه

على المتوسلين من صالحي الأمة سلفاً وخلفاً، وجعل ذلك العمل من الشرك والعياذ بالله بعد أن منَّ الله على الأمة بالهداية إلى الإسلام الخالص، لكن رسل الشيطان يأبون إلا

وآله وسلم أحدٌ إلا وقد نال مطلوبه لكرامته على ربي عز وجلّ، كيف وهو سيد المرسلين، وأكرم الخلق أجمعين، وله الشفاعة العظمى، والمقام الأسمى(١).

أن يفتنوا عباد الله بترَّهاتهم وأباطيلهم التي ما أنزل الله بها من سلطان تارة باسم الدعوة إلى التوحيد، وتارة باسم المحافظة على العقيدة، . . . إلى آخر هذه المقولات التي ظاهرها الحق وباطنها الباطل، نعوذ بالله من مضلات الفتن. فاحرص يا أخي على سلامة عقيدتك ولا تغتر بأقاويل رسل الشيطان الذين قست قلوبهم وخلت من محبة النبي العدنان صلى الله عليه وآله وسلم، فسل وتوسل واستغث بجاه عظيم الجاه صلى الله عليه وآله وسلم فإن جاهه عند الله عظيم، وسنأتي على تفصيل هذا مع الأدلة البينات والحجج الواضحات فيما يلي من حواشي إن شاء الله تعالى.

(١) واعلم يا أخي المسلم الحبيب أن التوسل به ﷺ كان قبل وجوده وهو في عالم النور:
فأول من توسل به ﷺ هو أبونا عليه السلام: روى البيهقي بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا أدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: لأنك يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال اللّه تعالى: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه قد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك». قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه من لم أعرفهم. ورواه الحاكم وصححه، والطبراني وزاد فيه: «وهو آخر الأنبياء من ذريتك».
قال الإمام الزاهد الشيخ إبراهيم الرقي رحمه الله تعالى: لو لم يتب عليه لبقي هو وذريته في دار السخط أبد الأبد. فما ظنك برجل واحد شمل العالمين كلهم بركته، حتى صولح به المتمردون ورزق به المحرومون، وجبر به المنكسرون، وأنقذ به المعذَّبون، ومن العجب أن ننتظر شفاعته في القيامة وقد سبقت شفاعته فينا وفي أبينا من أول دنيانا، فهو مطهر الباطن

. . . .

والظاهر، مبارك الأول والآخر.

ورحم الله سيدي علي بن أبي الوفا نفعنا الله تعالى بهم وأمدنا بإمداداتهم حيث يقول شعراً:

سكن الفؤاد فعش هنيئا يا جسد	هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد
روح الوجود حياة من هو واحد	لولاه ما تم الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم	هم أعين هو نورها لما ورد
لو أبصر الشيطان طلعة نوره	في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمروذ نور جبينه	عبد الجليل مع الخليل وما عند
لكن جمال الله جل فلا يرى	إلا بتوفيق من الله الصمد

وأما من توسل به ﷺ في حياته: فعن عثمان بن حنيف: أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت، فهو خير لك»، قال: فادع، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي، اللهم فشفعه فيّ»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وأما من توسل به ﷺ بعد انتقاله إلى ربه: فروى الطبراني والبيهقي بإسناد متصل ورجاله ثقات: عن عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة، فكان عثمان لايلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف، فشكى إليه ذلك، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة، فتوضأ ثم ائت المسجد فصلٍّ فيه ركعتين: ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك

إلى ربي فتقضي حاجتي»، وتذكر حاجتك، ورُح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له. ثم أتى باب عثمان، فجاءه البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: ما حاجتك؟ فذكرها له، وقال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة؟، وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان ابن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إليَّ حتى كلَّمته، فقال له عثمان بن حنيف: والله ما كلمته!! ولكني شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير، فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: «أو تصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد. وقد شقَّ علي، فقال: ائت الميضأة، فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادعُ بهذه الدعوات».
فقال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا، وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط.
انظر: دلائل النبوة للإمام البيهقي ٦/ ١٦٨، وسبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ١٢/ ٤٠٧. ولازال العلماء والأئمة والأعلام والصلحاء والعارفون يتوسلون بحضرته ﷺ وينالون مبتغاهم ببركته وعظيم قدره عند ربه فهو ﷺ باب الله الأعظم وواسطته ووسيلة آدم فمن دونه إلى الله سبحانه، ومن لم يدخل من بابه فهيهات أن يلج الحضرة أو أن ينال الحظوة، لا حرمنا الله من مدده ورزقنا معرفة قدره، وعظم منْزلته، حتى نلقاه سبحانه ويدنا بيده الشريفة ﷺ نحن ومن أحبنا وأحببناه فيه، آمين.
والكلام في التوسل بسيد الوجود حبيبنا الأعظم كلام طويل، أطنب فيه العلماء بحثاً، ولا يخلو كتاب من كتب الحديث والسير والشمائل والخصائص إلا وتحدث الأئمة فيه عن جواز التوسل بحبيبنا ﷺ والحث عليه فلا عليك يا أخي المحب من التوسل برسول الله ﷺ فهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى ربك، ودع عنك قول المعاند والعذول والمخالف، هدانا الله وإياك لما فيه رضاه، والتأدب معه ومع رسوله ﷺ وأوليائه.

«٨١» وَلَا الْتَمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ
إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

ولا التَمَستُ

أي: طلبتُ

غِنَى الدَّارَين

أي: الدنيا والآخرة؛ بالكفاية في الأولى، والسلامة في الأخرى؛ بفعل الأعمال الصالحة في الدنيا.

من يدِهِ

أي: من جملة ذاته صلى الله عليه وآله وسلم، أو من نعمته.

واليد بمعنى النعمة تُجمع على: أيادي. وبمعنى الجارحة، تجمع على: أيدي.

إلا

والحال أني قد:

استلمت الندى

أي: أخذت العطاء الجزيل، ونلت الأرَبَ الجميل.

منه؛ إذ هو صلى الله عليه وآله وسلم خير من أعطى من خليقته تعالى، فلقد كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يردُّ سائلاً، ويعطي ما تعجز الملوك عن أقلّه، كيف وهو بيده خير الدارين؟.

ففي الصحيحين عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما: «ما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً قط فقال: لا»[1].

* * *

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن سيدنا جابر قال: «ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا».
انظر: صحيح البخاري، الجزء الرابع ٨١ - كتاب الأدب. ٣٩ - باب: حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل- الحديث رقم: ٥٦٨٧ - .
وصحيح مسلم الجزء الرابع ٤٣- كتاب الفضائل (١٤) باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا، وكثرة عطائه. الحديث رقم: ٥٦- (٢٣١١).

«٨٢» لَا تُنْكِرِ الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ
قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنَمِ

لا تُنكرِ الوحيَ

بالتاء. ونصب "الوحيَ" على النهي. أو : بالياء "ينكر" ورفع "الوحي" على النفي. والوحي: مصدر وَحَيَ، لغة في "أوحى".

وهو لغةً: الكلام الخفي. وشرعاً: إعلام الله تعالى أنبياءه إما بكتاب أو بإرسال مَلَكٍ، أو إلهام، أو في منام، أو غير ذلك.

من رؤياهُ

صلى الله عليه وآله وسلم في المنام. والرؤيا -كالرُّجعى - وتختصُّ بالمنام، كما اختص "الرؤيا" بالقلب. والرؤية: بالباصرة.

إنَّ له

صلى الله عليه وآله وسلم، كسائر الأنبياء:

قلباً

يقظاً لأنه مهبط الوحي.

الباصرتان .

لم ينم

أي : لم يستره النوم[١]. لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»[٢] .

(١) وذلك لأن النفوس الكاملة القدسية لا يضعف إدراكها بنوم العين واستراحة البدن ، ومن ثم كان سائر الأنبياء مثله صلى الله عليه وآله وسلم - لتعلق أرواحهم بالملأ الأعلى ، ومن ثم كان إذا نام صلى الله عليه وآله وسلم لم يوقظ لأنه لا يدرى ما هو فيه .

(٢) روى الإمام مسلم بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ؛ أنه سأل عائشة رضي الله عنها وعن أبيها : كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان؟ قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ، ولا في غيره ، على إحدى عشرة ركعة . يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن . ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن . ثم يصلي ثلاثاً . فقالت عائشة : فقلت : يا رسول الله! أتنام قبل أن توتر؟ فقال "يا عائشة! إن عيني تنامان ولا ينام قلبي" . انظر : صحيح مسلم . الجزء الأول . ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها . (١٧) باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم في الليل ، وأن الوتر ركعة ، وأن الركعة صلاة صحيحة . الحديث رقم : ١٢٥ - (٧٣٨) .

ولقـوله صلى الله عليـه وآله وسلـم : «نـحن مـعـاشـر الأنبـيـاء تنام أعـيننا ولا تنام قلوبنا»(١).

ولهذا صـرَّح أئمتنا – معـاشـر الشافـعية – بأن النوم غـير ناقض للوضـوء في حق الأنبياء.

وأما خبر أنه – صلى الله عليه وآله وسلم – نام هو وأصحابه في الوادي عن صلاة الصبح ؛ فلم يوقظهم إلا حر الشمس "(٢). فذلك لأن إدراك وقت الصلاة من وظائف البصر دون القلب. ولمَّا أوهم كلام الناظم السابق أن الوحي إليه – صلى الله عليه وآله وسلم – إنما كان في النوم دائماً، أو غالباً، دفع ذلك بقوله :–

---

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا» أنها دائمة اليقظة لا يعتريها غفلة ولا يتطرّق إليها شائبة نوم لمنعه من إشراق الأنوار الإلهية الموجبة لفيض المطالب السنية عليها ولذا كانت رؤياهم وحياً ولم تنتقض طهارتهم بالنوم، ولا يشكل بنومه صلى الله عليه وآله وسلم في قصة الوادي حتى طلعت الشمس، لأن الله خرق عادته في نومه ليكون ذلك رخصة لأمّته، والحديث رواه ابن سعد في الطبقات بسنده عن عطاء بن أبي رباح. وانظر : الجامع الصغير. للإمام السيوطي – الحديث رقم : ٢٥٢٦. ورمز لصحته.

(٢) روى البخاري ومسلم ، واللفظ لمسلم بسندهما عَنْ أَبِي رَجَاء الْعُطَارِديّ، عَنْ عِمْرَانَ ابْنِ الحُصَيْنِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ. فَسَرَيْنَا لَيْلَةً. حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخرِ اللّيْلِ، قُبَيْلَ الصّبْحِ، وَقَعْنَا تلْكَ الوَقْعَةَ التِي لاَ وَقْعَةَ عِنْدَ الْمُسَافِرِ أَحْلَى مِنْهَا. فَمَا أَيْقَظَنَا إِلاَّ حَرّ الشّمْسِ. وَسَاقَ الحُدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيث سَلْمِ بْنِ زَرِير. وَزَادَ وَنَقَصَ. وَقَالَ فِي الحُدِيثِ: فَلَمّا اسْتَيْقَظَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ وَرَأَى مَا أَصَابَ النّاسَ. وَكَانَ أَجْوَفَ ›

«٨٣» وَذَاكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ نُبُوَّتِهِ
فَلَيْسَ يُنْكَرُ فِيهِ حَالُ مُحْتَلِمِ

وذاكَ

أي: حصول الوحي له صلى الله عليه وآله وسلم في المنام إنما كان:

حين بلوغٍ

أي: وصول.

من نبوّته

أي: كان ذلك في ابتداء أمرها.

جَليداً. فكَبّرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بالتَكْبير. حتّى استَيْقَظَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم، لشدّة صَوْته، بالتكْبير. فلَمّا استَيْقَظَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم شَكَوْا إلَيْه الّذي أصَابَهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: "لاَ ضَيْرَ. ارْتَحلُوا" وَاقْتَصّ الحُديثَ.
انظر: صحيح مسلم. الجزء الأول. ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة. (٥٥) باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها. الحديث رقم: ٣١٢ - (٦٨٢). و فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد الأول. - كتَاب التَيَمُّمِ. باب الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ المُسْلِمِ يكْفِيه منْ المَاءِ. كما وراه أبو داود والإمامَ أحمد في المسند وغيره.

وقد نُبِّىء صلى الله عليه وآله وسلم - على رأس أربعين سنة من عمره، وهو حدٌّ مبدأ النبوة.

فليس يُنكَرُ فيهِ

أي: في الزمان المذكور.

حالُ مُحتَلِمِ

من رؤياه الوحي في النوم؛ فإن ذلك إنما كان ليتقوَّى على ملاقاة الملَك في اليقظة؛ إذ لو جاء فيها ابتداءً لربما أفزعه وأفجعه.

* * *

«٨٤» تَبَارَكَ اللهُ مَا وَحْيٌ بِمُكْتَسَبٍ
وَلَا نَبِيٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ

تَبارَكَ اللهُ

أي: تكاثر خيره، أو تزايد على كل شيء، وتعالى عليه في ذاته وصفاته وأفعاله؛ فلم يشبهه شيء بوجه من الوجوه.

وقيل: دام. ومنه: البِركَة؛ لدوام الماء فيها.

وهو فعلٌ لا ينصرف ولا يُسند إلا إلى الله تعالى، ولا يأتي منه مستقبل لأن أمر الأزمنة بالنسبة إلى الله تعالى واحد.

مَا وَحيٌ

أصلاً: -

بِمُكتَسَبٍ

أي: حاصل بشيء من الرياضات والعبادات، وتصفية الخواطر.

وأراد بالوحي: النبوّة. وأشار بذلك إلى الرَّدِّ على الفلاسفة والمعتزلة القائلين بأنها قد تحصل بذلك بلا حصولها بمجرَّد فضل الله تعالى ومحض اصطفائه.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1] وغير ذلك من الآيات الواردة في هذا الشأن. ومثلها في ذلك: الولاية - عند أهل الحق وأهل السنة والجماعة -.

وإذا كان كذلك فلا ينكر كونه في منام كما لا ينكر كونه في يقظة، فإن الفاعل المختار لا يتقيَّد بحالة دون أخرى.

ولا نبيٌّ

من الأنبياء: -

على غيبٍ

أي: أمرٍ غائب.

بمُتَّهَمِ

أي: منسوب فيه إلى شيء من الكذب والخيانة، والكتمان...؛ لعصمتهم عن الذنوب كلها صغائر وكبائر، عمداً وسهواً، قبل النبوّةِ أوبعدها على المختار.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[2]. أي: بمتَّهَم.

ومثله في ذلك سائر الأنبياء؛ وحينئذٍ فأخبارهم بالغيب عن الرؤيا المنامية كإخبارهم به عن اليقظة من غير تفاوتٍ في أن [الكلَّ] وحيٌ من عند الله

---

(١) سورة الحج - الآية ٧٥.

(٢) سورة التكوير - الآية ٢٤.

سبحانه وتعالى(١).

---

(١) فالمعجزات كلها التي خلقها مولانا جل جلاله على أيدي أنبيائه -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - دالةٌ على صدقهم، ووجوب اتباعهم، لأنها شواهد قاطعة، ودلائل على صدقهم واضحة ساطعة، فلا يجوز عليهم خُلفٌ، ولا كذب في إخباراتهم، ولا خلل- وإن قلَّ - في جميع محاوراتهم. وأجمع المسلمون على أن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم - وسائر أنبياء الله تعالى، لا يجوز عليهم خُلفٌ في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبروا به عن ربهم، وما أنزله من أمانة الوحي لديهم، لا على وجه العمد، ولا على غير العمد، ولا في حال الرضا، ولا في حال السخط، والصحة والمرض. وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فيما رواه الإمام أحمد في المسند - قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشر، يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: اكتب، فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق. [مسند الإمام أحمد ٢/ ٦٢]. فقد عصمه الله سبحانه في جميع أحواله في نومه ويقظته، فكان صلى الله عليه وآله وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكذا جميع أنبياء الله ورسله، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كانوا من البشر والبرية؛ فقد قامت البراهين والأدلة القطعية، وأجمعت الأمة الإسلامية المحمدية أن الله تعالى أخرج أفعالهم وصفاتهم على جبلة البشرية، فقلوبهم مع الله، وحركتهم بالله، ولله، ورجوعهم في جميع أحوالهم إلى الله، وإنما هم مع الخلق بأبشارهم، ومع الحق سبحانه بأرواحهم، لا تطرأ عليهم الآفات البشرية، ولا يتصفون بالتغيرات والأخلاق غير المرضية. وكان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم قد حاز جميع المعاني اللائقة بذاته الشريفة، فكان أفضل النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

«٨٥» كَمْ أَبْرَأَتْ وَصِبًا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ
وَأَطْلَقَتْ أَرِبًا مِنْ رِبْقَةِ اللَّمَمِ

كَم

من المرات:

أبرأت

أي: شَفَت من المرض.

وَصِباً

بكسر الصَّاد، أي: مريضاً. من "الوصَب" وهو المرض الملازم، ومنه: ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾(١).

باللَّمسِ

أي: بسبب لمسها.

راحتُهُ

صلى الله عليه وآله وسلم، أي: بطن كفه الشريفة.

---

(١) سورة الصافات - الآية رقم ٩.

وأطلقتْ

معطوفٌ على "أبرأت" .

أرِباً

بفتح الهمزة وكسر الراء، أي: محتاجاً إلى الخلاص.

من ربقَة اللَمَم

أي: عروة الجنون. والظَّرف متعلّق بـ: "أطلقت" . روي أن امرأةً أتت النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم - بابنٍ لها به جنون؛ فمسح صلى الله عليه وآله وسلم بيده المباركة صدرَه، فثعَّ ثعَّةً ، أي: قاء قيئةً فخرج من جوفه مثل الجرو - أي: الكلب الصغير الأسود - (١) .

---

(١) روى الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن امرأة جاءت بابن لها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن ابني هذا به جنون وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيفسد علينا فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ودعا فثع ثعة قال عثمان: فسألت أعرابياً فقال بعضه على أثر بعض وخرج من جوفه مثل الجرو الأسود وسعى.

انظر: مسند الإمام أحمد - المجلد الأول - مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وكـان في كفٍّ شـرحبـيل الجـعـفي سلعـة تمنعـه من القـبض على السيـف والدابّة، فمسحها صلى الله عليه وآله وسلم بيده المباركة فذهبت ، فلم يبق لها أثر(١) .

وقطع أبو جهل يوم بدر يد معوّذ بن عفراء، من المنكب، وتعلّقت بجلدة، فقاتل بها عامَّة يومه، ثم وضعها تحت قدمه، وتمطّأ، فقطعها، فجاء يحمل يده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فبصق عليها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم وألصقها؛ فلصقت(٢) .

---

(١) روى البخاري في تاريخه، وابن السكن، والطبراني من طريق حماد بن يزيد المنقري عن مخلد بن عقبة بن عبدالرحمن بن شرحبيل الجعفي عن جده عبدالرحمن عن أبيه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم وبكفي سلعة؛ فقلت: يا رسول الله إن هذه السلعة قد آذتني تحول بيني وبين قائم السيف. فقال: أدن. فدنوت؛ فوضع يده على السلعة؛ فما زال يطحنها بكفه حتى رفع وما أدري أين أثرها؟. انظر: دلائل النبوة للإمام البيهقي ٦/ ,١٧٦ والإصابة، لابن حجر - الجزء الثالث. حرف الشين المعجمة - القسم الأول]من ذُكِرَ له صحبة، وبيان ذلك .[الشين بعدها الراء. الفصل: ٣٨٧٦ .

(٢) حديث: " أن أبا جهل لعنه الله قطع يوم بدر يد معوّذ بن عفراء، فجاء يحمل يده، فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألصقها فلصقت" . رواه ابن إسحاق، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٨٥، عن ابن وهب، كما نقله السيوطي، والقاضي عياض ٤٥٤ .

وأصيب سلمة بن الأكوع رضي الله عنه - يوم حنين، بضربة في ساقه، فنفث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث نفثات فما اشتكاها قط(١).

وفي غزوة خيبر: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: أين علي بن أبي طالب؟. فقالوا: يا رسول الله إنه يشتكي عينه. قال: فأرسلوا إليه. فأتي به، فبصق في عينيه، وعمَّمه بعمامة سوداء، ثم أرسلها من ورائه، أو كتفه اليسرى، ودعا له؛ فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع(٢).

وفي رواية عن عليّ رضي الله عنه: فما رمدت، ولا صدعت منذ دفع إلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راية خيبر(٣).

---

(١) عن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربة في ساق سلمة، فقلت: يا أبا مسلم! ما هذه الضربة؟، قال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، أصيب سلم. قال: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنفث فيه ثلاث نفثات معاً، فما اشتكيت منها حتى الساعة. أخرجه البخاري في ٦٤ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، الحديث ٤٢٠٦، فتح الباري ٧/ ٤٧٥، عن المكي بن ابراهيم، وأخرجه أبو داود في الطب عن أحمد بن أبي سريح الرازي، والإمام البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٢٥١.

(٢) انظر: صحيح البخاري ٥/ ١٧١، ومسلم في ٣٢ كتاب الجهاد، (باب) غزوة ذي قرد، الحديث رقم ١٤٣٩ - ١٤٤١، وذكره في الشفا، ص ٤٥٣.

(٣) عن ابن عمر قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن اليهود قتلوا أخي قال: "لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه فيمكنك من قاتل أخيك". فاستشرف لذلك ›

وفي رواية من طريق إياس بن سلمة عن أبيه رضي الله عنه قال: أرسلني النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ فجئت به أقوده أرمد. فبصق في عينيه؛ فبرأ.

وفي رواية عن علي رضي الله عنه قال: فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسي في حجره، وبصق في راحتيه، فدلك بهما عينيَّ؛ فما اشتكيتهما حتى الساعة.

ودعا لي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: اللهمَّ أذهب عنه الحرَّ والقرّ. فما اشتكيتهما[1].

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى علي فعقد له اللواء، فقال: يا رسول الله إني أرمد كما ترى، وهو يومئذ رمد، فتفل في عينيه فما رمدت بعد يومه فمضى. رواه الطبراني وفيه أحمد بن سهل بن علي الباهلي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي- المجلد التاسع ٣٧. كتاب المناقب - ٢٠. باب في قوله صلى الله عليه وسلم: "لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله". الحديث رقم: ١٤٧١٣.

(١) روى البخاري في صحيحه بسنده عن سَهْل بن سَعْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ لأُعْطِيَنَّ هَذه الرَّايَةَ غَدًا رَجُلا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْه يُحبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالب فَقيلَ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّه يَشْتَكِي عَيْنَيْه قَالَ فَأَرْسَلُوا إِلَيْه فَأُتِيَ بِه فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فِي عَيْنَيْه وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِه وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ ›

ورمي كلثوم بن الحصين يوم أحد في نحره؛ فبصق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه؛ فبرىء[1].

عَلِيٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ" . وعند الحاكم من حديث علي نفسه قال: " فوضع رأسي في حجره ثم بزق في ألية راحته فدلك بها عيني " . وعند بريدة في "الدلائل" للبيهقي " فما وجعها علي حتى مضى لسبيله " أي مات. وعند الطبراني من حديث علي " فما رمدت ولا صدعت مذ دفع النبي صلى الله عليه وسلم إلي الراية يوم خيبر " . وله من وجه آخر " فما اشتكيتها حتى الساعة. قال: ودعا لي فقال: اللهم أذهب عنه الحر والقر، قال فما اشتكيتهما حتى يومي هذا " . انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري - للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد السابع. كتَاب المَغَازِي. باب غَزْوَة خَيْبَرَ.

(١) روى ابن شهاب قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً فيهم عبد الله بن أنيس السلمي إلى اليسير بن رزام اليهودي، حتى أتوه بخيبر، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجمع غطفان ليغزوه بهم، فأتوه فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، فلما بلغوا قرقرة ثبار وهي من خيبر على ستة أميال ندم البشير، فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ففطن له عبد الله، فزجر بعيره، ثم اقتحم يسوق بالقوم حتى إذا استمكن من السير ضرب رجله فقطعها، واقتحم السير وفي يده مخرش -وهي عصا معوجة الرأس- من شوحط فضرب به وجه عبد الله شجة مأمومة - أي تبلغ أم الرأس والدماغ -كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله، غير رجل واحد من اليهود أعجزهم شداً ولم يصب من المسلمين أحدٌ، ›

ونفث صلى الله عليه وآله وسلم في عيني رجلٍ وكانتا مبيضَّتين لا يبصر بهما شيئاً، وكان قد وقع على بيض حية؛ فكان يدخل الخيط في الإبرة، وإنه لابن ثمانين سنة[1]. وأصيبت يوم أحد عينُ قتادة بن النعمان؛ فوقعت حدقتها على وجنته، وكانت قد علقت بعرق؛ فأرادوا أن يقطعوها؛ فقالوا: حتى نتأمَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فتأمَّروه، فقال: لا. فأتي به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله إن لي امرأة أحبُّها، وأخشى إن رأتني قذرتني. فأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، فغمز حدقته براحته، وردَّها إلى موضعها، وبصق فيها، وقال: " اللهم اكسه جمالاً" فكانت أحسن عينيه، وأحدَّهما

وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصق في شجة عبد الله بن أنيس فلم تقح ولم تؤذه حتى مات. نقلها ابن كثير في التاريخ ٤/ ٢٢١ . ورواه الطبراني، والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٢٩٣، ٢٩٤ . وذكره عياض٣ ٤٥ .

(١) عن رجل من سلامان بن سعيد عن أمه أن خالها حبيب بن فريك حدثها أن أباها خرج به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئاً؛ فسأله ما أصابه. قال: كنت أمري جمالي فوقعت رجلي على بيض حية فأصبت ببصري، فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه فأبصر، فرأيته يدخل الخيط في الإبرة وإنه لابن ثمانين سنة وإن عينيه لمبيضتان" .

رواه الطبراني. انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي - المجلد الثامن. ٣٦ . كتاب علامات النبوة. ٤١ . باب رده البصر صلى الله عليه وسلم - الحديث رقم: ١٤١٠٠ . ومعجم الطبراني الكبير، باب الحاء. حبيب بن فريك .

نظراً، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى[1].

وغير ذلك من المعجزات التي لا تُحصى، والكرامات التي لا تستقصى.

---

(١) الخبر في سيرة ابن هشام٣/ ٢٦، ونقله الحافظ ابن كثير في التاريخ٤/ ٣٣ وما بعدها. ورواه البيهقي في غزوة بدر، وزاد ابن كثير: "ولهذا لما وفد ولد قتادة على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال له: من أنت؟ فقال له مرتجلاً: -

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه   فردَّت بكف المصطفى أحسن الردِّ

فعادت كما كانت لأول أمرهـــا   فيا حسنهـا عيناً ويا حسن ما خــدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وانظر أيضاً: "دلائل النبوة" للإمام البيهقي ٣/ ٢٥١.

«٨٦» وَأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ حَتَّىٰ حَكَتْ غُرَّةً فِي الأَعْصُرِ الدُّهُمِ

وأحيت السَّنَةَ

أي: أنقذت أهلها من شدَّة القحط، وكمالِ المجاعة، بعد إذ أشرفوا على التَّلف.

الشَّهباءَ

أي: بيضاء[1] لقلَّة خُضرة النبات فيها بقلَّة المطر[2].

دَعوَتُهُ

صلى الله عليه وآله وسلم - المباركة بالسقيا، أي: أنقذ الله من شدَّة القحط أهل السَّنَةِ الشهباء من أجل دعوته صلى الله عليه وآله وسلم بنزول المطر[3].

واختار "السَّنة" على "العام" لأنَّ "السَّنة" أكثر ما تستعمل في القحط، و"العام" أكثر ما يستعمل في الخصب.

---

(١) قال في اللسان: "الشَّهْباءُ البَيْضاءُ، أي هي بَيْضاءُ لكَثْرَةِ الثَّلْج، وعَدَمِ النَّبات".

(٢) قال في القاموس: "سَنَةٌ شَهْباءُ: لا خُضْرَةَ فيها، أو لا مَطَرَ".

(٣) وسيأتي ما ورد في ذلك من أحاديث لاحقاً إن شاء الله.

حتى حكَت

أي: إلى أن شابهت تلك السَّنة لزيادتها على غيرها من السِّنين:

غُرَّةً

أي: بياضاً.

في

وجوه:

الأعصُرِ الدُّهُمِ

أي: الأزمان السود، لشدَّة خضرة النبات فيها. والأعصر - جمع عصر -. والدُّهم: جمع أدهم. والغُرَّة: بياضٌ في وجه الفرس.

أي: كانت تلك السَّنة ببركة دعوته صلى الله عليه وآله وسلم بالقياس إلى سائر السنين المخصبة كالغرَّة بالقياس إلى الخيل الدُّهم[1].

وأنت خبير بأنه كان ينبغي للناظم على هذا التقرير أن يقول: "حكت غرةً في الأفرس الدهم".

---

(١) قال في اللسان: "فرسٌ أدْهَمُ غَيْهَبٌ إذا اشْتَدَّ سواده. أبو عبيد: أشَدُّ الخَيْلِ، دُهْمةً، الأدْهَمُ الغَيْهَبِيُّ، وهو أشَدُّ الخيل سَواداً".

«٨٧» بِعَارِضٍ جَادَ أَوْ خِلْتَ الْبِطَاحَ بِهَا
سَيْبًا مِنَ الْيَمِّ أَوْ سَيْلًا مِنَ الْعَرِمِ

بعارضٍ

أي: من أجل السَّحاب، وسمّي عارضاً لاعتراضه في الأفق. والظَّرف متعلِّقٌ بـ: "حكت".

جادَ

أي: أتى بالجَود - بفتح الجيم - أي: المطر الغزير[1]. وبضمِّه: وهو الكرم.

أو خِلتَ

أي: إلى أن ظَننت أيها المخاطَب.

البِطاحَ

جمع: بطحاء، وأبطُح. وهو: الوادي المتَّسع الشَّمل. "بطحاء" أي: رمل، ويجمع أيضاً على أباطح.

---

(١) قال في النهاية: " في حديث الاستسقاء: «ولم يأت أحَدٌ من ناحية إلا حَدّث بالجَوْد». الجَوْد: المطر الواسع الغَزير. جادَهُم المطر يَجُودهم جَوْدا. ومنه الحديث أيضاً: «تركْتُ أهلَ مكة وقد جِيدُوا» أي: مُطِرُوا مَطَراً جَوْداً.

بها

أي: بتلك البطاح.

سَيباً من اليَمِّ

أي: جريان ماءٍ كثير من البحر[1]، ويجمع على: "يموم".

أو

هي للتخيير.

سيلاً من العرم

أي: سيلان ماء من وادي "العَرِم"، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾[2].

وأصل "سيل العرم" كما في التهذيب: كلُّ سيل لا يطاق[3]. من: "العرامة" وهي البحر الذي يجوز الماء.

---

(١) قال في اللسان: "السَّيْبُ: العَطاءُ، والعُرْفُ، والنافلةُ. وفي حديث الاستسقاء: «واجْعَلْه سَيْباً نافعاً» أي: عَطاءً، ويجوز أن يريد مَطَراً سائباً أي جارياً".

(٢) سورة سبأ - الآية ١٦.

(٣) وفي "التهذيب": قيل: العَرِمُ السيل الذي لا يطاق وقيل هو جمع عَرِمَة وهي السكر والمسناة وقيل هو اسم واد وقيل هو اسم الجرذ الذي بثق السكر عليهم وقيل هو المطر الشديد.

وجملة "بها سَيبٌ" في موضع المفعول الثاني، لقوله: "خلت ...

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً دخل المسجد يوم ... ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب على المنبر. فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادعُ الله يغيثنا. فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه فقال: " اللّهم أغثنا - ثلاثاً - وما نرى في السماء من سحاب، ولا قزعة؛ فطلعت سحابةٌ ثم أمطرت، فو الله ما رأينا الشمس سبتاً.

وفي رواية: فما زلنا نمطر من الجمعة إلى الجمعة.

ثم دخل رجل في الجمعة المقبلة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائمٌ يخطب؛ فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل؛ فادعُ الله يمسكها عنا.

فرفع يديه ثم قال: " اللَّهُمَّ حوالينا ولا علينا" إلى آخره. فأقلعت، وخرجنا نمشي في الشمس.

وسئل أنسٌ: أهو الرجل الأول؟. فقال: لا أدري(١).

---

(١) روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال: " دخل رجلٌ المسجد يوم جمعة، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ يخطب، فقال: يارسول الله! هلكت الأموالُ وانقطعت السُّبُل، فادعُ الله يُغثنا، فرفعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال: «اللَّهُمَّ أغثنا، اللَّهُمَّ أغثنا، اللَّهُمَّ أغثنا» قال أنس: والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزَعَة، وما بيننا وبين سَلع - يعني الجبل المعروف بقرب المدينة - من ...

ثم أخذ يتعجب من تلك الآيات وهاتيك المعجزات فقال : -

* * *

ولا دار، فطلعتْ من ورائه سحابةٌ مثل الترس، فلما توسطت السماءَ انتشرتْ ثم أمطرت، فلا واللّه ما رأينا الشمس سَبْتاً، ثم دخلَ رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم قائمٌ يخطبُ، فقال: يا رسول اللّه! هلكت الأموالُ وانقطعت السُّبلُ، فادع اللّه يُمسكها عنّا، فرفعَ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم يديه ثم قال: « اللَّهُمَّ حَوَالَيْنا ولاَ عَلَيْنا، اللَّهُمَّ على الآكام، اللهمَّ على الآكام. وَالظِّرَاب وَبُطُون الأوْدِيَة ومَنَابت الشَجَر » فانقلعتْ وخرجنا نمشي في الشمس». هذا حديث لفظه فيهما، إلا أن في رواية البخاري «اللَّهُمَّ اسْقِنا» بدل «أغثْنا».

انظر: صحيح البخاري - الجزء الأول ٢١ - كتاب الاستسقاء ٥ - باب: الاستسقاء في المسجد الجامع - الحديث رقم: ٩٦٧، وصحيح مسلم الجزء الثاني. ٩- كتاب صلاة الاستسقاء (٢) باب الدعاء في الاستسقاء. الحديث رقم: ٨ - (٨٩٧)، وموطأ مالك ١/ ١٩١، وسنن أبي داود (١١٧٤) و ١١٧٥، وسنن النسائي ٣/ ١٥٤- ١٥٥.

الفصل السادس
في شرف القرآن ومدحه

وكم ... آيات له ظهرت

ظهور نار القرى ليلا على علم

وكم

أي: كثير

للمصطفى

أي: مع ... بالنظم الرائق، والشعر الفائق

آيات

أي: معجزات، وإرهاصات.

له

صلى الله عليه وآله وسلم. والظرف صفة لـ "آيات".

ظهرت

كظهور، أي: ظهوراً مثل:

ظهور نار القرى

بكسر القاف، أي: الضيافة،

ليلاً

أي: في ليلٍ حالك.

على عَلَمِ

أي: جبلٍ شامخ.

والظرفان يتعلقان بـ "ظهور" لأنَّ النَّار العظيمة إذا أوقدت في ليلٍ حالك على جبل شامخ، كانت أتمَّ في الظهور، وأكملَ في الوضوح، لأنها تُرى للقاصي والدَّاني، وكليلِ البصر، وحديدِه. ثم . . . إيقاد النار العظيمة على رؤوس الجبال الشامخة لجلب الضيفان، واهتدائهم إلى المنازل، عادة في العرب الكرام.

* * *

«٨٩» فَالدُّرُّ يَـزْدَادُ حُسْـنًا وَهْوَ مُنْتَظِـمٌ
وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَـدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

فالدُّرُّ

وهو كبار اللؤلؤ، مع كونه حسناً في نفسه: -

يزداد حسناً

أي: يتضاعف حسنه.

وهو مُنتَظِمٌ

في السِّلك، لما ثبت له من حسن الترتيب وكمال التناسب.

والجملة حال من ضمير "يزداد".

وليس ينقُصُ قدراً

أي: يحطُّ مقداره حالة كونه: -

غير منتَظِمِ

فإن قلت: حسنه الذي يظهر للعينين إن نظم ينقص عند عدم نظمه، كما هو بيِّن، لأنَّ ما يزيد بوصف ينقص بسلب ذلك الوصف؟.

أجيب: بأنَّ مراده بقوله: "وليس ينقص قدراً غير منتظم": قدره الذاتي، وحسنه الأصلي، والكامل يقبل الكمال.

«٩٠» فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ المَدِيحِ إِلَىٰ
مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ

فما تَطَاوُلُ آمالِ

جمع "أمل"، وهو الرجاء.

وفرَّق الماوردي بين الآمال والأماني بأنَّ الآمالَ: ما تقيَّدت بأسباب. والأماني: ما تجرَّدت عنها.

المديحِ

أي: أصحابه المادحين له صلى الله عليه وآله وسلم. والمديح: الثناء الحسن.

إلى ما فيهِ

صلى الله عليه وآله وسلم.

من كَرَمِ الأخلاقِ

أي: من أخلاقه الكريمة - صلى الله عليه وآله وسلم -، وسجاياه العظيمة، التي جبله الله عليها من علم وحلم وحياء، وشجاعة، وغير ذلك مما لا يُعدُّ ولا يحصى.

والشِّيَمِ

جمع شيمة، وهي الطبيعة؛ فهو من عطف أحد المترادفين على الآخر.

و "ما" في كلامه يحتمل أن تكون استفهامية، قصد بها النفي والإنكار مبتدأ، و "تطاول" بضم الواو: خبره، مضاف إلى آمال المديح، على معنى: أي فائدة في تطاول أصحاب المديح؟. ويحتمل أن تكون نافية، و "تطاول" بفتح الواو على صيغة الماضي، وفي بعض النسخ، وجرى عليه بعض الشارحين: "فما تطاول آمالي المديح" بإضافة آمال إلى ضمير المتكلم، ونصب "المديحَ"، على نزع الخافض، وما جرينا عليه أولى.

*　　　*　　　*

«٩١» آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ المَوْصُوفِ بِالْقِدَمِ

آياتُ حقٍّ

بالرَّفع، خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: معجزات نبينا أو من معجزات نبينا آياتُ حقٍّ. ويحتمل أن تكون بالنصب بدلاً من "آيات" السابقة. والحق: هو الثابت. وإضافة الآيات إليه إشارة إلى حقيقة كونها من عند الله تعالى، [لا][1] كما تزعمه الكفرة القائلون بأنها مفتراة أو ملتقطة من أساطير الأولين، أو غير ذلك مما حكاه القرآن عنهم.

من الرَّحمن

صفة لـ "آيات"، وهكذا إلى قوله في البيت الثاني عشر: "وكالميزان معدلة"، وما يقع بين الصفات فمن تعلقاتها.

والرحمن: في الأصل بمعنى كثير الرحمة جداً، ثم غلب على من بلغ فيها النهاية التي لم يبلغها غيره، ولذا لم يسَمَّ به غيره تعالى، فالغلبة تقديرية لا تحقيقية.

وأما تسمية أهل اليمامة مسيلمة به كما قال شاعرهم:

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل المخطوط ولا يتم المعنى ولا يصح إلا بها، وعليها المعوَّل.

" وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا!! "

فهو كما قال الزمخشري: من تعنُّتِهِم في كفرهم. والأصحُّ أنه عربي، ومشتق من الرحمة.

مُحدَثَةٌ

تلك الآيات، أي: مخرجة من حيز العدم إلى حيز الوجود باعتبار لفظها، إذ هو مؤلف من الأصوات والحروف، قابل للتجزّؤ وغير ذلك من سمات الحدوث وأمارات المكان.

قديمَةٌ

باعتبار معناها، أي: موجودة بوجود غير مبتدأ، إذ هو:

صفة

لله تعالى: -

الموصوفِ بالقدم

الذاتي، وصفة القديم لا تكون إلا قديمة.

* * *

«٩٢» لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنَا
عَنِ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

لم تقترِنْ

تلك الآيات باعتبار وجود معناها القديم.

بِزَمانٍ

وهو متجَدِّدٌ معلوم يقدّر به، وذلك لأنَّ القديم لا يحويه زمانٌ لأنَّه موجود قبل الزمان والمكان.

وهي

أي: تلك الآيات من حيث لفظُها.

تخبرنا عن المعادِ

الجسماني، وهو إيجاد الخلق بعد عدم، أو جمع أجزائهم الأصلية، وإعادة الأرواح إليها بعد تفريق للحشر والحساب، والثواب والعقاب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾(١).

(١) سورة الأنبياء - الآية ١٤ .

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[1].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، والنصوص.

وَ

تخبرنا أيضاً:

عن عادٍ

الأولى، قوم هود - على نبينا وعليه الصلاة والسلام -، قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وَ

تخبرنا أيضاً:

عن إرَمٍ

بكسر الهمزة وفتح الراء، وهي عادٌ الثانية؛ وهم قوم صالح - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام-.

---

(١) سورة الروم - الاية ٢٧ .

(٢) سورة هود - الآية ٥٣ .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾[1].

وسُمُّوا "إِرَم" باسم جدِّهم لأنهم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.

* * *

(١) سورة الفجر - الآيتان ٦ و٧ .

«٩٣» دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ
مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

دامت

تلك الآيات :

لدينا

معاشر أمة الإجابة على ممر الدُّهور والأعوام لأخذ الشرائع والأحكام، وتمييز الحلال عن الحرام، وغير ذلك من الأمور العظام.

ففاقت

أي : علَت.

كلَّ معجزةٍ

صدرتْ

من النبيين

رسلاً كانوا أو لا.

إذْ

أي : حيث.

جاءتْ

منهم:

ولم تَدُمِ

فإنَّ معجزةَ كل نبي تنقضي بموته لانقضاء شرائعهم، وبقاء شريعة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وعليهم أجمعين.

* * *

«٩٤» مُحكَمَاتٌ فَمَا تُبْقِينَ مِنْ شُبَهٍ
لِذِي شِقَاقٍ وَمَا تَبْغِينَ مِنْ حَكَمِ

مُحكَمَاتٌ

أي: منسوبةٌ إلى الحكمة والحقِّ، قال تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيمِ﴾. أي: ذي الحكمة. كما قال الزمخشري، أي: الناطق بالحكمة.

فما يُبقِينَ

أي: لا تترك تلك الآيات لما ذكر:-

من شُبَهٍ

جمع شُبهة، وهي: ما يعترض به على الحق، ويشبِّه على سامعيه، وذلك لأنها لتمام ظهور الحق منها لشدة إحكامها، وكمال إتقانها لا تتوجَّه عليها شبهة أصلاً، ولا تزوح بوجهٍ من الوجوه في زمن من الأزمان.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١).

---

(١) سورة فصلت - الآيتان ٤١-٤٢ .

لذي شقاقٍ

أي: صاحب خصومة، ومخالفة للحق.

وفي نسخة: "لدى شقاق" أي: عنده. وعلى كلٍّ فالظرف إما صفة لـ"شُبه"، أو متعلِّقٌ بـ"يقين".

وما تَبْغِينَ

أي: يطلبنَ.

من حَكَمِ

بفتحتين، أي: حاكم يحكم على مخالف الحق بالبطلان لظهور حججها القطعية، ووضوح براهينها اليقينية. وهذا من دلائل إعجاز القرآن العظيم، والكتاب الكريم.

* * *

«٩٥» مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرَبٍ
أَعْدَى الأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِيَ السَّلَمِ

ما حُوربتْ

أي: عوديت تلك الآيات، بطلب معارضتها، والإتيان بمثلها؛ ومنه: "أنا حربٌ لمن حاربني"(١).

قطُّ

بفتح القاف، وتشديد الطَّاء في أفصح لغاتها: ظرفٌ لاستغراق ما مضى من الزمان، ويختصُّ بالنَّفي كما هنا، وهو مأخوذٌ من "قططته: بمعنى قطعته".

فمعنى "ما فعلته قطُّ": ما فعلته فيما انقطع من عمري. مبنيٌّ على الضمِّ، وقد تدخل عليها الفاء لتزيين اللفظ فيقال: فقط.

وجوَّز التفتازاني في "شرح تلخيص المفتاح" أن تكون في هذه الحالة اسم فعل

---

(١) قال في اللسان: وفي حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، قال في عليّ، كرم الله وجهه: ما رأيتُ محْرَباً مثلَه. وأنا حَرْبٌ لمن حارَبَني أي عَدُوّ. وفلانٌ حَرْبُ فلان أي: مُحارِبُه. وفلانٌ حَرْبٌ لي أي عَدُوٌّ مُحارِبٌ، وإن لم يكن مُحارِباً، مذكَّر، وكذلكَ الأنثى.
قال نُصَيْبٌ:
وقُولا لها: يا أُمَّ عُثمانَ خُلَّتي! أسِلْمٌ لَنا في حُبِّنا أنْتِ أم حَرْبُ؟

بمعنى: انته، والفاء واقعة في جواب شرط مقدَّر، أي: إذا كان الأمر كما ذكر فانته عن طلب غيره.

إلاَّ

استثناء مفرَّغ.

عَادَ

أي: رجع.

من حَرَبٍ

بفتحتين، أي: شدَّةٍ.

أعْدَى الأَعَادِي

أي: أشدُّهم عداوة لها، وأكثرهم حرصاً على طلب معارضتها. والأعادي: جمع أعداء، جمع: عدو.

إليها

أي: إلى تلك الآيات. والظرف متعلق بـ "عاد".

مُلقِيَ السَّلَمِ

بفتحتن، أي: رجع منقاداً من العناد بإعجازها وأنها لا تمكن معارضتها بوجه من الوجوه.

«٩٦» رَدَّتْ بَلَاغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا
رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحُرَمِ

ردَّت بلاغَتُها

أي: الآيات. و"البلاغة" فيها أقوال: - منها: قول بعضهم: "البلاغة الإجادة، وبلوغ الإرادة". ومنها: قول بعضهم: "البلاغة ما رضيه الخاصّة وفهمه العامة". ومنها: قول بعضهم: "أبلغ الكلام ما حسُن إيجازُه، وقلَّ مجازُه، وكثُر إعجازه، وتساوت صدوره وأعجازُه"[١]. ومنها: قول بعضهم: "البليغ فرسٌ جوادٌ وإن كدَّه مجريه، وماءٌ معين وإن كثر مستقيه".

دعوى مُعارِضِها

أي: يدَّعي معارضتها والإتيان بمثلها.

ردَّ الغيور

أي: الذي له كمالُ الغَيرة[٢]، ونهاية الحميَّة.

---

(١) الصُّدور: جمع صدر أي: صدر الكلام وهو مفتتحه وأوله، و"الأعجاز: جمع عَجُز بفتح العين وضم الجيم: وهو آخر الكلام ومختتمه.
(٢) من قولهم: غارَ على امرأتِه، ووهي عليه تَغارُ غَيْرَةً.

يدَ الجاني

أي: من يريد الجناية.

عن

النساء: -

الحُرَمِ

من زوجته، وأَمَته، وأخته، وأُمِّه، وغير ذلك. و "الحُرُم" جمع حرمة بمعنى حرام.

والظرف تنازعه كلٌّ من "ردّ الغيور" و "الجاني"، وأعمل الأول جرياً على مذهب البصريين.

ولما ادَّعى أبو الطيب المتنبي النبوة(١) في البادية قال للأعراب كلاماً ذكر أنه قرآن

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية: "وقد كان المتنبي جعفي النسب وقد ادعى حين كان مع بني كلب بأرض السماوة قريباً من حمص أنه علوي ثم ادعى أنه نبي يوحى إليه فاتبعه جماعة من جهلتهم وسفلتهم وزعم أنه أنزل عليه قرآن فمن ذلك قوله: " والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار إن الكافر لفي خسار امضِ على سُنَنك واقفُ أثر من كان قبلك من المرسلين فإنَّ الله قامع بك من ألحد في دينه وضل عن سبيله!! ". وهذا من خذلانه وكثرة هذيانه وفشاره ولو لزم قافية مدحه النافق بالنافق والهجاء بالكذب والشقاق لكان أشعر الشعراء وأفصح الفصحاء ولكن أراد بجهله وقلة عقله أن يقول ما يشبه كلام رب العالمين الذي لو اجتمعت الجن والإنس والخلائق أجمعون على أن يأتوا بسورة مثل >

أنزل عليه، وهو " والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار إن الكافر لفي خسار امضِ على سُنتك واقفُ أثر من كان قبلك من المرسلين فإنَّ الله قامع بك من ألحد في دينه وضل عن سبيله!!".

ولما تاب من دعوى النبوة جحد هذا الكلام.

سورة من أقصر سوره لما استطاعوا. ولما اشتهر خبره بأرض السماوة وأنه قد التفَّ عليه جماعة من أهل الغباوة، خرج إليه نائب حمص من جهة بني الأخشيد وهو الأمير لؤلؤ - بيض الله وجهه - فقاتله وشرد شمله وأُسر مذموماً مدحورا، وسجن دهراً طويلا؛ فمرض في السجن وأشرف على التلف فاستحضره واستتابه وكتب عليه كتاباً اعترف فيه ببطلان ما ادَّعاه من النبوة وأنه قد تاب من ذلك ورجع إلى دين الإسلام؛ فأطلق الأمير سراحه؛ فكان بعد ذلك إذا ذكر له هذا يجحده إن أمكنه وإلا اعتذر منه واستحيا.

وقد اشتهر بلفظة تدل على كذبه فيما كان ادَّعاه من الإفك والبهتان وهي لفظة المتنبي الدالة على الكذب ولله الحمد والمنة.

وللمتنبي ديوان شعر مشهور فيه أشعار رائقة ومعان ليست بمسبوقة بل مبتكرة شائقة، وهو في الشعراء المحدثين كامرئ القيس في المتقدمين وهو عندي - أي: عند ابن كثير -، كما ذكر من له خبرة بهذه الأشياء مع تقدم أمره.

انظر: البداية والنهاية، للإمام ابن كثير - الجزء الحادي عشر. " ثم دخلت سنة أربع وخمسين وثلثمائة": المتنبي الشاعر المشهور.

«٩٧» لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ
وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيَمِ

لها

أي: لتلك الآيات.

معانٍ

عظيمةٌ، كثيرةٌ، لا يحيط بها إلا من تفضَّل بإنزالها، كما أشار الناظم - رضي الله عنه - بذلك بقوله:

كموجِ البحْرِ

وهي حركات البحر واضطراب بعضه ببعض.

في مَدَدٍ

أي: في زيادات يتَّصل بعضها ببعض إلى ما لا نهاية له، وهذا وجه الشَّبَه. وأشار بهذا إلى أحد وجوه الإعجاز المعدودة وهو: كونه كلاماً جامعاً مع كمال إيجازه، وحسن اختصاره - لمعانٍ كثيرة، وعلومٍ عديدة، لا تنطوي تحت إحصاءٍ وعدٍّ، ولا يحيط بها استقصاءٌ وحدٌّ، كيف. ..وهو الكتاب العزيز، الحاوي لعلوم الأولين والآخرين وغيرهما، الذي تقاصرت مَهَرةُ الفصحاء، وسَحَرَةَ البلغاء عن أن يحذوا

على مثاله، وينسجوا على منواله، وتقطَّعت أعناق جهابذة[1] العلماء، ونحارير[2] الحكماء عن الوصول إلى ما أحاط به من عجائب المعاني، وغرائب المباني.

فقد روي عن الإمام علي كرَّم الله وجهه: " لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير الفاتحة".

وقال أيضاً - رضي الله عنه -: " جميع العلم في القرآن، ولكن تعامى عنه أفهام الرجال".

قال بعض العارفين: ويظهر ما قاله من خمسة كنوز: -

أحدها: إذا قال: ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ يحتاج في بيان هذا القول إلى بيان العالَم وكيفياته على جميع أنواعه، وسائر أعداده، فقد قيل: إن لله تعالى سبعة عشر عالَماً؛ السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما عالَم واحد منها، وإنَّ في الأرض ألفَ أمّة، أربعمائة في البر، وستمائة في البحر.

ثانيها: إذا قال: ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾، يحتاج في بيان هذا القول إلى بيان هذين الاسمين الجليلين، وما يليق بهما من الجلالة والتعظيم، وما يتعلَّقان به، وبيان اختصاصهما بهذا الموضع دون غيرهما من بقية أسمائه تعالى.

---

(١) جمع "جهبذ" والجهبذ: بالكسر، النقاد الخبير، معرَّب "كهبد" أي: حافظ الخزينة، وذكر أدي شير: أنه معرَّب: "كهبد" وهو تخفيف" كوه بود" أي: المقيم في الجبل. انظر: قصد السبيل للمحبي ١/ ٤١٢,

(٢) قال في القاموس: النحرير: الحاذق الماهر. " مادة نحر".

ثالثها: إذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾، يحتاج في بيان هذا القول إلى بيان ذلك اليوم وما فيه من المواطن والأهوال، وما يتعلّق به من الحشر والنشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، والثواب، والعقاب، وبيان أنواعهما، وأنواع أربابهما.

رابعها: إذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، يحتاج في بيان هذا القول إلى بيان المعبود وجلالته، وبيان ما يجب له وما يجوز، وما يستحيل، وبيان العبادة بجميع أنواعها، وكيفياتها، وثمراتها، وما يوجب قبولها وردّها، وبيان العابد وصفته، وبيان الاستعانة وصفتها، وكيفيتها، وآدابها.

خامسها: إذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم ... ﴾، إلى آخر السورة. يحتاج في بيان هذا القول إلى بيان الهداية، وبيان أضدادها، وبيان "الصّراط المستقيم" وأضداده، وبيان "المغضوب عليهم"، و "الضّالين"، وصفاتهم، وما يتعلق بهم، وبيان المرضيّ عنهم وصفتهم، وطريقتهم.. (١).

---

(١) ومعلوم أن الفاتحة قد جمعت أسرار القرآن من عقائد وعبادات ومعاملات وهذه الثلاثة بينها ابن عجيبة في تفسيره المسمى بالبحر المديد أوضح بيان، فقال: من أراد الوقوف على حقائق الحمد والشكر وما بينهما فليطالع ﴿الحمد لله﴾. ومن أراد الوقوف على عجائب المخلوقات وماالله من العوالم السفليات والعلويات، فليطالع: ﴿رب العالمين﴾. ومن أراد الوقوف على تفسير أسماء الله الحسنى، وبيان التعلق والتخلق والتحقق بكل واحد منها، فليطالع: ﴿الرحمن الرحيم﴾. ومن أراد الوقوف على أحوال البرزخ ومابعده من البعث والحشر والحساب والميزان والحوض والصراط وصفة الجنة ونعيمها، فليطالع: ›

ولا شكَّ أنَّ تفاصيل ما ذكر يساوي ما قال الإمام علي كرَّم الله وجهه. ثم قال: عليٌّ رضي الله عنه إنما هو بحسب ما ظهر له بحسب استعداده؛ وإلا فالقرآن فوق ما ذكر بمراتب لا يعلمها إلا الله تعالى، لما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [1] .أي: حتى ينتهي الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، الذي أحاط بكل شيء علماً.

وفوقَ

معطوفٌ على "كموج".

﴿مالك يوم الدين﴾. ومن أراد الوقوف على أسرار الشريعة والطريقة والحقيقة، وبيان منازل السائرين، ومقامات المقربين، فليطالع: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. ومن أراد الوقوف على أنواع المنعَم عليهم من الأقطاب والأوتاد والأبدال والنجباء، والنقباء، وشروط القطب الجامع، فليطالع تفسير: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. ومن أراد الوقوف على الطوائف الضالة من المعتزلة والقدرية والحشوية إلى اثنين وسبعين فرقة، فليطالع تفسير: ﴿ولا الضالين﴾. فإن شئت أن تطالع هذه المعاني وما يناسبها شريعة وحقيقة وطريقة فانظرها ثمة. وقد طبع الكتاب محققاً في مجلدين من مطبوعات المجمع الثقافي بأبوظبي، بتحقيق كاتب هذه السطور عفا الله عنه بمنه وكرمه، فراجعه ففيه إشارات ولطائف ونكت ودقائق لا توجد في غيره من التفاسير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(١) سورة يوسف - الآية ٧٦.

جَوهره

أي: لآلئه الكبار.

في الحُسنِ

أي: الوضاءة.

والقِيَم

أي: علوّ المقدار، وكمال الانتفاع، ولفظ: "فوق" يقتضي أن لا طاقة للزيادة في الشَّرف وعلوّ المقدار، وكمال الحسن إلى ما لا نهاية. إذ الآيات القرآنية لا يمكن لمخلوق وصفها، ولا الوقوف على كنه شرفها وحسنها، كيف وهي الدالة على المنهج القويم، والهادية إلى الصراط المستقيم، المنقذة من العذاب الأليم، والموصلة إلى النعيم المقيم. فأين هي؟ وأين جواهر البحار منها؟.. هيهات هيهات.

وإذا كانت معاني هذه الآيات كموج البحر في مده، وفوق جوهره في الحُسن والقيم: -

* * *

«٩٨» فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا
وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّأَمِ

فما تُعَدُّ ولا تُحصى عجَائبُها

والعجائب جمع: "عجيبة"، وهو الشيء العديم النظير. ومعاني آيات القرآن كذلك.

وقوله: "عجائبها" تنازعه كلٌّ من: "لا تعَدُّ" و" لاتُحصى".

ولا تُسامُ

أي: لا توصف. وأصله من: "سام الماشية في المراعي، أو: سام المتاع إذا أخذه لغرض الشِّراء".

على الإكثارِ

أي: مع كثرة ذكرها، وترديدها لا إلى غاية.

بالسَّأمِ

أي: الملال، لحسنها وعذوبتها وطلاوتها، وهذا أيضاً من وجوه إعجاز القرآن؛ فقد صرَّح جهابذة العلماء أنَّ من وجوه إعجازه: أنَّ قارئه لا يملُّه، وسامعه لا يمجّه،

والإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يورث في القلوب له محبةً وطلاوة[1]، بخلاف غيره من الكلام البليغ فإنَّه يُمَلُّ مع الترديد، ويُعادى إذا هو أُعيد.

---

(١) قال في مختار الصَّحاح: "الطُّلاَوَةُ" بضم الطاء وفتحها: الحُسن، يقال: ما عليه طُلاوة.

وهذا من أعظم دلائل نبوته صلى الله عليه وآله وسلم لما تحدى عليه الصلاة والسلام العرب بما في القرآن من الإعجاز ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله فعجزوا عن الإتيان بشيء منه مع أنه كان أمياً وكانت قريش أهل البلاغة والفصاحة والشعر وكانوا يرتجلون الكلام البليغ في المحافل ارتجالا. وقد اعترف كثير من أهل الفصاحة والبلاغة بأن القرآن ليس من كلام البشر ولا يقدر أحد على معارضته؛ منهم: عتبة بن ربيعة فإنه لما سمع القرآن من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم -، رجع إلى قريش وقال: "واللّه لقد سمعت ما سمعت بمثله قط. واللّه ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة. فواللّه ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ".

ومنهم: الوليد بن المغيرة وكان المقدَّمَ في قريش بلاغةً وفصاحةً فإنه لما قرأ عليه رسول اللّه ﴿إِنَّ اللّه يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَايتَاْءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ. يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. قال له: أعده. فأعاد ذلك فقال: "واللّه إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطَلاوة وإنَّ أعلاه لمثمر وإنَّ أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر وإنَّه ليعلو ولا يعلى عليه" فقالت قريش: قد صبأ الوليد! واللّه لتصبأنَّ قريشٌ كلُّها.

أما أنيس أخو أبي ذر: ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية فإنه رجع بعد ما سمع القرآن من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: رأيت رجلاً بمكة يزعم أن اللّه أرسله. فقال له أبو ذر: فما يقول الناس فيه؟ قال: يقولون شاعر. كاهن. ساحر. لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أنواع الشعر فلم يلتئم، ولا يلتئم على لسان أحد، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون.

. . . .

وقد أسلم ضماد بن ثعلبة الأسدي عندما سمع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم - يقول :

«الحمد للّه نحمده، ونستعينه، من يهده اللّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له» .

وأسلم عمر بن الخطاب الذي كان من أشدّ الناس على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن قرأ القرآن في بيت أخته فاطمة بنت الخطاب .

وأسلم كذلك : الطفيل بن عمرو الدوسي - وهو شاعر مشهور - بعد أن تلا عليه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم - آياتٍ من القرآن، وقال: " واللّه ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه " .

ولما كانت العرب أهل الفصاحة والبلاغة فقد كان المنصفون منهم يسلمون عند سماعهم القرآن من غير معارضة ولا مكابرة لأنَّ الحقَّ أحقُّ أن يتَّبع . أما الذين في قلوبهم مرضٌ فقد كانوا يبذلون كل جهد لمنع الناس من سماع رسول اللّه يتلو القرآن خشية أن يؤثر فيهم ويسلموا.

حكى أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ .

فسجد وقال: " سجدت لفصاحة هذا الكلام " .

وسمع أعرابيٌّ آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ .

فقال: " أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام " .

هذا ومعجزة القرآن باقية ما بقيت الدنيا وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ولم يشاهدها إلا الحاضرون .

وقد حاول بعضهم معارضة القرآن فجاء كلامه سخيفاً مضحكاً : ›

. . . .

* * *

فمن ذلك قول مسيلمة الكذاب وهو عربي صميم: "يا ضفدع كم تَنِقِّين. أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الماء تدركين ولا الشرب تمنعين"

ولما سمع قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾ قال: "والزارعات زرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً والطاحنات طحناً والحافرات حفراً والشاردات ثرداً واللاقمات لقما. لقد فضلت على أهل الوبر وما سبقكم أهل المضر. الخ"

ومن كلامه: "ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى. أخرج من بطنها نسمة تسعى من بين شراسيف وأحشا"

وقال بعضهم: "الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل ومشفر طويل وإن ذلك من خلق ربنا لقليل"!!. وهذا كلام لا طعم له ولا حلاوة فيه. خال من المعنى يمجه كل ذوق ولا يتمالك قارئه من الضحك.

وقد أراد بعضهم معارضة سورة الإخلاص فأخفق واعترته رقة القلب فتاب.

وحاول ابن المقفع المعارضة فلم يستطع واعترف بإعجاز القرآن.

«٩٩» قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ
لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاعْتَصِمِ

قرّت بها

أي: الآيات.

عينُ قاريها

أي: التالي لألفاظها، المتدبِّر لمعانيها، أي: اطمأنَّت، وبلغت ما ترجوه من كل خير، وأمنت ما تخافه من كل ضَير.

يقال: قرَّت عينه، تقرُّ، كـ "ضرب، يضرِب" و"علِم، يعلَم" قُرَّةً وقُروراً: بضم القاف فيهما، وأصله من "القِر" وهو السكون. وقيل: من "القَر" وهو البرد، أي: بردت بدمعه. وتسهيل همزة "قاريها" هنا لغةٌ جرى عليها الناظم رحمه الله – للوزن(١).

فقلت له:

على طريق التبشير – واللهِ:

---

(١) قال في القاموس: قرت عَيْنُهُ تَقَرُّ، بالكسر والفتح، قَرَّةً، وتُضَمُّ، وقُرُوراً: بَرَدَتْ، وانقَطَعَ بُكاؤُها، أوْ رَأَتْ ما كانَتْ مُتَشَوِّفَةً إليه.

لقد ظفرتَ بحبل الله

أي: فُزتَ بما يوصلُك إلى رِضاه ودار كرامته من الأسباب الوثيقة، والوسائل الأنيقة.

وسمي القرآن بذلك لأنه وُصلةٌ بين العبد وربه. ففي الترمذي نحوه عن سيدنا علي - رضي الله عنه - " القرآن حبلُ الله المتينُ" (١).

---

(١) روى الترمذي في سننه بسنده عن الحارث الأعْوَر قالَ: مَرَرْتُ في المَسْجد فَإذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ في الأحَاديث فَدَخَلْتُ عَلَى عَلَي، فَقلتَ: يَا أميرَ المُؤْمنينَ ألاَ تَرَى النَّاسَ قَدْ خَاضُوا في الاحَاديث؟ قالَ: وقد فَعلُوهَا؟ قلت: نَعَمْ، قالَ: أمَا إني قد سَمعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "ألاَ إنّهَا ستَكُونُ فتْنَةٌ، فَقلت: مَا المَخرَجُ منهَا يا رَسُولَ الله؟ قالَ: كتَابُ الله فيه نَبأُ مَا كان قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وحُكْمُ مَا بَيْنكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيسَ بالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ منْ جَبّار قَصَمَهُ الله، وَمَنْ ابتَغَى الهُدَى في غَيْره أضَلّهُ الله، وَهُوَ حَبْلُ الله المَتينُ، وَهُوَ الذّكْرُ الحكيمُ، وَهُوَ الصّرَاطُ المُسْتَقيمُ، هُوَ الّذي لاَ تَزيغُ به الأهْوَاءُ، ولاَ تَلْتَبسُ به الالْسنَةُ، ولاَ يَشْبَعُ منْهُ الْعُلَمَاءُ، ولاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَة الرّدّ، ولاَ تَنْقَضي عَجَائبُهُ، هُوَ الّذي لَمْ تَنْتَه الجنّ إذْ سَمعَتْهُ حَتّى قالُوا ﴿إنّا سَمعْنَا قُرْآنَا عَجَباً يَهْدي إلَى الرّشْد فَآمَنّا به﴾، مَنْ قَالَ به صَدَقَ، وَمَنْ عَملَ به أُجرَ، وَمَنْ حَكَمَ به عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إلَيْه هُديَ إلَى صرَاط مُسْتَقيم" خُذْهَا إلَيْكَ يَا أعْوَرُ. قَالَ أبو عيسى: هذا حَديثٌ غريبٌ لاَ نَعْرفُهُ إلا منْ هذا الوجه، وإسْنَادُهُ مَجْهُولٌ. وَفي حَديث الحَارث مَقَالٌ.

انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري - ٤٤ - كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ١٧٩١ - باب مَا جَاءَ في فَضْلِ القُرآن. الحديث رقم: ٢٩٨٢.

فاعتصم

أي: فتمسَّكْ بذلك الحبل، وامتنع بتلاوة هذه الآيات من عذاب الله، بامتثال أوامرها، واجتناب نواهيها، عن الوقوع في شيء من المخالفات، المُوقِعه في غضب الله وعذابه.

* * *

«١٠٠» إِنْ تَتْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارِ لَظَىٰ
أَطْفَأْتَ حَرَّ لَظَىٰ مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ

إِنْ تَتْلُهَا

أيُّها القارىء للآيات، المتدبِّرُ لمعانيها؛ بخشية.

خيفةً

أي: خوفاً.

من

الوقوع في :-

حرِّ نارِ لظىً

أي: جهنَّم، لاستحقاقك إياه بما اقترفته من المعاصي.

أطفأتَ

أي: أذهبتَ. من "طفئت النار: إذا ذهب حرها". فالهمزة للتعدية.

حرَّ لظىً

وفي نسخة "نار لظى". وإطفاؤها كناية عن عدم دخولها ووصولها إليه، إطفاءً ناشئاً :-

من وردها

بكسر الواو، أي: موردها.

الشَّبِم

بفتح الشِّين وكسر الباء، أي: شديد البرد. وبفتح الباء: مصدر "شبم" وبابه فَرِحَ. وقد شبَّه الناظم - رضي الله عنه - الآيات بالماء البارد، بجامع أنَّ كلاً سببٌ لإطفاء النار، وحصول النجاة منها.

ففي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرأوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شافعاً لأصحابه»(١)

---

(١) روى الإمام أحمد في المسند، والطبراني في الكبير: بسندهما عن أبي أمامة الباهلي: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي شافعاً لأصحابه يوم القيامة اقرؤا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما، واقرؤوا سورة البقرة فإنَّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة».

انظر: مسند الإمام أحمد. المجلد الخامس. مسند الأنصار رضي الله عنهم. حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو بن وهب الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم.

و: معجم الطبراني الكبير، باب الصاد- صدي بن العجلان. أبو سلام الأسود عن أبي أمامة.

«١٠١» كَأَنَّهَا الْحَوْضُ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ بِهِ
مِنَ الْعُصَاةِ وَقَدْ جَاءُوهُ كَالْحُمَمِ

كأنَّها

أي: تلك الآيات.

الحَوضُ

واحد "الحياض، والأحواض"، وأصله: المكان المنخفض المتَّخذ له جوانبُ لاجتماع الماء فيه، و"الألف واللام" فيه للعهد. وجوَّز بعضُهُم أن يكون عَلَماً بالغلبة، كالمدينة والعقبة، وعلى كُلٍّ: فالمراد به حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

تبيَضُّ الوجوه

أي: تتنوَّرُ الذَّوات المشتملة عليها.

بهِ

أي: بذلك الحوض. وخصَّ الوجوه بالذكر لأنها أشرف أجزاء الأبدان، التي تحسن لحسنها، وتقبح لقبحها.

من العُصاةِ

بيانٌ للوجوه. والحال أنَّ العصاةَ بعد دخولهم النار واحتراقهم بها وخروجهم منها

بشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاؤوه

أي: الحوض في حالة كونهم:-

كالحمم

الفحم. وهو بضم الحاء وفتح الميم: جمع حِممة.

ففي حديث الصحيحين: « فيخرجون منها؛ فيُلقَون في نهر الحياة»[1].

---

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحهما بسندهما عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "يدخل الله أهل الجنة الجنة- يدخل من يشاء برحمته- ويدخل أهل النار النار. ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه. فيخرجون منها حمماً قد امتحشوا. فيلقون في نهر الحياة أو الحيا. فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل. ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية". قوله: "امتحشوا": احترقوا. "الحيا" الحيا هو المطر. سمي حيا لأنه تحيا به الأرض. وكذلك هذا الماء يحيا به هؤلاء المحترقون وتحدث فيهم النضارة، كما يحدث ذلك في الأرض. "ملتوية" أي: ملفوفة مجتمعة. وقيل: منحنية.
انظر: صحيح البخاري، الجزء الرابع ٨٤ - كتاب الرقاق ٥١ - باب: صفة الجنة والنار. الحديث رقم: ٦١٩٢.
وصحيح مسلم - الجزء الأول. ١ - كتاب الإيمان. (٨٢) باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار. الحديث رقم: ٣٠٤- (١٨٤).

وفي رواية: «فيصَبُّ عليهم ماء الحياة»(١) أي: فيذهب عنهم السواد، ويظهر عليهم البياض، كذلك الآيات بقراءتها والعمل بها تبيض الوجوه.

وما ذكر الناظم - رضي الله عنه - مأخوذٌ من حديث: «من شرب منه - أي: من الحوض - شربةً لم يظمأ أبداً»(٢)، ولم يسودَّ وجهه أبداً.

ثم... ماء الحوض يصبُّ من "ماء الكوثر" في الجنة، وبهذا الاعتبار يسمَّى الحوض أيضاً: "كوثراً".

ففي "مسلم" أن: «الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة»(٣).

---

(١) في صحيح البخاري، الجزء الأول. ١٦ - كتاب صفة الصلاة. ٤٥ - باب: فضل السجود. الحديث رقم: ٧٧٣.

(٢) روى الطبراني في الكبير، والبزار بسندهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حوضي من كذا إلى كذا، فيه من الآنية عدد النجوم، أطيب ريحاً من المسك، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأبيض من اللبن، من شرب منه شربة لم يظمأ أبداً". قلت - أي الحافظ الهيثمي -: هو في الصحيح باختصار. رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط. وبقية رجالهما رجال الصحيح.

(٣) روى مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أبي ذرّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّه، مَا آنِيَةُ الحَوْضِ؟ قَالَ: "وَالّذي نَفْسُ مُحَمّد بيَده لآنيَتُهُ أَكْثَرُ منْ عَدَد نُجُوم السّمَاء وكَوَاكبهَا. أَلاَ في اللّيْلَة المُظْلمَة المُصْحيَةَ. آنيَةُ الجَنّة مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخرَ مَا عَلَيْه. يَشْخُبُ فيه ميزَابَان منَ الجَنّة. مَنْ شَرِبَ منْهُ لَمْ يَظْمَأْ. عَرْضُهُ مثْلُ طُوله، مَا بَيْنَ عَمّانَ إلَى أَيْلَةَ. مَاؤُهُ أَشَدّ بَيَاضاً منَ اللّبَنِ، وَأَحْلَى منَ العَسَلِ".

ثم . . . الصحيح : أن الحوضَ قبل الصراط والميزان[1] ، لأن الناس يردون من الموقف عطاشاً فيرد الحوضَ المؤمنون ، ويتساقط الكافرون في النار بعد أن يقولوا : ربنا عطشنا ، فترفع لهم جهنم كأنها سراب ، فيقال : ألا تردون؟ فيظنونها ماء ؛ فيتساقطون فيها[2] .

انظر : صحيح مسلم . الجزء الرابع . ٤٣- كتاب الفضائل . (٩) باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته . الحديث رقم : ٣٦- (٢٣٠٠) .

(١) قال العلامة القسطلاني في "الفتح" بعد أن روى الحديث بطوله في صفة الجنة والبعث وفيه : "تعرضون عليه بادية له صفاحكم لا تخفى عليه منكم خافية فيأخذ غرفة من ماء فينضح بها قبلكم فلعمر إلهك ما يخطئ وجه أحدكم قطرة ، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء ، وأما الكافر فتخطمه مثل الخطام الأسود ، ثم ينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون فيسلكون جسرا من النار ، يطأ أحدكم الجمرة فيقول : حس ، فيقول ربك أوانه إلا [هكذا . . .] ، فيطلعون على حوض الرسول على أظماء والله ناهلة رأيتها أبدا ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع على قدح " الحديث .

قال : وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة والطبراني والحاكم ، وهو صريح في أن الحوض قبل الصراط . انظر : فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، للإمام ابن حجر العسقلاني – المجلد الحادي عشر . كتَاب الرِّقَاق . باب في الحَوْض .

(٢) عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ : أَنَّ نَاساً في زَمَنِ رَسُولِ اللّه صلى الله عليه وسلم قَالُوا : يَا رَسُولَ اللّه ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَة؟ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : "نَعَمْ" . قَالَ : "هَلْ تُضَارّونَ في رُؤْيَة الشَّمْس بالظَّهيرَة صَحْواً لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارّونَ في رُؤْيَة القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ صَحْواً لَيْسَ فيهَا سَحَابٌ؟" قَالُوا : لاَ . يَا رَسُولَ الله ! قَالَ : "مَا تُضَارّونَ في رُؤْيَة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ القيَامَة إلاّ كَمَا تُضَارّونَ في رُؤْيَة أَحَدهمَا . ›

إذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَة أذَنَ مُؤذِّنٌ: لِيَتّبِعْ كُلُّ أُمّة مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أحَدٌ، كَانَ يَعبُدُ غَيرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأنْصَاب، إلاّ يَتَسَاقَطُونَ في النّار. حَتّى إذَا لَمْ يَبْقَ إلاّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللّهَ مِنْ بَرّ وَفَاجِر. وَغُبّر أهْلِ الْكِتَاب. فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله. فَيُقَالَ: كَذَبْتُمْ مَا اتّخَذَ اللّهُ مِنْ صَاحِبَة وَلاَ وَلَد. فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا. يَا رَبّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إلَيْهِمْ: ألاَ تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إلَى النّار كَأنّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً. فَيَتَسَاقَطُونَ في النّار. ثُمّ يُدْعَى النّصَارَى. فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ. مَا اتّخَذَ اللّهُ مِنْ صَاحِبَة وَلاَ وَلَد. فَيُقَالَ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا. يَا رَبّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ فَيُشَارُ إلَيْهِمْ: ألاَ تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إلَى جَهَنّمَ كَأنّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً، فَيَتَسَاقَطُونَ في النّار. حَتّى إذَا لَمْ يَبْقَ إلاّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللّهَ تَعَالَى مِنْ بَرّ وَفَاجِر، أتَاهُمْ رَبّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أدْنَى صُورَة مِنَ الّتي رَأوْهُ فِيهَا. قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلّ أُمّة مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا: يَا رَبّنَا! فَارَقْنَا النّاسَ في الدّنْيَا أفْقَرَ مَا كُنّا إلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ: أنَا رَبّكُمْ. فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ. لاَ نُشْرِكُ بِالله شَيْئاً (مَرّتَيْنِ أوْ ثَلاَثاً) حَتّى إنّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاق. فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِه إلاّ أذِنَ اللّهُ لَهُ بِالسّجُود. وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتّقَاءً وَرِيَاءً إلاّ جَعَلَ اللّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً. كُلّمَا أرَادَ أنْ يَسْجُدَ خَرّ عَلَى قَفَاهُ. ثُمّ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ، وَقَدْ تَحَوّلَ في صُورَتِه الّتي رَأوْهُ فِيهَا أوّلَ مَرّة. فَقَالَ: أنَا رَبّكُمْ. فَيَقُولُونَ: أنْتَ رَبّنَا. ثُمّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنّمَ. وَتَحِلّ الشّفَاعَةُ. وَيَقُولُونَ: اللّهُمّ سَلّمْ سَلّمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله! وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضٌ مَزِلّةٌ. فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ. تَكُونُ بِنَجْد فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السّعْدَانُ. فَيَمُرّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرّيحِ وَكَالطّيْرِ وَكَأجَاوِيدِ ›

الخَيْلِ وَالرِّكَابِ. فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ. وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ. وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً للهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ للهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فَيَقُولُ: ارْجِعُوا. فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً. ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَداً مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا. فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَداً. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا. فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْراً". وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ "فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ. قَدْ عَادُوا حُمَماً فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَاةِ. فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ. أَلاَ تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ. مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ. وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟" فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ. قَالَ: "فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ. يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ. هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ. ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا. فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا! ›

وذهب العلماء إلى أن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حوضين؛ أحدهما: قبل الصراط. والآخر: بعده[1].

أَيّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟. فَيَقُولُ: رِضَايَ. فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أَبَداً". انظر: صحيح مسلم. الجزء الأول ١ - كتاب الإيمان. (٨١) باب معرفة طريق الرؤية - الحديث رقم: ٣٠٢- (١٨٣).

(١) قال أبو عبد الله القرطبي في " التذكرة ": ذهب صاحب " القوت " وغيره إلى أن الحوض يكون بعد الصراط، وذهب آخرون إلى العكس، والصحيح، أن للنبي صلى الله عليه وسلم حوضين أحدهما في الموقف قبل الصراط والآخر داخل الجنة وكل منهما يسمى كوثراً.

قال العلامة القسطلاني في شرحه للبخاري: وفيه نظر لأن الكوثر نهر داخل الجنة كما تقدم ويأتي، وماؤه يصب في الحوض، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه، فغاية ما يؤخذ من كلام القرطبي أن الحوض يكون قبل الصراط، فإن الناس يردون الموقف عطاشى فيرد المؤمنون الحوض وتتساقط الكفار في النار بعد أن يقولوا ربنا عطشنا، فترفع لهم جهنم كأنها سراب فيقال: ألا تردون؟ فيظنونها ماء فيتساقطون فيها. وقد أخرج مسلم من حديث أبي ذر أن الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة، وله شاهد من حديث ثوبان، وهو حجة على القرطبي لا له، لأنه قد تقدم أن الصراط جسر جهنم وأنه بين الموقف والجنة وأن المؤمنين يمرون عليه لدخول الجنة، فلو كان الحوض دونه لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر في الحوض، وظاهر الحديث أن الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها، وفي حديث ابن مسعود عند أحمد " ويفتح نهر الكوثر إلى الحوض " وقد قال القاضي عياض: ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الحوض " من شرب منه لم يظمأ بعدها أبدا " يدل على أن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار، >

وقدوردت أخبارٌ بطول الحوض وتحديده :

ففي رواية : أنَّ الحوض مسيرة شهر ، وزواياه سواء(١) .

لأن ظاهر حال من لا يظمأ أن لا يعذب بالنار ، ولكن يحتمل أن من قدر عليه التعذيب منهم أن لا يعذب فيها بالظمأ بل بغيره . ويدفع هذا الاحتمال أنه وقع في حديث أبي بن كعب عند ابن أبي عاصم في ذكر الحوض " ومن لم يشرب منه لم يرو أبدا " وعند عبد الله بن أحمد في زيادات المسند في الحديث الطويل عن لقيط ابن عامر أنه : " وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ونهيك بن عاصم ، قال : فقدمنا المدينة عند انسلاخ رجب فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من صلاة الغداة " الحديث بطوله في صفة الجنة والبعث وفيه : " تعرضون عليه بادية له صفا حكم لا تخفى عليه منكم خافية فيأخذ غرفة من ماء فينضح بها قبلكم فلعمر إلهك ما يخطئ وجه أحدكم قطرة ، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء ، وأما الكافر فتخطمه مثل الخطام الأسود ، ثم ينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون فيسلكون جسرا من النار ، يطأ أحدكم الجمرة فيقول : حس ، فيقول ربك أوانه إلا ، فيطلعون على حوض الرسول على أظماء والله ناهلة رأيتها أبدا ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع على قدح " الحديث . وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة والطبراني والحاكم ، وهو صريح في أن الحوض قبل الصراط .

انظر : فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد الحادي عشر . كتَاب الرِّقَاق . بابٌ في الحَوْض .

(١) روى البخاري ومسلم - واللفظ لمسلم - بسندهما عَن ابْن أبي مُلَيْكَةَ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللّه بْنُ عَمْرو بْن العَاص : قَالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم " حَوْضي مَسيرَةُ شَهْر . وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ . وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ منَ الوَرِق . وَريحُهُ أَطْيَبُ منَ المسْك . وكيزَانُهُ كَنُجُوم السَّمَاء . فَمَنْ شَربَ منْهُ فَلاَ يَظمَأُ بَعْدَهُ أَبَداً " .

انظر : صحيح مسلم . الجزء الرابع . ٤٣ - كتاب الفضائل . (٩) باب إثبات حوض ›

وفي رواية: «إن لي حوضاً ما بين الكعبة وبيت المقدس، ماؤه أبيض من اللبن، وآنيته عدد نجوم السماء، وإني لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة»[1]. غير ذلك من الروايات.

ثم اختلف العلماء أيضاً: هل الحوض لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم أو لكلّ نبيّ حوضٌ في عرصات القيامة؟.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وارِدَةً وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»[2].

نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته. الحديث رقم: ٢٧- (٢٢٩٢). وفتح الباري، شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد الحادي عشر. كِتَاب الرِّقَاقِ. باب فِي الحَوْض.

(١) عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ لِي حَوْضاً، مَا بَيْنَ الْكَعْبَة وَبَيْت الْمَقْدِس. أَبْيَضَ مِثْلَ اللَّبَنِ. آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ. وَإِنِّي لأَكْثَرُ الأَنْبِيَاء تَبَعاً يَوْمَ الْقِيَامَةَ). قال في مجمع الزوائد: في إسناده عطية العوفيّ، وهو ضعيف. انظر: سنن ابن ماجه. الجزء الثاني. ٣٧- كتاب الزهد. (٣٦) باب ذكر الحوض. الحديث رقم: ٤٣٠١.

(٢) روى الترمذي في سننه بسنده عن الحَسَن عن سَمُرَةَ قال: قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وارِدَةً وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً". قَالَ أبو عيسى: هذا حَديثٌ حسنٌ غريبٌ. انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري: ٣٧ - كتاب صِفَةُ القِيامَة والرقائق والورع عن رَسُول الله صلى الله عليه وسلم. ١٥٧٩ - باب ما جَاءَ في صِفَةِ الحَوض. في الحديث رقم: ٢٤٩١.

وهذا الحديث شاملٌ لصالح - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام -، خلافاً لمن استثناه وقال: "حوضه ضرع ناقته"[1].

* * *

(١) قال القرطبي: وقال البكري المعروف بابن الواسطي: " لكل نبي حوض إلا صالحاً فإن حوضه ضرع ناقته" انتهى، ولم أقف على ما يدلّ عليه أو يشهد له. انظر: فيض القدير، شرح الجامع الصغير، للإمامِ المناوي - الحديث رقم: ٢٤٣٢ .

«١٠٢» وَكَالصِّرَاطِ وَكَالْمِيزَانِ مَعْدَلَةً
فَالْقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَقُمِ

وكالصِّراطِ

استقامةً، وهو معطوفٌ على "الحوض". وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾(١).

والسِّراط: - بالسِّين - من: سرط الطعام: ابتلعه. لكنَّ الجمهور على قراءته بالصَّاد كما نطق به الناظم رضي الله عنه، وهي لغة قريش. وجمعه: صُرُط، كـ"كُتُب"، والمراد به ههنا: الطريق الذي ينصبه الله تعالى جسراً على متن جهنَّم.

وورد في بعض الأخبار: أنه "أدقُّ من الشعر، وأحدُّ من السيف"(٢).

---

(١) سورة الزمر - الآية ٢٨ .

(٢) روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: "قلت: يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة قال: يا عائشة أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأما عند تطاير الكتب، فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله فلا، وحين يخرج عنق من النار فينطوي عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد، قال فينطوي عليهم ويرمي بهم في غمرات ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحدُّ من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل". ›

وفي رواية: إنَّ الصِّراطَ مثل السيف بجنبه كلاليب، وإنه ليأخذ بالكلوب الواحد مثل ربيعة ومضر[1].

وهذه الكلاليب الشَّهوات المشار إليها في الحديث الآخر بقوله: «حفَّت النَّار بالشَّهوات»[2] فهي موضوعة على جوانبها، فمن اقتحم الشهوة سقط في النار.

انظر: مسند الإمام أحمد - المجلد السادس - حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

(١) قال العلامة القسطلاني في "الفتح": ولابن المبارك عن مرسل عبيد بن عمير "إن الصراط مثل السيف وبجنبتيه كلاليب، إنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة ومضر".
انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد الحادي عشر. كتَاب الرِّقَاق. باب الصِّرَاطُ جَسْرُ جَهَنَّمَ.

(٢) روى مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: "حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ. وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ".
انظر: صحيح مسلم. الجزء الرابع. ٥١ - كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها. الحديث رقم: ١ - (٢٨٢٢). ورواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: (حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره). و: صحيح البخاري، الجزء الرابع ٨٤ - كتاب الرقاق ٢٨ - باب: حجبت النار بالشهوات. الحديث رقم: ٦١٢٢.

وعن بعضهم: بلغنا أن الصِّراط أدقُّ من الشَّعر على بعض الناس[١] .
ولبعضهم: "مثل الوادي المتَّسع" .

وفي الصِّراط طاقات، كل طاقة تنفذ إلى طبقة من طباق جهنم، وهي حاجزةٌ بين الخلائق والجنة، والجسر على ظهرها منصوب، فلا يدخل أحدٌ الجنة حتى يمرَّ على جهنَّم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[٢] .

وعن بعضهم: لن يجوز أحدٌ الصراط حتى يُسألَ في سبع قناطر :-

فيسألُ في الأولى: عن الإيمان بالله، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله. فإن أجابها مخلصاً جازها. وفي الثانية: عن الصلاة؟ فإن أجابها تامّةً جازها. وفي الثالثة: عن صوم رمضان؟. وفي الرابعة: عن الزكاة؟. وفي الخامسة: عن الحج؟. وفي السادسة: عن الغُسلِ والوضوء؟. ثم يسأل في السابعة - وليس في القناطر أصعب منها - عن ظلامات الناس[٣] .

---

(١) نقل ذلك العلامة القسطلاني في "الفتح" عن سعيد بن أبي هلال قال: "بلغنا أن الصراط أدق من الشعر على بعض الناس، ولبعض الناس مثل الوادي الواسع" أخرجه ابن المبارك وابن أبي الدنيا وهو مرسل أو معضل. انظر: فتح الباري، للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد الحادي عشر. كِتَاب الرِّقَاقِ. باب الصِّرَاطُ جَسْرُ جَهَنَّمَ.
(٢) سورة مريم - الآية ٧١ .
(٣) روى الضحاك عن ابن عباس قال: إن على جهنم سبع قناطر، يُسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يُسأل عن الصلاة، فان جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة. ثم يُسأل عن ›

. . . .

صيام شهر رمضان، فإن جاء به جاز إلى الخامسة. ثم يُسأل عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة. ثم يُسأل عن صلة الرحم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادي مناد: ألا من كانت له مظلمة فليأت؛ فيقتص للناس منه، يقتص له من الناس؛ فذلك قوله عز وجل: "إن ربك لبالمرصاد". الجامع لأحكام القرآن، سورة الفجر- تفسير قوله تعالى: ﴿إنَّ ربَّك لبالمرصاد﴾. ورواه الطبراني في الكبير، والهيثمي في مجمع الزوائد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي قال: إن لجهنم سبع قناطر، والصراط عليهن، فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى فيقول: قفوهم إنهم مسؤلون، فيحاسبون على الصلاة، ويسألون عنها، فيهلك فيها من هلك وينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حوسبوا على الأمانة كيف أدوها وكيف خانوها، فيهلك من هلك ينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها، فيهلك من هلك وينجو من نجا. والرحم يومئذ متدلية إلى الهوى في جهنم تقول: اللهم من وصلني فصله، ومن قطعني فاقطعه. وهي التي يقول الله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾. انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي- المجلد العاشر ٤٢ . كتاب البعث ١٣ باب ما جاء في القصاص الحديث رقم: ١٨٤١٦ . وكنز العمال للمتقي الهندي - المجلد السادس عشر. فصل في مواعظ متفرقة لأشخاص متفرقين. الحديث رقم: ٤٤٢٣٨ .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «الزَّالُّون عن الصراط كثير»(١)، وأكثر من يزلُّ عنه النساء.

وإذا صار النَّاس على الصِّراط نادى مَلَكٌ من تحت العرش: يا خلق الله جوزوا! على الصراط، وليقف كلُّ عاصٍ منكم وظالم، فيسألهما في ساعة ما أعظم خوفها!، فيتقدَّم فيها من كان في الدنيا ضعيفاً مهيناً، ويتأخَّر من كان في الدنيا عظيماً مكيناً. ثم يجوزون على الصِّراط على قدر أعمالهم، فإذا عصف الصراط بأمتي نادوا: وامحمداه، فأبادر من شدَّة إشفاقي عليهم، وأنادي رافعاً صوتي: ربِّ... أمتي، أمَّتي. لا أسألك اليوم نفسي، ولا فاطمة ابنتي. والملائكة قيامٌ عن يمين العرش

(١) روى البيهقي بسنده عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن على جهنم جسرا أدق من الشعر وأحد من السيف، أعلاه نحو الجنة دحض مزلة بجنبيه كلاليب وحسك النار، يحشر الله به من يشاء من عباده، الزالون والزلات يومئذ كثير، والملائكة بجانبيه قيام ينادون: اللهم: سلِّم سلِّم، فمن جاء بالحق جاز، ويعطون النور يومئذ على قدر إيمانهم وأعمالهم، فمنهم من يمضي عليه كلمح البرق، ومنهم من يمضي عليه كمر الريح، ومنهم من يعطى نوراً إلى موضع قدميه، ومنهم من يحبو حبواً، وتأخذ النار منه بذنوب أصابها وهي تحرق من يشاء الله منهم على قدر ذنوبهم حتى ينجو، وينجو أول زمرة سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، وكأن وجوههم القمر ليلة البدر، والذين يلونهم كأضواء نجم في السماء حتى يبلغوا إلى الجنة برحمة الله تعالى».
انظر: كنز العمال للمتقي الهندي - المجلد الرابع عشر. الإكمال من الصراط. الحديث رقم: ٣٩٠٣٦.

وشعارهم يقول: رب سلّم[1].

وفي حديث: «لا يتكلّمُ أحدٌ على الصراط إلا الأنبياء والرسل، وكلامهم: اللّهُمَّ سلّمْ سلّمْ»[2].

ثم . . . الإيمان على ما وصفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصِّفة الواردة عنه واجب، والقادر على إمساك الطير في الهواء قادرٌ على تثبيت المؤمنين عليه. وأمور الآخرة ليست مقيسة على أمور الدنيا، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا تعذَّرت الحقيقة، ولا تعذُّرَ ههنا.

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية عن كعب قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ونزلت الملائكة صفوفاً فيقول الله لجبريل: ائت بجهنم، فيأتي بها تقاد بسبعين ألف زمام حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام، زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق، ثم تزفر زفرة ثانية، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى لركبتيه، ثم تزفر الثالثة. فتبلغ القلوب الحناجر، وتذهل العقول، فيفزع كل أمرئ إلى عمله حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول: بخلتي لا أسألك إلا نفسي. ويقول موسى: بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي. ويقول عيسى: بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني. ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول: أمتي . . . أمتي . . . لا أسألك اليوم نفسي. فيجيبه الجليل جل جلاله ألا ان أوليائي من أمتك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فوعزتي لأقرَّنَّ عينك في أمتك، ثم تقف الملائكة بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمرون.

(٢) في حديث الشفاعة الذي رواه الشيخان وأصحاب السنن. انظر: صحيح البخاري، الجزء الأول. ١٦- كتاب صفة الصلاة ٤٥- باب: فضل السجود. في الحديث رقم: ٧٧٣، وصحيح مسلم. الجزء الأول ١- كتاب الإيمان. (٨١) باب معرفة طريق الرؤية. الحديث رقم: ٢٩٩ (١٨١)

وكالميزانِ

عطفٌ على: " كالصراط ". وأصله: مِوْزان، قلبت واوه ياءً لسكونها، وانكسار ما قبلها، وجمعه: موازين.

مَعْدِلَةً

أي: عدلاً، على أنه مصدر ميمي، منصوب على التمييز، أو على الحال، بتأوي " عادلة ".

والميزان حقٌّ، والإيمان به واجب، جاءت به النصوص من الكتاب والسنة، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٢).

والأدلَّةُ عليه من السنَّةِ كثيرةٌ شهيرة، بلغت مبلغ التواتر المعنوي، وإن كانت التفاصيل آحاداً كجود حاتم، وشجاعة علي، وهو عبارة عما يعرف به مقادير الأعمال، والعقل قاصر عن إدراك كيفيته. وجمهور المسلمين على أنه ظاهر، ولا التفات على إنكار المعتزلة ذلك حيث زعموا: أن الأعمال أعراضٌ، إن أمكنت إعادتها لا يمكن وزنها، على أنها معلومة لله تعالى، فوزنها عَبَث!!!، انتهى.

---

(١) سورة الأعراف - الآية ٨ .

(٢) سورة الأنبياء - الآية ٤٧ .

وقد تكررت الآيات القرآنية، والأخبار النبوية بذكر الوزن والميزان، لكن قد جاء ذكر الميزان في الكتاب بلفظ الجمع، وفي السنة بالإفراد تارة، وبالجمع أخرى. فقيل: صورة الإفراد محمولة على الجنس، فلا ينافي الجمع. وقيل: إن الميزان واحد لجميع المسلمين، وجمعه للتعظيم.

وقيل: هو ميزان له كفّتان، ولسان، وكفة الحسنات من نور، وكفة السيئات من ظلمة، وإن كلّ كفّةٍ منه لو ووضعت فيها السماوات والأرضون لوسعتها.

واختلف هنا في كيفية وضع الميزان، والذي جاء به أكثر الأخبار: أنّ الجنة توضع عن يمين العرش، والنّار عن يساره، ثم يؤتى بالميزان، فينصب بين يدي ربّ العزّة، أي: في موضع عظَمَته وقهره، مع تنزُّهه عن المكان والزمان والجارحة، فتوضع كفة الحسنات مقابل الجنة، وكفة السيئات مقابل النار[1].

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك، وصححه على شرط مسلم، عن سلمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يارب لمن يزن هذا؟ فيقول الله: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك!. ويوضع الصراط مثل حدّ الموسى، فتقول الملائكة: من يجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك). قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، انظر: المستدرك للحاكم - كتاب الأهوال - باب ذكر سعة الميزان ٤/ ٥٨٦.
وقال القرطبي: وجاء في الخبر: أنَّ الجنَّةَ توضع على يمين العرش والنّار عن يساره، ويؤتى بالميزان، فينصب بين يدي الله عز وجل، كفّة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار. انظر: التذكرة في أحوال الموتى ›

فالقسْطُ

أي : العدلُ .

من غيرِها

أي : الآيات القرآنية .

في النَّاسِ

هو من "ناسَ" إذا تحرَّك، فيعمُّ الإنس والجنَّ، أو من "الأُنس" فيختص بالإنس. والمراد بـ"النَّاس" : مَن [هم] بعد بعثة نبينا [وسيدنا محمد] صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يلزم أن لا يكون للأمم السَّابقة من الكتب السَّماوية عدل، لأنَّ جميع الشَّرائع جاءت على طرق العدل، ومنهاج الصَّواب.

وأمور الآخرة - الإمام القرطبي ٣٧ .

وأخرج البزار، والبيهقي في الشعب، عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يؤتى بابن آدم يوم القيامة؛ فيوقف بين كفتي الميزان، ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه، نادى الملك بصوت يُسْمِع الخلائقَ: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه، نادى الملك بصوت يُسْمِع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً» انظر: مسند الفردوس للديلمي - الحديث رقم ٨٧٦٢، وعزاه لأبي نعيم، وهنَّاد عن أنس ٥/ ٤٦٢ .

لم يَقُمِ

بالبناء للفاعل، أو بالبناء للمفعول .

والعدل المأخوذ من السنَّة راجعٌ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[2] .

* * *

(١) سورة الحشر – الآية رقم ٧ .

(٢) سورة النساء – الآية ٨٠ .

«١٠٣» لَا تَعْجَبَنْ لِحَسُودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا
تَجَاهُلًا وَهْوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهِمِ

لا تعجبَنْ

أي: لا تستغرِبَنْ. والعجب تارةً يتعدّى باللام، وتارةً بـ "من"، قال: عجبتُ له، وعجبتُ منه. وجرى الناظم - رضي الله عنه - على الأوّل.

لحَسُودٍ

أي: لشخصٍ بلغَ من الحَسَدِ الغاية. والحسد: تمنّي زوال نعمة الله تعالى عمَّن أنعم عليه. وهو حرامٌ، من الكبائر إجماعاً.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إيَاكُمْ والحَسَدَ، فَإنّ الحَسَدَ يأكُلُ الحَسَنَاتِ كما تَأكُلُ النّارُ الحَطَبَ، أوْ قالَ العُشْبَ»(١).

---

(١) روى أبو داود في سننه بسنده عنْ أبي هُرَيْرَةَ أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قالَ: "إيّاكُمْ وَالحَسَدَ، فَإنّ الحَسَدَ يأكُلُ الحَسَنَات كما تَأكُلُ النّارُ الحَطَبَ، أوْ قالَ العُشْبَ". انظر: سُنَنُ أبي دَاوُد، الجزء الثاني. ٣٥- كتاب الأدب. ٥٢- ت/ ٤٤ م باب في الحسد. الحديث رقم: ٤٩٠٣.

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا في حديث طويل: «ولا تحاسدوا ولا تباغضوا». وروى ابن حبان في صحيحه والحاكم مرفوعاً: «لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد مؤمن الإيمان والحسد». وروى الطبراني ›

ورواته ثقات مرفوعاً: «لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا»، وفي رواية له أيضاً مرفوعاً «ليس مني ذو حسد ولا نميمة». وفي رواية له أيضاً: «لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خصال أن تكثر لهم الدنيا فيتحاسدون» وروى البزار بإسناد جيد والبيهقي وغيرهما مرفوعا «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة، أما إني لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين». وروى الترمذي وقال حديث حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأنس: «يا بني إن قدرت على أن تصبح وتمسي ليس في قلبك حسد لأحد فافعل».

وروى الإمام أحمد على شرط الشيخين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة فطلع رجل فأخبر ذلك الرجل بما قاله صلى الله عليه وسلم في حقه وقالوا له ما عملك؟ فقال لا أجد في نفسي حسداً لأحد من المسلمين ولا غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه».

والأحاديث في ذلك كثيرة. وقد أمرنا الشارع الحكيم أن لا نحسد أحداً من خلق الله ولا نتمنى زوال ما أعطاه الله تعالى له من علم أو جاه أو كثرة اعتقاد فيه أو نحو ذلك من الأمور الدينية أو الدنيوية هروباً من رائحة الاعتراض على الله عز وجل أو خوفاً من مقتنا وطردنا ولعننا كما وقع لإبليس، فإنَّ جميع ما وقع له كان أصله الحسد لآدم عليه السلام كما صرحت به الآيات والأحاديث والأخبار، فمن حسد أحداً من العلماء والصالحين فلا يستبعد أن يقع له كما وقع لإبليس. ومن كلام سيدي علي بن وفا رحمه الله تعالى: كن لأولياء الله خادماً إما لترحم أو لتغنم أو لتسلم، وإياك أن تكون لهم حاسداً، فإنَّه لا بدَّ لك أن ترجم وتلعن وتطرد ولو على ممر الأيام، وإن كان لك مؤلفات أو تلامذة عدمت النفع بهم. وبالجملة فجميع ما يطلبه العبد لإخوانه من خير أو شر يجازيه الله تعالى بنظيره، وهذا ضابطه. واعلم أنه يا أخي لا يصح لك العمل بهذا العهد إلا إن سلكت على يد شيخ ناصح وخرجت عن جميع رعونات النفوس وإلا فمن لازمك الحسد، ولو كنت عاقلاً لطلبت من ربك أن يعطيك كما أعطى من حسدته واسترحت من تعرضك للمقت.

وأما الغبطة، وهي: تمنّي أن يكون لك مثل ما لغيرك من النِّعَم، مع بقاء نعمته عليه؛ فأمرٌ محمود، لأنَّه من التنافس في الخير.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

راحَ

أي: ذهب، وأصله: الذهابُ بالعَشِيّ، ويقابله: الغُدوّ.

يُنكِرُها

أي: يجحد حقيقتها وإعجازَها، ودلالتَها على صِدقِ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في دعوى الرسالة؛ فإنكارها المكذِّب له - صلى الله عليه وآله وسلم - محضُ عنادٍ دعا إليه داء الحسد: -

تجاهُلاً

بها، بالنصب على أنه مفعول له.

وهوَ

أي: والحال أن ذلك الحسود المنكر: -

عينُ الحاذقِ

أي: نفس العالم بحقيقتها، ودلالتها على صدق من يأتي بها.

الفَهِمِ

أي: الكثير الفهم لذلك.

ثم وجَّه عدم التعجُّب من إنكار الحسود لها أن الشَّيء الموجود الذي لا شُبهة في وجوده لمن سلمت حواسُّه، وصحَّ إدراكه قد ينكر لأمرٍ ما، كما أشار الناظم - رضي الله عنه - إلى ذلك في قوله:

* * *

«١٠٤» قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

قَدْ

للتحقيق.

تُنكِرُ العَيْنُ

الباصرةُ.

ضوءَ الشَّمسِ

فلا تدركه.

من رَمَدٍ

وهو مرضٌ يحصل للعين، يمنعها من الإبصار.

وَ

كذلك قد

يُنكِرُ الفَمُ

الُمدرِكُ للطعوم

طعم الماء

العَذب: –

من سقم

أي: من أجل مانع مرضٍ قام به، كذلك لا يستغرب إنكار الحسود لتلك الآيات لما قام بقلبه من مانع الختم، ولما قام بعينه من مانع العمى، ولما قام بأذنيه من مانع الصمَم، ولما قام بلسانه من مانع البكَم.

قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾(٢).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا الشأن.

* * *

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٧١ .

(٢) سورة البقرة – الآية ٧ .

الفصل السابع
في إسرائه ومعراجه صلّى الله عليه وآله وسلّم

«١٠٥» يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ
سَعْيًا وَفَوْقَ مُتُونِ الْأَيْنُقِ الرُّسُمِ

يا خير من يمّم العافُون

أي: يا أفضلَ من قصد الطَّالبون للمعروف من الخلائق:-

ساحتَهُ

أي: حرم داره الواسع من غير بناء ولا سقف.

وتجمع على: "سُوح، وساح، وساحات". وأفرد الضَّمير نظراً إلى لفظ من:

سَعياً

أي: مشياً على الأرجلِ(١) وهو منصوب على المصدرية، أو الحالية. أي: ساعين، أو يسعون سعياً.

وفوقَ

معطوفٌ على "سعياً".

---

(١) وكان من حقها أن تسعى على القلوب والأحداق. وأن تبذل في طلب تلك الديار المهج والأرواح والأبدان [illegible] فمعنى العناء ترخص أنت سكنته يا سيدي يا رسول الله يا أكرم خلق الله على الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم ووالى [illegible] وأنعم.

مُتُون

أي: ظهور، جمع مَتن، وأصله: ما صَلُبَ من الأرض.

الأيْنُقِ

جمع "ناقة"، قلبت الواو ياءً، وقد تقدّم الياء على النون، فيقال: أينق، على وزن أعقل، وخصَّها بالذكر لأنها أقوى الحيوانات على الحل والترحال، وأصبرها على المشاقِّ والأوجال. قال الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾[1] ولذا وصفها بقوله:

الرُّسُمِ

جمع: "رسوم"، وهي الناقة التي تؤثر في الأرض لشدَّة وطئها إياها، كأنها ترسم فيها آثارها.

وأشار بهذا إلى أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - باب الله الذي يُتوَسَّل به في إنجاز المآرب، ويُتَشَفَّع به في إنجاح المطالب[2]، فيأتونه سعياً، وفوق متون الأينق

---

(١) سورة النحل - الآية ٧.

(٢) وهو صلى الله عليه وآله وسلم بلا شك باب الله الأعظم والواسطة العظمى التي لا يتحقق لمؤمن إيمانه حتى يأتي خلفه، ولا يدخل أحدٌ إلى حضرة المولى إلا من هذا الباب، ومن أنكر هذا فيخشى عليه والعياذ بالله أن يحرم الخير الكبير، وربما يوصله هذا الإنكار إلى ما لا يحمد عقباه في الحال والمآل. "فلا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط" كما قال سيدي عبد السلام بن مشيش في صلاته المشهورة. فعلى ›

الرسم، كما يأتون بيت الله وحرمه، رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتون من كل فَجٍّ عميق.

* * *

المحب أن يكون في كل حالاته واقفاً موقف العبد الذليل بباب مولاه عارياً من الأعمال والفضائل، متوجهاً إليه سبحانه بأعظم الوسائل - صلى الله عليه وآله وسلم - ماداً أكف الافتقار، ملحاً بالدعاء والمسائل، مطروحاً على أعتاب باب الله تعالى، مرتجياً شفاعته غداً عنده بما وعد به وهو لكل خير كافل.

«١٠٦» وَمَنْ هُوَ الآيَةُ الكُبْرى لِمُعْتَبِرٍ
وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ العُظْمَى لِمُغْتَنِمِ

ومَن هو

عطفٌ على المنادَى قبله .

الآيَةُ

أي : العلامة التي يعتبر بها من يريد أن يتعرَّف الحق من الباطل .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١] .

الكُبرَى

تأنيث "الأكبر" ، ووصف الآية بذلك لأنَّه صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الخلق ، ودينه أشرف الأديان .

لِمُعتَبِرٍ

أي : لمتعرِّفٍ . من "الاعتبار" وهو تعرُّف الشيء .

ومَن هُوَ

معطوفٌ على "مَن" قبله .

---

(١) سورة الشورى – الآية ٥٢ .

النِّعمةُ

بمعنى: المنعَم به.

العُظمَى

تأنيث "الأعظم".

لمُغتَنم

باتِّباعه سعادة الدَّارين، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] ثم أخذ الناظم - رضي الله عنه - يتكلَّم على الإسراء والمعراج الواقعَين له صلى الله عليه وآله وسلم - في ليلة واحدة: -

* * *

(١) سورة الأنبياء - الآية ١٠٧.

«١٠٧» سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ
كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

سَرَيتَ من حَرَمٍ

هو حرمُ مكة.

ليلاً

أي: في بعض ليلٍ.

إلى حَرَمٍ

هو حرم بيت المقدس، وكلاهما يقال له: حرم، بمعنى: المحرَّم والمعظَّم.

كما سَرَى البَدرُ

أي: القمر ليلة أربع عشرة، ليلة كماله، وتمام نوره[١].

---

(١) ونورك يا سيدي أشد من نور السماوات فأنت بدر البدور، ونورك يا حبيبي هو نور النور، فأنت كما سماك ربك في كتابه العزيز: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾، صلى الله عليك وعلى آلك وصحبك على مر الليالي والدهور، عدد الأيام والشهور، ما دام اسمك مع اسم الله في الآذان مذكور.

في داجٍ

أي: في ليلٍ مُظلمٍ. يقال: دجى الليل إذا أظلم، فقوله:

مِنَ الظُّلَمِ

أي: من أوقات مظلمة، بيانٌ لـ "داج". ووجه الشَّبه: سرعةُ السير، وكمال الإنارة، وارتفاع المكدِّرات، واستجماع الكمالات.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى** ﴾[1] الآية

وفائدة ذكر الليل مع أن الإسراء لا يكون إلا فيه - كما قال الزمخشري -: الإعلام بأنه وقع في جزء من الليل، ولو لم يذكره لاحتمل أن يكون ذلك قد استوعب الليلَ كلَّه، أي: وليس كذلك، بل كان فيه ترقِّيه إلى أعلى السماوات العلى، ثم إلى ما شاء الله تعالى، ثم تلقِّيه من رب العزَّةِ ما تلقَّى، وما أطلعه عليه من أحوال الجنَّة والنار، وغير ذلك مما لا يعمله إلا الله. قال الزمخشري: ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: "من الليل".

وقال الجوهري: التأكيد.

وقال بعضٌ آخر: رفع توهُّم أن السير وقع نهاراً. وعبَّر عنه بـ "الإسراء" مجازاً. والوجه الوجيه ما قاله الزمخشري.

(١) أول سورة الإسراء.

وذكر أهل اللغة أنَّ " سرى " و " أسرى " بمعنى : سار ليلاً ، وأسرى : هي لغة أهل الحجاز التي جاء بها القرآن .

وقال السُّهيلي : سرى : لازم ، وأسرى : مُتَعَدّ . لكن لما كثر حذفُ مفعوله ظنَّ أهل اللغة أنهما بمعنى واحد . و﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ تقديره : أسرى البراق بعبده ؛ فحذف المفعول للاستغناء عنه ، لأنَّ المقصود بالخبر ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو حذف لقوّة الدلالة عليه . ثم قال : واتَّفق الرّواةُ على تسميته إسراءً ، ولم يقل أحدٌ منهم " سرى " . واتفق القرّاء على أسرى ، ولم يقرأ أحدٌ منهم " سرى " .

والحكمة في وقوع الإسراء بالليل : أنه لما محى الله آية الليل ، وجعل آية النهار مبصرة ، انكسر الليل ؛ فجبر الليل بطلوع الإسراء فيه بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم(١) .

وقيل :

افتخر النَّهار على اللَّيل بطلوع الشمس فيه ، وسيرها في ساعة ؛ فافتخر الليل على النهار بإسرائه وعروجه صلى الله عليه وآله وسلم فيه ، الذي هو أبهى من الشمس ،

---

(١) أما الحكمة من إتيان الملك من السقف ليلة الإسراء على ما قال ابن حجر في " المنح المكية " : أنه انصبَّ من السماء انصبابة واحدة ، بإزاء محله الذي هو فيه ، فلم يعرِّج على غيره مبالغةً في المفاجأة ، وتنبيهاً على أن الطلب وقع على غير ميعاد ، لإظهار أنه مراد ، ووقع في موسى بميعاد تنبيهاً على أنه مريد ، وشتان ما بينهما . انظر : المنح المكية ١/ ٤١١ .

كيف وهو النور الأكبر، وجنسها العالي الأفخر؟. وقيل: إنما سُمّي النبي صلى الله عليه وآله وسلم - بدراً، أخذاً من قوله سبحانه وتعالى: ﴿**طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**﴾[1] فإنَّ "الطاء" بتسعة، و"الهاء" بخمسة. والجملة أربعة عشر. فكأنه قال: يا بدر. والبيت يشير إلى قصة الإسراء به صلى الله عليه وسلم، وهي من أشهر المعجزات، وأوضح الكرامات، وأصدق البراهين الواضحات، ورد بها القرآن في سورة الإسراء، ودلّت عليها الأخبار الصَّحيحة الصريحة وتواترت عن الصَّحابة، وانعقد عليها إجماع المسلمين؛ لأنَّ العلماء أوردوها على روايات مختلفة، وذهبوا فيها مذاهب عديدة: فقيل: كان الإسراء بالروح فقط، مناماً. وقيل: بالروح والجسد يقظةً. وقيل: بهما كذلك إلى بيت المقدس. وبالروح فقط إلى السماء. والصحيح الذي عليه الجمهور: أنَّ الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة، بالروح والجسد. يقظةً من مكة إلى بيت المقدس، ثم إلى السموات العلى، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى ما شاء الله العلي الأعلى. وذهب جماعةٌ إلى أنَّ الإسراء وقع مرَّتين؛ مرةً في النوم، ومرَّةً في اليقظة. قالوا: مرة النوم توطئة، وتيسيراً عليه كما بدئت نبوتُه بالرؤيا الصالحة. وقد اختلفوا فيه - أيضاً - زماناً، ومكاناً: والصحيح أنه كان قبل الهجرة بسنة، وبالغ ابن حزم فنقل عليه الإجماع. وأنَّه في ليلة سبع وعشرين من رجب، وأنَّه من مكة. قيل: من شعب أبي طالب. وقيل: من بيته. وقيل: من بيت أم هانىء.

---

(١) أول سورة طه.

وقيل: من الحجر[1] ولما أشار إلى قصة الإسراء شرع يشير إلى قصة المعراج، على وفق الترتيب في الواقع فقال:

* * *

(١) جاء في رواية الزهري عن أنس: " فرج سقف بيتي وأنا بمكة ". وفي رواية الواقدي أنه: " أسري به من شعب أبي طالب ". وفي حديث أم هانيء عند الطبراني أنه " بات في بيتها " قال: ففقدته من الليل، فقال: إنه جبريل أتاني. قال الحافظ ابن حجر: والجمع بين هذه الأقوال: أنه بات في بيت أم هانيء، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج عن سقف بيته، وأضاف " البيت " إليه لأنه كان يسكنه، فنزل منه منزلة المالك، وأخرجه إلى المسجد، وكان به أثر النعاس، ثم أخرجه إلى باب المسجد فأركبه البراق قال: " وقد وقع في مرسل الحسن عند بن إسحاق: فأتاه؛ فأخرجه إلى المسجد، وهو يؤيد هذا الجمع، انتهى ". انظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٣/ ٩٤، وقصة الإسراء في: صحيح مسلم ١٤٥، وصحيح البخاري ٤/ ١٣٣، ومسند الإمام أحمد ١/ ٢٥٧، ٣٠٩، ٣١٠، وسنن الترمذي ٥/ ٣٠٠، و" سيرة ابن هشام ٢/ ٣٦، وطبقات ابن سعد ١/ ١٤٢.

«١٠٨» وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً
مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

وبِتَّ

ليلةَ إسرائك، وهو معطوف على "سريت".

ترقَى

رقياً حسياً بالروح والجسد معاً، يقظةً لا مناماً، من الأرض إلى السموات العلى، ثم إلى ما شاء الله تعالى.

إلى أن نِلتَ منـزِلةً

أي: بلغتَ رتبةً: -

من قاب قَوسين

أي: قدرها في القرب المعنوي من الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[1].

أي: أنه كان في القُرب كقُرب الواحد من الآخر بقدر قوسين أو أقل، والله سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن المكان. و"من" هنا للبيان.

---

(١) سورة النجم - الآيتان ٨و٩ .

لم تُدرَكْ

تلك المنزلة لأحدٍ قبلك، ولا لأحد بعدك.

ولم تُرَمِ

أي: لم يطلبها أحدٌ كذلك، لعلمهم باختصاصك بها، وأنها لا تكون لنبيٍّ مُرسَل، ولا مَلَك مقرَّب. ومن هنا يؤخذ تفضيله صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الخلق إنساً وجناً، ومَلَكاً.

وذكر العلماء أن المعاريج التي وقعت تلك الليلة له صلى الله عليه وآله وسلم عشرة: سبعةٌ إلى السموات السبع، وواحد إلى سدرة المنتهى، والآخر إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، وآخر إلى العرش والرفرف والرؤية والخطاب مكالمة.

ولم يزل صلى الله عليه وآله وسلم في خفارة كمال أدبه مع ربه، وتكميل مرتبة عبوديته، حتى خرق السماوات، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانشقت عنه سحائب الحُجُب، وأفيضت عليه أقسام القرب، وأقيم مقاماً غبطه فيه الأنبياء والمرسلون، وقصر عن الوصول إليه الأولون والآخرون.

ثم ظاهر كلام الناظم - رضي الله عنه -أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** ﴾، الذي استند إليه في هذا البيت، وصرَّحَت به أحاديث المعاريج يرجع إلى سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: " هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم -دنا

فتدلى من ربه "[1] .قال بعضهم: "دنا" قرُبَ، و"تدلّى" زاد في القرب. وحكي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً: " هو الرب - تعالى - دنا من سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، فتدلّى إليه أي :أمره وحكمه وعظمته وسلطانه. وعن الحسن: دنا من عبده محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - : قَرُب منه، فأراه ما شاء أن يريه إيّاه من آثار قدرته وعظمته، ولذا ورد: " فارقني جبريل وانقطعت عني الأصوات، وسمعت كلام ربي "[2].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: " عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى ". والمعنى الجامع لهذه الروايات: أن كلاً منهما قرُبَ من الآخر كما هو شأن المحبين إذا تلاقوا، ووجود الحب من الجانبين يستلزم كمال القرب ومزيد الإنعام، فلذلك أفاض الله تعالى عليه تلك الليلة ما لم يفِضه على نبيٍّ مرسَل، ولا ملك مقرَّب.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ثم دنا فتدلى﴾ قال: هو محمد صلى الله عليه وسلم دنا فتدلى إلى ربه عز وجل. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ثم دنا﴾ قال دنا ربه ﴿فتدلى﴾. انظر: الدر المنثور للإمام السيوطي - تفسير الآية.

(٢) روي عن ابن عباس في قوله تعالى: "دنا فتدلى" أنه على التقديم والتأخير؛ أي تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه. قال: «فارقني جبريل وانقطعت عني الأصوات وسمعت كلام ربي». قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، الجزء١٧ تفسير الآية من سورة النجم. وكذا انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب: باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم السماوات وفرض الصلوات.

«١٠٩» وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا
وَالرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

وقَدَّمَتكَ

معطوفٌ على "بِتَّ" ، أو على "نلتَ" .

جميعُ الأنبياءِ

وألحق بالفعل علامة التأنيث إما لأنَّ "جميع" في معنى: "جماعة" ، أو لإضافته إلى جمع التكسير الذي يجوز تأنيثه، كما يقال: قامت الرجال، أي: جماعتهم.

بِهَا

أي: من أجل تلك المنزلة التي نلتها، وتفرَّدتَ بها على سائر الخلق.

والرُّسلِ

بالجرِّ؛ عطفٌ على "الأنبياء" ، وجوِّز رفعُه عطفاً على "جميع" . وعلى كلٍّ فهو من عطف الخاصِّ على العام، صرَّح به لشرفه. ونسب التقديم - الذي هو فعل الله - إليهم لرضائهم به، وانقيادهم إليه.

تقديمَ

فاضلٍ على مفضول، تشبيهاً بتقديم:

مخدومٍ على خدمِ

أو تقديم مخدومٍ، أي: متبوع. على خدم، أي: أتباع.

والخَدَم: جمع خادم، لأنَّ الواقع والغالب كون الأمر كذلك[1].

والبيت يشير إلى تقديمه صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء في الصلاة، وإمامته بهم ليلة الإسراء، كما ثبت ذلك في أحاديث: -

منها: "فحانت الصلاة؛ فأممتهم"[2].

---

(١) وليس في هذا القول تنقُّصٌ من مقام الأنبياء الآخرين عليهم السلام، ولا غمط في حقهم كما فهمه بعض الجهلة المنتسبين إلى العلم وإنما هو بيان لعلو مقام نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، بأنه أفضلهم وأفضل خلق الله، وهذا ما ورد في صريح الكتاب والسنة واتفاق المسلمين، فإذا نظرنا إلى ما في القرآن من دلائل خاصة تقتضي علو قدره عليه الصلاة والسلام انتهينا إلى أنه صلى الله عليه وسلم أفضل المخلوقات يقيناً لايدخله احتمال إذ ليس من المعقول أن ينزل أعظم كتاب (وهو القرآن) بأحسن بيان على شخص يكون في عالم الوجود هو أفضل منه.

ثم إن القرآن بجملته وتفصيله تشريف له صلى الله عليه وسلم، لم ينله ملك ولا رسول، وفي آيات القرآن الكريم ما يفيد تفرد النبي صلى الله عليه وسلم بمناقب لم يعطها أحد من المخلوقين من آدم إلى قيام الساعة. قال الإمام اللَّقاني في جوهرته:

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فَمِلْ عن الشقاق

فلا مجال للانتقاد هنا ولا اتهام الإمام البوصيري بما لم يقله ثم تسلسل الانتقادات بناء على هذا الفهم السقيم من جاهل لا همَّ له إلا النقد.

(٢) انظر: صحيح مسلم. الجزء الأول. ١ - كتاب الإيمان. (٧٥) باب ذكر ›

ومنها : أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى ببيت المقدس مع الملائكة، وأنه أتي بأرواح الأنبياء، فأثنوا على الله عز وجلّ، وفيه قول إبراهيم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - : "لقد فضلكم محمد"(١).

وفي رواية : " ثم بعث له آدم فمن دونه، فأمَّهم تلك الليلة "(٢).

وفي رواية : " فنشر لي رهطٌ من الأنبياء منهم إبراهيم وموسى وعيسى "(٣).

المسيح بن مريم والمسيح الدجال، الحديث رقم: ٢٧٨- (١٧٢). وفتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني- المجلد السادس. كتَاب أحَاديث الأنْبيَاء. باب قَوْل اللَّه ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾. وكنز العمال للمتقي الهندي - المجلد الحادي عشر. الفصل الثاني في المعراج. الحديث رقم: ٣١٨٤٩ .

(١) في حديث أبي هريرة عند البزار والحاكم أنه صلى ببيت المقدس مع الملائكة وأنه أتي هناك بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله، وفيه قول إبراهيم " لقد فضلكم محمد " .
وفي رواية عبد الرحمن بن هاشم عن أنس " ثم بعث له آدم فمن دونه فأمهم تلك الليلة " أخرجه الطبراني . انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد السابع بقية كتَاب المَنَاقب باب حَديث الإسْرَاء .

(٢) وهي رواية الطبراني في الكبير بسنده عن عبد الرحمن بن هاشم عن أنس " ثم بعث له آدم فمن دونه فأمهم تلك الليلة " انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني، المجلد السابع . بقية كتَاب المَنَاقب. باب حَديث الإسْرَاء .

(٣) أخرج أبو يعلى وابن عساكر، عن أم هانئ رضي الله عنها قال: دخل علي النبي صلى الله عليه وسلم بغلس وأنا على فراشي، فقال: "شعرت أني نمت الليلة في المسجد الحرام فأتاني جبريل، فذهب بي إلى باب المسجد، فإذا دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل مضطرب الأذنين فركبته، فكان يضع حافره في مد بصره، إذا أخذ بي في هبوط طالت يداه >

وفي رواية: " ثم أقيمتِ الصَّلاةُ فتدافعوا حتى قدَّموا محمداً - صلى الله عليه وآله سلم- "(١).

وفي رواية: " فلما أتى - صلى الله عليه وآله وسلم - المسجد الأقصى، قام يصلي؛ فإذا النبيون أجمعون يصلون معه "(٢).

وقصرت رجلاه، وإذا أخذ بي في صعود طالت رجلاه وقصرت يداه، وجبريل لا يفوتني حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فأوثقته بالحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها، فنشر لي رهط من الأنبياء عليهم السلام منهم إبراهيم وموسى وعيسى فصليت بهم وكلمتهم".

انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للسيوطي - المجلد الخامس. تفسير الآية.

(١) وهي رواية الطبراني في الأوسط، انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي - المجلد الأول، ١ كتاب الإيمان. ٢٢ . (أبواب الإسراء والمعراج)، ٣ . باب منه في الإسراء. الحديث رقم: ٢٤١ .

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والضياء في المختارة، بسند صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليلة أسري بالنبي دخل الجنة فسمع في جانبها وجسا، فقال: يا جبريل ما هذا؟ فقال: هذا بلال المؤذن. فقال النبي حين جاء إلى الناس: "قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا" فلقيه موسى عليه الصلاة والسلام فرحب به وقال مرحبا بالنبي الأمي، قال: "وهو رجل آدم طويل سبط، شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى، فمضى فلقيه رجل فرحب به، قال: من هذا؟ قال: هذا عيسى عليه السلام، فمضى فلقيه شيخ جليل مهيب فرحب به وسلم عليه، وكلهم يسلم عليه، قال: من هذا ياجبريل؟، قال: أبوك إبراهيم عليه السلام. قال: ونظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف! قال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ورأى رجلا أحمر أزرق جدا، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: >

واختلف العلماء في هذه الصلاة؟ هل هي فرضٌ أو نفل. وعلى القول بأنها فرض؛ فقيل: الصبح، وقيل: العشاء. والخلاف الأخير له التفات إلى خلاف آخر: وهو أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - صلى بهم قبل المعراج أو بعده؟. والأول للثاني، والثاني للأول[1].

قال ابن كثير: ومن الناس من يزعم أنه أمَّهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس. والظاهر أنه بعد رجوعه، لأنه لما مرَّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق بمقتضى الحال، لأنه كان أوَّلاً مطلوباً إلى الجناب الرفيع، ليفرض عليه وعلى أمته ما شاء، ثم لما فرغ مما يريد به، اجتمع هو وإخوانه من الأنبياء والمرسلين لإظهار شرفه عليهم، بتقديمه عليهم في الصلاة، تنبيهاً على أنه متبوعهم الأفضل، ورئيسهم الأكمل. والصحيح: أنه صلى ببيت المقدس قبل العروج، وكانت تلك الصلاة نافلة.

فإن قيل: كيف صلى بهم وهم أموات، وليسوا في دار عمل؟.

هذا عاقر الناقة، فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى، قام يصلي، **ثم التفت فإذا النبيون أجمعون** يصلون معه، فلما انصرف جيء بقدحين أحدهما عن اليمين، والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن، وفي الآخرة عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدح: أصبت الفطرة".

انظر: مسند الإمام أحمد. المجلد الأول. مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) بمعنى: أنه إذا كان - صلى الله عليه وآله وسلم - صلى بهم العشاء فيكون قبل المعراج. وإذا كانت الصلاة صلاة الفجر، فتكون بعد المعراج.

وأجيب: بأنهم كالشهداء، بل أكمل، أحياء في قبورهم يصلون، ويحجون، كما وردت بذلك الأخبار. والبرزخ له حكم الدنيا[1] وقوله: "أحياء" خبر.

---

(١) قال العلامة القسطلاني في "الفتح": وقد قيل عن ذلك أجوبة:
أحدها: أن الأنبياء أفضل من الشهداء والشهداء أحياء عند ربهم فكذلك الأنبياء فلا يبعد أن يصلوا ويحجوا ويتقربوا إلى الله بما استطاعوا ما دامت الدنيا وهي دار تكليف باقية.
ثانيها: أنه صلى الله عليه وسلم أري حالهم التي كانوا في حياتهم عليها فمثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وتلبيتهم، ولهذا قال أيضا في رواية أبي العالية عن ابن عباس عند مسلم "كأني أنظر إلى موسى، وكأني أنظر إلى يونس".
ثالثها: أن يكون أخبر عما أوحي إليه صلى الله عليه وسلم من أمرهم وما كان منهم.
فلهذا أدخل حرف التشبيه في الرواية، وحيث أطلقها فهي محمولة على ذلك والله أعلم.
وقد جمع البيهقي كتاباً لطيفاً في حياة الأنبياء في قبورهم أورد فيه حديث أنس "الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون". أخرجه من طريق يحيى بن أبي كثير وهو من رجال الصحيح عن المستلم بن سعيد، وقد وثقه أحمد وابن حبان عن الحجاج الأسود، وهو ابن أبي زياد البصري، وقد وثَّقه أحمد وابن معين عن ثابت عنه، وأخرجه أيضاً أبو يعلى في مسنده من هذا الوجه، وأخرجه البزار لكن وقع عنده عن حجاج الصواف وهو وهمٌ والصَّواب: الحجاج الأسود كما وقع التصريح به في رواية البيهقي وصححه البيهقي. وأخرجه أيضاً من طريق الحسن بن قتيبة عن المستلم، وكذلك أخرجه البزار وابن عدي، والحسن بن قتيبة ضعيف.
وأخرجه البيهقي أيضاً من رواية محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى أحد فقهاء الكوفة عن ثابت بلفظ آخر قال: "إن الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة ولكنهم يصلون بين يدي الله حتى ينفخ في الصور" ومحمد سيئ الحفظ. وذكر الغزالي ثم الرافعي حديثا مرفوعا "أنا أكرم على ربي من أن يتركني في قبري بعد ثلاث ولا أصلي له" ›

. . . .

إلا إن أخذ من رواية ابن أبي ليلى هذه وليس الأخذ بجيد لأن رواية ابن أبي ليلى قابلة للتأويل، قال البيهقي: إن صح فالمراد أنهم لا يتركون يصلون إلا هذا المقدار ثم يكونون مصلين بين يدي الله، قال البيهقي: وشاهد الحديث الأول ما ثبت في صحيح مسلم من رواية حماد بن سلمة عن أنس رفعه " مررت بموسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره ". وأخرجه أيضاً من وجه آخر عن أنس. فإن قيل: هذا خاص بموسى. قلنا: قد وجدنا له شاهداً من حديث أبي هريرة أخرجه مسلم أيضاً من طريق عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة عن أبي هريرة رفعه: " لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي " الحديث. وفيه: " وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب كأنه صلى الله عليه وسلم. وفيه: وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم، فحانت الصلاة فأممتهم " قال البيهقي: وفي حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أنه لقيهم ببيت المقدس فحضرت الصلاة فأمهم نبينا صلى الله عليه وسلم ثم اجتمعوا في بيت المقدس. وفي حديث أبي ذر ومالك بن صعصعة في قصة الإسراء أنه لقيهم بالسموات، وطرق ذلك صحيحة، فيحمل على أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره، ثم عرج به هو ومن ذكر من الأنبياء إلى السماوات فلقيهم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم اجتمعوا في بيت المقدس فحضرت الصلاة فأمهم نبينا صلى الله عليه وسلم. قال: وصلاتهم في أوقات مختلفة وفي أماكن مختلفة لا يرده العقل، وقد ثبت به النقل، فدل ذلك على حياتهم. قلت- أي: العلامة العسقلاني -: وإذا ثبت أنهم أحياء من حيث النقل فإنه يقويه من حيث النظر كون الشهداء أحياء بنص القرآن، والأنبياء أفضل من الشهداء. ومن شواهد الحديث ما أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة رفعه وقال فيه: "وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم" سنده صحيح. وأخرجه أبو الشيخ في "كتاب الثواب" بسند جيد بلفظ: "من صلى

. . . .

* * *

علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائيا بلغته " . وعند أبي داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره عن أوس بن أوس رفعه في فضل يوم الجمعة : " فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي . قالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء " . ومما يشكل على ما تقدم ما أخرجه أبو داود من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام " ورواته ثقات . ووجه الإشكال فيه أن ظاهره أن عود الروح إلى الجسد يقتضي انفصالها عنه وهو الموت، وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة : أحدها : أن المراد بقوله : " رد الله علي روحي " أن رد روحه كانت سابقة عقب دفنه لا أنها تعاد ثم تنزع ثم تعاد . الثاني : سلمنا، لكن ليس هو نزع موت بل لا مشقة فيه . الثالث : أن المراد بالروح الملك الموكل بذلك . الرابع : المراد بالروح النطق فتجوز فيه من جهة خطابنا بما نفهمه .

الخامس : أنه يستغرق في أمور الملأ الأعلى، فإذا سلم عليه رجع إليه فهمه ليجيب من سلم عليه . وقد استشكل ذلك من جهة أخرى، وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله في ذلك لاتصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض ممن لا يحصى كثرة، وأجيب بأن أمور الآخرة لا تدرك بالعقل، وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة والله أعلم . انظر : فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني -المجلد السادس . كِتَاب أحَادِيثِ الأنْبيَاء .

«١١٠» وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ
فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ

وَأَنتَ

لا غيرك.

تَختَرِقُ

من الخرق، واختاره على غيره للردِّ على من زعم امتناع الخرق والالتئام على السموات، كالفلاسفة. والجملة من المبتدأ أو الخبر حال من "الكاف" في "قدَّمتك".

السَّبعَ الطِّباقَ

أي: السموات، بعضها فوق بعض. وطباق: إما جمع: طبقة، كـ"رحبة، ورحاب"، أو: جمع طبق كـ"جَمَل، وجمال".

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[١].

بِهِم

أي: حالةَ كونك ماراً بالأنبياء الذين لقيتهم في السموات.

---

(١) سورة تبارك - الآية رقم ٣.

وقد وردت أحاديث الإسراء بتعيينهم، وبيان أوصافهم مع بعض اختلاف في ذلك. والذي في صحيح مسلم: أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - مرَّ في السماء الأولى بآدم. وفي السماء الثانية: بعيسى ويحيى. وفي السماء الثالثة: بيوسف. وفي السماء الرابعة: بإدريس. وفي السماء الخامسة: بهارون. وفي السماء السادسة: بموسى. وفي السماء السابعة: بإبراهيم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

في موكبٍ

بكسر الكاف. أي: جمع عظيم، على هيئة عظيمة، حيث كان معه جبريل، وملائكة كل سماء تستقبله وتشيعه إلى السماء الأخرى تعظيماً له، وجبريل يستفتح كل سماء، فيقال له: من معك؟. فيقول: محمد.

وذلك موكبٌ أيّ موكب:-

كنتَ

يا محمد - صلوات الله وسلامه عليك -.

فيهِ

أي: في ذلك الموكب.

صاحبَ العَلَمِ

أي: الرئيس المشار إليه. والعَلَم: رمحٌ في رأسه راية، يحمل في العادة على رأس الأمير، المشار إليه الذي هو أفضل أهل ذلك الموكب.

والحكمةُ في أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يرَ نوحاً مع أنه من أولي العزم، لأنَّ تلك الليلة كانت ليلة رحمة، فناسب أن لا يرى فيها من استأصل الله قومه بالعذاب من أجل دعوته عليهم. كذا قالوا. ويشكل عليه أنه رأى تلك الليلة مالكاً خازن النار، وبوجهه عبوسٌ، مع أنَّ كلَّ من رآه تلك الليلة ضحك له، وأخبره جبريل بأنه لم يضحك قطُّ، ولو ضحك لأحدٍ لضحك لك.

والجواب: أنَّ الحكمة لا يلزم اطِّرادها ولا انعكاسها. على أنه قد يفرَّق لأنَّ نوحاً من جنس البشر، فظهرت الحكمة فيه، بخلاف مالك؛ فإنه من جنس المَلَك، فلم تظهر الحكمة فيه.

* * *

«١١١» حَتّىٰ إِذَا لَمْ تَدَعْ شَأْوًا لِمُسْتَبِقٍ
مِنَ الدُّنُوِّ وَلَا مَرْقًى لِمُسْتَنِمِ

حتّى

هو غاية للاختراق.

إذا

ظرفية متضمِّنةٌ معنى الشرط.

لم تَدَعْ

أي: تترك:-

شأواً

أي: غايةً.

لُمستَبِقٍ

أي: طالبِ سبقٍ في المعالي، بجدٍّ واجتهاد.

من الدُّنُوّ

أي: القرب إلى أعلى مكان لم يبلغه أحدٌ من الخلق، وهو المعبَّرُ عنه بـ" قاب قوسين أو أدنى". والظرف بيانٌ لـ" شأواً".

ولا مرقىً

بفتح الميم والقاف، أي: موضع رقي واستعلاء.

لِمُستَنِمِ

أي: طالب رفعةٍ. من "السنام" وهو ما ارتفع من الشيء. ومنه: سنام البعير. وتقدَّم أن جبريل - عليه السلام - انقطع عنه صلى الله عليه وآله وسلم - حيث وصل إلى مقام "لم يُدركْ ولم يُرَمِ".

❋ ❋ ❋

«١١٢» خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِذْ
نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

خفضتَ

أي: حططت.

كُلَّ مقامٍ

لغيرك من الأنبياء والملائكة.

بالإضافةِ

أي: بالنسبة النظرية بين مقامك المرتفع على كل مقام، وبين مقاماتهم، وإن كان لها كمال ارتفاع في نفسها(١).

إذْ

ظرفٌ لقوله «خفضت»، أو علّةٌ له.

---

(١) وهذا تأكيد لما ذكره من قبل في قوله: (تقديم مخدوم على خدم) لبيان أفضليته صلى الله عليه وسلم، مع حفظ مقام الأنبياء لا خفض مقامهم كما فهمه بعض ذوي الفهم السقيم ثم دندنوا وجرّسوا، وطنطنوا وردحوا على عادتهم. فلكل مقام معلوم، وفضل لا ينكر ولا يستحقر صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

نُودِيتَ بالرَّفعِ

من قبل الله إلى مقام قاب قاوسين أو أدنى، نداءً مصاحباً برفع شأنك: -

مثلَ

مصاحبة الرفع لنداء الاسم: -

المفرَدِ

أي: المفرد الذي ليس مضافاً، ولا شبيهاً.

العَلَمِ

أي: المعرفة؛ سواء كان معرفة بالعَلَميَّة، نحو: يا زيد. أو بالقصد، نحو: يا رجل، لمعيَّنٍ.

* * *

«١١٣» كَيمَا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أَيِّ مُسْتَتِرٍ
عَنِ الْعُيُونِ وَسِرٍّ أَيِّ مُكْتَتِمِ

كيما تَفُوزَ

أي: تظفر، وهو غائية لقوله: "سريت، وبتّ" إلى آخره. أي: فعلت ذلك المنتهى إلى قاب قوسين لتفوز:-

بوصلٍ

أي: من الله تعالى. والوصل: ضد القطع[1]، نعوذ بالله منه. و"تفوز": منصوب، إما بـ"إن" مضمرة، مقدَّرة بعدَ "كي"، أو بـ"كي" بنفسها، إن قدَّرتَ لام التعليل قبلها وجعلتها مصدرية، و"ما" على الوجهين زائدة، للتأكيد.

أيِّ مستَترٍ

بالجرِّ، صفةٌ لـ"وصل". من الاستتار، بمعنى: الاختفاء، أي: بوصلٍ مسترٍ استتاراً كاملاً.

عن العُيونِ

البواصر. والظرف متعلِّق بـ"مستتر".

وَسِرٍّ

بالخفض، عطفٌ على "وصلٍ".

---

(١) أي: القطيعة والبعد عن الله تعالى.

أي: وكيما تفوز بسرٍّ من أسرار إلهك الذي أوحى إليك في ذلك المقام ما أوحى.

أيِّ مُكتَتَمِ

اكتتاماً كاملاً عن الآذان والأسماع. أما استتار ذلك الوصل عن أعين من عاصره؛ فلأنَّه إنما أسري بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلاً، وقد نامت العيون، وهدأت الأصوات. وأما استتاره عن أعين الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين؛ فلأنه صلى الله عليه وآله وسلم وصل إلى مقام حاز فيه ذلك السر، وحصل له فيه ذلك الوصل، لم يصل إليه نبيٌّ مرسل، ولا مَلَكٌ مقرَّب. ولعلَّ هذا السر المكتتم لم يبيّنه صلى الله عليه وآله وسلم، إذ لا يطيق حمله غيره.

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «علَّمني ربي ليلة الإسراء علوماً شتى، فعلمٌ أخذ عليَّ كتمانه، وعلمٌ خيَّرني فيه، وعلمٌ أمرني فيه بتبليغه»(1).

قال عليٌّ كرَّم الله وجهه: فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُسِرُّ إلى أبي بكر وعمر وعثمان وإليَّ بما خيِّر فيه.

قال بعض العلماء: وهذا السرُّ هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(2). ومن ثَمَّ أبهمه لعظمه، فلا يُطَّلعُ عليه، بل يتعين الإيمان به.

---

(1) وهو من علوم الغيب التي أطلعه الله إياها ولم يؤمر بتبليغها، وسيأتي تفصيل هذا لاحقاً.

(2) سورة النجم - الآية 10 .

«١١٤» فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ
وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ

فَحُزتَ

بالحاء المهملة، والزاي. أي: جمعتَ من أجل ما نلتَ من المراتب العلية، والأسرار الإلهية. وهو معطوفٌ على "خفضت".

كلَّ فخارٍ

أي: ما يفتخر به من كل وصفٍ أفضلَ، ونعتٍ أكمل.

غيرَ

بالنصب: نعت لـ"كل". وبالجرِّ: نعتٌ لـ"فخار".

مُشتَرَكٍ

فيه على أنه من باب الحذف والإيصال، إذ لم يصل إليه غيرك حتى يشاركك فيه.

وجُزتَ

بالجيم والزاي، أي: تعدَّيتَ.

كُلَّ مقامٍ

من الكمالات إلى ما هو أكمل من ذلك، لم يصل إليه غيرك.

غيرِ مُزدَحِمِ

فيـه، أي: لـم يقع فيـه مزاحـمـةٌ لك من نبيٍّ مُرسَلٍ، ولا مَلَكٍ مقـرَّب. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المقامات التي تفرَّد بها صلى الله عليه وآله وسلم كثيرةٌ جداً.

* * *

«١١٥» وَجَلَّ مِقْـدَارُ مَا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ
وَعَـزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَـمِ

وَجَلَّ

أي: عَظُمَ. معطوفٌ على: "فحُزتَ".

مقدارُ ما وُلِّيتَ

أي: صار لك عليه ولاية، بدخوله في حوزتك.

من رُتَبٍ

أي: مناصب شريفةٍ لا يحاطُ بها. والظرف بيانٌ لـ"ما". والمقصود من هذا الكلام ومما بعده: التعجُّب.

وعَزَّ

أي: امتنع.

إدراكُ ما أُوليتَ

أي: بل ما أُعطيت:-

من نِعَمٍ

عظيمةٍ كثيرةٍ لاختصاصك بها. والنِّعَم: جمع: نِعمة. والظرف بيانٌ لـ"ما".

«١١٦» بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا
مِنَ الْعِنَايَةِ رُكْنًا غَيْرَ مُنْهَدِمِ

بُشرى

مصدر "بَشَّرتُه بكذا"، من البشارة، وهي: الخبر الأول المُسرّ. وقد يطلق على الإنذار مجازاً[(١)] . نحو: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . و"بُشرى": مبتدأ، سوّغ الابتداء بها قصداً للدعاء، أو الوصف المحذوف، والتقدير: بشرى عظيمة.

لنا

خبر المبتدأ.

معشرَ الإسلامِ

أي: جميع أهله، وهو منصوبٌ على الاختصاص، كما في قوله صلى الله عليه

---

(١) فالتبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشرة - وهي ظاهر الجلد لتغيرها بأول خبر يرد عليك، ثم الغالب أن يستعمل في السرور مقيدا بالخير المبشر به، وغير مقيد أيضاً. ولا يستعمل في الغم والشر إلا مقيداً منصوصاً على الشر المبشر به، قال الله سبحانه وتعالى ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]ويقال: بشرته وبشرته - مخفف ومشدد - بشارة (بكسر الباء) فأبشر واستبشر. وبشر يبشر إذا فرح. ووجه بشير إذا كان حسناً بين البشارة (بفتح الباء). والبشرى: ما يعطاه المبشر. وتباشير الشيء: أوله.

وآله وسلم: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»(١).

وأصل المعشر: الجماعة من الناس الذين يعمُّهُم وصفٌ واحد، كما هنا. ثم بيَّن المبشّر به على وجه التعليل في قوله:

إنَّ

بكسر الهمزة، على الاستئناف البياني، أو بفتحها، على وجه التعليل.

لَنا من العناية

أي: من أجل عناية الله بنا في الأزل، المفضية لسعادة الدارين. والعناية بالشيء

---

(١) قال الإمام العسقلاني في "الفتح": وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ "نجن معاشر الأنبياء لا نورث" فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ "نحن" لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث" الحديث أخرجه عن محمد بن منصور عن ابن عيينة عنه، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه. وأورده الهيثم بن كليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور. وأخرجه الطبراني في "الأوسط" بنحو اللفظ المذكور.
وأخرجه الدار قطني في "العلل" من رواية أم هانئ عن فاطمة عليها السلام عن أبي بكر الصديق بلفظ: "إن الأنبياء لا يورثون". قال ابن بطال وغيره: ووجه ذلك والله أعلم أن الله بعثهم مبلغين رسالته وأمرهم أن لا يأخذوا على ذلك أجرا. انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني - المجلد الثاني عشر. كِتَاب الْفَرَائِضِ. باب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ.

كالاعتناء : الاهتمام به، والحرص عليه. والظرف حال من الضمير المستتر في "لنا".

رُكناً

هو ما يُعتَمَدُ عليه. وأراد به نبيَّنا - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي جاءنا بشريعة لم تُنسَخْ.

غَيرَ

بالنصب، صفة "ركناً".

مُنهَدِمِ

أي: متغيّر وزائل لعدم تغيُّرِ شريعته وزوالها، إذ لا يعتريها نسخٌ بل هي باقية إلى يوم القيامة.

* * *

«١١٧» لَمَّا دَعَا اللهُ دَاعِينَا لِطَاعَتِهِ
بِأَكْرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ

لَمَّا

حرف وجود لوجود عند سيبويه، وظرف بمعنى: حين، عند ابن فارس، يليها فعل ماض لفظاً، أو معنى.

دعا

بمعنى: سمَّى.

اللهُ

فاعل دعا.

داعينا

سيدنا محمد – صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وهو مفعول أول لـ"دعا"، وسكن آخره للضرورة، أو لغة كما في قوله: "أعط القوس باريها"[(١)].

---

(١) قوله: "أعْطِ القَوْسَ بارِيَهَا" أي: اسْتَعِنْ على عملك بأهل المعرفة والحِذقَ فيه، ومنه قول الشاعر:

يَا بَارِيَ القَوْسِ بَرْياً لَسْتَ تُحْسِنُهَا   لاَ تُفْسِدَنْهَا وَأعْطِ القَوْسَ بَارِيهَا

وتسمية النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – "داعياً" مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[1].

لطَاعَتِه

متعلِّق بـ"دعا"، والضمير لـ"الله" تعالى.

بأكرَمِ الرُّسلِ

مفعوله الثاني، تعدّى إليه بالباء. وفضل نبينا – صلى الله عليه وآله وسلم – على سائر الرسل قد جاءت به الأخبار الكثيرة، والنصوص الشهيرة، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[2].

كُنَّا

من أجل ذلك.

أَكرمَ الأُمَمِ

السالفة، لأنَّ شرفَ التَّابع بشرف المتبوع؛ فكما أنه صلى الله عليه وآله وسلم أشرف الرسل كذلك أمَّته أشرفُ الأمم. وفي التنزيل:

---

(١) سورة الأحزاب – الآية ٤٦ .

(٢) مر تخريجه عند شرح البيت ,٥١ قوله: "فمبلغ العلم فيه أنه بشر...." .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1]

وفي: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[2]. ومعنى "أخرجت للناس"، قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: في علم الله تعالى. وعن مجاهد: "أخرجت للناس" أي: على الشرائط المذكورة.

* * *

(١) سورة الأنبياء - الآية ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران - الآية ١١٠.

الفصل الثامن
في جهاد النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم

«١١٨» رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بِعْثَتِهِ
كَنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلًا مِنَ الْغَنَمِ

راعَتْ

أي: أفزعت.

قُلُوبَ العدا

جمع: عدوّ، هو بالنَّصب، مفعول "راعت".

أنبَاءُ

جمع: "نبَأ"، بمعنى الخبر، وهو بالرفع: فاعله.

بعثَتِهِ

صلى الله عليه وآله وسلم، التي صدرت عن الأحبار والرُّهبان والكُهَّان قبل ولادته صلى الله عليه وآله وسلم، وبعدها، أي: الأخبار الدَّالَّة على وجوده، وعموم بعثته، وظهور دينه على سائر الأديان، ونسخ شريعته لسائر الشرائع، وبقائها إلى يوم القيامة، وغير ذلك مما منحه الله، وخصَّه به من بين سائر الخلائق. ولما راعت هذه الأخبار قلوب العدا الغافلين عن دين الإسلام، كانت في كمال إخافتها، وشدة روعها:

كنبأةٍ

أي: زأرة من الأسد.

أجفَلَتْ

بالجيم، أي: أفزعت.

غُفلاً

بضم الغين المعجمة، جمع "غافل".

من الغَنَم

الرَّاتعة في مراتعها؛ فأسرعت إلى الهرب منها حتى لو لم تكن غافلة عنها ما أجفلت منها، كذلك الكفار لو كانوا مستعدين للإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم، وملتفتين لبعثته ومتطلِّبين لها ما أفزعتهم أخبار بعثته، بل كان الحاصل لهم منها كمال الفرح، وتمام السرور، وإبقاء الروع على القلوب.

* * *

«١١٩» مَازَالَ يَلْقَاهُمُ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ
حَتَّى حَكَوْا بِالْقَنا لَحْماً عَلَى وَضَمِ

ما زالَ

صلى الله عليه وآله وسلم.

يَلقَاهُمُ

مع أصحابه، ويطعنهم.

في كُلِّ مُعتَرَكٍ

بضمِّ الميم، وفتح الراء، أي: مكان وقع فيه اعتراك الحرب بينه وبينهم، وذلك تارةً بنفسه، وتارةً بخيله ورَجِله من سراياه وبعوثته.

حتَّى حكَوا

أي: إلى أن شابهوا لكثرةِ ما أوقعه بهم من القتل والجراحات.

بالقَنا

طَعناً، وبالسيوف ضرباً، وبالسِّهام رَشقاً ورمياً.

مطروحاً.

على وَضَمٍ

بالضاد المعجمة، وهو ما يضع القصَّاب اللحم عليه معداً لمن يأخذه، من خشب أو غيره.

ويقال لكل ذليلٍ حقير على طريق المثل: "لحم على وضم" (١).

والمعنى: أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاهد الكفَّار حتى تركهم قتلى مُعَدِّين للأكل للطيور والسِّباع، ولمَّا استحرَّ فيهم القتل، وكثُرَت بهم الجراحات:-

(١) في حديث عمر "إنما النساءُ لَحْمٌ على وَضَم، إلا مَا ذُبَّ عنه". الوَضَم: هذا شرح الأصمعي، كما ذكر الهروي -: الخَشَبة أو البَارية التي يُوضَع عليه اللحم، تَقيه من الأرض. وقال الزمخشري: "الوَضَم: كلُّ ما وَقَيْتَ به اللحم من الأرض. أراد أنَّهُنَّ في الضُّعف مثلُ ذلك اللحم الذي لا يَمتَنع على أحد إلا أن يُذَبَّ عنه ويُدْفَعَ. قال الأزهري: إنما خَصَّ اللحمَ على الوَضَم وشَبَّه به النساء؛ لأنَّ من عادة العَرب إذا نُحر بَعيرٌ لجماعة يَقتَسمون لحَمه أن يَقْلَعُوا شَجَراً ويُوضَم بعضُه على بعض، ويُعَضَّى اللحمُ ويُوضَع عليه، ثم يُلْقَى لحَمُه عن عُرَاقه، ويُقَط كلُّ واحد قسْمه عن الوَضَم إلى بَيْته، ولم يَعْرض له أحد. فشبَّه عُمر النساءَ وقلَّةَ امتناعهنَّ على طُلابهنَّ من الرجال باللحم ما دامَ على الوَضَم. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام ابن الأثير- المجلد الخامس. حرف الواو. باب الواو مع الضاد.

«١٢٠» وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ
أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّخَمِ

وَدُّوا الفِرارَ

أي : تمنَّوا الهَرَبَ منه صلى الله عليه وآله وسلم، مع أنه عند العرب من أقبح الخصال، وأذمِّ الأحوال.

فكَادُوا

أي : قاربُوا لكَمالِ تمنِّيهِم إيَّاهُ، وميل قلوبهم إليه حتَّى صار من شهواتهم الشبيهة بالمحال : -

يَغبِطُونَ

من "الغِبطَة"، وهي : تمنِّي مثل ما للغير من الأمور المحبوبة.

بهِ

أي : على الفرار.

أشلاءَ

كـ"أشياء"، جمع "شِلو" بكسر الشين، وإسكان اللام، وهو : العضو مطلقا، وقيل : بعد التفرُّق والبلاء.

شالت

أي: ارتفعت، من "شالت الناقة ذنبها": رفعت، ومنه: شوّال للشهر المعروف لأنه وافق رمضان في شدة الحر. والربيعان: زمن الربيع، والجماداان: زمن جمود الأرض وخلوّها عن الماء والكلأ.

مع العِقبان

بكسر العين، جمع: عُقاب - بضمِّها -.

والرَّخَمِ

جمع رخمة، كـ"شجر، وشجرة". وخصَّ هذين النوعين من الطيور بالذكر مع أن غيرهما كالحداء كذلك، لأنَّهما يقعان كثيراً على الميتات، فيأكلان منها، ويحملان إلى فراخهما، ويعلوان في الجوِّ جداً، بحيث لا يكون لأحد عليهما سبيل، وإنما أوقع الغبطة على الأشلاء التي شالت بها العقبان والرخم دونهما، لأنَّهم لَمَّا حصل لهم من الطعن والضرب شابهوا الأشياء التي لا حراكَ لها إلا بحمل غيرها إياها، ولو أوقعها على العقبان والرخم لأوهم أنهم على أول أمرهم في سلامة من ذلك مع شدة وقوة.

وحاصل معنى البيت: أن الكفَّارَ لما كثُرت فيهم الجراحات حتَّى أشرفوا على التلف، وأرادوا الفرار من الحرب الذي هو من أقبح العيوب عندهم، ولم يمكنهم ذلك كادوا يغبطون تلك الأشلاء على ما حصل لها من الفرار مع العقبان والرخم. ولما حصل لهم من كمال الذّهول من شدة ما دخل في قلوبهم من الفزع، وخامر بواطنَهم من الجزع: -

«١٢١» تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَدْرُونَ عِدَّتَهَا
مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ

تَمضي

عليهم: -

اللَّيالي

وأيامُها.

ولا يَدرُونَ

أي: والحالُ أنهم لا يعلمون

عِدَّتَها

بالحساب، لشدَّة ما هم فيه مما أوقعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنزل بهم من أنواع الذُّلّ، وأصناف الغموم: -

مَا

أي: مدَّةَ دوام

لم تكُن

تلك اللَّيالي: -

فإنهم يدرون عِدَّتَها، لإمكان إمساك النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن القتال فيها كما هو معلوم عندهم، وذلك لأَنَّهم يفيقون منها من سكرات الخوف، وغمرات الشدَّة، فترجع إليهم عقولهم، ويعود إليهم بعض تمييزهم؛ فيتفطَّنون لما مضى منها، ويدرون عِدَّتَها. وهذا كان قبل إباحة القتال في الأشهر الحُرُم، ثم نُسِخ بقوله: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية (١).

وقال عطاء: لم تُنسَخْ حرمة القتال فيها. وهو ضعيفٌ. وكلام الناظم رضي الله عنه يحتج إلى قول عطاء.

والأشهر الحرام أربعة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (٢). ثلاثةٌ سرد: القعدة، والحجة، والمحرَّم. وواحدٌ فرد: وهو رجب. كانت العرب تكفُّ عن القتال فيها، حتى يجد الرجل قاتلَ أبيه فلا يتجاسر أن يقدم عليه، بل لا يروِّعه احتراماً لها. وجاء صدر الإسلام بذلك، ثم نُسِخ كما مر.

واختلف العلماء في أنها من سنة واحدة بناءً على أنَّ أولها المحرَّم، أو من سنتين على أنَّ أوَّلها رجب.

---

(١) سورة التوبة – الآية ٥ .

(٢) سورة التوبة – الآية ٣٦ .

«١٢٢» كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ
بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرِمِ

كأنَّما

حرف تشبيه.

الدِّينُ

أي: دين الإسلام.

ضَيفٌ

عظيم القدرِ.

حَلَّ

أي: نزل.

سَاحَتَهُم

أي: ساحةَ أهلِ الإسلام الكرام.

بِكُلِّ قرْمٍ

بفتح القاف، وإسكان الراء. أي: مع كل سيد. وأصل "القَرْم": البعير المكرم الذي لا يُركب، ولا يُحمل عليه، بل يُتَّخذ للضِّراب، والزوار، ثم اتُّسع فيه فاستعمل في كل عظيم مكرم.

للمسلمين، والظرف متعلِّق بقوله: -

قَرِمِ

بفتح القاف، وكسر الراء. صفةٌ مشبَّهةٌ، معناه: شديد الشَّهوة. ولا ريب أن الكرام يسعون في تحصيل شهوة الضيف ما أمكن؛ فكأنَّ الكفَّارَ - لشدَّة ما حلَّ بهم من القتل - جِزارٌ نُحِرَت للضيفان، وفُصلت أعضاؤها، وطُبخت تحصيلاً لما تاقت إليه شهواتهم. وهذا الضيف لكونه سيداً نزل مع سادات أمثاله: -

* * *

«١٢٣» يَجُرُّ بَحرَ خَمِيسٍ فَوقَ سابِحَةٍ
يَرمي بِمَوجٍ مِنَ الأَبطالِ مُلتَطِمِ

يجُرُّ

أي: يشيِّعُ.

بَحرَ خميسٍ

أي: جيشاً عظيماً كالبحر في كمال تموُّجِه، وشدَّة إهلاكه. وسُمّي الجيش خميساً لأنه خمسة أجزاء: مقدّمة، وقلب، وساقة، وجناحان. ويقال لهما: ميمنة وميسرة.

فوقَ

ظرف مكان لـ "يجر".

سابحَةٍ

أي: خيلٍ جارية لا تتعِب رُكَّابَها، كأنها تسبح في الماء لحُسن جريها.

وفيه غرابة، جعل البحر فوق السابحة، عكس ما هو المتعارف من كون السابحة فوق البحر.

يرمي

أي: ذلك البحر.

بِمَوجٍ

جمع موجة، وهو ما يرفعه الريح من الماء ويسيِّره: -

مِنَ الأبطال

جمع بطل، وهو الشجاع الكامل، سمي بذلك لأنَّ أقرانه تبطل حيلهم عنده.

مُلتَطِمِ

ذلك الموج، أي: يضرب بعضه بعضاً لشدَّة هيجانه، والمراد من الموج: الأفعال الواصلة من الأبطال إلى الكفار، من طعنٍ وقتلٍ، وغيرهما.

* * *

«١٢٤» مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ
يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ

من كلِّ مُنتدِبٍ لله

بكسر الدال، أي: مجيب لدعائه إلى قتال الكفار وغيره. وضبطه بعض الشُّرَّاح بفتح الدال، على معنى: مدعو، وعلى كُلٍّ فهو: إما بدلٌ من "الأبطال". بإعادة الجار. أو بيانٌ "الخميس".

محتَسِبٍ

أجرَه فيما يناله من موت فما دونه عند الله تعالى، أو مكتف به عن كل من سواه، كما في قوله تعالى حكاية: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(١)

يَسطُو

أي: يصول مع شِدَّة بطشٍ، وكمال قهر.

بمُستأصِلٍ

من سيفٍ ورمحٍ وغيرهما من آلات القتال وهو من "الاستئصال"، وهو أخذ الشيء من أصله. والظرف متعلِّق بـ"يسطو". والباء فيه للآلة، كـ"كتبت بالقلم".

---

(١) سورة آل عمران - الآية ١٧٣.

للكُفرِ

أي: أهله.

مصطَلِمِ

من "الاصطلام" وهو: إهلاك الشيء من أصله. ففي "الصَّحَاح": الاصطلام: الاستئصال. فيكون صفة مؤكدة.

* * *

«١٢٥» حَتَّىٰ غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهْيَ بِهِمْ
مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

حتَّى

غاية لـ" يسطو" . وهو متعلّق : -

غَدَتْ

أي : صارت .

ملَّةُ الإسلام

هو من إضافة الأعمِّ إلى الأخصِّ، كـ" شَجَرِ أراكٍ" . أو من إضافة المسمَّى إلى الاسم، كـ" يوم الخميس" .

وهي

مصحوبةٌ

بهم

أي : بالصَّحابة الأبطال .

من بعد غُربتها

أي : ضعفها وقطعها لما أَلِفَهُ النَّاسُ زمن الفترة من الضَّلالةِ، والجهالة . والظرف

متعلِّقٌ بقوله: -

موَصُولةَ الرَّحِمِ

في غاية الظُّهُور، ونهاية القوة. وهو بالنصب: خبر "غدت". وجملة "وهي بهم": معترضة بين اسم "غدت" وخبرها، للتنبيه على أن علَّة وصلها بعد غربتها هو جهاد الصحابة للكَفَرة، وقيامهم بأعبائها.

وأشار الناظم - رضي الله عنه - بهذا إلى حديث: «بدأ الإسلام غريباً»(١).

---

(١) روى مسلم بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبا. فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ».

ورواه أيضاً عن طريق عاصم بن محمد العمري عن أبيه عن ابن عمر رفعه بلفظ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جُحرها». وعزاه في الدُّرر لمسلم عن ابن عمر بلفظ: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ". وللبيهقي في الشعب عن شريح بن عبيد مرسلاً: "إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء، ألا إنه لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في أرض غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض". ورواه ابن جرير، وابن أبي الدنيا كما في فتاوى ابن حجر المكي الحديثية، لكن من غير ذكر صحابيه، بلفظ: "إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماوات والأرض، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾، ثم قال: إنهما لا يبكيان على كافر". انتهى.

ضبط "بدأ" بالهمزة، أي: جاء وظهر بين قومٍ لا يعرفونه ولا يقومون بأعبائه، فهو مقطوع الرَّحِم. ثم جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوصلوا لُحمته.

وصلةُ الرحم محثوثٌ عليها، ومندوبٌ إليها، قطعُها من الكبائر، وقد ورد بها القرآن العظيم في قوله عز من قائل: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾(١) الآية: نزلت في مسطح بن أثاثة حين قطع عنه الصِّدِّيقُ - رضي الله عنه وأرضاه - صِلَتَهُ التي كان يسديها إليه لمكان قرابته منه، حين خاض في الإفك، وقال في [سيدتنا] عائشة رضي الله عنها ما قال بما برّأها الله منه في كتابه الكريم على لسان

وأنشد الإمام أحمد:

إذا خَلَفَ القرنُ الذي أنت فيهمُ   وخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فأنت غريبُ

ومثله بيت الطغرائي:

هذا جزاء امرئٍ أقرانُه دَرَجوا   من قبله فتمنى فُسحةَ الأجل

قال النجم: وفي الباب عن أنس وجابر وسعد بن أبي وقاص وسهل بن سعد وسلمان وابن عباس وابن عمر وابن مسعود وعمر وعلي وعمرو بن عوف وواثلة وأبي أُمامة وأبي الدرداء وأبي سعيد وأبي موسى وغيرهم. قال فهو مشهور أو متواتر.

انظر: صحيح مسلم. الجزء الأول١, - كتاب الإيمان. (٦٥) باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وإنه يأرز بين المسجدين. الحديث رقم: ٢٣٢ - (١٤٥). وكشف الخفاء، للإمام العجلوني - الحديث رقم: ٨٨٧ .

(١) سورة النور - الآية ٢٢ .

نبيّه العظيم، وجاءت بها الأخبار الشريفة [1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله خلقَ الخلقَ حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك» [2].

---

(١) الحديث متفق عليه، ورواه أصحاب السنن. انظر: صحيح البخاري - الجزء الثاني. ٥٦ - كتاب الشهادات. ١٥ - باب: تعديل النساء بعضهن بعضا، الحديث رقم: ,٢٥١٨ و الجزء الثالث ٦٨ - كتاب التفسير، ٢٤٤ - الحديث رقم: ٤٤٧٣، و الجزء الثالث ٦٨ - كتاب التفسير. ٢٥٠ - باب: قوله: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم﴾. والجزء الرابع، ٨٦ - كتاب الأيمان والنذور، ١٧ - باب: اليمين فيما لا يملك، وفي المعصية وفي الغضب، الحديث رقم: ٦٣٠١، وكذا: صحيح مسلم. الجزء الرابع ٤٩ - كتاب التوبة ١٠ - باب في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف، الحديث رقم: ٥٦ - (٢٧٧٠).

(٢) روى مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللّهَ خَلَقَ الخَلْقَ. حَتّىَ إذَا فَرَغَ منْهُمْ قَامَت الرّحمُ فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائذ منَ الْقَطيعَة. قَالَ: نَعَمْ. أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصلَ مَنْ وَصَلَك وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَك؟ قَالَتْ: بَلَىَ. قَالَ: فَذَاكَ لَك" . ثُمّ قَالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: "اقْرَأُوا إنْ شئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلّيْتُمْ أَنْ تُفْسدُوا في الأَرْض وَتُقَطّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئكَ الّذينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمّهُمْ وَأَعْمَىَ أَبْصَارَهُمْ. أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىَ قُلُوب أَقْفَالُهَا﴾. صحيح مسلم. الجزء الرابع - ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب، ٦ - باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها، الحديث رقم١٦-(٢٥٥٤)

وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (الرحم معلَّقةٌ بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله) (١) .

وعن عوف بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: قال الله تعالى: «أنا الرحمن، خلقت الرَّحِم، وشقَقتُ لها اسماً من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته» (٢) .

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه: انظر: صحيح مسلم. الجزء الرابع، ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب، ٦ - باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها، الحديث رقم: ١٧ - (٢٥٥٥).

(٢) الحديث متَّفق عليه من حديث السيدة عائشة. انظر: تخريج أحاديث الإحياء، للحافظ العراقي - المجلد الثاني. الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم. الحديث رقم: ٢ .
ورواه الترمذي في سننه: سنن الترمذي (وشرح العلل)، المجلَّد الثالث. أبوابُ البرِّ والصلة عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم، ٩ - بَابُ مَا جَاءَ في قَطيعَةِ الرَّحِمِ الحديث رقم: ١٩٧٢ .

وروي في هذا الباب أيضاً أحاديث منها: ما اتفق عليه الشيخان مرفوعا: "الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله".

وروى البخاري واللفظ له وأبو داود والترمذي وغيرهم مرفوعاً: " ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها".

وروى الترمذي وقال حسن صحيح مرفوعاً: "لا تكونوا إمَّعَةً تقولون إن أحسن الناس أحسنَّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن لا تظلموا".

وروى مسلم وغيره: أنَّ رجلاً قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إلي وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ فقال: "إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم ›

. . . .

الملّ " ، يعني الرماد الحار .

وروى الطبراني وغيره مرفوعاً وابن خزيمة في صحيحه والحاكم مرفوعا : "أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح " . ومعنى الكاشح : أي الذي يضمر عداوته في كشحه وهو خصره يعني أن أفضل الصدقة على ذي الرحم المضمر العداوة في باطنه ، وهو في معنى قوله صلى الله عليه وسلم :وتصل من قطعك .

وروى الإمام أحمد والحاكم : أن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال : "ياعقبة صل من قطعك وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك" . وفي رواية البزار والطبراني : "وتعفو عمن ظلمك" .

وروى الطبراني مرفوعاً : " ألا أدلكم على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك" . زاد في رواية : "وتصفح عمن شتمك" .

وفي رواية للبزار "وتحلم على من جهل عليك" .

وروى ابن ماجه والترمذي والحاكم وغيرهم : "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله بصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم والخيانة والكذب" .

وروى الطبراني بإسناد صحيح عن ابن مسعود : أنه كان جالسا بعد الصبح في حلقته فقال : أنشد بالله قاطع الرحم لما قام فإنا نريد أن ندعو ربنا وإن أبواب السماء مرتجة دون قاطع الرحم : ومعنى مرتجة : مغلقة .

وروى الطبراني مرفوعاً : "لا تنزل الملائكة على قوم فيهم قاطع رحم" .

وروى الأصبهاني عن عبدالله بن أبي أوفى قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "لا يجالسنا اليوم قاطع رحم" فقام فتى من الحلقة فأتى خالته وقد كان بينهما

واختلف العلماء في حدِّ الرَّحِم التي تجب صلتُها؛ فقيل: هي الذي يحرم نكاحه - لو فُرِضَ[1] - ذكراً أو أنثى.

وقيل: عامٌّ في كُلِّ رَحِم من ذوي الأرحام في المواريث.

والأصحُ أنه عامٌّ في كلِّ قريب من الأب والأمّ خاصة. والصِّلة تتفاوت بتفاوت الأفعال، وتختلف باختلاف العرف والأحوال، لأنَّ ما لا ضابط له في اللُّغة ولا في الشرع يرجع فيه إلى العُرف.

* * *

بعض الشيء فاستغفر لها واستغفرت له ثم عاد إلى المجلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم».

فعلينا يا أخي الحبيب أن لا نتهاون بعدم صلة الرحم بل نصلها ولو قطعت، طلباً لمرضاة الله تعالى ومصلحة لنفوسنا، من حيث الأجر العظيم لمن يصل رحمه التي قطعته، وكذلك لا نرافق قاطع رحم ولا نجالسه، وهذا العهد لا يقوم به إلا من سلك على يد شيخ وخرج عن رعونات النفوس وصار يعامل الله في خلقه امتثالا لأمره لا لعلة أخرى، وأما من لم يسلك فمن لازمه غالباً قطع رحمه إذا قطعته ولا يصلها إلا إن وصلته، وتلك إنما هي متاجر ليست من أخلاق كُمَّل المؤمنين. فاسلك يا أخي على يد شيخ ناصح ليوصلك إلى مقام الصدق في معاملة الله والله يتولى هدانا وهداك. ذكره الإمام الشعراني رضي الله عنه في عهوده.

(١) أي: لو فرض نكاحه من كان ذكراً، أو نكاحها إن كانت أنثى.

«١٢٦» مَكْفُولَةً أَبَداً مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبٍ
وَخَيْرِ بَعْلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ وَلَمْ تَئِمِ

مَكفُولةً

أي: محفوظةً، بالنصب، خبر ثانٍ لـ "غدت".

أبداً منهم

أي: الكفار، عن أن يدخلوا فيها زيغاً وتغييراً، أو إخفاءً لشيء منها، لأنَّهم أعداء الدين، وحُرَّاصٌ على إطفاء نوره. قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(١).

بخَيرِ أبٍ وخيرِ بَعْلٍ

أي: زوج. والمراد من كُلٍّ من "الأب" و"البعل": هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّه أشفقُ على أمَّته من الأب على أولاده، وأقوم بمصالحهم من البعل على زوجاته(٢).

---

(١) سورة التوبة - الآية ٣٢.

(٢) فهو صلى الله عليه وآله وسلم أولى بنا من أنفسنا كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا أولى بالمؤمنين».

قال بعض الصوفية رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم: وإنما كان أولى بهم من أنفسهم لأن ›

وأهمُّ المهمَّات حفظ الشريعة حفظاً كاملاً، وإضاءتهم بأنوارها، وإزالة ظلمات الشرك عنهم، وهدايتهم. ويجوز أن يراد بـ"الأب": النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وبـ"البعل": من يقوم بأعباء الشريعة بعده من الصحابة، والعلماء، والخلفاء الراشدين، وهذا هو الأنسب؛ لأنَّ البعلَ تكون كفالته للمرأة بعد كفالة أبيها لها. واستمرت لها تلك الكفالة أبداً:-

فلم تَيتَمْ

أي: تصير يتيمة من جهة الأب[1] وهو من يتم الولد: إذا مات أبوه وهو صغير لم يبلغ الحُلُم. وهذا في الآدميين، وأما يتم البهائم: فهو مَن ماتت أمه. وفي الطير: مَن مات أبواه، لأنهما معاً يرزقان فراخهما.

ولم تَئِم

أي: تصير أيِّماً من جهة البعل، وهو من: "آمت المرأة، تيأم" كـ"باعت، تبيع":

أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك وهو يدعوهم إلى النجاة، ويترتب على كونه أولى أنه يجب عليهم إيثار طاعته على شهوات نفوسهم، وإن شقَّ عليهم، وأن يحبُّوه بأكثر من محبتهم لأنفسهم ودخل فيه النساء بأحد الوجهين المفصلين في علم الأصول، وقوله صلى الله عليه وسلم: «من أنفسهم» أي أنا أولى بهم من أنفسهم في كل شيء من أمر الدارين لأني الخليفة الأكبر الممد لكل موجود فيجب عليهم أن أكون أحبَّ إليهم من أنفسهم وحكمي أنفذ عليهم من حكم أنفسهم، وهذا قاله عليه الصلاة والسلام لما نزلت الآية.

(١) وقال في اللسان: "واللَّطِيمُ: الذي يموت أبواه. وعن العَجِيُّ: الذي تموت أُمُّه. واليتيمُ: الذي يموت أبوه".

إذا خَلَتْ عن الزوج. ومنه: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾[1].

والمعنى: أنَّ ملة الإسلام نُصِرت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبأصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين، فهم قائمون بها كما يقوم الوالد بولده الصغير، والبعل بزوجته، وكذلك من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من العلماء العاملين، والخلفاء الراشدين، الذين خلفوا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه الكرام - رضي الله عنهم - في القيام بأعباء الدين إلى يوم الدين، لخبر: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحقِّ حتى يأتي أمر الله»[2].

وفي البيت: اللف والنشر المرتب.

* * *

(١) سورة النور الآية ٣٢.

(٢) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». رواه مسلم في صحيحه، والترمذي، وابن ماجه في سننهما. كلهم عن ثوبان. انظر: زيادة الجامع الصغير، للسيوطي. الحديث رقم: ٣٥٨٩.

«١٢٧» هُمُ الجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ
مَاذَا رَأَى مِنْهُمُ فِي كُلِّ مُصْطَدَمِ

هُم

أي: الصحابة رضي الله عنهم.

الجبَالُ

أي: مثلهم في كمال الثبات وتمام القوة، وشدَّة الظهور، وكمال الارتفاع، وإهلاك من مالوا عليه عند المصادمة. . . وإن شككت في ذلك: -

فَسَل

مِنَ "السؤال"، فخفِّف بحذف الهمزة بعد التاء، حركتها على ما قبلها.

عنهُم

أي: الصحابة الأبطال.

مُصادِمَهُم

في الحروب. والمصادمة: اصطكاك أحد الجسمين بالآخر، مع نوع صلابة فيهما.

ماذا رأى

أي: شاهد البشر من القوة التي لا تتكيَّف، والشدة التي لا توصف. وهو بدل

اشتمال من ضمير "عنهم".

منهُمُ

أي: من الصحابة الأبطال - رضي الله عنهم -.

في كُلِّ مُصطَدَمِ

أي: مكان اصطدامهم مع أعدائهم الكفَرَةِ الفَجَرَة في الحروب؛ فإنه يخبرك به، ولا يسعه إنكاره؛ إما بلسان الحال بعد هلاكه، أو بلسان المقال بعد إدباره. فإنَّ عادةَ الفُرسان أن يُخبِروا بما لاقوا من أعدائهم، ولا يسعهم الكتمان. ثم شرع يفصِّل ما أجمله بعضَ التفصيل فقال: -

* * *

«١٢٨» وَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدًا
فُصُولَ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الْوَخَمِ

وسَلْ

معطوفٌ على "سَلْ" قبله.

حُنَيناً

بالتصغير، وهو وادٍ بين مكة والطَّائف، أحد أسواق الجاهلية، سُمّي باسم من نزل به من العماليق، وهو: حنين بن أمامة. والمراد: سَلْ أهل هذا المكان؛ فإنه يجيبك بلسان الحال، تنزيلاً لغير العاقل منزلة العاقل، إذ كثيراً ما يخاطَب الأطلال والرسوم، والرُّبوع، والمنازل، والأزمنة، والأمكنة، بالاعتبار للمذكور، لداعٍ خطابي، وهكذا الحال فيما بعدُ من قوله:-

وسَلْ بَدراً

وهو موضعٌ بين مكة والمدينة، إلى المدينة أقرب، وبه قرية مشهورة، سمِّي باسم من نزل به، وهو بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة، وقيل: بدر بن الحارث، حافر بئرها. وقيل: سُمّي باسم البئر، وسميت البئر بدراً لاستدارتها كالبدر، أو لصفائها

ورؤية البدر منها[1].

ومن قوله-:

وسَلْ أُحُداً

بضم الهمزة والحاء المهملة. جبلٌ معروفٌ بالمدينة على أقلِّ من فرسَخ منها، وكانت الوقعة المعروفة عنده. وسمِّي أُحُدَاً لتوحُّده وانفراده عن غيره من الجبال[2].

والجبل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «أُحُدٌ جبلٌ يحبُّنا ونُحِبُّه»[3].

---

(١) قال العلامة العسقلاني في "الفتح": هي قرية مشهورة نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة كان نزلها، ويقال بدر بن الحارث، ويقال بدر اسم البئر التي بها، سميت بذلك لاستدارتها أو لصفاء مائها فكان البدر يرى فيها. وحكى الواقدي إنكار ذلك كله عن غير واحد من شيوخ بني غفار، وإنما هي مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بدر، وإنما هو علم عليها، كغيرها من البلاد. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري - للعلامة العسقلاني - المجلد السابع، كتَاب المَغَازِي- باب قِصَّة غَزْوَة بَدْر.

(٢) قال العلامة العسقلاني في "الفتح": وقال السهيلي: سمي أُحُداً لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هناك، أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد. انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، المجلد السابع. كتَاب المَغَازِي. باب أُحُدٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ.

(٣) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُحُدٌ جبل يحبنا ونحبه». رواه البخاري عن سهل بن سعد، والترمذي والطبراني عن أنس، وأحمد والطبراني والضياء عن سُويد بن عامر الأنصاري، وليس له غيره. ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي عبس بن جبر بلفظ: «أُحُدٌ هذا جبل يحبنا ونحبه على باب من أبواب الجنة وهذا عَيْر يبغضنا ونبغضه، وإنه على باب من أبواب النار». ورواه الطبراني عن سهل بن سعد بلفظ: «أحد ركن من أركان

وللعلماء في هذا الحديث أقوال :

قيل : أراد أهله ، وهم الأنصار .

وقيل : وضع الحب فيه حقيقة .

وقيل : لأنه كان كالمبشر له عند القدوم من سفره بلقائه أهله ، وذلك فعل المحب . وفيه -كما قيل - قبر هارون أخي موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، وكانا قد مرَّا به حاجَّين ، أو معتَمرَين(١) .

الجنة» ، ورواه الطبراني في الأوسط عن أنس بلفظ : «أحد جبل يحبنا ونحبه ، فإذا جئتموه فكلوا من شجره ولو من عِضاهِه» . انظر : كشف الخفاء ، للإمام العجلوني - الحديث رقم : ١٣٧ .

(١) قال العلامة العسقلاني في "الفتح" عند قوله : «هذا جبل يحبنا ونحبه» : ظهر من الرواية التي بعدها أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك لما رآه في حال رجوعه من الحج . ووقع في رواية أبي حميد أنه قال لهم ذلك لما رجع من تبوك وأشرف على المدينة قال : " هذه طابة " ، فلما رأى أحداً قال : هذا جبل يحبنا ويحبه " فكأنه صلى الله عليه وسلم تكرر منه ذلك القول .

وللعلماء في معنى ذلك أقوال : أحدها : أنه على حذف مضاف ، والتقدير : أهل أحد . والمراد بهما الأنصار لأنهم جيرانه .

ثانيها : أنه قال ذلك للمسرة بلسان الحال إذا قدم من سفر لقربه من أهله ولقياهم ، وذلك فعل من يحب بمن يحب .

ثالثها : أن الحب من الجانبين على حقيقته وظاهره لكون أحد من جبال الجنة كما ثبت حديث أبي عبس بن جبر مرفوعا " جبل أحد يحبنا ونحبه وهو من جبال الجنة " أخرجه أحمد . ›

وفي بعض الآثار: " إنَّ أُحُداً يوم القيامة يكون عند باب الجنة عن داخلها "[1].

وفي بعضها: " إنه رُكنٌ من أركان الجنة "[2]. وفي بعض الأخبار: " عَيرٌ جبلٌ يبغضنا ونبغضه ". وعَير: بفتح العين، جبلٌ مقابلٌ لأُحُد، ما بينه وبين ثور، وهو جبل صغير خلف حدِّ حرم المدينة طولاً، وحدُّه عرضاً ما بين الحرمين. ونسبة البغض إليه

قال: ولا مانع في جانب البلد من إمكان المحبة منه كما جاز التسبيح منها، وقد خاطبه صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبة من يعقل فقال لما اضطرب " اسكن أحد " الحديث. وقال السهيلي: كان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن والاسم الحسن ولا اسم أحسن من اسم مشتق من الأحدية. قال: ومع كونه مشتقاً من الأحدية فحركات حروفه الرفع، وذلك يشعر بارتفاع دين الأحد وعلوه، فتعلق الحب من النبي صلى الله عليه وسلم لفظاً ومعنىً؛ فخص من بين الجبال بذلك والله أعلم. انظر: فتح الباري - المجلد السابع، كِتَاب الْمَغَازِي- باب أُحُدٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ.

(١) قطعة من حديث رواه الطبراني في "الأوسط" عن أبي عبس بن جبر بلفظ: " أُحُدٌ هذا جبل يحبنا ونحبه على باب من أبواب الجنة وهذا عَيْر يبغضنا ونبغضه، وإنه على باب من أبواب النار". انظر: في كشف الخفاء للعجلوني - الحديث رقم ١٣٧ .

(٢) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحد ركن من أركان الجنة". رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير وفيه عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي - المجلد الثالث، ٨. كتاب الحج، ٥٤. (أبواب في فضائل مكة)، ٢٧. باب في بئر بضاعة، ٢٩. باب في جبل أحد وغيره من الجبال وغيرها. الحديث رقم: ٥٩١١ .

إما حقيقةً، أو باعتبار أهله وهم اليهود[1] - على قياس ما في أُحُد - . ثم . . . هذه الأمكنة الثلاثة باعتبار ما حصل للكفار فيها : -

فُصُولُ حَتفٍ لهُم

أي : أنواع هلاك انصبَّت عليهم من قبل الصحابة الأبطال - رضي الله عنهم أجمعين - وأولئك الفحول من الرجال .

أدهَى

أي : أشدُّ إصابةً وتأثيراً

من الوَخَمِ

أي : الوباء الشديد .

و "أدهى" : تفضيل من "الداهية" . وهي البلاء العظيم . وذلك لأنَّ من يموت منهم بالوباء العظيم في الأزمان المتطاولة لا يبلغ في الكثرة مبلغ من يموت بقتال الصحابة في الساعة الواحدة .

وكانت غزوة حُنَين بعد فتح مكة في عام ثمانٍ من الهجرة، وفيها التقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون مع المشركين من هوازن وثقيف، فانهزم الكفار، وقُتِلَ منهم من قُتل، وسبيت نساؤهم، وأولادهم، وغُنمت أموالهم .

---

(١) ومَن في العالمين لا يبغض اليهود قتلةَ الأنبياء وسفكةَ الدماء في كل زمان ومكان، أينما حلوا؟ ؛ عليهم من الله تعالى سحائب اللعنات هم ومن والاهم ومالأهم وأمدَّهم بالإمدادات، ما دامت الأرض والسماوات .

وكانت غزوة بدر من غير قصد ولا ميعاد من المسلمين، يوم الجمعة، سبع عشرة خلت من رمضان، عام اثنين من الهجرة، وهي وقعة بدر الكبرى، التي أعزَّ الله بها الإسلام، قُتِل فيها من صناديد قريش سبعون، وأُسر منهم سبعون. وكان عدد المسلمين فيها ثلاث مائة وبضعة عشر. وعدد الكفار فيها ما ينوف على ألف.

روي: إن جبريل عليه السلام نزل في خمس مائة، وميكائيل في خمس مائة من الملائكة، في صور رجال عليهم ثياب بيض، أرخوا أطرافها بين أكتافهم، راكبين على خيل بلق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء، ويوم حنين عمائم حمراء، ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى بدر. وكانوا فيما سواه عدداً ومدداً(١).

وكانت غزوة أُحُد في شوَّال عام ثلاثة من الهجرة، واستشهد فيها من المسلمين سبعون، منهم: سيدنا وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب. وقتل من المشركين اثنان وعشرون، وكان جمع المشركين ثلاثة آلاف، وكان المسلمون سبع مائة.

وخَصَّ هذه الغزوات بالذكر لأنها أصعب الغزوات، وأشدّ ما قاسوا فيها من الشدائد، وأعظم ما عاينوا فيها من المكايد.

---

(١) روى الطبراني في الكبير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها إلى ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر ولم تقاتل الملائكة في يوم إلا يوم بدر إنما كانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون".
انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي - المجلد السادس ٢٥ كتاب المغازي والسير- ٢٠. أبواب في غزوة بدر ١. باب غزوة بدر، الحديث رقم: ٩٩٨٥.

«١٢٩» المُصْدِرِي البِيضِ حُمْراً بعدَ ما وَرَدَتْ
مِنَ العِدَا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ

المُصْدِري البيضِ

بالإضافة، وجازت إضافة المعرَّف باللام لوجودها في المضاف إليه كـ: "المقيمي الصلاة". وقيل: "البيض" منصوبٌ بما قبله، وحذفت النون للتحقيق، والمضاف منصوبٌ بإضمار "امدح"، أو "اذكر". وأراد بالبيض: السيوف المصقولة، لصفاء جواهرها، حالةَ كونها:-

حُمراً

لشربها من دماء الكفار، وريِّها منها، تشبيهاً بالإبل التي رويت من الماء بعد ورودها إياه.

بعدَما وردَتْ

أي: بعد ورودها.

منَ العِدا

للإسلام وأهله.

والظرف متعلّقٌ بمحذوف حال من قوله:-

كُلَّ مُسْوَدٍّ

وهو منصوب بـ" وردت " .

من اللَّمَمِ

جمع " لِمَّة " بكسر اللام. واللِّمَّة : الشعر المجاوز لشحمة الأذن، سُمِّي بذلك لأنَّه يكاد يلمُّ بالمنكب، ويصل إليه. و" من " بيان للمسودّ.

والمعنى : أنَّ الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - يرجعون بسيوفهم إلى أغمادها حمراءَ من دماء العدا، بعد أن جرَّدوها من أغمادها بيضاً. وفي ذلك إشارة إلى كمال شجاعة الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - ، وأنهم لا يرجعون في الغالب إلا بقتل الشُّبَّان دون الشيوخ .

* * *

«١٣٠» وَالْكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ
أَقْلَامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ

والكاتبينَ

أي: الطاعنين، وهو عطفٌ على: "المُصدري البيض".

بِسُمْرِ الخَطِّ

أي: رماح الخَطّ. والخَط: بفتح الخاء، وقد تُكسر: شجرٌ يُتَّخذ منه الرماح. وقيل: موضع باليمامة تُجلَب إليه أعواد الرماح من الهند. وعليه الجوهري(١).

ما تركت أقلامُهُم

أي: أسِنّة رماحِهِم الشبيهة بأقلام الكُتّاب، بجامع أنها تؤثِّر في الشيء أثراً بيِّناً.

حَرفَ جِسمٍ

من الكفّار، أي: طرفه.

غيرَ منعَجِمِ

أي: غير متأثِّر، بل أثّرت فيه بطعنها أثراً بيِّناً، فكأنَّ كلَّ طعنةٍ في حرف جسم نقطةٌ، فصارت جميع حروفه منعجمة بالنقط، ليس فيها مهمَل.

---

(١) أي: في الصَّحاح، مادة: "خطط".

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الطَّعنَ، قد عمَّر جميع أجزاء الكفار، أي: كثر ذلك فيها جداً، كأنَّه عمَّها.

وحاصلها: أنَّه شبَّهَ حالَ الصَّحابة - رضي الله عنهم أجمعين - من طعنهم أبدان الكفار بعوالي الرماح الجيدة طعناً مُحكماً بقوة قد عمَّ جميع أبدانهم، وتميَّزت تلك الأبدان عن أبدان المسلمين كما تميّز الحروف المعجمة عن الحروف المهملة بنقطها وإعجامها، لأنَّ معنى أعجمت الحرف: أزلت عجمته، والتباسه بغيره، إذ من معاني صيغة "أفعل": السلب والإزالة، نحو: أجلدت البعير، أي: أزلت جلده.

*　　*　　*

«١٣١» شَاكِي السِّلَاحِ لَهُمْ سِيمَا تُمَيِّزُهُمْ
وَالْوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيمَا عَنِ السَّلَمِ

شَاكي السِّلاحِ

أي: تامّيه، عدداً وحُسناً. واقتصر في الذكر على السيوف البيضِ والرماح السُّمر، لأنهما أشرف أنواع السلاح، وإلا فلهم أيضاً نبالٌ وأحجارٌ، وغير ذلك مما يقع به القتال. وقيل: معنى شاكي السلاح: حادّيه. من "الشوكة" وهي الحدَّة، وعليه الجوهري. وهو منصوبٌ إما على أنه صفةٌ لـ"المصدري البيض"، وإما بتقدير: امدح، أو نحوه.

واختلفوا في "شاكي" من قولهم: شاكي السلاح. فقيل: أصله: شائك كـ"هائر في: هارٍ". حذفت عينه. والياء في آخره ياء الجمع، وحذفت النون للإضافة، فوزن "شاكي" على هذا قال كـ"هار"، وقيل: أصله "شاوك" من "الشوكة" بمعنى القوة والحدة، نقلت العين إلى موضع اللام فصارت شاكٍ، على وزن فاعل، فوقعت الواو ساكنةً أثر كسرة قلبت ياء، ثم أعلَّ إعلال قاضٍ، وعلى هذا فالياء أصلية، لا ياء الجمع.

والسلاح: اسمٌ لكلِّ آلة الحرب؛ من سيف، ورمح، وغيرهما.

لهُم

أي : للصحابة الممدوحين - رضي الله عنهم أجمعين - .

سِيما

بالقصر ، أي : علامة .

تميِّزُهُم

عن أعدائهم ، فلا يقع بينهم وبينهم التباسٌ ، وإن تشابهوا في الصورة الإنسانية ، فإنَّ الصحابة يمتازون عن الكفار بوجوهٍ ناضرةٍ إلى ربها ناظرة ، والكفار تمتاز عن الصحابة بوجوه عليها غبرة ترهقها قترة . قال الله تعالى في حق الصحابة رضي الله عنهم : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾[1] . أي : والكفّار ، بخلاف ذلك إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء .

ثم ضرب لذلك مثلاً يتقرَّب به الفرق بين الفريقين أكمل تقريب ، فقال :

والوَردُ

واحده : وردة . هو في الأصل اسمٌ لكل نبت ذي نَور ، غلب في عرف اللغة على المتعارف ، لكونه أشرف أنواعه .

يمتَازُ بالسِّيما

أي : يتميز بالعلامة التي تخصُّه والصفة التي تفرَّد بها .

---

(١) سورة الفتح - الآية ٢٩ .

عن السَّلَم

بفتحتين، واحده: سَلَمَه. وهو نوعٌ من شجر العضاه، يشبه الورد في أنَّ كلاً شجرٌ مُورق ذو شوك، غير أن الورد يمتاز عن السَّلَم بحسن الخلقة، وبهاء المنظر، وطيب الرائحة؛ فالمسلمُ كالورد، والكافر كالسَّلَم لا يلتبس أحدهما بالآخر. ولله درُّ القائل:

وجوه عليها للقبول علامةٌ وليس على كل الوجوه قَبُول

ثم أتبع ذلك بما يزيده بياناً فقال: -

* * *

«١٣٢» تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُ
فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِي

تُهدي

بضم التاء ، مضارع أهدى .

إليك

أيها المشاهِدُ لوقائعهم ، أو السَّامع لما يدلُّ عليها من الأخبار .

رياحُ النَّصر

أي : الرياح المسخرة لنصره صلى الله عليه وآله وسلم ، ونصرِ أصحابه ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «نُصرت بالصَّبا ، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبور» (١) .

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور) . رواه الشيخان في صحيحهما ، انظر : صحيح البخاري ، الجزء الأول ، ٢١ - كتاب الاستسقاء ، ٢٥ - باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم : (نصرت بالصبا) . الحديث رقم : ٩٨٨ , وصحيح مسلم - الجزء الثاني . ٩- كتاب صلاة الاستسقاء . (٤) باب في ريح الصبا والدبور . الحديث رقم : ١٧ - (٩٠٠) . ومسند الإمام أحمد . المجلد الأول . مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومسند الإمام الشافعي - الجزء الأول . الباب السادس عشر في الدعاء . الحديث رقم : ٥٠٥ وقوله : "نصرت بالصَّبا" بوزن العصا : ريح تهب من مطلع الشمس فهي ريح شرقية ويقابلها الدَّبور ›

وروى الشيخان : « نُصرتُ بالرُّعب مسيرة شهر»[1] .

وروى الطبراني : « نصرت بالرعب شهرين»[2] .

والمراد ما في شرح "العمدة" لابن الملقِّن : وروينا : " نصرت بالرعب شهرين ؛ شهراً من أمامي ، وشهراً من خلفي " . ويقاس بذلك اليمين والشمال ، فرواية "شهر"

وهي تهب من المغرب . وأما الدَّبور : فقد أهلكت عادا كما قال تعالى : "وأما عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية " الآيات وهذا اعتراف منه صلى الله عليه وسلم ، بفضل اللّه عليه .

(١) قطعة من حديث رواه البخاري ومسلم عن جَابِر بْن عَبْد اللَّه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» .

انظر : صحيح البخاري ، الجزء الأول ، ٧ - كتاب التيمم ، الحديث رقم : ٣٢٨ . وأخرجه مسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، رقم : ٥٢١ و حاشية السندي على النسائي ، الجزء الأول ، ٤ - كتاب الغسل و التيمم - ٢٦٩ - باب التيمم بالصعيد - الحديث رقم : ٤٢٦ .

(٢) معجم الطبراني الكبير ، باب الظاء . أحاديث عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . مجاهد عن ابن عباس .

وعن ابن عباس قال : نُصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعب على عدوه مسيرة شهرين . انظر : مجمع الزوائد . للحافظ الهيثمي - المجلد الثامن ، ٣٦ . كتاب علامات النبوة ، ١٥ . باب عموم بعثته صلى الله عليه وسلم . الحديث رقم : ١٣٩٤٩ . رواه الطبراني ، وفيه إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر وهو ضعيف .

المراد بها شهر من كل جهة . ورواية " شهرين " اقتصر فيها على بعض الجهات ليقاس عليها بقيتها .

ولا تنافي بين الأخبار الواردة في هذا الشأن .

نَشرَهُمُ

أي : خبرهم العجيب السّارّ الشبيه بالنشر ، وهي : الرائحة الطيبة .

فَتَحسَب

أي : تظنُّ أيها المخاطَبُ من أجل ما ذكر : -

الزَّهرَ

بالنَّصب على أنه مفعول ثانٍ لـ " تحسب " .

في الأكمامِ

جمع " كِم " بكسر الكاف ، وهو الغلاف . والظرف حالٌ من " الزهر " ، وقيَّده بكونه في أكمامه لأنه فيها أحسن منظراً ، وأطيب رائحةً منه خارجها ، ولذا ذكر الشجاع موصوفاً بكونه مستوراً بسلاحه .

كلاً

بالنصب على أنه مفعوله الأول .

كَمي

أي : شجاع مستور بسلاحه ودرعه وبيضته ، فهو فعيل بمعنى فاعل .

«١٣٣» كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رُبًا
مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شَدَّةِ الْحُزُمِ

كأنَّهم

أي: الصحابة الأبطال - رضي الله عنهم أجمعين - .

في ظُهُور الخيلِ

أي: عليها. والظرف حالٌ من الضمير في "كأنهم". واختار الناظم "في" على: "على" مع أنه المعنى عليها كما تقرر، ليفيد أنهم لشدة تمكُّنهم من ظهور الخيل صاروا كأنهم مظروفون فيها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[1]. أي: عليها.

نَبتَ رُبىً

جمع ربوة، مثلث الراء، وهي: ما ارتفع من الأرض. وخُصَّت بالذكر لأنَّ نبتها أثبت من نبت غيرها باعتبار أن عروقه تطولُ حتى كأنها تصل إلى الماء، بخلاف نبت غيرها.

---

(١) سورة طه - الآية ٧١ .

يعني: أنَّهم في ظهور الخيل أثبتُ من غيرهم بكثير، ثم إنَّ شدة ثباتهم في ظهور الخيل إنما هو: -

من

أجل: -

شدة الحَزْمِ

بكسر الشين، وفتح الحاء، وإسكان الزاء. من قوة ثباتهم في الدّين، وما أفرغ على قلوبهم من برد اليقين، واعتقادهم أن الجنة تحت ظلال السيوف(١)، وأن فضيلة

---

(١) روى البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم بسنده عَنْ أَبِي بكْر بْن عَبْد اللَّه بْن قَيْس، عَنْ أَبِيه، قَالَ: سَمعْتُ أَبي، وَهُوَ بحَضْرَة الْعَدُوّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم "إنّ أَبْوَابَ الْجَنَّة تَحْتَ ظلاَل السّيُوف" فَقَامَ رَجُلٌ رَثّ الْهَيْئَة. فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى آنْتَ سَمعْتَ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَرَجَعَ إلَى أَصْحَابه فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السّلاَمَ. ثُمّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفه فَأَلْقَاهُ. ثُمّ مَشَى بسَيْفه إلَى الْعَدُوّ. فَضَرَبَ به حَتّى قُتلَ.

انظر: صحيح مسلم: الجزء الثالث. ٣٢ - كتاب الجهاد والسير، ٦ - باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء. الحديث رقم: ٢٠ - (١٧٤٢).

وصحيح البخاري: الجزء الثاني، ٦٠ - كتاب الجهاد والسير، ١٥٣ - باب: لا تمنوا لقاء العدو. الحديث رقم: ٢٨٦١و٢٨٦٢.

الشهادة لا توازيها فضيلة[1]، وأنّ التولّي عن القتال من أقبح العيوب[2]، وأكبر الذنوب، وغيرها، بخلاف الكفار: -

لا من

أجل .

(١) روى البخاري والنسائي والإمام أحمد في مسنده كلهم بسنده عن أَنَس بْن مَالك رَضيَ اللَّهُ عَنهُ عَنْ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحبُّ أَنْ يَرْجعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْض منْ شَيْءٍ إِلا الشَّهيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّات لمَا يَرَى منْ الْكَرَامَة». انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني: المجلد السادس، كتَاب الْجِهَاد وَالسِّيَر، باب تَمَنِّي الْمُجَاهد أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا.
وسنن النسائي: المجلد السادس. كتاب الجهاد. ما يتمنى أهل الجنة.
ومسند الإمام أحمد: المجلد الثالث. مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

(٢) روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لقي الله لا يشرك به شيئاً وأدى زكاة ماله طيباً بها نفسه محتسباً وسمع وأطاع فله الجنة أو دخل الجنة وخمس ليس لهن كفارة الشرك بالله عز وجل وقتل النفس بغير حق أو نهب مؤمن أو الفرار يوم الزحف أو يمين صابرة يقتطع بها مالا بغير حق".
انظر: مسند الإمام أحمد. المجلد الثاني. مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

شَدَّةِ الحُزُمِ

بفتح الشين، وضم الحاء والزاء: جمع حزام، وهو ما يُشَدُّ به السَّرْج، أو غيره على ظهر الدابة ليثبت راكبها عليها، والإضافة في الموضعين من إضافة الصفة إلى موصوفها. وفيه تعريضٌ بالكفَّار بأنَّهُم إن حصل لهم نوع ثبات على ظهور الخيل، يكون من شدة الحُزُم لا من شدَّة الحَزْم، عكس ما ثبت للصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

«١٣٤» طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقًا
فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَهْمِ وَالْبُهَمِ

طارتْ قُلوبُ العدا

للإسلام، أي: اشتدَّ اضطرابها حيث أشبهت الطائر في طيرانه.

من بأسِهِم

أي: من أجل شدَّة الصحابة في الحروب، وكمال شجاعتهم، وتمام فراستهم.

فَرَقاً

أي: خوفاً. وهو تمييز من نسبة الطيران إلى القلوب.

فما تُفَرِّقُ

أي: تُمَيِّزُ ذلك القلوب من شدة فزعها، وكمال جزَعِها: -

بين البَهْمِ

بفتح الباء وسكون الهاء، جمع "بهمة" وهي السخال؛ ذكوراً كانت أو إناثاً. ثم: البَهْمُ والسِّخالُ عبارتان عن صغائر الغنم. كذا جرى عليه بعض الشُّرَّاح. وقال الجوهري: البَهمُ: ولد الضَّأن. والسَّخال: ولد المعز.

والبُهُم

بضم الباء والهاء، جمع بُهمة - بضمِّ الباء وسكون الهاء -، وهم الشجعان.

والمعنى: أنَّ الفزع اشتدَّ على قلوبهم حتى صارت لا تميِّزُ في المحسوسات بين الأمور التي بينها غاية التباعد، ونهاية التَّضاد، كهذين الأمرين.

وقد أخذ الناظم - رضي الله عنه - هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيد ﴾(١).

ومن قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾(٢).

وقد جرى على هذا المنوال أبو نواس في قوله:

فكلُّ كفٍّ رآها ظنَّها قَدَحاً   وكلَّ شخصٍ رآه ظنَّه السَّاقي(٣)

وأبو الطيب في قوله:

وضاقت الأرض حتى كان هاربَهم   إذا رأى غير شيء ظنَّه رجلا(٤)

والمعنى الجامع لهذا كله: أن الشخص قد يعرض له ما يوجب ذهوله وعدم تمييزه بين الأشياء بالكلية، ولما كانت نصرة الصحابة إنما هي ببركته صلى الله عليه وآله وسلم، أشار إلى ذلك بقوله:

---

(١) سورة الحج - الآية ٢ .

(٢) سورة المنافقون - الآية ٤ .

(٣) انظر: ديوان أبي نواس - صفحة ٤٤٠ : ط دار صادر.

(٤) انظر: شرح ديوان المتنبي للبرقوقي - ج٢ - ص ٢٨٧ .

«١٣٥» وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ
إِنْ تَلْقَهُ الْأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

ومَن

هي شرطية.

تَكُن

بالفوقية والتحتية، فعل الشرط.

برسول اللهِ

صلى الله عليه وآله وسلم. والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدَّم لـ"تكن".

نُصرَتُهُ

إذا انتصر به على أعدائه. وهو - بالرفع - اسمٌ لـ"تكن".

إن تَلْقَهُ الأُسْدُ

التي هي أعظم الأعداء، وأكبر المضرَّات. جمع: أسد، وهو الحيوان المفترس الذي له غاية القوة، ونهاية الجرأة.

في آجامِهَا

أي: غاباتها. جمع "أجمة" وهي مسكن الأسد. والظرف متعلّقٌ بمحذوف حال

من "الأسد"، وقيد به لأنَّ الأُسْدَ في آجامها أشدُّ جرأةً منها في غيرها.

تَجِم

مضارع "وَجَمَ"، من باب "وعد". أي: تسكن ولا تتحرك خوفاً منه صلى الله عليه وآله وسلم، أو خوفاً من المنتصر به صلى الله عليه وآله وسلم أن يسمع صوتها فيستدلَّ به على أمكنتها فيأتيها ويقبض عليها. والشرط الثاني وجوابه جواب الشرط الأول.

والبيت يشير إلى قصة سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال رضي الله عنه: ركبت سفينة في البحر فانكسرت؛ فركبت لوحاً منها؛ فأخرجني إلى أُجَمَةٍ فيها أسد؛ فإذا هو قد أقبل عليَّ؛ فلما رأيته قلت: يا أبا الحارث... أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فأقبل يبصبص بذنبه، حتى ضربني بجنبه، حتى كأنما سمع صوتاً أهوى إليه، ثم أقبل يمشي إلى جنبي حتى أقامني على الطريق، ثم همهم ساعةً؛ فرأيت أنه يودّعني"(١).

---

(١) روى البزار بسنده عن سفينة قال: كنت في البحر فانكسرت سفينتنا فلم نعرف الطريق، فإذا أنا بالأسد قد عرض لنا، فتأخر أصحابي فدنوت منه فقلت: أنا سفينة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أضللنا الطريق، فمشى بين يدي حتى أوقفنا على الطريق، ثم تنحى ودفعني كأنه يريني الطريق، فظننت أنه يودعنا.
وعند الطبراني بنحوه إلا أنه قال: " فانكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحاً من ألواحها فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد، فأقبل إلي يريدني فقلت له: يا أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطأطأ رأسه وأقبل إلي فدفعني ›

وروي أيضاً: عدا كلبٌ أسود على رجلٍ من أهل الذمة؛ فدخل البحر؛ فمكث الكلب قائماً ينتظره؛ فلما أبطأ عليه قال: أنا لي ذمّةٌ بمحمد - صلى الله عليه وآله سلم - . . . فولّى الكلبُ يعدو.

ومما يناسب ذلك: ما ذكر في زمن المتوكل العباسي، أنَّ زينب الكذَّابة ظهرت وزعمت أنها بنت فاطمة وعلي - رضي الله عنهما - . فقال المتوكل لجلسائه: كيف نعلم أمر هذه المرأة؟. وعند من نجده؟.

فقال بعضهم: ابعث إلى علي بن موسى الكاظم حتى يحضر ويخبرك بحقيقة أمرها.

فبعث إليه، فأتاه؛ فرحَّب به، وأجلسه معه على سريره، وقال له: إنَّ هذه المرأة تدَّعي كذا وكذا، إنما عندك بذلك؟. فقال: الامتحان في هذا قريبٌ، إن الله تعالى حرَّم لحم جميع ولد فاطمة على السباع، فألقها لها، فإن كانت صادقةً لم تتعرض لها، وإن كانت كاذبةً أكلتها. فعرض ذلك عليها؛ فكذَّبت نفسَها، وأدبرت على جَمَلٍ في طرقات سُرَّ من رأى، تنادي على نفسها بأنها زينب الكذابة. . ، وليس بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رَحِمٌ ثابت من فاطمة وعلي رضي الله عنهما.

بمنكبه». والباقي بنحوه.

انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي - المجلد التاسع، ٣٧ . كتاب المناقب - ١٣٨ . باب ما جاء في سفينة رضي الله عنه. الحديث رقم: ١٥٩٧٢ .

ثم جاؤوا بها على جمل ينادى عليها بذلك، ثم رحلت إلى الشام[1].

---

(١) فكيف لا ينصر من لاذ بجناب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، أم كيف يضام من تمسك بأساس أهل الوفا، أم كيف يبعد عن رحمة الله من امتلأ قلبه بمحبة حبيبه صلى الله عليه وسلم إمام أهل الود والصفا؟. وشأن أولياء الله تعالى المحبين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتوسّلوا به في جميع حالاتهم وملازمة أعمالهم باتباعهم لسنته، ويتشفعوا به إلى رب العالمين.

فهل رأيت أحداً لاذ بجناب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم واستجار بحرمه، أو لازم باب جوده وكرمه وخاب؟!!. لا والله. وهل شاهدت صادقاً في محبته مكثراً من الصلاة عليه، لَهِجاً بذكره في شدته قد ناداه من قلبه وما أجاب؟. لا والله.

وقد علِمَ ذلك من حال نبينا وشفيعنا صلى الله عليه وآله وسلم واشتهر أنه من استجار به ولاذ بجنابه، فاز في الدنيا والآخرة، وظفر، والأخبار في هذا شاهدة على ذلك وهي لا تحصى، ولا يحيط بذكرها مخبر.

منها: ما ذكر عن أبي قتادة رضي الله عنه فارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه اشترى فرساً، وكان خارج المدينة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فبينما هو ذات ليلة يعلفها نوى التمر فإذا به رآها قد مدّت أذنيها!.

فقال لأمه: يا أماه، إن هذه الفرس أحسّت بالخيل، وإنا نخاف الغارة!.

فقالت له أمه: يا بني إنا حيث كنا في المشركين كنا لا نخاف، فكيف بنا إذ منّ الله علينا بالإسلام، ونزلنا في جوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فكيف نخاف أو نضام؟.

فكان من أمر أبي قتادة رضي الله عنه في تلك الليلة من العجائب، ورأى في حاله من الخوارق والغرائب ما دلّه على كمال جاه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذي لاذ بحماه، وحفظه الله به، وأعانه على عدوه وقوّاه. فركب فرسه - رضي الله عنه - ›

. . . .

وغزا بها ناصراً لدين نبي الله صلى الله عليه وسلم ، باذلاً نفسه في ذات الله . فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له : أصحبك الله يا أبا قتادة بالسلامة ؛ فصحبته السلامة . ورأى من نفسه مع أعداء الله الكرامة ، فرمي بسهم بين عينيه وما أحسّ بألم ، لأن نعيم الجنة ألهى نفسه التي بين جنبيه ، فأزال السهم من وجهه معتقداً أنه نزع حديدة ، فلحقه رجل من أبطال المشركين ، وقد طلب الله تعالى أبو قتادة أن يجمعه به على فرسه ، فلما رأى أبا قتادة قال له : قد جمع الله بيني وبينك فاختر ما شئت .

فقال له أبو قتادة : لا أختار على الله شيئاً ، فنزل المشرك عن فرسه ، وربطها بشجرة ، وعلق سيفه ، فنزل أبو قتادة عن فرسه ، وربط فرسه ، وعلق سيفه ، ووثق بمولاه ، واستجار بمن كان على يديه هداه .

ثم أتى المشرك وطلب مصارعته ، فأجابه أبو قتادة ، واستعان بالله عليه ، فصرعه ووثب على صدره ، وطلب ما يقتله به فلم يجد . وخاف أن يأخذ سيفه ، فيأخذ المشرك سيفه ، وبقي كذلك يحاوله ويجادله ، ويستعين بمولاه أن يخاذله ، قال : فما أحسست أي بسيف عدو الله قريب مني ، وكأنه على رأسي ، وكأن الشجرة قد قربت إلي ، ودنت مني ، فأخذت سيفه في يدي ، وضربته بسيفه ، فقال لي : يا أبا قتادة أتقتلني؟ . فقلت له : نعم ، إني أسرع بأمك إلى الهاوية . فقال لي : يا أبا قتادة ومن للصبية؟ . قلت : النار لها ، فضربته حتى قتلته . . . . وفي آخر الخبر فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أفلح وجهك أبا قتادة ، أبو قتادة سيد الفرسان ، بارك الله فيك يا أبا قتادة ، وفي ولدك وفي ولد ولدك " . وهكذا ترى معي يا أخي الحبيب أن (من تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم) . انظر : دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٩٠ وما بعدها .

«١٣٦» وَلَنْ تَرَىٰ مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ
بِهِ وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرِ مُنْقَصِمِ

ولن ترى

خطابٌ لغير مُعَيَّن، على خلاف الأصل في الخطاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(١).

مِن

زائدة لتأكيد النفي واستغراقه.

وليٍّ

لله - عز وجل - ورسوله - صلى الله عليه وآله وسلم -، طلب الانتصار به صلى الله عليه وآله وسلم على عدوه.

والولي: إما فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى مفعول.

غيرَ

بالنصب، صفة "الولي" على المحل، أو بالجر: صفةٌ له على اللفظ.

---

(١) سورة السجدة - الآية ١٢ .

مُنتصِرٍ به

على عدوِّه.

و

لا ترى أيضاً: -

من عدوٍ غيرِ منقَصِمِ

أي: منكَسِرٍ، مع إبانةٍ للأجزاء بعضها عن بعض. والكلام هنا كالكلام فيما قبله. وكرَّر النفي ليفيد تحتُّمَ حصول كلٍّ من المتعاطفين، لا مجموعهما الصادق بأحدهما دون الآخر. وفي بعض النسخ: "منفصم". بالفاء، أي: منكسر بدون إبانة. والأول أبلغ.

ومعنى البيت: أنَّ كلَّ وليٍّ لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منتصرٌ على أعدائه، وكل عدوٍّ له - صلى الله عليه وآله وسلم - مخذولٌ وهالكٌ على توالي الأزمان، وترادف الأحوال.

«١٣٧» أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ
كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأَشْبَالِ فِي أَجَمِ

أحلَّ

أي: أنزل - صلى الله عليه وآله سلم -.

أمّتَهُ

أي: أمَّةَ إجابته، لا مطلق أمّة دعوته(١)، بقرينة قوله:

في حرزِ ملَّته

والحِرزُ: ما يحترز به عن المكروه أو ما يخاف منه. وإنما كانت الملة الإسلامية حرزاً لأنَّ من تمسك بها ودخل فيها احتمى من سائر المكاره، وأنواع المضار، في الدنيا والآخرة. والمراد: أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - حلَّ مع أمَّته في حرز ملَّته، بقرينة قوله:

---

(١) أصل الأمة: الجماعة، مفردٌ لفظاً جمعٌ معنى، وقد يختص بالجماعة الذين بعث فيهم نبي وهم باعتبار البعثة فيهم ودعائهم إلا الله يسمون أمة الدعوة، فإن آمنوا كلاً أو بعضاً سمي المؤمنون: أمة إجابة.

كاللّيث

أي: الأسد.

حلّ مع الأشبال

أي: مع أولاده الصغار؛ حفظاً لها عما يُخاف منه.

وهو جمع "شِبل"، ويجمع أيضاً في القِلَّة على "شُبُل"، وفي الكثرة على: "شُبول".

في أجَم

بفتح أوّليه. جمع "أجَمَة" وهي الغابة. والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، كالأب لأمَّته، في كمال شَفَقَته عليهم. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وقوله: "حلَّ مع الأشبال" يفيد أنه لا يحصل لها كمال الحفظ وتمام الحراسة إلا إذا كان الليث معها، كذلك النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – مع أمته في حرز ملته دائماً، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم حيٌّ في قبره، يتعبَّد بأنواع العبادات، وإن سقط عنه بموته أمر التكليف[2]. وهذا التشبيه يفيد وصفه صلى الله عليه وآله وسلم بأكمل الشجاعة، وأمّته بكمالها.

---

(١)سورة التوبة – الآية ,١٢٨

(٢)وهذا هو مذهب جمهور العلماء، وشذ آخرون لا عبرة بهم، ولا يقتدى بأفعالهم، ودليل الجمهور: أنه ﷺ حي في قبره أنه يعلم بزائريه، فوجب استقبال وجهه الشريف عند

زيارته، لأنه ﷺ لو كان حياً لم يسع زائريه إلا استقباله واستدبار القبلة، قال ابن حجر في «الجوهر المنظم»: «وإذا اتفقنا أن المدرس من العلماء بالمسجد الحرام، يستقبل طلبته فيستقبلونه، ويستدبرون الكعبة، فما بالك به ﷺ؟ فهو أولى بذلك قطعاً».

والمناظرة المشهورة بين الإمام مالك للمنصور رحمهما اللّه تعالى شاهد على ذلك، حين قال الإمام مالك للمنصور رحمهما اللّه تعالى: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟ وصح عن السلف أنهم كانوا يقفون على باب البيت يسلمون - أي لتعذر استقبال الوجه الشريف حينئذ - ، ثم لما دخلت حجر أزواجه ﷺ في المسجد اتسع ما أمام الوجه الكريم فوقفوا فيه مستقبلين له ﷺ مستدبرين القبلة، وهذا شاهد صادق لما مر عن الجمهور، وإذا سنَّ استدبار القبلة في الخطبة لأجل السامعين، فلأجله ﷺ أولى وأحرى.

ثم قال العلامة شيخ الإسلام ابن حجر: وإنكار ابن تيمية لهذه الحكاية عن مالك حتى لا يرد عليه إنكاره التوسل والتشفع به ﷺ، من خرافاته وتهوراته، كيف وقد جاء عنه بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيه!!؟، ولمالك قول؛ أنه لا يقف أمام الوجه الشريف للدعاء، بل للسلام فقط، وجمع بين قوليه بأن الأول ممن يعرف آداب الدعاء وشروطه، ومحظوراته. والثاني في الجاهل بذلك لأنه يخشى منه أن يأتي في حضرته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليمات - المعظمة بما لا ينبغي. انظر: «الجوهر المنظم» ص ١٥٨ .

وقال العلامة العسقلاني في «المواهب اللدنية»: وإنكار من ينكر هذه الحكاية تهور عجيب منه، كيف وقد رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتاب «فضائل مالك»، بإسناد لا بأس به، وأخرجها القاضي عياض عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه، فمن أين يأتيها الكذب وليس في إسنادها كذاب ولا وضّاع، ولا متهم؟!». «المواهب اللدنية ٤ / ٥٨٠» .

رزقنا اللّه حسن الأدب مع حبيبه الأعظم ﷺ وعافانا مما ابتلى به كثيراً ممن خلق، وفضلنا على

كثير ممن خلق تفضيلا ، فحذار يا أخي المحب من سوء الأدب في تلك الحضرة الشريفة فتحجب عنك الأنوار كما هو مشاهد في وجوه المحرومين الذين قست قلوبهم وأظلمت بسبب سوء أدبهم مع هذا الحبيب وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، نسأل الله السلامة والعافية آمين .

وللعلامة الشارح رضي الله عنه قصيدة في حياته صلى الله عليه وآله وسلم عثرت على نسخة مخطوطة لها في قسم المخطوطات ومصوراتها في المجمع الثقافي ، أثبتها هاهنا لما فيها عظيم الفائدة، وما يجب على المؤمن المحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعتقده جازماً به حتى يلقى الله تعالى على ذلك، وإليك يا أخي المحب نص القصيدة للحافظ ابن حجر : -

تواترت الأدلة والنقول ... فما يدري المصنف ما يقول
بأن المصطفى حيٌّ طريٌّ ... هلالٌ ليس يطرقه أُفول
وأن الجسم منه بقاع لحدٍ ... كورد لا يدنسه الذبولُ
وأن الهاشمي بكل وصفٍ ... جميلٍ لا تغيره الحلولُ
وأن الدودَ لا يأتي إليهِ ... كذا الآفاتُ ليس لها وصولُ
وتأتيه الملائك كل وقت ... تحيِّيه ويسمع ما تقولُ
ولا تأكل له الغبراء لحماً ... ولا عظماً ، وأثبت ما أقول
وتاتيه بأرزاق حسان ... وبرٌّ حيث يأمرها الجليلُ
وصومٍ وحجٌّ كلَّ عامٍ ... يجوز عليه إذ لا يستحيلُ
يطهر للصلاة بماء غيبٍ ... ويقضيها كذا ورد الدليلُ
يصلي في الضريح صلاة خمسٍ ... دواماً لا يملُّ ولا يميلُ

كـذا الأعـمـال تعـرض كل حينٍ ... عليـــه إذ يُسَـــرُّ بهـــا الرســولُ
فـإن كـانت صـلاحـاً قـام يدعـوَ ... إلى المولى ويســمع مـا يقــولُ
وإلا غــيــر ذلك فــهــو يدعــو ... إلى المولى وقــد صــفح الجليلُ
وبقـعـتـه التي ضـمَّت عـضـاه ... رياض مـن جنان تســـتطيلُ
كـذا الجـدثُ الذي ضمّ الطوايا ... تشـــــرف حين حل به النـزيلُ
وأفـضل من ســماوات وأرضٍ ... وأمـــلاك وأفـــلاك تجـــولُ
ومن عــرشٍ ومن جنات عــدنٍ ... وفــردوسٍ بهـا خـيـرٌ جـزيلُ
وفي القـبـرِ الشـريف تراه حـيـاً ... إلى كل البِـقـاع له وصــولُ
وكل الأنبـيـاء كـذاك جـمـعـاً ... بـأجـــداث لـهـم ظلٌ ظـليلُ
ولـم تُعلم مــقـــابرهم بأرض ... يقـيناً غـيـر مـا سكن الرسـولُ
ولـــولا أنـــه حـــيٌ طـــريٌّ ... بإدراك كـمــا نقل الفـحــولُ
لما سعت الشـموس إليه سعياً ... تـسـلـم حـين تـطـلـع أو تـزولُ
كـــذاك النوقُ في الوادي ينادي ... لهـا الحـادي وطاب لهـا المقيلُ
تمدُّ رقــابهـــا شـــوقــاً إليـــه ... وأدمـعـهـا كـسـيل إذ يسـيلُ
ويـلقـــاهـم إذا وفـــدوا إليـــه ... وينظرهم إذا ازدحم القـفـولُ
ويســمــعــهم إذا صلوا عليـه ... بأذنيــه فــقــصــِّرْ يا ملولُ
ومن لـم يعـتـــقــد هذا بطَهَ ... وإلا فـــهـــو زنديق جـــهــولُ
عــبـيـدٌ هيـتـميٌّ مـسـتـجـيـرٌ ... بمن حطت بسـاحـتـه الحمـولُ
وإن أبرى البقا جسمي فحسبي ... إلـهٌ واحــــــدٌ نـعْـم الجليلُ
عـلـيك اللـه صلى كل وقت ... من الأيام مــا شــد القــفــول
وآلك والأصـــحـــاب مــا ترانا ... من الأمطار ســيلٌ إذ يســيلُ

«١٣٨» كَمْ جَدَّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ مِنْ جَدِلٍ
فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ الْبُرْهَانُ مِنْ خَصِمِ

كم

هي خبرية منصوبةٌ بالفعل في قوله :-

جدَّلت

من "المجادلة" وهي : المخاصمة إلى أن ينقطع فيها أحد المتجادلين عن الآخر .

أومن "الجدالة" وهي : الأرض ؛ كأنها ألقت المجادل إلى الأرض فلا حراك له .

أي : كثيراً ما قطعت أو غلبت :-

كلماتُ الله

أي : ما وقع به التَّحدِّي منها ، وأقلُّه عند الناظم - تبعاً لأستاذه الاسفرائيني - آيةٌ ، كما صرَّح به في الهمزية حيث قال :

أعجزَ الإنسَ آيةٌ منه والجنِّ فهلاَّ تأتي بها البُلغاءُ(١)

(١) البيت رقم ١٨٦ من الهمزية ، انظر : المنح المكية ٢/ ٧٨٧- تحقيق كاتب السطور عفا الله عنه .

والحقُّ: أنه سورةٌ؛ ولو اقتصر على "الكوثر" ومثلها مقدارها، وهو ثلاث آيات من غيرها، وذلك لأنَّ التحدِّي وقع تارةً بجملة القرآن كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (١).

وتارةً بعشر سور منه، على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢).

وتارةً بسورة منه، على ما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣). ولم يقع بأقلّ ذلك.

من جَدِلٍ

بكسر الدال. صفةٌ مشبّهة، كـ "فَرِح" أي: شديد الجدال أو كثيره حتى صار كأنَّه وصفٌ لازمٌ له.

فيه

أي: في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فبآيات القرآن المعجزة تقوم الحُجَّةُ بثبوت نبوّته صلى الله عليه وآله وسلم، وتنقطع شُبَهُ المجادلين.

---

(١) سورة الإسراء - الآية ٨٨ .

(٢) سورة هود - الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة - الآية ٢٣ .

وكم

أي: كثير.

خَصَم

أي: حجَّ، وغلب.

البرهانُ

أي: الدليل القاطع، وأراد به مطلق المعجزة؛ فذكْرُهُ بعد آيات القرآن من ذكر العام بعد الخاص، وعطفه عليه.

من خَصِمِ

بكسر الصّاد، صفة مشبَّهة أيضاً. أي: شديد الخصومة والجدال فيه – صلى الله عليه وآله وسلم –. وحذف الظرف هنا لدلالة ما قبله عليه.

و"من" في الموضعين: جارَّةٌ لمميز "كم" الخبرية، قالوا: وإذا فصل بين "كم" الخبرية، ومميّزها بفعلٍ متعَدٍّ، وجب جرُّه بـ"من". لئلاّ يلتبس بمفعول ذلك الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[1]. وهو في الكلام الفصيح كثير.

(١) سورة الدخان – الآية ٢٥ .

«١٣٩» كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْيُتُمِ

كفاكَ

أيها السائلُ عن معجزاته - صلى الله عليه وآله وسلم - الدَّالَّة على تحقُّقِ صدقه، وثبوت نبوَّته، وعموم رسالته التي لا تعدُّ ولا تُحصى، ولا تُحَد ولا تستقصى.

بالعِلمِ

فاعل "كفى" زيدت الباء فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[1]. والألف واللام فيه للكمال، أي: العلم الكامل الذي لم يحصل لمخلوقٍ أصلاً.

في

النَّبيِّ: -

الأُمِّيِّ

[سيدنا] محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -. و"الأمي" هو المنسوب إلى الأم باعتبار الحالة التي ولدته عليها من كونه لا يكتب ولا يقرأ المكتوب. وقيل: المنسوب إلى أمَّةِ العرب باعتبار أنها لا تحسب ولا تكتب غالباً، كما قال صلى الله عليه وآله

(١) سورة النساء - الآية ٧٩.

وسلم: «إنّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نحسب ولا نكتب»[1].

وقيل: المنسوب إلى أمّ القرى، وهي مكة. والأول أوفق بالسياق.

معجزةً

منصوبٌ على التمييز، من نسبة الفعل إلى فاعله، والأصل: "كفاك معجزة العلم في الأمي".

---

(١) روى الشيخان وأحمد والنسائي، والشافعي، بسندهم عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسُبُ الشَّهْرُ هكَذَا وَهكَذَا يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلاثِين».
أخرجه البخاري - كتاب الصوم - باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم "لا نكتب ولا نحسب" (٣/ ٣٥). وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب باب وجوب صوم رمضان رقم (١٥). قال الإمام النووي: قال العلماء: "أمية" باقون على ما ولدتنا عليه الأمهات لا نكتب ولا نحسب ومنه: النبي الأمي. وقيل: هو نسبة إلى الأم وصفتها. "شرح صحيح مسلم للإمام النووي الجزء الثالث - صفحة ١٣٧.
وقال الإمام السندي في حاشيته على سنن النسائي: قوله: أُمِّيَّةٌ أي منسوبة إلى الأم باعتبار البقاء على الحالة التي خرجنا عليها من بطون أمهاتنا في عدم معرفة الكتابة والحساب فلذلك ما كلفنا الله تعالى بحساب أهل النجوم ولا بالشهور الشمسية الخفية بل كلفنا بالشهور القمرية الجلية لكنها مختلفة كما بين بالإشارة مرتين كما مر في كثير من الروايات فالعبرة حينئذ للرؤية والله تعالى أعلم.
انظر: حاشية السندي على النسائي، الجزء الرابع، ٢٢ - كتاب الصيام، ١١٦٦: باب ذكر الاختلاف على يحيى بن أبي كثير في خبر أبي سلمة فيه. الحديث رقم: ٢١٣٢.

والمعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة يخلقه الله تعالى على يد مدَّعي النبوّة تصديقاً له في دعواه. ولذا أنزلت منزلة قوله تعالى: "صدق عبدي في كل ما يبلِّغ عني". أي: دلَّ لسان حالها على هذا المعنى.

في الجاهلية

أي: في الأزمنة التي لا علمَ فيها. وخصَّت بالأزمنة الواقعة قبل الإسلام، أي: أزمنة "الفترة" حيث اندرس فيها الشرع السابق، ولم يكن الوحي اللاحق.

والتأديب

بالجرِّ: عطفٌ على "العِلم"، وبالرَّفعِ: عطفٌ على محلِّه، وهو مصدر المبني للمجهول؛ ليصح جعله وصفاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. والألف واللام فيه للكمال أيضاً.

في اليُتُم

بضم التَّاء، لغةٌ تقدَّمت في: "عُقُم"، وقد مرَّ تعريف اليتيم وبيان أقسامه(1).

وترك ذكر "معجزة" ههنا لدلالة ما قبله عليه:

أما بيان معجزة العلم: فلأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - مع كونه أُمّياً لا يُحسن الكتابة التي بها تنضبط العلوم، ونشأ في أزمنة جهل، ولم يعهد له معلِّم يستفيد منه

---

(1) عند شرح قول الناظم رضي الله عنه في البيت ١٢٦:

مكفُولَةَ أبداً منهُم بخيرِ أبٍ ... وخير بعل فلم تيتم ولم تئم

شيئاً من العلوم من جنس الآدميين، قد ظهر عنده من العلوم ما لم يصل إليه نبيٌّ مُرسَل، ولا ملك مقرَّب، من علوم الأولين والآخرين، وغيرها مما يتعلَّق بالدنيا والآخرة، وغير ذلك، وهذا فيما وصل إلى الخلق، وأما ما خُيِّر فيه، أو أُمِرَ بكتمه؛ فأمرٌ لا يحيط به إلا من تفضَّل به عليه..

وكفاك القرآن العظيم الذي لم تزل الأمة من مبعثه - صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الآن، وإلى انقضاء الزمان، يستخرجون من خبايا كنوزه أنواع المنطوق والمفهوم، ويقيسون من شموس أنواره تفاصيل الأسرار والعلوم. وقد أذعن العلماء الراسخون، والحكماء الماهرون، أنَّ ما من علمٍ من العلوم التي ظهرت للخلق إلا والقرآن يوافق عليه، وتشير ألفاظُه إليه، وهذا باعتبار ما ظهر، وإلا فالزَّمان يفنى ولا تفنى عجائبه، وهو الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزله الله تبياناً لكل شيء، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وهذا من وجوه إعجازه الذي تقاصر عنه كلُّ بليغ ساحر، وتضاءل دونه كلُّ حكيم ماهر.

وأما بيان معجزة "التَّأديبِ في اليُتْمِ": فإنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ يتيماً لا أبَ له يعتني بتأديبه- لموت أبيه وهو حملٌ- في حجر جدِّه عبد المطَّلب، ثم في حجر عمِّه أبي طالب، بين أعرابٍ لم يتأدَّبوا بآداب الشرائع، ولم يتخلَّقوا بمحاسن الطَّبائع، في أزمانٍ قد اندرس فيها الأحكام، وتقادم آثار الرسل عليهم السلام. ومن شأن الصبي أن يميل إلى الهوى، ويجنح إلى غيِّ الصِّبا، ومع ذلك ذُكِر فيه صلى الله عليه وآله وسلم من الآداب السَّنيَّة، والخصال المرضيَّة، ما لم يصل إليه أحدٌ من الخَلق، كما

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي»[1].

* * *

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أدبني ربي فأحسن تأديبي». قال العجلوني في الكشف: " قال في الأصل رواه العسكري عن علي رضي الله قال: (قدم بنو نَهْد بن زيد على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتيناك من غَوْرَيْ تهامة، وذكر خطبتهم وما أجابهم به النبي صلى الله عليه وسلم قال: فقلنا يا نبي الله نحن بنو أب واحد ونشأنا في بني سعد بن بكر)، وسنده ضعيف جداً، وإن اقتصر شيخنا يعني الحافظ ابن حجر على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه؛ ولكن معناه صحيح، وجزم به ابن الأثير في خطبة النهاية، وأخرج ابن السمعاني بسند منقطع عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله أدبني فأحسن تأديبي، ثم أمرني بمكارم الأخلاق)، فقال ﴿خذ العفو وأمر بالعرف﴾ الآية. وأخرج ثابت السرقسطي في الدلائل بسند واه أن رجلا من بني سُليم قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أيُدالك الرجلُ امرأتَه؟ قال نعم إذا كان ملفجا. قال فقال له أبو بكر: يا رسول الله، ما قال لكَ ؟ وما قلت له؟ قال: قال لي أيماطل الرجل امرأته ؟ قلت: نعم، إذا كان مفلسا، قال: فقال أبو بكر رضي الله عنه: "ما رأيت أفصح منك، فمن أدبك يا رسول الله؟ قال أدبني ربي ونشأت في بني سعد" . ثم قال: وبالجملة فهو كما قال ابن تيمية: لا يعرف له إسناد ثابت. لكن قال في الدرر صححه أبو الفضل بن ناصر، وقال في اللآلئ معناه صحيح لكن لم يأت من طريق صحيح. -انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني - الحديث رقم: ١٦٤ .

ومن ثَمَّ كان يلقَّب في الجاهلية بـ "الأمين "(١).

---

(١) وقد ورد في ذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم: " ألا تأمنوني وأنا أمينٌ في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً". كما في صحيح مسلم ٢/ ٧٤٢، ومثله في مسند الإمام أحمد ٣/ ٤، وفي الرياض النضرة ١١٦: أن ضيفاً نزل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فبعث أحد أصحابه إلى يهودي فقال: قل له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لك: بعنا أو أسلفنا إلى رجب. فقال اليهودي: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن!!. فرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره، فقال: " أما والله لو باعني أو أسلفني لقضيته، إني لأمين في السماء، أمينٌ في الأرض".

وأجمعت الأمة على إطلاق اسم "الأمين" عليه صلى الله عليه وآله وسلم، مؤمنُهم وكافرهم، فإنهم كانوا يسمون المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: الأمين. وكان مشهوراً بهذا اللقب في قومه، عَلَماً عليه، لا يشاركه فيه أحدٌ غيره، لما رأوا من حاله في حفظه وصدقه، وبره، وتحبُّبه، ووفائه بأمانته، وذمته، وحسن عهده، ومبالغة نصحه، وبذل جهده في طاعة خالقه، وعدم غشه وخيانته، وحبه للخلق ما يحب لنفسه، وزهده، ورفقه بالفقير، ورحمته به، وجلب أنسه، والوقوف عند أمر ربه ونهيه، وحسن خلقه، والوفاء بعقوده، هذه كانت خلقه صلى الله عليه وآله وسلم من صغره إلى كبره، مع قضاء الحاجات، وأداء الأمانات، وبذل الصلات، وإنجاز الموعودات، فكان صلى الله عليه وآله وسلم بحق "أميناً في أهل السماء والأرض، واعترف بذلك محادّوه وعداه، وكل من وفقه الله وهداه. قال ابن إسحاق: " كان صلى الله عليه وآله وسلم يسمى الأمين لما جمع الله تعالى فيه من الأخلاق الصالحة". ولما اختلفت قريش وتحاربت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر، حكَّموا أول داخل، فإذا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد دخل عليهم. وكان ذلك قبل النبوة، فقالوا: " هذا محمد الأمين، قد رضينا به" فحكم عليهم.

الفصل التاسع
في التوسل بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم

«١٤٠» خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ
ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالْخِدَمِ

خَدَمْتُهُ

أي: مدحتُه – صلى الله عليه وآله وسلم – على وجه خدمةِ الأدنى للأعلى.

بِمَدِيحٍ

أي: بشِعرٍ مقيَّدٍ للثناء الكامل حسب ما يمكنني، وصدقت بذكره، وأخلصت الطويّةَ في نشره.

أستَقيلُ

أي: أطلب من الله أن يقيلني به، أي: من أجل ذلك المديح.

ذُنُوبَ عمرٍ

هو مدّة عمارة البدن بالحياة، والأجل به انتهاؤها.

مضَى

أي: ذهب ذلك العمر بلا فائدة، بل بخسارة الذنوب حيث صرف: –

في الشِّعرِ

لأبناء الدنيا بمدحٍ وغيره.

والشعر كلام موزونٌ مُقَفَّى قصداً ولعدم قصد الوزن والتقفية لم يكن - نحو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: " أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطَّلب" - من الشعر في شيء.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾(١).

والخِـدَم

لهم أيضاً. جمع "خدمة" وهو ما يسديه الشخص لغيره على وجه التعظيم، ولا يكون إلا من الأدنى للأعلى.

هذا وقد ذكر الفقهاء أن الاشتغال بالشعر على أقسام: ممدوح، ومذموم، ومباح.

فالممدوح: ما كان باعثاً على الخير، ومرغِّباً في الفضائل، ومرغماً للكفرة والفسقة الأراذل. ولذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يسمع أشعار الصحابة كحسَّان وغيره، وسمع أيضاً قصيدة كعب بن زهير(٢) التي مطلعها:

---

(١) سورة يسن - الآية ٦٩ .

(٢) كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، شاعر عالي الطبقة، كان ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأقام يشبِّب بنساء المسلمين، فهدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم دمَه، فجاء "كعب" مستأمناً، وقد أسلم، وأنشد لاميته المشهورة التي مطلعها: "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول" فعفا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه، وخلع عليه بردته، وهو من أعرق الناس في الشعر، أبوه: زهير بن أبي سلمى، وأخوه: بجير، وابنه: عقبة، وحفيده: العوام. كلُّهم شعراء. وقد كثر مخمِّسو هذه القصيدة المباركة، ومشطِّروها، ومعارضوها، وشُرَّاحُها. انظر: دلائل النبوة للإمام ›

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول　　　متيمٌ إثرها لم يفد مكبولُ *

وأجازه عليها ببردته التي بيعت بعد موته من معاوضة بعشرة آلاف دينار بعد أن طلبها منهم في حياته بعشرة آلاف درهم، وقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو البردة التي قد وليها الملوك إلى زماننا هذا (١)، أو هي الآن عند ملك الروم عثمان خان بن مصطفى خان.

وهذا القسم (٢) ينقسم إلى واجب ومندوب، ومذموم. فما ترتَّب عليه مفسدة دينية أودنيوية كمدح أبناء الدنيا لقصد استجلاب ما في أيديهم من الحطام الفاني، والتقرب إليهم واستمالة قلوبهم، ونفوذ الكلمة عندهم، مع المبالغة في أوصافهم بما يقود إلى الكذب، ويجرّ إلى الباطل، وكالتغزُّل في المُرد والنساء على وجه التعيين، وعليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «احثوا التراب في وجوه المدَّاحين» (٣).

البيهقي -الجزء الخامس -باب ما جاء في قدوم كعب بن زهير على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما رجع إلى المدينة زمن الفتح.

(١) أي: زمانه هو رضي الله عنه ٩٧٣ هجرية، وهي الآن - على ما هو مشهور - لا تزال في تركيا في متحف يضم آثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) أي: المحمود من الشعر.

(٣) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (احثوا في وجوه المداحين التراب). الحديث رواه مسلم في صحيحه - الجزء الرابع - ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق. ١٤ - باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، وخيف منه فتنة على الممدوح. الحديث رقم: ٦٨ - (٣٠٠٢)، و الإمام أحمد في المسند - المجلد السادس. تابع مسند الأنصاريين. من حديث المقداد بن الاسود رضي الله عنه. وأبو داود، وغيرهم: عن المقداد بن الأسود مرفوعاً، وكان هو ›

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلىء شعراً»(١).

يحمله على ظاهره كابن عمر، وحمله الأكثر على عدم إعطائهم، وقال المناوي: أو المراد أعطوهم ما طلبوه فإنَّ كل ما فوق التراب تراب انتهى. ورواه الترمذي: انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري - ٣٥ - كتاب الزهد عن رَسُول الله صلى الله عليه وسلم ١٥٦٠ - باب ما جاء في كَرَاهِيَةِ المُدْحَةِ وَالمَدّاحِين الحديث رقم: ٢٤٣٦، وابن عساكر عن عبادة بن الصامت بلفظ: "احثوا في أفواه المداحين التراب". وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وأبو داود بلفظ: "إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب". ورواه الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر بن الخطاب. وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن عطاء بن أبي رباح أنَّ رجلا كان يمدح رجلا عند ابن عمر، فجعل ابن عمر يحثو التراب نحو وجهه بأصابعه، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم المداحين فاحثوا في أفواههم التراب". انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني - الحديث رقم: ١٣٥.

(١) قوله صلى الله عليه وسلم: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يريه خير من أن يمتلئ شعراً". وفي رواية: «بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً». قال النووي رضي الله عنه في شرحه لصحيح مسلم: "أجمع المسلمون على أن الكلمة الواحدة من هجاء النبي صلى الله عليه وسلم موجبة للكفر، قالوا: بل الصواب أن المراد أن يكون الشعر غالباً عليه مستولياً عليه بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى وهذا مذموم من أي شعر كان. فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه ›

. . . .

فلا يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئاً شعراً والله أعلم. واستدل بعض العلماء بهذا الحديث على كراهة الشعر مطلقاً قليله وكثيره وإن كان لا فحش فيه وتعلق بقوله صلى الله عليه وسلم: "خذوا الشيطان". وقال العلماء كافة: هو مباح ما لم يكن فيه فحش ونحوه، قالوا: وهو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح وهذا هو الصواب، فقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم الشعر واستنشده وأمر به حسان في هجاء المشركين وأنشده أصحابه بحضرته في الأسفار وغيرها، وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفحش ونحوه. وأما تسمية هذا الرجل الذي سمعه ينشد شيطاناً فلعله كان كافراً أو كان الشعر هو الغالب عليه أو كان شعره هذا من المذموم، وبالجملة فتسميته شيطاناً إنما هو في قضية عين تتطرق إليها الاحتمالات المذكورة وغيرها ولا عموم لها فلا يحتج بها والله أعلم. انظر: صحيح البخاري، الجزء الرابع. ٨١ - كتاب الأدب. ٩٢ - باب: ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر، حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن. الحديث رقم: ٥٨٠٢. وفتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني - في: المجلد العاشر. كتَاب الأدَب. باب مَا يُكْرَهُ أنْ يكُونَ الْغَالبَ عَلَى الإنْسَان الشِّعْرُ حَتَّى يَصُدَّهُ عَنْ ذكْر اللَّه وَالْعلْم وَالْقُرآن. وصحيح مسلم بشرح النووي- كتاب الشعر. باب. وصحيح مسلم. الجزء الرابع. ٤١ - كتاب الشعر - الحديث رقم: ٨- (٢٢٥٨). وعون المعبود، شرح سنن أبي داوود، للآبادي: ٣٧ - كتاب الأدب ١٧٩٨ - باب في الرؤيا. الحديث رقم: ,٥٠١٩ وسُنَنُ أبي دَاوُد، الجزء الثاني ٣٥- كتاب الأدب. ٩٥- ت/ ٨٧ م باب ما جاء في الشعر الحديث رقم: ٥٠٠٩.

وهذا ينقسم إلى حرام ومكروه، والمباح ما لا يتعلق به مصلحة أخروية، ولا يترتب عليه مفسدة دينية كمدح المياه والأشجار والأماكن، والأعصار.

فظهر أنَّ الشعر تعتريه الأحكام الخمسة، وهذا الشعر الذي مدح به الناظم النبي صلى الله عليه وآله وسلم شعر قويم، ومدحٌ عظيم، يغسل عنه أوساخ الذنوب، ويزيل عنه أقذار العيوب[1].

* * *

(١) بل هو قبل هذا وذاك عبادة من العبادات التي يؤجر عليها إن شاء الله تعالى، لما في هذه القصيدة من تعظيم لجناب سيد الكونين وإمام الثقلين حبيب رب العالمين وشفيعنا يوم الدين سيدي وحبيبي وقرة عيني محمد صلى الله عليه وآله وسلم، واحذر يا أخي ويا حبيبي من الاصغاء لرسل الشيطان بل أساتذة الشيطان من بني الإنسان الذين لا همَّ لهم إلا انتقاد القصيدة في أبيات أوهمهم سيدهم إبليس بما تشابه عليهم من الفهم السقيم فأخذوا يكيلون القدح والذم بالناظم رضي الله عنه وقصيدته المباركة هذه، بل وصموا كل من يعتقد هذه القصيدة ويحفظها بالكفر والعياذ بالله تعالى دون حياء من الله تعالى ولا خوف من عقابه، فالحذار الحذار من هؤلاء الأباليس، وإخوان الشياطين، من أن تغتر بكلامهم فتحرم الخير والبركة والمدد من صاحب المدد صلى الله عليه وآله وسلم.

«١٤١» إِذْ قَلَّدَانِي مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ
كَأَنَّنِي بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

إذْ

ظرفية تعليليةٌ.

قَلَّداني

أي: الشعر والخَدَم لأبناء الدنيا. من "التقليد" وهو التزام الشيء وجعله في العنق حسّاً أو معنى. و"قلَّد" بالتضعيف، يتعدَّى إلى مفعولين، أوَّلهما ضمير المتكلم، وثانيهما قوله: -

ما تُخشَى

أي: شيئاً تُخاف: -

عواقِبُهُ

من الآثامِ والأوزار. جمع "عاقبة" وهي مآل الشيء ومرجعه. وهي للخير عند الإطلاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف - الآية ١٢٨.

ولا تُستعمل في الشر إلا بقيد يفيد ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون﴾[1].

كأنَّني بهما

أي: من أجل الشعر والخدم المذكورَين: -

هَديٌ

وهو مختص عرفاً بما يهدى إلى البيت الحرام: -

من النَّعَمِ

الإبل والبقر والغنم. والظرف بيانٌ لـ "الهدي". ووجه الشَّبَه: قربُ الهلاك، وحقارة المقلد به. والناظم مقلد بما يترتب على شعره وخدمته لأبناء الدنيا من الكذب والباطل، وتعظيم ما حقَّر الله من الدنيا وأربابها.

ومن ثمَّ قيل لبعض الشعراء: ما أشدّ ما أتى عليك؟.

قال: مدحي من أحتاج إلى هجوه. أي: مدحي من هو أهل للذم.

وإلى هذا يوميء قول المتنبي:

ومن نكدِ الدنيا على الحُرِّ أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بُدُّ

ولهذا ترى الشعراء يمدحون الشخص تارةً، ويذمّونه أخرى، ويمدحون من يستحقُّ الذَّمَّ، ويذمون من يستحق المدح، بحسب ما يعرض لهم من المقاصد الفاسدة، والأغراض الكاسدة.

---

(١) سورة الروم - الآية ١٠ .

«١٤٢» أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا فِي الْحَالَتَيْنِ وَمَا
حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْآثَامِ وَالنَّدَمِ

أطعتُ

مُختاراً، من "الطاعة" ضد المعصية.

غيَّ الصّبا

أي: زمن الصِّبا، والغَيُّ: ضد الرُشد. والصِّبا: الميل إلى الجهل والفتوّة. من "صبا يصبو"، ومنه: الصَّبوة.

في الحَالَتين

أي: في حالَتي الشِّعر والخِدَم لأنهما غالباً ما يكونا في زمن الصبا وعنفوان الشباب.

وما حصَلتُ

بتخفيف الصّاد، أي: وقعت على شيء من الأشياء إلا على الآثام من جهتهما، والندم عليهما، حيث أضعت فيهما نفيس عمري، فوقعت فيما وقعت، ولعلَّ الندم توبة[1] تمحو عني ما حصل فيهما من الآثام، ولو استقبلت من أمر ما استدبرت ما

---

(١)وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «الندم توبة».

صرفت شعري وخدمتي إلا لمديحه صلى الله عليه وآله وسلم، أو نحوه كالعلوم الباقية، ولكن التوفيق بيد الله تعالى، يمنُّ به على من يشاء من عباده. ولعلَّ ما استدركت من باقي عمري يكون جابراً لما فرَّطتُ في ماضيه. على أني لا أرجو أن أنخرط في سلك من قال الله سبحانه وتعالى في شأنهم: ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1].

* * *

رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم عن أبي سعيد الأنصاري مرفوعاً بزيادة: " والتائب من الذنب كمن لا ذنب له "، وسنده ضعيف. ورواه ابن ماجه عن مغفل قال: دخلت مع أبي على ابن مسعود فسمعته يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الندم توبة) فقال له: إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: الندم توبة. قال: نعم. وأخرجه أحمد وابن ماجه وآخرون عن ابن مسعود وفي سنده اختلاف. -انظر: كشف الخفاء - للإمام العجلوني - الحديث رقم: ٢٨٠١ .

(١) سورة الفرقان - الآية ٧٠ .

«١٤٣» فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهَا
لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسُمِ

فيا خَسارةَ نَفسٍ

حقيرةٍ، وعنى بها نفسَه، أو أراد مطلق النفس الموصوفة بما يأتي ؛ فتعمّ نفسَه وغيرَها من النفوس الموصوفة بذلك الوصف.

والنداء في معنى التعجب، أي: ما أخسرها. والخسران ضد الربح، ونداء الخسارة للتلهُّف والتحسُّر، كما في قوله تعالى حكاية: ﴿يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾(١).

في تجارتِها

وهي في الأصل: طلب الربح بالبيع والشراء، ثم اتَّسع فيها فاستعملت في استبدال شيء بآخر كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾(٢).

والظرف متعلّق بـ"خسارة".

---

(١) سورة الزمر – الآية ٥٦.

(٢) سورة البقرة – الآية ١٦.

لم تَشترِ

تلك النفس : -

الدين بالدُّنيا

أي : لم تأخذه بدلها . إذ الباء في حيِّز الشراء تدخل على المتروك ، وفي حيِّز البيع على المأخوذ .

ولم تَسُمِ

من السَّوم الذي هو مقدّمة الشراء ، أو هو أخذ المبيع ليتأمَّل فيه لغرض الشراء . أي : بل أخذتْ الدُّنيا وتركت الدين ، تحقيقاً لنسبة الخسارة إليهما . وجاز الفصل بين الصفة وموصوفها بالظرف لأنه يغتفر في الظرف ما لا يغتفر في غيره ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة البقرة - الآية ٨٩ .

«١٤٤» وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ
يَبِنْ لَهُ الْغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمِ

ومَن

اسم شرط.

يَبِعْ

هو - بالجزم - فعل الشرط.

آجلاً

بالمدِّ - أي: أمراً آتياً، وأراد به الآخرة الباقية.

منهُ

أي: له، والضمير يرجع إلى "مَنْ" أي: آجله: -

بعاجلهِ

وأراد به الدنيا الفانية؛ بأن أخذ العاجل وترك الآجل، لأن الباء في حيز البيع تدخل على المأخوذ.

يَبِنْ

أي: يظهر، وهو بالجزم جواب الشرط.

لهُ الغَبنُ

أي: النقص والخسارة.

في بيعٍ وفي سَلَمِ

صدرا منه. والسَّلَم: نوعٌ من البيع الخداع، وهو بيع موصوفٌ بالذِّمّة بثمن حال مقبوض في مجلس العقد، سواء كان المبيع حالاً، أو مؤجلاً، كما ذهب إليه الشافعي، أو بشرط أن يكون مؤجّلاً كما ذهب إليه أبو حنيفة؛ فعطفه على البيع من عطف الخاص على العام، والتنوين في "بيعٍ" وفي "سَلَمٍ" عوضٌ عن الضمير المضاف أي: بيعه وفي سَلَمِه.

وفي نسخة - وجرى عليها الجلال المحلّي -: "ومن يبع عاجلاً منه بآجله" أي: من يعطِ عاجلاً حاصلاً عنده لمؤجّلٍ قد لا يحصل له يكن أمره كما ذكره. وفي المثل: "بُرَّةٌ عاجلة خير من دُرَّةٍ آجلة".

* * *

«١٤٥» إِنْ آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ
مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ

إنْ

حرف شرط.

آتِ

فعل الشرط مجزومٌ بحذف آخره، أي: أفعل :-

ذَنباً

أي: جرماً بعد ما تقدَّم من توبتي بالنَّدم على الشِّعر والخِدم السابقَين، وغيرهما من المعاصي.

فما

أي: فليسَ، والفاء رابطة للجواب.

عَهدِي

أي: ميثاقي، وأصله - كما قال الزمخشري -: كل أمرٍ شأنه أن يراعى ويحافظ عليه. وأراد به عهد الإيمان والإسلام.

بمُنتَقِضٍ

أي: باطلٍ، من "نقضت الحبل": أبطلته. ومنه: ﴿ينقضون عهد الله﴾. وهو خبر "ما" دلَّ عليه الباء الزائدة؛ فجرَّته لفظاً.

من النبيِّ

[سيدنا] محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم . والظرف متعلِّقٌ بـ" منتقض " لأنَّ نقضَ التوبة بارتكاب الذنب - ولو كبيرة ما خلا الكفر - لا ينقض العهد المذكور ، إذ ارتكاب الكبيرة لا تخرج الشخص من الإيمان خلافاً للمعتزلة ، ولا يدخله في الكفر خلافاً للخوارج .

ولا حَبلي

أي : وصلي بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

بمُنصَرِم

أي : منقَطع ، لكمال محبتي له ، وقوة رجائي فيه ، وإن كان الذنب شأنه قطع المودّة وزوال المحبّة ، لأنَّ من عصاك فقد عاداك ، ولذا وصف الله إبليس وسائر الكفرة بالعداوة له وللمؤمنين ، والأصل : " إن آت ذنباً رجوت عفوه لأن عهدي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس بمنتقض ."وعلى هذا قوله تعالى :﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾(١) . والأصل : وإن يكذِّبوك فلا تحزن لأنه قد كُذِّبت رسلٌ من قبلك . أي : ولك فيهم أسوةٌ . وهو في القرآن كثير .

---

(١) سورة النور الآية ٤ .

«١٤٦» فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي
مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذِّمَمِ

فإنَّ لي

من أجل عهدي وحبلي المذكُورَين: -

ذِمَّةً

أي: حُرمةً. وجمعها: ذِمَم.

منه

أي: من النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والظرف صفة لـ"ذمة".

بتسميَتي

أي: من أجل أن سُمِّيتُ: -

مُحَمَّداً

وافق تسميته صلى الله عليه وآله وسلم. وهو مصدر مضاف إلى مفعوله الأول، و"محمداً": مفعوله الثاني. وارتكاب الذنب لا يقطع التسمية، ولا ينفي ما ترتَّب عليها.

وَ

كيف يكون الأمر كذلك والحال أنه صلى الله عليه وآله وسلم : -

هو أوفى الخَلقِ

أي : جميع المخلوقات : -

بالذِّمَمِ

أي : القيام بحقوقها ؛ فلا بدَّ أن يحامي عنها ، ويشفع في أهلها ، والبيت يشير إلى الأحاديث الواردة في فضائل من تسمَّى باسمه صلى الله عليه وآله وسلم . فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيأمر بهما إلى الجنة ؛ فيقولان : ربنا . . بم استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً يجازينا الجنة؟ . فيقول الله تعالى : ادخلا الجنة فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد»(١) .

---

(١) رواه الحافظ ابن طاهر السلفي من حديث حميد الطويل عن أنس مرفوعاً . وفي الجامع الصغير للإمام السيوطي قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «ما ضر أحدكم لو كان في بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة» . وفيه ندب التسمي به . قال مالك : «ما كان في أهل بيت اسم محمد إلا كثرت بركته» «يوقف عبدان بين يدي اللّه عز وجل فيقول اللّه لهما ادخلا الجنة فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه محمد ولا أحمد» . انظر : فيض القدير ، للمناوي - الحديث رقم : ٧٩٣٢ .

وروى أبو نعيم عن بسيط بن شريط قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله سبحانه وتعالى: "وعزتي وجلالي لا عذبت أحداً يسمى باسمك في النار" [1].

وروى أبو منصور الدّيلمي عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدّس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين[2].

وروى البزار عن أبي رافع بسند ضعيف: «إذا سميتم الولد محمداً فلا تضربوه ولا تحرموه»[3].

وروى الخطيب عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، من طريق ضعيف: " إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه، وأوسعوا له في المجلس، ولا

---

(١) انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني - الحديث رقم: ١٢٤٥.

(٢) قوله: "ما من مائدة وضعت فحضرها من اسمه احمد أو محمد إلا قدس ذلك المنزل مرتين". ذكره الإمام الفتني في تذكرة الموضوعات - كتاب العلم، باب فضل اسمه صلى الله عليه وآله وسلم، واسم الأنبياء عليهم السلام وأنه سبب ذكورية الولد. من نسخة ابن أحمد الموضوعة.

(٣) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إذا سميتم محمداً فلا تضربوه ولا تحرموه". رواه البزار عن شيخه غسان بن عبيد، بسنده عن أبي رافع - وثّقه ابن حبان وغيره - قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وفيه ضعف. انظر: مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي - المجلد الثامن - ٣٣ كتاب الأدب ٤٥ باب ما جاء في اسم النبي صلى الله عليه وسلم وكنيته. الحديث رقم: ١٢٨٤٠.

تقبِّحُوا له وجهاً»[1].

وروي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من ولد له مولود فسمَّاه محمداً حُباً لي، وتبركُّاً به، كان هو ومولوده في الجنة»[2].

---

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه وأوسعوا له في المجلس، ولا تقبحوا له وجهاً» قوله: "فأكرموه: أي وقروه وعظموه". وقوله: "وأوسعوا له في المجلس: عطف خاص على عام للاهتمام، وقوله: لا تقبحوا له وجهاً: أي لا تقولوا له قبح الله وجهك ولا تنسبوه إلى القبح في شيء من أقواله وأفعاله، وكنى بالوجه عن الذات. الحديث رواه في ترجمة محمد العلوي عن سيدنا علي. ورواه عنه أيضاً الحاكم في تاريخه، والديلمي. "فائدة" أخرج ابن عدي عن جابر مرفوعاً: "ما أطعم طعاماً على مائدة ولا جلس عليها وفيها اسمي إلا قدموا كل يوم مرتين". وأخرج الطرائفي وابن الجوزي عن عليّ مرفوعاً: "ما اجتمع قوم قط في مشورة فيهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك لهم فيه". انظر: فيض القدير، شرح الجامع الصغير، للإمامِ المناوي - الجزء الأول الحديث رقم: ٧٠٦.

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (من ولد له مولود فسماه محمداً تبركا به كان هو ومولوده في الجنة). رواه ابن عساكر عن أبي أمامة رفعه. قال السيوطي في مختصر الموضوعات: هذا أمثل حديث ورد في هذا الباب وإسناده حسن. انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني - الحديث رقم٢٦٤٤. وقال الإمام الفتني في تذكرته: رجاله كلهم ثقات معروفون ورمى بعضهم بالقدر وهو غير قادح. "تذكرة الموضوعات، للإمام الفتِّني - كتاب العلم. باب فضل اسمه واسم الأنبياء عليهم السلام وأنه سبب ذكورية الولد".

وورد: "إن لله ملائكةً سياحين عبادتها كل دار فيها من اسمه أحمد ومحمد" [1] أي: حفظها ودخولها - على رواية عبادتها بالباء الموحدة -.

وفي رواية: بالياء المثناة، أي: زيارتها وزيارة أهلها.

وغير ذلك من الأخبار والآثار الواردة في هذا الشأن [2].

ولاسم "محمد" - صلى الله عليه وآله وسلم - خصائص:

منها: كونه على أربعة أحرف ليوافق اسم "الله" تعالى.

ومنها: ما قيل: إن الله تعالى أكرم الآدميَّ بجعل صورته على صورة لفظ "محمد" فالميم الأولى: رأسه، والحاء: جناحاه، والميم الثانية سرّته، والدال: رجلاه".

---

(١) لم أجده فيما لدي من مصادر وإن كان معناه لا يبعد لشرف هذا الاسم الكريم وعظم قدره عند أكرم الأكرمين.

(٢) وقد ألف بعض العلماء رسائل في فضائل هذا الاسم الشريف منها: بشرى الكريم الأمجد، بعدم تعذيب من يسمى: بأحمد ومحمد - للشيخ: عثمان الفتوحي، الحنبلي. أوله: (أحمد الله الذي اطلع في سماء الأزل... الخ). رسالة في الكلام، على قوله سبحانه وتعالى في سورة الصف: ﴿يأتي من بعدي، اسمه: أحمد﴾. ومنها: الدر المنضّد فيما قيل في اسم محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - لابن طولون. ومنها: مناهل الشفا فيما تضمنه من الفوائد اسم المصطفى" للعرضي. وغيرها مما ذكره العلامة عبد الله الحبشي حفظه الله تعالى في معجم الموضوعات ٢/ ١٢٦٤.

قلت: وهذا إنما يظهر في الرسم الأصلي أي: رسم مصحف الإمام علي، وهو الذي عليه عمل أهل الكوفة، ورسم أهل المغرب يقرب من ذلك.

وقال بعضهم: لا يدخل النار من يدخلها إلا ممسوخ الصورة إكراماً لصورة هذا اللفظ.

* * *

«١٤٧» إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي فَضْلاً وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ

إن لم تكُن

يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم :-

في معادي

أي: في زمان عودي إلى الله تعالى للحساب والجزاء، وهو يوم القيامة. والظرف متعلّق بقوله :-

آخِذاً بيدي

أي: مشفعاً لي، وشافعاً فيَّ:-

فضلاً

منك لا وجوباً عليك، أو لأجل فضلك وإحسانك الشامل لجميع الأمة. فهو حالٌ أو مفعول له.

وإلاَّ

أي: وإن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً:-

فقل

لي، وهو خطاب لمن جرَّده من نفسه: -

يا زلَّةَ القدَمِ

أي: رداءة الحال، وسوء المنقلب. وأصل "زلة القدم": أن يزل قدم الإنسان عن طريقه؛ فينزلق أو يعثر. فالشرط الثاني على هذا التقدير توكيد للشرط الأول، والجواب بعدهما جوابٌ عنهما معاً، لأنَّهما بمنزلة شرط واحد، والحالة هذه.

وقيل: الجواب المذكور جوابٌ عن الشرط الأول فقط. والشرط الثاني محذوف، وتقدير الكلام: "وإلا أي: وإن كنتَ آخذاً بيدي في معادي؛ فقل: يا سلامة القدم ونجاتها". وعلى هذا... فجملة الشرط الثاني وجوابه معترضة بين الشرط الأول وجوابه.

* * *

«١٤٨» حَاشَاهُ أَنْ يُحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ
أَوْ يَرْجِعَ الْجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمِ

حاشَاهُ

صلى الله عليه وآله وسلم. تنزيهاً له عن :-

أن يُحرِمْ

أي: يمنع. من «أحرمَ» الرباعي، مبنياً للفاعل، والفاعل ضمير يعود إليه صلى الله عليه وآله وسلم. أو: من «حَرَمَ» الثلاثي مبنياً للمفعول.

الرَّاجي

اسم فاعل من «الرجاء» وهو تأميل الخير، وضده: اليأس. نائب فاعل على التوجيه الثاني. ومفعول به على الأول. وتسكين يائه لغة جرى عليها الناظم لاستقامة الوزن.

مكارمهُ

جمع مكرُمَه» بمعنى الكرامة، وهو بالنصب تنازعه كلٌّ من الفعل واسم الفاعل.

أو يرجع الجارُ منه

صلى الله عليه وآله وسلم، أي: الدَّاخل في جواره، والمحتمي بحماه. ويرجع

يستعمل قاصراً أو متعَدّياً كما هنا، يقال: رجعه رجع، أي: ردّه فارتدَّ. والجملة معطوفةٌ على جملة "يحرم".

غيرَ مُحتَرَمِ

بل يرجع محترَماً بشفاعته فيه، وإنالته كل مطلوبٍ دنيوي وأخروي.

والناظم راجٍ لمكارم الداخل في جواره فلا يحرم مكارمه - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا يرجع غير محترم. و"غيرَ" بالنصب على الحال من الجار.

* * *

«١٤٩» وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ
وَجَدْتُهُ لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

وَمُنذُ

زمان: -

ألزَمتُ أفكاري

جمع "فكر"، وهو: حركة النفس في المعقولات. وأما حركتها في المحسوسات فتُسمّى تخيلاً.

مَدائحَهُ

جمع "مديح"، أي: قصرتها عليها لنيل المآرب، والظفر بالمطالب.

وَجدتُهُ

صلى الله عليه وآله وسلم: -

لخلاصي

من جميع الشدائد؛ أمراضاً كانت أو غيرها (١).

(١) وكيف لا وهو فداه أبي وروحي ونفسي والناس أجمعين - أمان أمّته كلها من الخزي والنكال، والذل والهوان، ومن الخلود في النيران. بل هو - صلى الله عليه وآله ›

. . . .

وسلم - الأمان لجميع المخلوقات بخلاصهم من شدة الحشر والهول يوم القيامة. قال بعض المحبين في سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم: هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سُنَّتُه باقيةً، فهو باق، فإذا أميتت سنته فانتظروا البلاء والمحن. وانظر يا أخي الحبيب كيف أمَّن الله تعالى به أهل مكة من نزول العذاب بهم، فقال تكريماً لهم به، وتأميناً مع أن أكثرهم حينها جاحدون: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الأنفال: "٣٣". فلما هاجر المؤمنون من مكة قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ "الأنفال: ٣٤". وهذا من أبين ما أظهر الله تعالى به مكانته، ومن أقوى ما أبان به عنده منزلته في كونه صلى الله عليه وآله وسلم درأ بسببه العذاب عن أهل مكة بوجوده ثم بوجود أصحابه وأحبابه، الذين نالوا البركة باتِّباعه، فلما خلت مكة منهم عذب الله أهلها بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحكَّم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. وبالجملة: فهو صلى الله عليه وآله وسلم، وفداه روحي - هو أمان العالمين وكنز أسرار العارفين، الذي لم يشاهد أهل العالم قط خيراً في الكون إلا ببركته. ولم يسمع في الوجود دفع ضرٍّ إلا بسببه، والتعلُّق به صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين- . الذي من استظلَّ بظل أمانه، وسكن في بيت محبته ولوائه، واستجار بحصنه الحصين من أزمات الزمان وإبرامه، سكن في ظلٍّ ظليل، مع عيشة راضية، وتحصَّن بدرع العزيز القدر عند الله تعالى في جنة عالية، قطوفها دانية. ولقد صدق ولي الله تعالى العارف بالله سيدي علي بن وفا في قصيدته في مدح الحبيب، الأمان لكل لبيب، والذي هو لكل مريض طبيب، التي دلت على كما مقامه، وقوة استبصاره في عرفانه:

سكن الفؤاد فعش هنيئاً يا جسد   هذا النعيم هو المقيم إلى الأبـــد   ›

. . . .

أصبحت في كنف الحبيب ومن يكن   جار الكريم فعيشه العيش الرغد
عش في أمان الله تحت لـــوائه   لا خوف في هذا الجناب ولا نكد
لا تخشينْ فقراً فعندك بيت من   كل المنى لك من أياديه مـــــددْ

قال بعض العارفين من أهل الله الذين شرحوا القصيدة: يغلب على الظن أن هذه القصيدة لم يسبق إليها في مدح المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لحلاوتها ووجازة لفظها، وانتقاء الأوصاف التي وصف بها النبي الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم التي لم يشاركه فيها مخلوق. وكيف - يا حبيبي يا أخي المسلم المحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - كيف لا يكون من وصل بالمحبة المذكورة، واستظل بالظلال المأثورة، وتعلّق بكنف حبيب رب العالمين، وتعلّق بباب نبي الله أكرم الأكرمين، وجاور الكريم على الله سيد المرسلين، كيف لا يكون عيشه عيشاً رغداً، ولا ينال عند رب المخلوقات رفعةً ويدا، ولا تأتي إليه الفتوحات الربانية رُكَّعاً وسجدا. فمتى تعلق المؤمن بأحب الخلق على الله، وجاور بقلبه كنف رسول الله، وشرب بكأس أهل الوفا، ومنح حب المصطفى، وامتلأت عروقه وأوصاله وحقائقه ورقائقه بما منحه الله وسقاه، ومنَّ عليه به ورواه، فلا تسل - يا حبيبي المحب لذاك الجناب - عما يحصل لك من اللذات الروحانية، والتنعمات الظاهرة والباطنة واللدنّية. مع أنك لا خوف عليك ولا حزن لديك، لأنك في جنة الفردوس التي خلقت من أجله، وفي رياضات المعارف المسدل عليها ستر حسنه. فمن تعلق بجناب عزيز القدر عند الله، وانقطع إلى محبة صفوة الله، واستظل بأمان الله على خلقه، ودخل تحت لواء رسوله وعبده عاش عيشاً هنياً، وصار في حياته وبعد وفاته راضياً مرضيا، فلا خوف عليه في حياته، ولا حزن لديه من الأنكاد بعد مماته، لأنه قد وصل بمحبته إلى الأمان الأعظم، واتصل بخدمته إلى النبي المحترم. فلله الحمد على ما هيّأ لنا من بركة خاصة

لإنجاز ما أمَّلتُه فيه .

حضرة أهل الوداد، ويسر لنا محبة حبيبه وصفيه، وأصحابه الطاهرين الأمجاد. وبالمقابل فإن كل جناب يتعلق به من المخلوقات غير جناب سيد البريات - سيدي وقرة عيني وسيد الكائنات -، كل من تعلق بغيره لا بدَّ تعتريه الهموم والأنكاد، ويغلبه الغموم والأضداد.
هذا. وقد خمَّس بعض الصالحين تلك الأبيات من قصيدة سيدي البوصيري؛ فقال لا فُضَّ فوه:

هو الذي يبلغ المأمولَ راجيه ... ويدركُ الفوزَ من أضحى يدانيه
وهو المؤمِّنُ من خاف جانيه ... حاشاه أن يحرم الراجي أمانيه
أو يرجع الجار منه غير محترم
فمدحهُ ذُدْتُ عن قلبي جوائحَهُ ... ورُحت فائز بيعٍ فيه رابحَهُ
فلست أنفكُّ غاديه ورائحَهُ ... ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه
وجدته لخلاصي خير ملتزم

فاللهم يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين اشهد أننا نحب هذا الرسول الكريم وإن لم نكن صادقين في محبتنا مقصرين في اتباعنا لنبينا، جامعين للسيئات، مقلّين من الحسنات، غافلين عن حساب يوم الميقات؛ فقد دخلنا تحت لوائه الكريم، وتشفّعنا إليك يا ربنا بصاحب الخلق العظيم، واستنصرنا بجنابه عند حلول الخطب الجسيم... ولن يضيق رسول الله جاهك بي، إذا الكريم تجلى باسم منتقم، فصلاةً وسلاماً عليك يا سيدي يا سيد الكونين ،ويا قرة كل عين، عليك وعلى آلك المطهرين، وصحبك الأكرمين، وكل من تبعك بإحسان إلى يوم الدين صلاةً تشفع لي بها يا سيدي يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، آمين آمين آمين، لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا.

و "منذ" و "مُذ" مبنيان، أولهما: على الضم، وثانيهما: على السكون. ويكونان حرفي جر؛ فيجرّان ما بعدهم، ولا يكونان إلا زماناً أنت فيه، نحو: ما رأيته منذ الليلة. ويكونان اسمين؛ فيرفعان ما بعدهما، نحو: ما رأيته منذ يوم الجمعة، أي: أول انقطاع الرؤية يوم الجمعة. وقال سيبويه: "منذ" للزمان، نظيره من للمكان، يعني: كما أن "من" لابتداء الغاية في الأمكنة، كذلك "منذ" لابتدائها في الأزمنة.

وأشار الناظم - رضي الله عنه - بهذا إلى ما أصابه من داء الفالج الذي أبطل نصفه، وعمل هذه القصيدة من جرائه، يتوسّل بها إلى النبيِّ - صلى الله عليه وآله وسلم - في إزالته عنه، ثم رأى النبيَّ - صلى الله عليه وآله وسلم - في النوم يمسح بيده الشريفة عليه؛ فعوفي لوقته من مرضه؛ فلما استيقظ، وأصبح يمشي في أزقّة بلبيس، مرَّ به بعض الصالحين وقال له: أسمعني القصيدة التي امتدحت بها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - التي مطلعها:

أمن تذكر جيرانٍ بذي سلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدمِ

فقال له الناظم - رضي الله عنه، ولم يكن قد أطلع أحداً عليها -: من أخبرك بها؟.

فقال: سمعتها تُنشَد بين يديه - صلى الله عليه وآله وسلم -وهو يتمايل كالقضيب.

«١٥٠» وَلَنْ يَفُوتَ الْغِنَىٰ مِنْهُ يَداً تَرِبَتْ
إِنَّ الْحَيَا يُنْبِتُ الأَزْهَارَ فِي الأُكَمِ

ولَن يفوتَ

أي: يتعدَّى.

الغنى

بكسر الغَين، مقصوراً: ضد الفقر.

منه

صلى الله عليه وآله وسلم. والظرف متعلِّقٌ بـ"يفوت".

يداً

أي: شخصاً، وعبَّر بها عنه مجازاً، لأنها مظهر الغنى والفقر.

تَرِبَت

أي: افتقرت. والجملة: صفة "يداً". وافتقارها: إما عن الأموال في الدنيا، أو عن الثواب في الأخرى لاقتراف المعاصي، واجتراح السيئات.

وأصل "تربت": التصقت بالتراب، فكنّى به عما ذكر، وإنما كان الأمر كذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم واسطة كل خير دنيوي وأخروي بين العباد وربهم؛ فما

يصل إليهم من ذلك فهو واصل على يديه صلى الله عليه وآله وسلم، وبواسطته. ثم ضرب لذلك مثلاً في قوله:

إنَّ الحَيا

بفتح الحاء، أي: المطر الغزير، الشامل.

يُنبتُ الأَزهارَ

أي: يتسبَّب في إنبات الله تعالى إياها. وأراد بـ"الأزهار" النباتات الطيبة، والأعشاب النفيسة، سواء لها أزهار أم لا. وخصَّ الأزهار بالذكر لأنها أفخر.

في الأَكَمِ

أي: الأماكن المرتفعة؛ لعموم المطر إياها، فكما لم يفتها ذلك النبات لم يفت الغنى من النبي صلى الله عليه وآله وسلم - لعلوِّ منزلته، وشرف قدره، وعموم بركته يداً يظنّ أن لا تستغني أيد لكمال فاقتها وشدة فقرها.

و"الأكم" في كلامه: يحتمل أن يكون بضمِّ أوَّله، ويحتمل أن يكون بفتحهما؛ والأول هو الأبلغ واللائق بكمال المعنى، وذلك كما ذكره الجوهري، لأنَّ "أَكَماً" بفتح أوَّليه: جمع "أَكَمَه" كـ"سَلَم، وسَلَمَه". ويجمع: أُكُم على "إكام، كـ"جبل وجبال". ويجمع "إكام على أُكُم كـ"كتاب وكُتُب". ويجمع على "آكام، كعُنُق وأعناق".

«١٥١» وَلَمْ أُرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي اقْتَطَفَتْ
يَدَا زُهَيْرٍ بِمَا أَثْنَى عَلَى هَرِمِ

ولم أُرِد

بامتداحي له صلى الله عليه وآله وسلم.

زهرةَ الدُّنيا

ونضارتَها؛ من مالٍ وجاه، وغيرهما.

التي اقتَطَفَتْ

من "الاقتطاف" وهو: أخذُ ما يُستَحَبُّ ويُختار، كاقتطاف الفاكهة من الأشجار.

يَدَا زُهَيرٍ

هو: ابن أبي سلمة، ربيعة بن رياح المزني الجاهلي. كان من فحول الشعراء، وصناديد البلغاء، وهو أبو كعب وبُجَير الصَّحابيَّين المشهورَين - رضي الله عنهما -. وابنه كعب هو الذي امتدح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بالقصيدة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيَّمٌ إثرها لم يفد مكبولُ

وقد ذكرنا سبب إسلامه وإسلام أخيه بُجَير في شرحنا على تلك القصيدة. فالشعر فيهم وراثة(١).

---

(١) فالأب زهير بن أبي سلمى، والأخ بجير، وابنه عقبة، وحفيده العوام، كلهم شعراء مجيدون. أما قصة إسلام كعب رضي الله عنه فأوردها البيهقي في دلائل النبوة فقال: خرج كعب وبجير ابنا زهير حتى أتيا أبرق العزاف فقال بجير لكعب اثبت في هذا المكان حتى آتي هذا الرجل يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسمع ما يقول. فثبت كعبٌ وخرج بجير فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الإسلام فأسلم؛ فبلغ ذلك كعباً فقال:

ألا أبلغا عني بجيراً رسـالة | على أي شيء ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا | عليه ولم تدرك عليه أخا لـكا
سقاك أبو بكر بكأس رويـة | وأنهلك المأمون منها وعلَّكا

فلما بلغت الأبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمه، وقال: من لقي كعباً فليقتله. فكتب بذلك بجير إلى أخيه وذكر له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه، ويقول له النجاء، وما أراك تنفلت. ثم كتب إليه بعد ذلك إعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأتيه أحد يشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله إلا قبل ذلك منه وأسقط ما كان قبل ذلك؛ فاذا جاءك كتابي هذا فأسلم وأقبل. قال: فأسلم كعبٌ، وقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل حتى أناخ راحلته بباب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كالمائدة بين القوم متحلقون معه حلقة خلف حلقة، يلتفت إلى هؤلاء مرة فيحدثهم، وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم. قال كعب: فأنخت راحلتي بباب المسجد؛ فعرفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفة حتى جلست إليه فاسلمت وقلت أشهد › أن لا اله الا الله وأنك محمد رسول الله الأمانَ يا رسولَ الله. قال: ومن أنت؟ قال: كعب

بن زهير. قال: الذي يقول...، ثم التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كيف قال يا أبا بكر؟ فانشده أبو بكر

سقاك بها المأمون كأسا روية   وأنهلك المأمون منها وعلكا

قال: يا رسول الله ما قلت هكذا. قال: فكيف قلت؟. قال: قلت: سقاك بها المأمون كاسا روية وأنهلك المأمون منها وعلكا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مأمون والله". ثم أنشده قصيدة

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم عندها لم يغد مكبول

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب "الاستيعاب" أنَّ كعباً لما انتهى إلى قوله:

(إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول)

(نبئت أن رسول الله أوعدني   والعفو عند رسول الله مأمول)

قال: فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من معه أن اسمعوا. وقد ذكر ذلك قبله موسى بن عقبة في مغازيه ولله الحمد والمنة. قال ابن كثير: ورد في بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه بردته حين أنشده القصيدة، وقد نظم ذلك الصرصري في بعض مدائحه وهكذا ذكر ذلك الحافظ أبو الحسن ابن الأثير في الغابة قال وهي البردة التي عند الخلفاء. وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له لما قال: (بانت سعاد): ومن سعاد؟ قال زوجتي يا رسول الله. قال: لم تبن ولكن لم يصح ذلك، وكأنه على ذلك توهم أن بإسلامه تبين امرأته والظاهر أنه إنما أراد البينونة الحسية لا الحكمية والله تعالى أعلم. انظر: دلائل النبوة للإمام البيهقي ٥/ ٢٠٧، وسيرة ابن هشام ٤/ ١١٦-١١٧.

بما أثنى

من "الثناء" وهو الذكر بالخير.

على هَرِمٍ

بفتح الهاء وكسر الراء: ابن سنان بن حارثة المزني: أحدُ أجواد العرب، وكان يصل زهيراً بالصِّلات الجزيلة، ويجيزه على مدحه بالجوائز الجميلة، ولذا أضاف الناظم - رضي الله عنه - اقتطافها إلى كلتا يديه، لأنَّ اليد الواحدة لا تقلها لعظمها. فمن ثنائه عليه:

من يلقَ يوماً على علاَّته هَرِماً يلقَ السَّماحةَ منه والندا خُلُقا

لو نالَ حيٌّ من الدنيا بمنزلةٍ أُفقَ السَّما، لنالت كفُّهُ الأُفُقا(١)

ومنه أيضاً:

إنَّ البخيل ملومٌ حيث كان ولـ ـكنَّ الجوادَ على علاَّتِه هَرِمُ

هو الجوادُ الذي يعطيك نائلَهُ عفواً، ويُظلَمُ أحياناً، فيظَّلِمُ(٢)

وكان هَرِم قد حلف أن لا يمدحه زهيرٌ إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه، ولا يسلِّم عليه إلا أعطاه؛ عبداً أو وليدة، أو فرساً؛ فاستحى زهيرٌ من كثرة ما كان يقبل منه.

---

(١) انظر: ديوان زهير للأعلم الشنتمري - صفحة ,٧٧ بتحقق د. فخر الدين قباوة.

(٢) المرجع السابق - صفحة ١٠٤ .

وقال عمر رضي الله عنه لبعض ولد هرم: أنشدني بعض مدح زهير أباكَ. فأنشده. فقال عمر: إنه كان يُحسن فيكم المدح. فقال: ونحن - والله - لنُحسن له العطية. فقال: لقد ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم. وقد ورد أيضاً: أن عائشة رضي الله عنها - خاطبت بذلك بعض بناتِ زهير، ولا منافاة.

والبيت احتراسٌ عما يفهم من البيت قبله؛ فكأنه يقول: اعلم أني لم أُرِدْ بمدحي له - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا ثوابَ الآخرة، والتخلُّص من أهوال يوم القيامة بشفاعته، ومما يُقعِدُني عن العبادات من الأمراض في الدنيا ببركة دعوته، ولم أُرِد ما أراد زهيرٌ في ثنائه على هَرِم من الدنيا وزهرتها، والأموال وبهجتها.

ثم أخذ الناظم - رضي الله عنه - يستشفع بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في كروب الآخرة، وأهول يوم القيامة، فقال:

* * *

الفصل العاشر
في المناجاة وعرض الحاجات

«١٥٢» يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ
سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِمِ

يا أكرم الخلق

إنساً وجِنّاً، ومَلَكاً؛ عطاءً وطبعاً، وقدراً. وفي نسخة: "الرّسل". والأولى أولى لعمومها.

ما لي مَن ألوذُ به

أي: ليس لي أحدٌ من الخلائق ألتجىء إليه :-

سواكَ

أي: غيرك(١).

---

(١) ومن لنا سواك يا رسول الله عند نزول الحادث العمم والخطب الجلل وهو يوم القيامة يوم يفزع فيه كل مخلوق ولايجد من يغيثه حتى الرسل والأنبياء كلهم يقول نفسي نفسي اذهبوا إلى سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في حديث الشفاعة الصحيح. فأي شرك أو ضلال في هذا الكلام الذي يتهم به المخبولون الإمام البوصيري به، عند قراءتهم هذا البيت فيؤزهم إبليس أزآ، ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها ويلبّسون على العامة أن في البيت شركًا وحاش الإمام من هذا، فماذا تقولون يا أيها الـ. . . . في حديث الشفاعة أليس ذاك اليوم يوم حلول الحادث العمم، ومن سيشفع لنا سوى الحبيب الأعظم والرسول ›

عند حُلُولِ

أي : نزولِ ، كما هو كذلك ببعض النسخ .

الحَادث

أي : الأمر الحاصل بعد أن لم يكن بغتةً . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً﴾(١) .

العَمِم

بفتح العَين، وكسر الميم. أي : الشامل لجميع الخلق، وهو هول يوم القيامة؛ حين : يفرُّ المرء من أخيه، وأمِّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعاً، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. يوم يقول كل امرىء : نفسي نفسي. وتقول أنت يا

الأكرم، اللهم إلا إذا كنتم ممن استغنى عن تلك الشفاعة فذاك لكم وأما نحن فلا والله ليس لنا إلا شفاعة حبيبنا الأعظم ورسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم، رغم أنف الشيطان ورسله.

فانتبه يا أخي الحبيب ولا تسيئ الفهم مع أن أساء فتحرم الخير والبركة والمدد بسبب الوقيعة في أعراض أهل الله ومحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لاحرمنا الله بركتهم في الدارين آمين.

(١) في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأعراف - الآية ١٨٧ .

أكرم الخلق: أمتي أمتي. وأقول بلسان حالي منشداً:

ما لي سوى فقري لبابك حيلة	فلئن رُدِدت فأي باب أقرع[(١)]

---

(١) بيت من قصيدة للعلامة الأديب أبي زيد عبد الرحمن بن الخطيب الخثعمي السهيلي المتوفى سنة ٥٨١هجرية، و"السهيلي" نسبة إلى قرية بالقرب من مالقة اسمها "سهيل" لأنه لا يرى سهيل النجم في شئ من تلك البلاد إلا منها من رأس جبل شاهق عندها هي من قرى المغرب ولد سنة ثمان وخمسمائة وقرأ القراءات واشتغل وحصل حتى برع. ساد رحمه الله أهل زمانه بقوة القريحة، وجودة الذهن، وحسن التصنيف، وذلك من فضل الله تعالى ورحمته، وكان ضريراً مع ذلك من أشهر ما ألف: "الروض الأنف" في السيرة النبوية، وكان عفيفاً فقيراً، وقد حصل له مال كثير في آخر عمره من صاحب مراكش. وقصيدته هذه مما كان يدعو الله بها ويرتجى الإجابة فيها نذكرها التماساً للبركة وزيادة في الفائدة - وهي قوله-:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع	أنت المُعَدُّ لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها	يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن	امنن فإن الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة	فبالافتقار إليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة	فلئن رددت فأي باب أقرع
من الذي ارجو واهتف بإسمه	إن كان فضلك عن فقير يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصياً	الفضل أجزل والمواهب أوسع

انظر: البداية والنهاية، للإمام ابن كثير - الجزء الثاني عشر. ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. السهيلي أبو القاسم.

«١٥٣» وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللهِ جاهُكَ بِي
إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ

ولن يضيق

من "الضيق" ضد السّعة.

رسولَ الله

منادى حذف منه حرف النداء تخفيفاً. نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾(١)

جاهُكَ بي

أي: منزلتك، ورتبتك، وعلوُّ قدرك عند الله تعالى، كيف وأنت أكرم الخلق على ربه، وباب الله الذي لا يصل من يصل إليه إلا منه.

إذا الكريمُ

أي: الله تعالى، وهو مرفوعٌ بفعل محذوف يفسِّره ما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾(٢). لأنَّ "إذا" من دواخل الأفعال.

---

(١) سورة يوسف – الآية ٢٩ .

(٢) أول سورة الانشقاق.

وفي نسخة : "إذ" ، على أنه ظرفٌ بمعنى : حين .

تحلّى

بالحاء المهملة ، أي : اتَّصف . وفي نسخة : " بالجيم " أي : ظهر في صفات الجلال والقهر .

باسم منتقم

من العصاة . والإضافة بيانية لأنَّ الاسم عند أهل الحق عين المسمى ، كما في : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[1] .

فإن قلت : ما بين النسختين تنافر ، لأنَّ إذا : ظرف لما يستقبل من الزمان مضمّنٌ معنى الشرط . وإذ : ظرفٌ لما مضى منه . مع أن المظروف واحد ؛ فيلزم مضيه واستقباله باعتبار تنزيله منزلة الماضي لتحقُّق وقوعه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[2] . وهو في القرآن كثير . وعبَّر الناظم – رضي الله عنه – أولاً باسم : "الكريم" ، وثانياً باسم : "المنتقم" ؛ إشارة إلى أنَّ الباري

---

(١) سورة الأعلى آية : ١ .

(٢) سورة السجدة – الآية ١٢ .

سبحانه وتعالى يتجلَّى للطائعين يوم القيامة باسم "الكريم" ، ويتجلَّى للعصاة باسم "المنتقم" .

ففي الصحيح من حديث الشفاعة : «إنَّ ربك غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولم يغضب بعده مثله»[1].

* * *

(١) في الحديث المتفق عليه عند الشيخين بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ في دَعْوَة فَرُفِعَ إِلَيْه الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ منْهَا نَهْسَةً وَقَالَ: أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقيَامَة هَلْ تَدْرُونَ بِمَ ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخرِينَ في صَعيد وَاحد فَيُبْصِرُهُمْ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَتَدْنُو منْهُمْ الشَّمْسُ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ أَلا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فيه إِلَى مَا بَلَغَكُمْ أَلا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ؛ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَده وَنَفَخَ فيكَ منْ رُوحه وَأَمَرَ الْمَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ أَلا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فيه وَمَا بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مثْلَهُ وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنْ الشَّجَرَة فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذهبوا إِلَى نُوحٍ؛ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فيه أَلا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا أَلا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مثْلَهُ وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مثْلَهُ نَفْسِي نَفْسِي ائْتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَهْ».

«١٥٤» فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا
وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

فإنَّ

تأكيدٌ وتعليل لما قبله.

من جُودِكَ

أي: بعضه.

الدُّنيا وضرَّتَها

أي: الآخرة، أي: خيرهما؛ فمن خير الدنيا: هدايته - صلى الله عليه وآله وسلم - للنَّاس. ومن خير الآخرة: شفاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - فيهم مما يقع فيها من الأهوال وغيرها. والضَّرَّة: المرأة، من "الضُّر" سمي بها مبالغة لأنَّ كل واحدة منهما تضرُّ بالأخرى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا والآخرة ضرتان إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى»(١).

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا والآخرة ضرتان، فإذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى»، ذكره في الإحياء من كلام عيسى عليه الصلاة والسلام. وفي معناه أيضاً: ما عند أحمد، ومسلم، وابن حبان، والحاكم، وصححاه، عن ابن موسى: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

ومِن عُلُومكَ

أي: بعض معارفك التي منحك الله بها: -

علم اللَّوح

المحفوظ، عن أن يتطرَّقَ إلى ما فيه تبديل وتغيير، بناء على أنه المراد من "أمّ الكتاب" في قوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[1].

وهو جسمٌ نورانيٌ مكتوبٌ فيه ما كان وما يكون. على أنه المراد من "الكتاب" في قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[2].

وفي بعض الآثار: أنه درَّةٌ بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدرُّ والياقوت، ينظر الله عز وجلّ فيه كل يوم مائة وستين

وروى أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححاه، والبيهقي، وابن مردويه، عن أبي بن كعب، بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصرة والتمكن في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب، ولعبد الله بن أحمد في الزهد عن عمران بن سليمان بلغني أن عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام قال: "يا بني إسرائيل تهاونوا بالدنيا تهن عليكم الدنيا، وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة، ولا تكرموا الدنيا فتهون الآخرة عليكم، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة، وكل يوم تدعون إلى الفتنة والخسارة".

انظر: كشف الخفاء، للإمام العجلوني - الحديث رقم: ١٣١٠.

(١) سورة الرعد - الآية ٣٩.

(٢) سورة الأنعام - الآية ٣٨.

نظرة، يخلق ويرزق، ويعز ويُذل، ويُفني ويُبقي، ويُحيي ويُميت، ويفعل ما يشاء؛ فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(١).

والقَلَم

الكاتب في اللوح المحفوظ، ما كان وما يكون، أي: العلم الحاصل من كتابة القلم في اللوح.

والقلم: جسمٌ نوراني خلقه الله تعالى، وأمره بكتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

وفي رواية: أول شيء كتبه القلم في اللوح المحفوظ: "أنا التواب أتوب على من تاب"(٢).

---

(١) سورة الرحمن - الآية ٢٩.

(٢) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أول ما خلق الله القلم». الحديث: رواه أحمد، والترمذي وصححه، عن عبادة بن الصامت مرفوعاً بزيادة: "فقال له: أكتب، قال: ربِّ وما أكتب؟. قال: أكتب مقادير كل شيء". قال العلامة ابن حجر في "الفتاوى الحديثية": قد ورد أي هذا الحديث بل صح من طرق، وفي رواية: «إن الله خلق العرش فاستوى عليه، ثم خلق القلم فأمره أن يجري بإذنه، فقال: يا ربِّ بم أجري؟ قال: بما أنا خالقٌ وكائنٌ في خلقي من قطرٍ أو نباتٍ أو نفسٍ أو أثرٍ، أو رزقٍ، أو أجلٍ. فجرى القلم بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة». ورجاله ثقاتٌ إلا الضحاك بن مزاحم فوثّقه ابن حبان، وقال: لم يسمع من ابن عباس، وضعّفه جماعة.

. . . .

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه: "إنَّ أول شيء خلقه الله القلم، فأمره أن يكتب كل شيء" ورجاله ثقات.

وفي رواية لابن عساكر مرفوعة: "إن أولَ شيء خلقه الله القلم، ثم خلق النون، وهي الدواة، ثم قال له: اكتب ما يكون أو ما هو كائن) - الحديث.

وروى ابن جرير أنه صلى الله عليه وسلم قال ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ قال: لوح من نور، وقلم من نور، يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة انتهى.

وروى الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن أول شيء خلق الله القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال له: أكتب، قال: وما أكتب، قال اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة". وذلك قوله تعالى ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾. ثم ختم على فم القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة، ثم خلق الله العقل، فقال: وعزتي وجلالي لأُكمِلَنَّكَ فيمَن أحببتُ، ولأنْقُصَنَّكَ فيمن أبغضت.

وقال اللقاني في شرح جوهرته: القلم جسم نوراني خلقه الله، وأمره بكَتْب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وتمسك عن الجزم بتعيين حقيقته، وفي بعض الآثار: «أول شيء خلقه الله القلم، وأمره أن يكتب كل شيء، وفي بعضها إن الله خلق اليراع، وهو القصب ثم خلق منه القلم، وفي رواية أول شيء كتبه القلم أنا التواب أتوب على من تاب». انتهى. انظر: كشف الخفاء للعجلوني - الحديث رقم: ٨٢٤.

ووجه كون " علم اللوح والقلم " من بعض علومه - صلى الله عليه وآله وسلم - أنَّ الله تعالى أطلعه ليلة الإسراء على جميع ما في اللَّوح المحفوظ، وزاده علوماً أخر، كالأسرار المتعلقة بذاته سبحانه وتعالى وصفاته[1].

---

(١) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً). رواه أحمد، والطبراني.
وزاد: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم».
ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة، وفي إسناد أحمد من لم يسم. انظر: مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي - المجلد الثامن، ,٣٦ كتاب علامات النبوة. ,٢٣ باب فيما أوتي من العلم صلى الله عليه وسلم. الحديث رقم: ١٣٩٧١.
وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يتقلب في السماء طائر إلا ذكرنا منه علما). انظر: مسند الإمام أحمد- المجلد الخامس - مسند الأنصار رضي الله عنهم. حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.
وأخرج ابن جرير الطبري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: " انتطحت شاتان عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لي: يا أبا ذر أتدري فيما انتطحتا؟ قلت: لا. قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما. قال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علما".
وروى الترمذي بسنده عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَوْماً صَلاَةَ العَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمّ قَامَ خَطِيباً فَلَمْ يَدْعَ شَيْئاً يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السّاعَةِ ›

إلاَّ أخبرَنَا به حَفظَهُ مَنْ حَفظَهُ وَنَسيَهُ مَنْ نَسيَهُ، وكَانَ فيمَا قَالَ: "إن الدّنْيَا خَضرَةٌ حُلْوَةٌ وَإنّ اللهَ مُسْتَخْلفُكُمْ فيهَا فَنَاظرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، أَلاَ فَاتَّقُوا الدّنْيَا وَاتَّقُوا النّسَاءَ، وكَانَ فيمَا قَالَ: أَلاَ لاَ تَمْنَعنّ رَجُلاً هيبَةُ النّاسِ أَنْ يَقُولَ بحَق إذَا عَلمَهُ. قَالَ فَبَكَى أَبُو سَعيد فَقَالَ: قَدْ وَالله رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهبْنَا وكَانَ فيمَا قَالَ: أَلا إنّهُ يُنْصَبُ لكُلّ غَادرٍ لوَاءٌ يَوْمَ القيَامَة بقَدْر غَدْرَته وَلاَ غَدْرَةَ أَعْظَمَ منْ غَدْرَة إمَامِ عَامةٍ يُرْكَزُ لوَاؤُهُ عنْدَ إسْته. وكَانَ فيمَا حَفظْنَا يَوْمَئذ: أَلاَ إنّ بَني آدَمَ خُلقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتّى، فَمنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤمناً وَيَحْيَى مُؤْمناً وَيَمُوتُ مُؤْمناً، وَمنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافراً وَيَحْيَى كَافراً وَيَمُوتُ كَافراً، وَمنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمناً وَيَحْيَى مُؤْمناً وَيَمُوتُ كَافراً، وَمنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافراً وَيَحْيَى كَافراً وَيَمُوتُ مُؤْمناً، أَلا وَإنّ منْهُمُ البَطيءَ الغَضَب سَريعَ الفَيْء، وَمنْهُمْ سَريعَ الغَضَب سَريعُ الفَيْء، فتلْكَ بتلْكَ، أَلاَ وَإنّ منهُمْ سَريعَ الغَضَب بَطيءَ الفَيْء، أَلاَ وَخَيْرُهُمْ بَطيءُ الغَضَب سَريعُ الفَيْء، أَلا وَشَرّهُمْ سَريعُ الغَضَب بَطيءُ الفَيْء، أَلاَ وَإنّ منْهُمْ حَسَنَ القَضَاء حَسَنَ الطّلَب، وَمنْهُمْ سَيّءُ القَضَاء حَسَنُ الطّلَب، وَمنْهُمْ حَسَنُ القَضَاء سَيّءُ الطّلَب، فَتلْكَ بتلْكَ أَلاَ وَإنّ منْهُمْ السيء القَضَاء السّيّء الطّلَب، أَلاَ وَخَيْرُهُمْ الحَسَنُ القَضَاء الحَسَنُ الطّلَب، أَلاَ وَشَرّهُمْ سَيّءُ القَضَاء سَيّءُ الطّلَب، أَلاَ وَإنّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ في قَلْب ابن آدَمَ أَمَا رَأَيتُمْ إلَى حُمْرَة عَيْنَيْه وَانْتفَاخ أَوْدَاجه، فَمَنْ أَحَسّ بشَيْءٍ منْ ذَلكَ فَلْيَلْصَقْ بالأرْض، قَالَ: وَجَعَلْنَا نَلْتَفتُ إلَى الشّمْس هَلْ بَقيَ منْهَا شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَلاَ إنّهُ لَمْ يَبْقَ منَ الدّنْيَا فيمَا مَضَى منْهَا إلاّ كَمَا بَقيَ منْ يَوْمكُمْ هَذَا فيمَا مَضَى منْهُ". قال أبو عيسى: وفي الباب عن حُذَيْفَةَ وَأَبي مَرْيَمَ وَأَبي زَيْد بن أَخْطَبَ والمُغيرَة بن شُعْبَةَ وذَكَرُوا: "أَنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم حَدّثَهُمْ بمَا هُوَ كَائنٌ إلَى أَنْ تَقُومَ السّاعَةُ". وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون. اللهم إني أسألك حبك، وحب من أحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك. قال النبي صلى الله عليه وسلم: تعلموهن وادرسوهن فأنهن حق" . وأخرج الطبراني في السنة وابن مردويه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تجلى لي في أحسن صورة فسألني فيم يختصم الملائكة؟ قلت: يا رب ما لي به علم. فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، فما سألني عن شيء إلا علمته قلت: في الدرجات، والكفارات، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام».

وأخرج الطبراني في السنة والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال: أصبحنا يوما فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرنا فقال: " أتاني ربي البارحة في منامي في أحسن صورة، فوضع يده بين ثدي وبين كتفي، فوجدت بردها بين ثديي، فعلمني كُلّ شيء قال: يا محمد قلت: لبيك رب وسعديك قال: هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم يا رب في الكفارات، والدرجات، قال: فما الكفارات؟ قلت: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة والناس نيام. قال: فما الدرجات؟ قلت: إسباغ الوضوء في المكروهات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة" .

وأخرج ابن نصر والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد فقلت: لبيك وسعديك. قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا أدري! فوضع يده بين ثديي، فعلمت في منامي ذلك ما سألني عنه من أمر الدنيا والآخرة فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت في الدرجات، والكفارات، فأما الدرجات:

. . . .

. فإسباغ الوضوء في السبرات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. قال: صدقت من فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وأما الكفارات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام وطيب الكلام، والصلاة والناس نيام. ثم قال: اللهم إني أسألك فعل الحسنات، وترك السيئات، وحب المساكين، ومغفرة وأن تتوب علي، وإذا أردت في قوم فتنة فنجني غير مفتون".

وعن عبد الرحمن بن عائش قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: أنت أعلم أي رب. فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثدي فعلمت ما في السماوات وما في الأرض".

انظر: "مجمع الزوائد. للحافظ الهيثمي - المجلد السابع. ١٣٠. كتاب التعبير. ٥. باب فيما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في المنام. الحديث رقم: ١١٧٣٩. و الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي - المجلد السابع. ٣٨ - تفسير سورة ص - الآيات ٦٧ - ٧٠. فقد تبين لك يا أخي الحبيب من كل ما سبق من نصوص وأحاديث بلغ الكثير منها مبلغ الصحة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يعلم الغيب بما علّمه الله تعالى وأعلمه - بواسطة وحيه سبحانه - بما كان وما سيكون إلى قيام الساعة، وهذا ما يجب على المسلم أن يعتقده ويلقى الله عليه، وليس في هذا العلم مشاركة لعلم الله سبحانه في علم الغيب، فالغيب المطلق لا يعلمه إلا الله، ومن قال بغير هذا فقد كفر كفراً صريحاً. أما علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - من الغيب - بما كان وما سيكون إلى قيام الساعة ودخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار - كما ورد في صريح الأحاديث السابقة -، فهذا ما لا شك فيه، وهو من علم الغيب الذي علّمه الله إياه - دون خلقه - سبحانه، ›

* * *

أما سمعت قوله سبحانه : ﴿قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل : ٦٥] .وقوله سبحانه وتعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن : ٢٥ -٢٦] .فلا مجال للقول بتكفير ولا تبديع ولا تضليل من قال بعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغيب طالما أن الأمر منوط بما أعلمه الله به سبحانه، وفق ما ورد من نصوص حديثية صريحة وواضحة، بل ربما ينقلب الأمر عكساً لمن ينفي علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغيب لأنَّ في ذلك إنكاراً للوحي مما يؤدي حتماً للكفر والعياذ بالله تعالى، فافهم يا أخي واحذر وإياك أن تنساق وراء خطباء الفتنة الذين لا همَّ لهم إلا البحث عما يشوِّش على الناس عقيدتهم بحجة الدفاع عن العقيدة، والله أعلم بمآربهم، وكن على يقين أن الأمة بفضل الله تعالى ومنذ زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على العقيدة الصحيحة بفضله سبحانه، ثم بفضل اتباعها لسنة سيدي رسول الله وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من اعتقاد وعلم وعمل، ثم عمل الأئمة الثقات من سلف هذه الأمة وشيوخ التربية فيها من ساداتنا أهل الله العارفين المحبين، وستبقى على هذه العقيدة إن شاء الله إلى قيام الساعة رغم أنف رسل الشيطان بل أساتذته من بني الإنسان، حفظنا الله وإياك من مضلات الفتن، وختم لنا ولك وللمسلمين - ومن قال : آمين - بالحسنى وزيادة بجاه مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبجاه كل من له جاه عند الله، آمين آمين يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله وعلى آله الأخيار، وصحابته الأطهار، ومن والاه .

«١٥٥» يَانَفسُ لاتَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ
إِنَّ الكَبَائِرَ فِي الغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ

يا نفسُ

بضمِّ السِّين وكسرها، بعض لغات المضاف إلى ياء المتكلم، والكسر أولى لدلالته على الياء المحذوفة.

لا تَقنَطِي

من: "قنط من الشيء": يئس منه، وبابه: "علم، وضرب". أي: لا تيأسي من رحمة الله تعالى وغفرانه.

مِنْ

أجل: -

زلَّةٍ عَظُمَتْ

أي: كانت من كبار الذنوب. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[1].

(١) سورة الزمر - الآية ٥٣ .

وعلَّل النهيَ المذكور بقوله : -

إنَّ

الزلأت : -

الكبائر

جمع كبيرة، والمراد بالكبائر هنا ما عدا الكفر، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾[1].

حكي أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن : -
فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول﴾[غافر : ١] قدَّم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارة للمؤمنين . وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾[الحجر : ٤٩] .وقال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ . قال القرطبي : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الأنعام : ٨٢] انظر : الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي - الجزء ١٠ - سورة الإسراء . الآية : ٨٤

(١) سورة النساء - الآية ٤٨ .

في الغُفران

أي: في رحمة الله تعالى، وبالقياس إليها: -

كَاللَّمم

بفتح أوَّليه، أي: صغائر الذنوب، من غير تفاوت. أي: فكما لا يستبعد غفران الصغائر لا يستبعد غفران الكبائر. قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]. وحينئذٍ فيجوز أن يعاقب عليها ويجوز أن يعفو عنها بتوبة وبدونها.

ثم أخذ الناظم - رضي الله عنه - يشير إلى قوة رجائه في الله تعالى، فقال: -

* * *

(١) سورة الأعراف - الآية ١٥٦.

«١٥٦» لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعِصْيَانِ فِي الْقِسَمِ

لعلَّ رحمةَ ربِّي حينَ يقسمُها

على العصاةِ وأرباب الذُّنوب.

تأتي

أي: تجيء: -

على حسبِ العصيانِ

أي: على قدره - قلَّةً وكَثرة - لأرجو منها لكثرة ذنوبي لكثرة ذنوبي الحظَّ الأوفر، والنصيب الأكثر(١): -

في القِسَم

جمع قِسمة بمعنى: "القِسم"، مصدر: قَسَمَ الشيء أقساماً.

---

(١) وهذا من باب حسن الظن بالله تعالى وسعة رحمته سبحانه، لا كما قال أحدهم أنه يشجع على المعصية! فانظر يا أخي إلى سوء الظن عند هؤلاء المتعالمين، وشدة كذبهم وجرأتهم على الانتقاص من مقام الرجال لسوء فهمهم ونتن تفكيرهم وقساوة قلوبهم وملئها بالحقد والنفاق، وحسبنا الله ونعم الوكيل. نسأل الله سبحانه السلامة والعافية بجاه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«١٥٧» يَا رَبِّ وَٱجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ
لَدَيْكَ وَٱجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ

يا ربِّ

مضاف إلى ياء المتكلِّم.

واجْعَلْ

معطوفٌ على فعل مستفاد من قوله تعالى «لعلَّ رحمة ربي».

أي: يا ربِّ ارحمني، واجعل: -

رَجائي

فيك بالرحمة والعفو والغفران: -

غيرَ مُنعكِسٍ

أي: غيرَ مُبَدَّلٍ بضدِّ ما رجَوته وأمَّلته.

لدَيكَ: أي: عندك، وهو ظرفٌ لـ «غير منعكس».

واجعَلْ حِسابي

أي: ما حَسِبتُهُ من العفو، وقدَّرتُه في نفسي، ورجوت حصولَه منك: -

غيرَ مُنخَرِمِ

أي : غيرَ مُتَخَلِّفٍ بأن يحصل المرجو والمحسوب من عفوك عن ذنوبي كلِّها صغيرها وكبيرها .

*　　*　　*

«١٥٨» وَالْطُفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ
صَبْرًا مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ

والطُفْ

معطوفٌ على ما قبله، أي: اعطف وارفق: -

بِعَبدِكَ

فيه التفاتٌ من التكلُّم إلى الغيبة، ووجهه ما في لفظ "العبد" من الخضوع المستمطر لسحائب الخير والرحمة، كما في قول القائل:

إلهي عبدُك العاصي أتاك   مقراً بالذنوب وقد دعاك

فإن تغفر فأنت لذاك أهلٌ   وإن تطرُدْ فمن يرحم سواك؟

في الدَّارين

دار الدنيا والآخرة.

إنَّ

استئنافٌ وتعليل لطلب اللطف.

له

أي: لذلك العبد.

صبراً

هو: كظم الغيظ، واحتمال الأذى.

متى تَدعُه الأهوالُ

أي: تطلبه المخاوف، وتحركه الأفزاع، جمع: "هَول"، من "هالَهُ يهُولُه إذا أفزعه، وأخافه".

ينهزِمِ

يولِّ ولا يثبت خوفاً من الهلاك، لقلَّة صبره، وضعف قوته، وباللطف يندفع ما يخاف من الهلاك. و"ينهزم": مجزوم في جواب الأمر، وكسر ميمه للروي.

* * *

«١٥٩» وَأْذَنْ لِسُحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ
عَلَى النَّبِيِّ بِمُنْهَلٍّ وَمُنْسَجِمِ

وائذَنْ

من الإذن في الشيء، وهو: رفع الحرج عن فعله.

لِسُحبِ

متعلّقٌ بـ"ائذن". وهو بسكون الحاء: مخفّف "سُحُب" بضمها؛ بيانٌ جمعها: سحاب، وهو الغيم، سُمي بذلك لانسحابه في الجو، وإضافته إلى: -

صلاةٍ

والصلاة من الله: رحمة.

منكَ

يا الله. والظرف صفة لـ"صلاة".

دائمةٍ

أي: مستمرّة على ممرّ الدّهور والأعصار، وهو إما بالجرّ: صفة أخرى لـ"صلاة". أو بالنصب: حالٌ منها لوصفها أوّلاً: -

[illegible]

[illegible] والظرف متعلق بـ [illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible] والظرف متعلق بـ [illegible]

*   *   *

«١٦٠» مَا رَنَّحَتْ عَذَبَاتِ الْبَانِ رِيحُ صَبًا
وَأَطْرَبَ الْعِيسَ حَادِي الْعِيسِ بِالنَّغَمِ

ما

مصدرية ظرفية.

رَنَّحت

بالنون والحاء، أي: ميَّلتْ.

عَذَباتِ

شجرِ

البَانِ

أي: أغصانه المسترخية في جوانبه، الشبيهة بعذبات العمائم، وهو مفعول مقدَّم، والفاعل هو قوله: -

ريحُ صَبا

وهي الريح التي تأتي من قبل المشرق، وأكثر ما تَهُبُّ وقت السَّحَر إلى طلوعِ الشَّمس. وسُمِّيت "صَبا" لأنَّها تتجه في هبوبها باب الكعبة، فكأنها تصبو إليه وتميل. واختارها الناظم رضي الله عنه على غيرها من الرياح لأنها كانت أحبَّ الرياح

إليـه - صلى الله عليـه وآله وسلم - كـمـا قـال: «نصـرت بالصَّـبـا وأهلكت عـادٌ بالدَّبور»[1] ولأنها تأتي الناظم من قبل الأحبَّة؛ فختم قصيدته بذكر رياحهم ومنازلهم من ذي سلَم، وكاظمة، وإضم، وجرى على هذا المنوال أيضاً في قوله:

وأطْرَبَ

عطفٌ على "رنَّحَت".

والطَّرَب: خـفَّةٌ تعتـري الإنسـان عند طروِّ حـزنٍ أو سرور. والمراد هـهنا: حركـة السرور.

(١) الحديث متفق عليه عند الشيخين قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». انظر: -صحيح البخاري، الجزء الأول - ٢١ - كتاب الاستسقاء، ٢٥ - باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصبا». الحديث رقم: ٢٥ - باب: قـول النبي صلى الله عليـه وسلم: «نصرت بـالصبـا» ٩٨٨, . وصحيح مسلم في صلاة الاستسقاء، باب: في ريح الصبا والدبور، رقم: ٩٠٠ .
وقـوله صلى الله عليـه وآله وسم: "نـصـرت بالـصـبـا": هي الريح التي تهب من مشرق الشمس، ونصرته بها صلى الله عليه وسلم كانت يوم الخندق، إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية، فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم، وقلبت قدورهم، وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. و"الدبور": هي الريح التي تهب من مغرب الشمس، وبها كان هلاك قوم عاد، كما قص علينا القرآن الكريم.

العيس

بالنصب: مفعول مقدم. جمع "أعيس، وعيساء" وهي إبلٌ يخالط بياضَها شُقرةٌ، وخصَّها بالذكر لأنها أشرف أموال العرب، الذين من جملتهم الأحبّة.

حادي العيس

أي: سائق الإبل المغنّي لها بحسن صوت، الحاثّ لها على سرعة اسر.

بالنَّغَم

جمع "نغمة"، وهي الصوت الطيِّب. والظرف متعلِّقٌ بـ"أطرب"، وحادي العيس: بالرفع، فاعل مؤخر.

وللإبل خاصِّيَّةٌ عظيمة في حصول الطرب، وقوة النشاط عند سماع صوت الحادي، حتى أنها تقطع المسافة الطويلة في المدة القصيرة، وذلك معلومٌ بالأخبار، ومشاهد بالأبصار.

وقد اشتملت هذه القصيدة على أنواع من التغزُّل، وعلى توبيخ النفس، والوعظ، ومدحه - صلى الله عليه وآله وسلم -، وذكر بعض صفاته ومعجزاته على اختلاف أنواعها، ومدح القرآن، ومدح الصحابة، وذم الكفَّار، وتوبيخ النفس أيضاً، والإقرار بالذَّنب، وذكر معتصمه في الخلاص من الآثام، والختم بالدعاء، ثم بالصلاة على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - محمد سيد الأنام عليه من الله أفضل الصلاة، وأزكى التسليم.

ختم الله لنا ولأحبابنا بالحسنى، وأحلّنا من دار السلام المحلَّ الأسنى

وقد تمَّ كتابنا هذا مقرَّراً مرتَّباً، مهذَّباً، خدمةً لأشرف الأواخر والأوائل، المبعوث من أشرف الأرومات[1]، وأكرم القبائل، رجاء أن يجيزنا عليه بما يليق بكمال قدره، وعلوِّ فخره من دخول الجنة بشفاعته مع السابقين من غير سبق عذاب، ولا تقدُّم عتاب.

[وتم] هذا الشرح المنير على بردة البشير النذير المنظومة على البحر البسيط، والأسلوب الوسيط، التي أنشأها أعلم الشعراء، وأشعر العلماء، الإمام أبو عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد البوصيري، أفاض الله عليه شآبيب الغفران، وأسكنه أعلى فراديس الجنان، وغفر الله لنا، ولوالدينا، ولكاتب هذه السطور، وقارئها، وناظرها، وسامعها، وأدخلنا الجنة ببركة سيدنا ومولانا، وهادينا، ومرشدنا سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

تم الكتاب بعون الملك الوهاب ١٠٧٣ هجرية[2].

---

(١) جمع "أرومة" وهي أصْلُ النَّسَب.

(٢) وقد تم العمل بهذا الكتاب المبارك في ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم ١٤٢٣ هجرية، وهي ليلة القدر على ما ورد عند جمهور العلماء، رزقنا الله تعالى ›

. . . .

❊ ❊ ❊

رؤيتها، وبركتها، وأعاد علينا رمضان أعواماً عديدة، وأزمنة مديدة، ورزقنا طول العمر مع حسن العمل، وصلاح النية، وطهارة الطوية، ببركة سيد ولد عدنان الحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وأستغفر الله تعالى من كل قول و علم أو عمل يخالف شريعته، وأبرأ إليه سبحانه من حولي وقوتي، وعلمي، وعملي، فإن أحسنت فمن فضله سبحانه وحده، وإن أسأت فمن خلقي وطبعي وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه. وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وهدية خالصة لسيد المرسلين سيدي وحبيبي وقرة عيني محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار، ما تعاقب الليل والنهار، في كل لمحة ونفس عدد كل موجود ومعدوم ما دام ملك الواحد القهار، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. قاله بفمه وكتبه بيده الفانية خادم أحباب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

بسام محمد بارود

عفا الله عنه بمنه وكرمه

بجاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

أبوظبي ٢٧ رمضان ١٤٢٣ هجرية

ترتيب أبيات القصيدة ألفبائيًا

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ترتيب أبيات القصيدة ألف بائياً

٥٩ أبانَ مَــولِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُــرِ ... يا طِيبَ مُـبْـتَـدإٍ منه ومُـخْـتَـتَمِ

١٣٧ أحَلَّ أُمَّــتَــهُ في حِــرزِ مِلَّتِــهِ ... كــاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأشــبــالِ في أُجَمِ

١٤١ إذْ قَلَّدانِيَ مــا تُخْشَى عَــواقِبُهُ ... كــأنَّني بِهِــمــا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

٢٦ أسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلا عَمَلٍ ... لقَــدْ نَسَبْتُ به نَسْــلاً لِذي عُــقُمِ

١٤٢ أطعتُ غيَّ الصِّبَا في الحالَتينِ وَما ... حَــصَلْتُ إلاَّ عَلَى الآثامِ والنَّدَمِ

٤٨ أعْيـا الوَرَى فَـهْمُ مـعْناهُ فليس يُرَى ... في القُرْبِ والبُعْـدِ فيـه غيـرُ مُنْفَـحِمِ

٧٥ أقْـسَـمْتُ بالقَـمَـرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ ... مِنْ قَلْبِـهِ نِسْبَـةٌ مَـبْرُورَةَ القَــسَمِ

٥٤ أكْــرِمْ بِخَلْقِ نَبيٍّ زانَهُ خُلُقٌ ... بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ

٢ أمْ هَبَّتْ الريحُ مِنْ تِلْقـاءِ كـاظِمَـةٍ ... وأوْمَضَ البَـرْقُ في الظلْمـاءِ مِنْ إضَمِ

٢٧ أمَـرْتُكَ الخَيْـرَ لكنْ مـا ائْتَمَـرْتُ به ... ومـا اسْتَقَمْتُ فمـا قَـوْلي لَكَ اسْتَقِمِ

١ أمِنْ تَذَكُّــرِ جِــيــرانٍ بِذي سَلَمِ ... مَــزَجْتَ دَمْـعـاً جَـرَى مِنْ مُـقْلَةٍ بِدَمِ

١٤٥ إنْ آتِ ذَنْباً فمـا عَهْدي بِمُنْتَقِضٍ ... مِنَ النبيِّ ولا حَــبْلي بِمُنْصَـــرِمِ

١٠٠ إنْ تَتْلُها خِيفَـةً مِنْ حَرِّ نارِ لَظىً ... أطْفَــأتَ نارَ لَظىً مِنْ وِرْدِها الشَّـبِمِ

١٤٧ إنْ لَمْ يكُنْ في مَعادي آخذاً بيَدي ... فَضْلاً ، وإلاّ فَقُل : يا زَلّةَ القَدَمِ
١٢ إنّي اتهَمْتُ نَصيحَ الشّيْبِ في عَذَلٍ ... والشّيْبُ أبْعَدُ في نُصحٍ عَنْ التُّهَمِ
٩١ آياتُ حَقٍّ مِنَ الرّحْمنِ مُحْدَثَةٌ ... قَديمَةٌ صِفَةُ المَوصوف بالقِدَمِ
٤ أيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ ... ما بَيْنَ مُنْسَجِمٍ منهُ ومُضْطَرِمِ
١١٦ بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الإسلامِ إنّ لنا ... منَ العِنَايَةِ رُكْناً غَيرَ مُنْهَدِمِ
٨٧ بعارِضٍ جادَ أوْ خلْتَ البِطاحَ بها ... سَيْباً منَ اليَمِّ أوْ سَيْلٌ منَ العَرِمِ
٨٤ تَبَارَكَ اللهُ ما وحْيٌ بِمُكْتَسَبٍ ... وَلا نَبيٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ
١٢١ تَمْضي اللّيالي وَلا يَدْرُونَ عِدّتَها ... ما لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيالي الأشْهُرِ الحُرُمِ
١٣٢ تُهْدي إليكَ رِياحُ النّصْرِ نَشْرَهُمُ ... فَتَحْسَبُ الزّهْرَ في الأكمامِ كلَّ كَمي
٧٢ جاءتْ لِدَعْوَتِه الأشْجارُ ساجِدَةً ... تَمْشي إليهِ عَلَى ساقٍ بلا قَدَمِ
١٤٨ حاشاهُ أنْ يَحْرِمَ الرّاجي مَكارِمَهُ ... أوْ يَرْجِعُ الجارُ منهُ غَيرَ مُحْتَرَمِ
١١١ حتى إذا لَمْ تَدَعْ شَأواً لِمُسْتَبِقٍ ... مِنَ الدُّنُوِّ وَلا مَرْقَىً لِمُسْتَنِمِ
٦٩ حَتّى غَدا عَنْ طَريقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ ... من الشّياطِينِ يَقْفُو إثْرَ مُنْهَزِمِ
١٢٥ حتّى غَدَتْ مِلّةُ الإسلامِ وهيَ بِهِمْ ... مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِها مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ
١٤٠ خَدَمْتُهُ بِمَديحٍ أسْتَقيلُ بِهِ ... ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى في الشِّعْرِ والخِدَمِ
١١٢ خَفَضْتَ كلَّ مَقامٍ بالإضافَةِ إذْ ... نُوديتَ بالرّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ
٩٣ دامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النّبِيّينَ إذْ جاءَتْ ولَمْ تَدُمِ

٤٣ دَعْ مـا ادَّعَـتْـهُ النَّصـارَى في نَبيِّـهِمِ — وَاحْكُمْ بما شئْتَ مَـدْحـاً فيـهِ واحْـتَكِمِ

٣٧ دَعـا إلى اللهِ فـالمُسْـتَـمْـسكُونَ بِهِ — مُسْـتَـمْـسكُونَ بِحَبْلٍ غيـرِ مُنْفَـصِمِ

٨٨ دَعْنِي وَوَصْـفِي آياتٍ لهُ ظَهَـرَتْ — ظُهُـورَ نارِ القِـرَى لَيْـلاً عَلَى عَلَمِ

١١٨ راعتْ قلوبَ العِدا أنباءُ بِعْثَتِـهِ — كَنَبْـأةٍ أجْـفَلَتْ غُـفْـلاً مِنَ الغَنَمِ

٩٦ رَدَّتْ بَلاغَـتُـها دَعْـوَى مُعارِضِـها — رَدَّ الغَـيُـورِ يَدَ الجَـانِي عَنِ الحُـرَمِ

١٠٧ سَـرَيْتَ مِنْ حَـرَمٍ لَيْـلاً إلى حَـرَمِ — كَـمـا سَرَى البَـدْرُ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

١٣١ شاكِي السِّلاحِ لهمْ سِيمَا تُمَيِّزُهُمْ — والوَرْدُ يَمْـتـازُ بالسِيـمـا عَنِ السَّلَمِ

٢٩ ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أحْـيـا الظَّلامَ إلى — أن اشـتـكت قـدمـاه لضـر من ورم

٧٨ ظَنُّوا الحَـمامِ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ على — خَيـرِ البَـرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ ولَمْ تَحُمِ

١٠ عَـدَتْكَ حـالي لا سِرِّي بِمُسْـتَـتِـرٍ — عَنِ الوُشـاةِ ولا دائي بِمُنْحَـسِـمِ

٦٦ عَـمُوا وَصَمُّـوا فإعْـلانُ البَشـائِرِ لَمْ — تُسْـمَعْ وبارِقَـةُ الإنْذارِ لَمْ تُشَمِ

١٣ فَـإنَّ أمَّـارَتِي بالسُّـوءِ مـا اتَّعَظَتْ — مِنْ جَـهْلِهَـا بنذيرِ الشَّـيْبِ والهَـرَمِ

٤٥ فَـإنَّ فَـضْلَ رسـولِ اللهِ ليسَ لهُ — حَـدٌّ فـيُـعْـرِبَ عنه ناطِقٌ بِفَمِ

١٤٦ فَـإنَّ لِي ذِمَّـةً منهُ بِتَسْـمِـيَـتِي — مُـحَـمَّـداً ، وَهْوَ أوْفَى الخَلْقِ بالذِّمَمِ

١٥٤ فَـإنَّ مِنْ جُـودِكَ الدنيـا وضَـرَّتَهـا — وَمِنْ عُـلُـومِكَ عِـلمَ اللَّوْحِ والقَـلَـمِ

٥٣ فـإنَّه شَـمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَـواكِـبُـهـا — يُظْهِـرْنَ أنْوارَها للناسِ في الظُّلَـمِ

١٩ فـاصْـرِفْ هَواها وَحـاذِرْ أنْ تُوَلِّيَـهُ — إنَّ الهَـوَى مـا تَوَلَّى يُصْمِ أوْ يَصِمِ

٣٨فـاقَ النَّبِـيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ   ولَـمْ يُدانُوهُ في عِلْمٍ ولا كَرَمِ
٨٩فـالـدُّرُّ يَزدادُ حُـسْناً وَهْوَ مَنْتَظِمٌ   وليس يَنْقُصُ قَدْراً غيرَ مُنْتَظِمِ
٧٧فالصِّدْقُ في الغارِ والصِّدِّيقُ لَمْ يَرِما   وَهُمْ يقـولون ما بالغـارِ مِنْ أرِمِ
١١٤فَحُزْتَ كلَّ فَخارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ   وَجُزْتَ كلَّ مَقامٍ غيرَ مُزْدَحِمِ
٦ فكيفَ تُنْكِرُ حُبّاً بعدَ ما شَهِدَتْ   بِهِ عليكَ عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ
١٧فلا تَرُمْ بالمعاصي كَسْرَ شَهْوَتِها   إنَّ الطعامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ
٩٠فما تَطَاوَلُ آمالُ المَديحِ إلى   ما فيهِ مِنْ كَرَمِ الأخلاقِ والشِّيَمِ
٩٨ فما تُعَدُّ وَلا تُحْصى عَجَائِبُها   ولا تُسامُ عَلَى الإكْثارِ بالسَّأَمِ
٣فما لِعَيْنَيْكَ إنْ قُلْتَ اكْفُفا هَمَتا   وَما لِقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ
٥١فمَبْلَغُ العِلْمِ فيهِ أنهُ بَشَرٌ   وأنهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كلِّهِمِ
٤١فهْوَ الذي تَمَّ معناهُ وصُورَتُه   ثمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بارِىءُ النَّسَمِ
١٤٣فيا خَسَارَةَ نَفْسٍ في تِجَارَتِها   لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بالدُّنيا ولَمْ تَسُمِ
١٠٤قد تُنْكِرُ العينُ ضَوْءَ الشَّمْسِ من رَمَدٍ   ويُنْكِرُ الفَمُّ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ
٩٩قَرَّتْ بها عَيْنُ قارِيها فَقُلْتُ لهُ   لقد ظَفِرتَ بِحَبْلِ اللهِ فاعْتَصِمِ
٦٤كأنَّ بالنارِ ما بالماءِ مِنْ بَلَلٍ   حُزْناً وَبالماءِ ما بالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ
١٢٢كأنَّما الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ   بِكلِّ قَرْمٍ إلى لَحْمِ العِدا قَرِمِ
٥٧كَأنَّما اللُّؤلُؤُ المَكْنُونُ في صَدَفٍ   مِنْ مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ منهُ ومُبْتَسَمِ

٧٣ كـأنَّمـا سَطَرَتْ سَطراً لِما كَـتَـبَتْ ... فُــرُوعُــهــا مِنْ بَديعِ الخَطِّ في اللَّقَمِ

٥٦ كــأنَّهُ وَهْوَ فَــرْدٌ مِنْ جَــلالَتِــه ... في عَــسْكَرٍ حينَ تَلْقَــاهُ وفي حَـشَمِ

١٠١ كَأنَّها الحَوْضُ تَبْيَضُّ الوجوهُ به ... مِنَ العُـصاةِ وقد جاءُوهُ كَـالحُـمَمِ

١٣٣ كـأنَّهمْ في ظُهُـورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُباً ... مِنْ شَـدَّةِ الحَـزْمِ لا مِنْ شِـدَّةِ الحُـزُمِ

٧٠ كـــأنَّهُـمْ هَرَبـاً أبطالُ أبْرَهةٍ ... أوْ عَـسْكَرٌ بالحَصَى مِنْ رَاحَتَيْـهِ رُمي

٥٥ كـالزَّهْرِ في تَرَفٍ والبَـدْرِ في شَـرَفٍ ... والبَـحْـرِ في كَـرَمٍ والدَّهْرِ في هَمَمِ

٤٩ كـالشَّمْسِ تَظْهَـرُ للعَيْنينِ مِنْ بُعُـدٍ ... صَـغِـيـرةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

١٣٩ كـفاكَ بالعِلْمِ في الأُميِّ مُـعْـجِزَةً ... في الجـاهِلِيَّـةِ وَالتَّـأديبِ في اليُـتُمِ

٨٥ كَمْ أبْرَأتْ وَصِبـاً بالَّلمْسِ راحَتُـهُ ... وأطْلَقَتْ أرِباً مِنْ رِبْقَــةِ الَّلـمَمِ

١٣٨ كَمْ جَـدَّلَتْ كلماتُ اللهِ مِنْ جَدِلٍ ... فـيـه وكم خَصَمَ البُـرْهانُ مِنْ خَـصِمِ

٢١ كَمْ حَـسَّنَتْ لَذَّةً للمَــرْءِ قــاتِلَةً ... مِنْ حَـيْثُ لَمْ يَدْرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ

١١٣ كَـيْمَـا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أيِّ مُـسْتَتِرٍ ... عَنِ العُـيُـونِ وَسِــرٍّ أيِّ مُكْتَـتِمِ

١٠٣ لا تَعْـجَـبَنْ لِحَسُـودٍ راحَ يُنْكِرُها ... تَجـاهُلاً وهْوَ عَـيْنُ الحـاذِقِ الفَـهِمِ

٨٢ لا تُنْكِرِ الوَحْـيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إنَّ لهُ ... قَلْبــاً إذا نامتِ العَــيْنانِ لَمْ يَنَمِ

٥٨ لاطِيبَ يَعْـدِلُ تُرْباً ضَمَّ أعظُمَــهُ ... طُوبَى لِمُنْتَــشِقٍ منهُ وَمُلْتَــثِمِ

١٥٦ لَعَلَّ رَحْـمَـةَ رَبِّي حينَ يَقْسِـمُـهـا ... تأتي عَلَى حَسَبِ العِصْيانِ في القِسَمِ

٩٢ لَمْ تَقْـتَـرِنْ بزمـانٍ وَهْيَ تُخْبِـرُنا ... عَنِ المَعــادِ وعَنْ عــادٍ وعَنْ إرَمِ

٤٧ لَمْ يَمْتَحِنَّا بما تعْيَا العُقولُ بِهِ   حِرْصاً علينا فلمْ ولَمْ نَهِمِ
١١٧ لمَّا دَعا اللهَ داعِينا لطَاعَتِه   بأكْرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أكْرَمَ الأُمَمِ
٩٧ لها مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في مَدَدٍ   وفَوْقَ جَوْهَرِه في الحُسْنِ والقِيَمِ
١٥ لو كنت أعلم أني ما أوقِّره   كتمت سراً بدا لي منه بالكتمِ
٤٦ لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عظَماً   أحْيا اسمُهُ حينَ يُدْعَى دارِسَ الرِّمَمِ
٥ لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ   ولا أرقْتَ لِذِكْرِ البَانِ والعَلَمِ
٩٥ ما حُورِبَتْ قَطُّ إلاَّ عادَ مِنْ حَرَبٍ   أعدى الأعادي إليها مُلْقِيَ السَّلَمِ
١٦٠ ما رَنَّحَتْ عَذَبات البانِ ريحُ صَباً   وأطْرَبَ العيسَ حادي العيسِ بالنَّغَمِ
١١٩ ما زالَ يَلْقاهُمَ في كلِّ مُعْتَرَكٍ   حتى حَكَوْا بالقَنا لَحْماً على وَضَمِ
٨٠ ما سامَني الدَّهْرُ ضَيْماً واسْتَجَرْتُ به   إلاَّ اسْتَلَمتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ
٧٤ مِثْلَ الغَمَامَةِ أنَّى سَارَ سائرَةٌ   تَقِيهِ حَرَّ وطيسٍ لِلْهَجِيرِ حَمِي
١١ مَحَّضْتَني النُّصْحَ لكنْ لَسْتُ أسْمَعُهُ   إنَّ المُحبَّ عَنِ العُذَّالِ في صَمَمِ
٩٤ مُحكَّماتٌ فما تُبْقِينَ مِنْ شُبَهٍ   لذي شِقاقٍ وما تَبْغِينَ مِنْ حكَمِ
٣٤ محمدٌ سيدُ الكونينِ والثَّقَلين   والفَريقين من عُرْبٍ ومن عَجَمِ
١٢٩ المُصْدِري البيضَ حُمْراً بعدَ ما وَرَدَتْ   مِنَ العِدا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ
١٢٦ مَكْفُولَةً أبَداً منهمْ بخَيْرِ أبٍ   وخَيْرِ بَعلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ ولَمْ تَئِمِ
٦٧ مِنْ بَعْدِ ما أخْبَرَ الأقْوامَ كاهِنُهُمْ   بأنَّ دينَهُمُ المُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ

١٢٤ مِنْ كلِّ مُنْتَدِبٍ لله مُحْتَسِبٍ ... يَسْطو بِمُسْتَأصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ
١٦ مَنْ لي بِرَدِّ جِماحٍ مِنْ غَوايَتِها ... كَما يُرَدُّ جِماحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ
٤٢ مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ في مَحاسِنِه ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيه غيرُ مُنْقَسِمِ
٧١ نَبْذاً بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحٍ بِبَطْنِهِما ... نَبْذَ المُسَبِّحِ مِنْ أحْشاءِ مُلْتَقِمِ
٣٥ نبِيُّنا الآمِرُ النَّاهي فَلا أحَدٌ ... أبرَّ في قَولِ "لا" منه ولا "نعمِ"
٨ نَعَمْ سَرَى طَيفُ مَنْ أهوَى فَأرَّقَني ... والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالألَمِ
١٢٧ همُ الجِبالُ فَسَلْ عنهمْ مُصادِمَهُمْ ... ماذا رأى مِنْهُمُ في كلِّ مُصطَدَمِ
٣٦ هُوَ الحَبيبُ الذي تُرْجَى شَفاعَتُهُ ... لكل من الأهوال مُقتَحَمِ
٧ وأثْبَتَ الوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنًى ... مِثْلَ البَهارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالعَنَمِ
٨٦ وأحْيَتِ السَّنَةُ الشَّهْباءُ دَعْوَتُهُ ... حتى حَضتْ غُرَّةً في الأعْصُرِ الدُّهُمِ
٣٢ وأكَّدتْ زُهْدَهُ فيها ضَرورتُهُ ... إنَّ الضَّرورةَ لا تَعدو على العِصَمِ
١١٠ وأنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّباقَ بِهِمْ ... في مَوْكِبٍ كُنْتَ فيه صاحِبَ العَلَمِ
١٥٩ وائْذَنْ لِسُحْبِ صَلاةٍ مِنكَ دائمةً ... عَلَى النَّبيِّ بِمُنْهَلٍّ ومُنْسَجِمِ
٢٢ وَاخْشَ الدَّسائسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
٢٣ واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قد امْتَلأتْ ... مِنَ المَحارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ
٦٥ والجِنُّ تَهْتِفُ وَالأنْوارُ ساطِعَةٌ ... وَالحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنًى ومِنْ كَلِمِ
١٥٨ وَالْطُفْ بِعَبْدِكَ في الدَّارَيْنِ إنَّ لَهُ ... صَبْراً مَتى تَدْعُهُ الأهوالُ يَنْهَزِمِ

١٣٠ وَالكاتبينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ ... أقْلامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ
٦٢ والنارُ خَامِدَةُ الآنفاسِ من أسفٍ ... عليهِ والنَّهْرُ ساهي العَيْنِ مِنْ سَدَمِ
١٨ والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
٤٤ وانْسُبْ إلى ذاتِه ما شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وَانْسُبْ إلى قَدْرِه ما شِئْتَ مِنْ عِظَمِ
٦١ وباتَ إيوانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ ... كَشَمْلِ أصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ
١٠٨ وَبِتَّ تَرْقَى إلَى أنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً ... مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ
٦٨ وبَعْدَ ما عايَنُوا في الأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ ... مُنْقَضَّةٍ وفْقَ ما في الأرْضِ مِنْ صَنَمِ
١١٥ وَجَلَّ مِقْدَارُ ما وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ ... وعَزَّ إدْرَاكُ ما أُوليتَ مِنْ نِعَمِ
٢٤ وخالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعْصِهِما ... وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ
١٢٠ وَدُّوا الفِرارَ فكادُوا يَغْبِطُونَ به ... أشْلاءَ شالَتْ مَعَ العِقْبَانِ والرَّخَمِ
٨٣ وذاكَ حِينَ بُلوغٍ مِنْ نُبُوَّتِهِ ... فليسَ يُنْكَرُ فيهِ حالُ مُحْتَلِمِ
٢٠ وَراعِها وهِيَ في الأعْمالِ سائِمَةٌ ... وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ
٣١ وَرَاوَدَتْهُ الجِبالُ الشُّمُّ من ذهبٍ ... عن نفسِهِ فَأراها أيَّما شَمَمِ
٦٣ وساءَ ساوَةَ أنْ غاضَتْ بُحَيْرَتُها ... ورُدَّ وارِدُها بالغَيْظِ حينَ ظَمِي
١٢٨ وسَلْ حُنَيْناً وسَلْ بَدْراً وَسَلْ أُحُداً ... فُصُولُ حَتْفٍ لهُمْ أدْهَى مِنَ الوَخَمِ
٣٠ وشَدَّ من سَغَبٍ أحشاءَهُ وطَوى ... تحتَ الحِجَارةِ كَشْحاً مُتْرَفَ الأدَمِ
٧٩ وِقايةُ اللهِ أغنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ ... مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عالٍ مِنَ الأطُمِ

٤٠ وقدمتك جميع الأنبياء بها   والرسل تقديم مخدوم على خدم

٢٠ وكم [illegible]   فالقسط من غيرها في الناس لم يقم

٢٣ وكل آيٍ أتى الرسل الكرام بها   فإنما اتصلت من نوره بهم

٣٤ وكلهم من رسول الله ملتمسٌ   غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

٣٣ وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من   لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

٣٠ وكيف يدرك في الدنيا حقيقته   قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحلم

٤١ ولا أعددت من الفعل الجميل قرى   ضيفٍ ألمَّ برأسي غير محتشم

٨١ ولا التمست غنى الدارين من يده   إلا استلمت الندى من خير مستلم

٢٨ ولا تزودت قبل الموت نافلةً   ولم أصل سوى فرضٍ ولم أصم

٢٥ ولا تُطع منهما خصماً ولا حكماً   فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

١٥١ ولم أرد زهرة الدنيا التي اقتطفت   يدا زهيرٍ بما أثنى على هرم

١٥٠ ولن يفوت الغنى منه يداً تربت   إنَّ الحيا يُنبتُ الأزهار في الأكم

١٣٦ ولن ترى من وليٍّ غير منتصرٍ   به ولا من عدوٍّ غير منقصم

١٥٣ ولن يضيق رسول الله جاهك بي   إذا الكريم تجلَّى باسم منتقم

٧٦ وما حوى الغار من خيرٍ ومن كرمٍ   وكلُّ طرفٍ من الكفَّار عنه عمي

١٣٥ ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلقه الأسد في آجامها تجم

١٠٦ ومن هو الآية الكبرى لمعتبرٍ   ومن هو النعمة العظمى لمغتنم

١٤٤ وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً منهُ بِعاجِلِه … يَبِنْ لهُ الغَبْنُ في بَيْعٍ وَفي سَلَمِ

١٤٩ وَمُنْذُ أَلزَمْتُ أفكاري مَدائِحَهُ … وَجَدْتُهُ لِخَلاصي خيرَ مُلْتَزِمِ

١٥٢ يا أكْرَمَ الرُّسْلِ مالي مَنْ أَلوذُ به … سواك عند حلولِ الحادث العمم

٤٠ وواقِفُونَ لَدَيْه عندَ حَدِّهِم … من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

١٠٥ يا خيرَ من يَمَّمَ العافُونَ ساحَتَهُ … سَعْياً وفَوْقَ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

١٥٧ يا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجائي غيرَ مُنْعَكِسٍ … لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ

٩ يا لائِمي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً … مِنِّي إليكَ ولو أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

١٥٥ يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ … إنَّ الكَبائِرَ في الغُفْرانِ كاللَّمَمِ

١٢٣ يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فوقَ سابِحَةٍ … يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الأبطالِ مُلْتَطِمِ

٦٠ يَوْمٌ تَفَرَّسَ فيه الفُرْسُ أنَّهُمُ … قد أُنْذِرُوا بِحُلُولِ البُؤْسِ والنِّقَمِ

الفهرس العام

عنوان الصفحة

العنوان **الصفحة**

تقديم فضيلة الداعية الإسلامي الحبيب علي زين العابدين الجفري ٥
تقريظ صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور محمد فرج سليمان ١٧
صورة صفحة العنوان ١/ أ من المخطوط ٣١
صورة الصفحة ١/ ب من المخطوط ٣٢
صورة الصفحة ما قبل الأخيرة ٣٣
صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط ٣٤
مقدمة التحقيق ٣٥
الكلام على البردة المباركة ٤٠
أهمية البردة في التزكية والترقية والتربية وقيمتها العلمية والأدبية ٤٥
شروح البردة وتخميساتها وتشطيراتها ٥١
ترجمة الإمام البوصيري رضي الله عنه ٦٤
ترجمة الإمام المحدث ابن حجر الهيتمي رضي الله عنه ٧١
متن قصيدة البردة المباركة ٨٩
متن كتاب: "العمدة في شرح البردة" ١٠٧

عنوان الصفحة

العنوان	الصفحة
مقدمة المؤلف رضي الله عنه	١٠٩
الفصل الأول : في الغزل وشكوى الغرام	١١١
الفصل الثاني : في التحذير من هوى النفس	١٣٨
مطلب : في الكلام على هوى النفس والتحذير منه	١٦٠
مطلب : في الكلام على الجوع والشبع والتحذير من دساسهما	١٧٠
مطلب : في الكلام على الندم والتوبة	١٧٥
مطلب : في الكلام على محاسبة النفس تحذيرها من الرياء والسمعة	١٩٠
الفصل الثالث : في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٩٩
مطلب : في الكلام على مجاهداته صلى الله عليه وآله وسلم	٢٠٢
مطلب : في زهده صلى الله عليه وآله وسلم	٢٠٨
مطلب : في الكلام على الزهد في الدنيا وحقيقته والحث عليه	٢١٣
مطلب : في الكلام على المحبة والخلة	٢٢٨
مطلب في أنواع شفاعاته صلى الله عليه وآله وسلم	٢٣٢
مطلب : في الكلام على أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم	٢٣٣

عنوان الصفحة

العنوان — الصفحة

مطلب في أول من أسلم من الرجال والنساء والصبيان ٢٣٧
مطلب: في أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم وكريم شمائله ٢٤٣
حديث شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين ٢٥٠
مطلب من تشفع به صلى الله عليه وآله وسلم من الأنبياء قبله ٢٥٣
مطلب: في الكلام على سيدنا الخضر ٢٥٨
مطلب: في الحث على مدحه صلى الله عليه وآله وسلم وسقوط دعوى المنكر
لهذا بأن لا مبالغة في مدحه صلى الله عليه وآله وسلم مهما بلغ طالما كان ذلك
في إطار الشرع الحنيف ٢٦٦
مطلب: أول ما خلق الله نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢٨٩
مطلب: في كريم أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم ٢٩٥
مطلب: في صفة وجهه صلى الله عليه وآله وسلم ٢٩٩
مطلب: في شجاعته وهمّته صلى الله عليه وآله وسلم ٣٠٣
مطلب: في تبسمه صلى الله عليه وآله وسلم ٣٠٩
مطلب: في طيب رائحته صلى الله عليه وآله وسلم ٣١١

عنوان الصفحة

العنوان **الصفحة**

الفصل الرابع: في مولده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم........ ٣١٧
مطلب: في بيان أفضلية ليلة مولده صلى الله غليه وآله وسلم على ليلة
القدر وما سواها من الليالي.................. ٣١٩
مطلب: في نجاة أبويه صلى الله عليه وآله وسلم............. ٣٢٤
مطلب: في إحياء أبويه له صلى الله عليه وآله وسلم............ ٣٢٥
مطلب: في بيان أهمية مولده صلى الله عليه وآله وسلم في ربيع....... ٣٢٩
مطلب: في الكلام على الفرس وما حل بهم بمولده صلى الله عليه وسلم.. ٣٣٦
مطلب: ما حل بكسرى ليلة مولده صلى الله عليه وآله وسلم........ ٣٣٨
مطلب: في خمود النار يوم مولده صلى الله عليه وآله وسلم........ ٣٤١
مطلب: في غيض بحيرة ساوى.................. ٣٤٨
مطلب: ولادته صلى الله عليه وآله وسلم نظيفاً ما به قذر......... ٣٥٣
مطلب: في هواتف الجنة ليلة مولده صلى الله عليه وآله وسلم....... ٣٥٤
إخبار الكهان بقرب ولادته صلى الله عليه وآله وسلم.......... ٣٥٩
مطلب: أبرهة الحبشي وقصة الفيل.............. ٣٦٧

عنوان الصفحة

العنوان	الصفحة

مطلب: رميه صلى الله عليه وآله وسلم الحصا يوم بدر وحنين ٣٦٨
مطلب: تسبيح الحصا بيد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ٣٧١
الفصل الخامس: في معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم ٣٧٥
مطلب: شهادة الشجر بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم ٣٨٠
مطلب: تظليل الغمام له صلى الله عليه وآله وسلم ٣٨٤
مطلب: انشقاق القمر له صلى الله عليه وآله وسلم ٣٨٨
مطلب: شق قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ٣٩١
مطلب: نزوله صلى الله عليه وآله وسلم الغار مع الصديق رضي الله عنه يوم الهجرة ٣٩٧
مطلب: فضائل سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٣٩٩
مطلب: حماية الحمام والعنكبوت للحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في الغار يوم الهجرة ٤٠٦
مطلب: تنام عيناه ولا ينام قلبه صلى الله عليه وآله وسلم ٤١٩

عنوان الصفحة

العنوان	الصفحة
مطلب: إبرائه صلى الله عليه وآله وسلم المرضى بيده الشريفة....	٤٢٨
مطلب: بصاقه صلى الله عليه وآله وسلم في عين علي يوم خيبر فبرأت من حينها........................	٤٢٩
مطلب: دعاؤه صلى الله عليه وآله وسلم لعلي أن يشتكي الحر ولا القرّ، فما اشتكاهما........................	٤٣١
مطلب: بصاقه صلى الله عليه وآله وسلم في نحر كلثوم بن الحصين يوم أصيب في غزوة أحد........................	٤٣٢
مطلب: نفثه صلى الله عليه وآله وسلم في عيني رجل مبيضتين فبرأتا، وكذا بصاقه في عين قتادة يوم أحد فبرأت............	٤٣٣
مطلب: نزول الغيث ببركة دعائه صلى الله عليه وآله وسلم يوم استسقاه الناس........................	٤٣٥
الفصل السادس: في شرف القرآن الكريم ومدحه..............	٤٤١
مطلب: إخبار القرآن بالمغيبات وغير ذلك..............	٤٥٠
مطلب: بلاغة القرآن الكريم..............	٤٥٩

عنوان الصفحة

العنوان **الصفحة**

مطلب: من معاني الفاتحة وبعض آيات الإعجاز فيها ٤٦٣
مطلب: القول في حلاوة القرآن وبيان عذوبة ألفاظه ٤٦٨
مطلب: الكلام على الحوض والميزان ٤٧٨
مطلب: صفة الحوض وتحديد طوله وعرضه ٤٨٣
مطلب: الكلام على الميزان وصفته ٤٨٦
مطلب: الكلام على الصراط وصفته ٤٩٢
مطلب: الكلام على الحسد ٤٩٦
الفصل السابع: في إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وآله وسلم ٥٠٣
مطلب: الكلام على الإسراء والحكمة من وقوعه ليلاً ٥١٢
مطلب: الكلام على المعراج والجمع بين الروايات في ذلك ٥١٦
مطلب: إمامته صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء ليلة الاسراء ٥١٨
مطلب هام: في حياة الأنبياء في قبورهم ٥٢١
مطلب: لِمَ لَمْ ير النبي صلى الله عليه وآله وسلم نوحاً يوم المعراج ٥٢٨

عنوان الصفحة

العنوان **الصفحة**

مطلب: بلوغه صلى الله عليه وآله وسلم مقام صاحب السر ٥٣٤
الفصل الثامن: في جهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٥٤٥
مطلب: الكلام على القتال في الأشهر الحرم ٥٥٤
مطلب: بدأ الإسلام غريباً ٥٦٢
مطلب: في الكلام على صلة الرحم والتحذر من قطيعتها ٥٦٤
مطلب: الكلام في "أحد يحبنا ونحبه" ٥٧٤
مطلب: الكلام على غزوة حنين ٥٧٧
مطلب: الكلام على غزوة أحد ٥٧٨
مطلب: نصرته صلى الله عليه وآله وسلم برياح الصَّبا ٥٨٦
مطلب: في شجاعة الصحابة رضي الله عنهم ومسارعتهم لنيل الشهادة في سبيل الله ٥٩٠
مطلب: "ومن تكن برسول الله نصرته"، وفيها قصة سيدنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٥٩٦

عنوان الصفحة

العنوان | **الصفحة**

مطلب: في نجاة من لاذ بجناب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم . ٥٩٨
مطلب: في حياته صلى الله عليه وآله وسلم في قبره المكرم........ ٦٠٣
مطلب: في إعجاز القرآن وتحديه بأقصر سورة............ ٦٠٧
مطلب: في الكلام على أمية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم... ٦١٠
مطلب: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"................ ٦١٤
الفصل التاسع: في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.......... ٦١٧
مطلب: في الكلام على الشعر وبيان الممدوح منه والمذموم........ ٦٢٠
مطلب: في الكلام على من تسمى باسمه صلى الله عليه وآله وسلم
"محمد" وبيان فضل ذلك..................... ٦٣٦
مطلب: في خصائص اسم "محمد" صلى الله عليه وآله وسلم..... ٦٣٩
مطلب: في كونه صلى الله عليه وآله أمان لأمته من الشدائد.... ٦٤٥
مطلب: قصة إسلام كعب بن زهير رضي الله عنه.......... ٦٥٣
الفصل العاشر: في المناجاة وعرض الحاجات.............. ٦٥٧

عنوان الصفحة

العنوان | **الصفحة**

مطلب: في الكلام على اللوح ٦٦٦
مطلب: في الكلام على القلم ٦٦٧
مطلب: في علمه صلى الله عليه وآله وسلم الغيب بما علّمه الله تعالى
وبيان ما جاء في ذلك من أحاديث والرد على من خالف في ذلك ٦٦٩
مطلب: في الكلام على أرجى آية في القرآن وبيان أقول الصحابة
رضي الله عنه في ذلك ٦٧٦
مسك الختام رزقنا الله ذلك بجاه سيد الأنام عليه أفضل الصلاة
وأتم السلام وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم القيام ٦٨٨
ترتيب القصيدة ألفائيا ٦٩١
الفهرس العام ٧٠٣